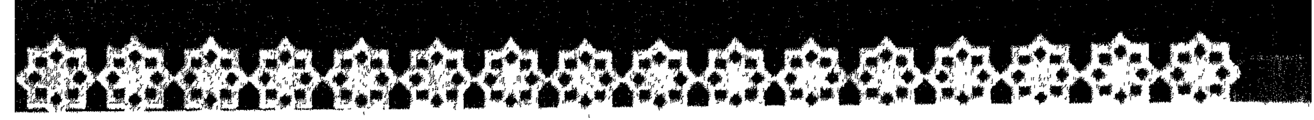
الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



الجزء السابع والأربعون

دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

لايرفض البابا الأسقف المنتخب لعدم الكفاءة، أو بالحري حتى يبدو جديراً بمثل هذا المقام الرفيع، سعى الملك، مستخدماً جميع الوسائل التي تحت سلطانه، لرفع شأن بونيفيس المذكور، وزيادة شهرته، وهو الذي انتخب الآن، أو أنه سوف ينتخب، فأمر بكتابة ورقة، أثنى فيها على بونيفيس المذكور إلى أبعد الحدود، وكشاهد على صدقها، وضع خاتمه على تلك الكتابة المذكورة، ثم إنه أرسلها إلى الأساقفة، وإلى رعاة الديرة، آمراً إياهم، أو بالحري رجاهم بشكل ملكي بأن يضعوا أيضاً أختامهم عليها، وأن يكونوا شهوداً على ما أكده، وقد رفض عدد منهم —على كل حال— خرق تماسك ضميرهم، وخافوا من مخالفة أمر الرب في قوله: «أنت لن تكون شاهد زور»، ولذلك رفضوا بإصرار طاعته، وكان هناك على كل حال، بعضاً من رجال الدين من ذوي المراتب العالية، أي بعض الأساقفة ورعاة الديرة، قد خافوا، وضعفوا أمام تهديدات الملك، فوضعوا جانباً خوفهم من الرب، وأظهروا احتراماً نحو الإنسان، أكثر من الاحترام نحو الرب، فوضعوا أختامهم عليها كضمانة، وشهادة على إيمانهم، ورضاهم بقبول بونيفيس ليكون رئيسهم.

ومع أنه كان من أصل نبيل، وصديقاً مقرباً من أمراء المملكتين، وهو شخصياً مكون بشكل جيد، ومؤهل بما فيه الكفاية، فقد كان رهبان كانتربري آسفين إلى أقصى الحدود، لأنهم غلبوا من قبل توسلات الملك، فوافقوا على طلبه في هذه القضية، وبعدما تفكر بعضهم في أنفسهم، وعرفوا الشقاء المخبأ لهم، انسحبوا من كنيستهم، ولكي يقوموا بتوبة دائمة، حملوا أنفسهم وانتقلوا إلى طائفة الرهبان الكارثوشيان Carthusian.

اضطهاد كونت بروفانس

أرسل في هذه الآونة، ريموند كونت بروفانس، والد ملكتي

الفـرنسيين والانكليز، عـدة رسل خاصين، إلى صهـره ملك فرنسـا، مع توسـلات مستعجلة، حتى يمنحـه مسـاعـدة فعـالة بحكم كـونه ختنه وحليفـه، لأن كـونت طولوز، قـد شنّ الحرب ضـده، بناء على أمـر من الامبراطور، وضيق عليـه حتى أوصله إلى الدمـار الشـامل، وهو الآن مجرد تمامـاً من امكانات المقاومـة، حيث أنفق المال الذي أرسل إليـه من ملك انكلترا، وبناء على هـذا، كتب الملك الفـرنسي بلطـف ظاهري إلى الامبراطور، وكذلك، إلى كونت طولوز، رجاهما، صدوراً عن احترامهما له وعـاطفتهما نحـوه، اظهـار الرحمة نحـو ختنه، وكتب ملك انكلترا، وأخوه رتشارد، ايرل كورنوول رسائل إلى الاثنين نفسيهما من أجل هذه الغاية نفسهـا، وبهذه الوسائط نال كـونت بروفانس، بعـد وقت طويل، الهدوء، وسمح له بالتمتع به.

كيف ضايق البنادقة الإمبراطور

أصر البنادقـة خلال هـذا الوقت كله بعناد على إلحاق كل أذى ممكن لهم، وبكل وسيلة، يمكنهم ابداعهـا بـالبر وبالبحـر، للانتقـام لرئيسهم عمدة ميـلان، الذي كما ذكرنا من قبل، قـد أسره الامبراطور، أثناء قتاله ضد ميـلان، والذي بعدمـا أودع السجن، أدين، وأعدم بنـاء على أوامر الامبراطور.

يقظة الإمبراطور في الدفاع عن نفسه ضد أعدائه المتنوعين

واستولى في هذه الآونة الامبراطور فردريك بالقـوة على مدينة فيانزا، وهي التي وقعت تحت الحصار لمدة طويلـة، والتي باتت الآن غير قادرة على متـابعـة الصمـود، واستمـر الحصـار لحوالي السنة، وقـد أنفق الامبراطور مبلغـاً كبيراً من المال عليـه، آه، أي قلق، وأيـة اضطرابات مضـاعفة أثرت على دمـاء قلب الامبراطور، في الدفاع عن امبراطوريتـه لأنه امتلك ستة جيوش كبيرة وكثيرة التعداد ومرعبة، وقد قاد هو أولها،

الفـرنسيين والانكليز، عـدة رسل خاصين، إلى صهـره ملك فرنسـا، مع توسـلات مستعجلة، حتى يمنحـه مسـاعـدة فعـالة بحكم كـونه ختنه وحليفـه، لأن كـونت طولوز، قـد شنّ الحرب ضـده، بناء على أمـر من الامبراطور، وضيق عليـه حتى أوصله إلى الدمـار الشـامل، وهو الآن مجرد تمامـاً من امكانات المقاومـة، حيث أنفق المال الذي أرسل إليـه من ملك انكلترا، وبناء على هـذا، كتب الملك الفـرنسي بلطـف ظاهري إلى الامبراطور، وكذلك، إلى كونت طولوز، رجاهما، صدوراً عن احترامهما له وعـاطفتهما نحـوه، اظهـار الرحمة نحـو ختنه، وكتب ملك انكلترا، وأخوه رتشارد، ايرل كورنوول رسائل إلى الاثنين نفسيهما من أجل هذه الغاية نفسهـا، وبهذه الوسائط نال كـونت بروفانس، بعـد وقت طويل، الهدوء، وسمح له بالتمتع به.

كيف ضايق البنادقة الإمبراطور

أصر البنادقـة خلال هـذا الوقت كله بعناد على إلحاق كل أذى ممكن لهم، وبكل وسيلة، يمكنهم ابداعهـا بـالبر وبالبحـر، للانتقـام لرئيسهم عمدة ميـلان، الذي كما ذكرنا من قبل، قـد أسره الامبراطور، أثناء قتاله ضد ميـلان، والذي بعدمـا أودع السجن، أدين، وأعدم بنـاء على أوامر الامبراطور.

يقظة الإمبراطور في الدفاع عن نفسه ضد أعدائه المتنوعين

واستولى في هذه الآونة الامبراطور فردريك بالقـوة على مدينة فيانزا، وهي التي وقعت تحت الحصار لمدة طويلـة، والتي باتت الآن غير قادرة على متـابعـة الصمـود، واستمـر الحصـار لحوالي السنة، وقـد أنفق الامبراطور مبلغـاً كبيراً من المال عليـه، آه، أي قلق، وأيـة اضطرابات مضـاعفة أثرت على دمـاء قلب الامبراطور، في الدفاع عن امبراطوريتـه لأنه امتلك ستة جيوش كبيرة وكثيرة التعداد ومرعبة، وقد قاد هو أولها،

وكان الثاني جيشاً مزدوجاً، موجوداً في الأراضي الجنوية، أي كان قوة بحرية، لتعترض بالقوة في البحر طريق عبور النواب البابويين والأساقفة، الذي استخفوا بنصائحه، وقوة أخرى عملت بالبر، قرب ساحل البحر، تحت قيادة ابنه هنري ملك غالوري Gallury, وتوري Torres, التي تابعت باستمرار نهب الحقول والكروم التابعة للجنويين، وكان هناك جيش ثالث تحت قيادة ابنه كونراد، ولي عهد مملكة القدس، الذي كان قد حشد تحت قيادته جيشاً لايمكن تعداده، من ألمانيا ومن المناطق المجاورة لها والخاضعة للحكم الامبراطوري، وقد أرسله ضد التتار، على أساس أن ابنه كونراد هو القائد الأعلى، غير أنه كان مرافقاً بدوقات النمسا، وسكسوني، وبافاريا، مع نبلاء آخرين، وأساقفة، وآخرين عددهم كبير جداً لايمكن تعدادهم، وقد تبعهم حشد كبير من الناس تطوعوا لهدف واحد، وبتشوق حملوا الصليب، وكانوا مستعدين للقتال حتى الموت ضد التتار المذكورين، لصالح الكنيسة العالمية، وجرى استخدام الجيش الرابع في تخوم تريفيسو Treviso, وكان تحت قيادة ثيوبولد، الذي قيل بأنه من أصل فرنسي، وكان حليفاً خاصاً للامبراطور، وكان عمل الجيش الخامس في تخوم أنكونا ووادي سبوليتو، وكان الجيش السادس في الأرض المقدسة، تحت إمرة مارشاله رالف، الذي إليه أسند الايرل رتشارد المسؤولية عن الأرض المقدسة، التي استحوذ عليها، أو تهدنت من قبله، وبشكل خاص قلعة عسقلان، التي تولى الايرل رتشارد المذكور تقويتها بشكل فخم على حسابه، وذلك في سبيل تقوية المسيحية ورفع مكانتها بشكل عام.

ثبات رهبان وينكستر والظلم الذي مورس ضدهم

وفي هذه الآونة كان هناك بعض الذين يدورون بفلك البلاط، والواثقين بأوامر الملك، والذين اعتادوا على أن يعملوا من الأشياء

التافهة أشياء عظيمة، وقد ذهب هؤلاء إلى وينكستر، وبرعونة طلبوا الرهبان الذين رفضوا اطاعة أوامر الملك في قضية الانتخاب أو طالبوا بانتخاب أسقف وينكستر، والذين كانوا بشكل وقح غير مطيعين للملك، وعملوا ذلك الطلب إلى وليم دي ريلي Rele, أسقف نورويك، ولم يتنازلوا بالتخلي عن مقصدهم لابالتهديدات ولابالالتماسات، فهكذا كان فخارهم الرهباني، وهكذا كانت وضاعة هؤلاء الناس الجبناء، وبناء عليه جرى بحث بالقضية من قبل رئيس الرهبان، الذي أرغم من قبلهم، والذي كان أصل هذا الاضطراب كله، والرهبان الذين وجدوهم قد تصرفوا على هذه الصورة، جرى طردهم من الدير، من قبل هؤلاء الرسل، من دون اعطاء تقدير إلى العمر، أو الجنس، أو الطائفة، أو للاحترام المتوجب للكنيسة أو للدير، وسجنوا فيها بعد، وأجيعوا، وتعرضوا لكل نوع من أنواع الملامة، والإهانة، والإذلال، مما سبب إلحاق الإهانة بالنظام الرهباني كله.

استيلاء الإمبراطور على مدينة فيانزا وإظهاره الرحمة نحو السكان

وفي هذه الآونة خضعت أخيراً مدينة فيانزا الملكية، التي كما ذكرنا كانت مطوقة ومحاصرة من قبل الامبراطور فردريك، واستسلمت إليه بتحفظ، فقد أنهكت المجاعة السكان، ورافقها كثير من الاضطرابات المضاعفة، فجاءوا محتشدين، وسقطوا عند قدمي الامبراطور، وهم يتنهدون ويبكون، ورجوه من أجل الرحمة، وليس من أجل الحساب، وبينما كان هؤلاء الناس الذين أثاروا لمدة طويلة غضب الامبراطور إلى أعلى الدرجات، يتوقعون الموت بأقسى أنواع العذاب، وذلك بسبب مااقترفوه من ذنوب، تمت الاشارة إليها من قبل، وبسبب نفقات طول حصار مدينتهم من قبل الامبراطور، الذي تكبد إنفاق مبلغ كبير من المال، ومع ذلك قام المنتصر، برحمته الكريمة، بالحفاظ عليهم، وبفعله ذلك كسب عواطف الكثيرين، لأنه عندما رأى أنه حقق أخيراً الانتصار

على رعاياه العصاة، مال بدمه الكريم إلى الرحمة، وذلك تبعاً لكلمات الشاعر:

العدو جرى تدميره، والأسد النبيل استراح راضياً،

والمعركة انتهت، وغضبه الناري قد تلاشى.

والذئاب، والدببة، والوحوش الأصغر، اقتادتهم مشاعرهم المتدنية.

بالانتقام فظلوا غير مشبعين لنهمهم من ضحاياهم الميتة.

الانتقام المخيف الذي اقترف من قبل التتار

أثناء هذه الآونة نزل أولئك الناس الذين هم من غير البشر، والمتوحشين، والخارجين على القانون،وغير المدجنين، من التتار، في اندفاعهم وعنفهم الرهيب، على المقاطعات الشمالية للمسيحية، واجتاحوها بشكل مرعب ومدمّر، وأوقعوا الخوف والرعب بين جميع المسيحيين، وكانوا قد تمكنوا بطغيان لم يسمع بمثله، من تحويل بلدان كثيرة إلى صحراء مثل فريزلاند، وغوثلاند، وبولاندا، وبوهيميا، وشطري هنغاريا معاً حيث قتلوا الأمراء والأساقفة، وسكان المدن والفلاحين، أو أرغموهم على الفرار، وقد أكدت وقوع هذه الوقائع وشهدت عليها الرسالة التالية، التي أرسلت إلى هذه المناطق.

رسالة كتبت إلى دوق برابانت حول القوم أنفسهم

«من هنري، الذي هو بفضل الرب كونت اللورين، والأمير الملكي لسكسوني إلى مولاه المحبوب جداً، والذي سيظل دوماً محبوباً، وختنه، الدوق المشهور لبرابانت، الذي نحن على استعداد لخدمته متى طلب ذلك: إن المخاطر التي تقدم الحديث عنها في الكتابات المقدسة في العصور القديمة، آخذة الآن بالتفجر والتدفق بسبب ذنوبنا، لأن قطيعاً من الناس المتوحشين، الذين لاعدّ لهم ولاحصر، ومن المتمردين،

والهمج، يقومون الآن بغزو المناطق المجاورة لمناطقنا، والاستيلاء عليها، وقامـوا الآن بعدمـا عاثوا فسـاداً في كثير من البلدان الأخرى، وبعـدما أهلكوا سكانها، فمدوا غزواتهم حتى الأراضي البولندية.

وحصلنا حول هذه القضايا على أخبار كاملة من رسلنا، ومن رسائل من ابن عمنا المحبـوب ملك بوهيميا، وقد طلب منـا إعداد أنفسنا بكل سرعـة للسير إلى مسـاعـدته، وللدفـاع عـن المسيحيـة، ذلك أننا أخبرنا بصدق وبوضوح من قبله، بأن هذا الجنس من الناس، أي التتار، سوف يتولى في حوالي ثمانية الفصح بوحشية وهمجية، غزو الأراضي البوهيمية، وإذا لم تقـدم مساعـدة في وقتهـا إلى البـوهيميين، سوف تقـع مذبحـة لم يسمع بمثلهـــا، وبما أن البيت المجـاور لبيتنـا يحترق الآن، وبحكم أن المنطقة المجـاورة عرضـة للاجتياح، وفي الوقت الذي فيـه بعض المناطق هي الآن تحت الاجتياح، إننا نيابة عـن الكنيسة المسكونية، نطلب بقلق، ونرجو المساعدة، والتسديد من الرب، ومن جيراننا الأخوة الأمراء، وبما أن التأخير يولـد الخطر نرجـوكـم القيـام بكل يقظـة ممكنة، أن تحملوا السلاح، وأن تسرعـوا إلى نجدتنا، وكذلك في سبيـل حريتنا ومثل ذلك في سبيل حريتكم، وأن تستخـدموا مسعى قـوياً لإعداد قـوة قوية، وأن تثيروا النبلاء الأقوياء والشجعان مع الناس الخاضعين لهم، وأن تحتفظوا بهم مستعدين وجاهزين حتى نرسل إليكم رسلنا ثانية.

ونحن الآن نثير بوساطـة جهود أساقفتنا، والمبشرين لدينـا، والرهبان الفـرنسيسكان الدعـــوة إلى حملة صليبيـة عـامـة (لأن القضيـــة مـرتبطة بالمسيح)، ونبشر، ونصلي، ونصوم من أجل فـرضها، وبلادنا بشكل عام قد نهضت وثارت للحرب في سبيل يسوع المسيح.

وإلى هذا يمكن أن نضيف بأن قطيعاً كبيراً من هذا الجنس المقيت من الناس، يقـوم الآن بالتعـاون مع جيـش آخـر متحـالف معـه، باجتيـاح هنغاريا بوحشيـة لم يسمع بمثلها، إلى حد قيل فيـه بأن الملك قد احتفظ

فقط بقطعة صغيرة من البلاد لنفسه، ولنجمل القضية في كلمات قليلة فقط:

إن الكنيسة والناس في البلدان الشمالية، قد قمعوا وقهروا بكثير من أمثال هذه الاضطرابات الكبيرة والمصاعب إلى حد أنهم لم يعانوا قط بشدة من مثل هذا العذاب منذ بداية الدنيا. صدر في سنة النعمة ١٢٤١، في اليوم الذي يرتل فيه بـ «دعوا القدس تبتهج».

وأرسلت رسائل أخرى، لها المحتوى نفسه، من قبل دوق برابانت إلى أسقف باريس، وكتب أيضاً رئيس أساقفة كولون إلى ملك انكلترا حول المقصد نفسه.

وبناء عليه، ومن أجل معالجة هذا المرض الخطير، ولتسوية الخلافات التي قامت بين البابا والامبراطور، جرى فرض الصيام، والصلاة، ومنح الصدقات، على الناس في مختلف البلدان، حتى يصبح الرب القدير المخضع لأعدائه، والذي يقاتل مع قلة أو كثرة، راضياً نحو عباده، وأن يسحق شموخ هؤلاء التتار وجبروتهم.

وعندما أخبرت بلانشي المحترمة، وأمة الرب المحبوبة، وأم الملك الفرنسي بهذا العذاب الرباني، الذي نزل على الشعوب وأحاق بها، دعت ابنها قائلة: «الملك لويس، أين أنت ياولدي»؟ وبناء على ذلك اقترب منها ابنها وقال: «ماالذي تريدينه ياأماه؟»، ثم إنها تنهدت بعمق، وانفجرت باكية، ومع أنها كانت امرأة، فقد انكبت على هذه المخاطر العظيمة، ليس كإمرأة، وقالت له:

«ماالذي ينبغي صنعه ياولدي الحزين تجاه هذه الأحداث المؤلمة، والتي تطايرت عنها تقارير مرعبة وتدفقت على أراضينا؟، وإن دماراً عاماً لنا كلنا وللكنيسة المقدسة، بات الآن وشيكاً في أيامنا بسبب الغزوات الرهيبة للتتار بيننا»، ولدى سماع الملك لهذا، أجاب بصوت

حـزين، لكنه تكلم وكأنـه تلقى إلهامـاً ربانيـاً: «لعل المواسـاة من السماء تنهض بنا ياأماه، وإذا ماقدم هؤلاء الناس الذين نسميهم التتار، وجاءوا مغيرين علينا، إمـا سنردهم إلى بلاد التتـار التي صـدروا منهـا، أو أنهم سوف يرسلون بنا جميعـاً إلى السماء»، وهكذا فإنه كان يريد القـول: «إما أننا سـوف نصـدهم، أو أننا إذا مـا غلبنا، فإننا سـوف نغـادر إلى الرب كمعترفين للمسيح، أو شهـــداء»، وألهم هذا الكلام المدهـش والجدير بالثناء، الناس وأثار شجـاعتهم، ولم يقتصر هذا على النبلاء الفرنسيين، بل تعداهم أيضاً إلى سكان البلـدان المجاورة، ثم إن الامبراطور، عندما سمع بهذه الأشياء، كتب إلى الأمراء المسيحيين، وبشكل خاص إلى ملك انكلترا كما يلي:

رسالة الإمبراطور فيما يتعلق باقتراب المغول

«من فردريك، إمبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، تحيات:

نحن لايمكننـا الالتـــزام بالصمـت حيـــال قضيـــة لاتخصّ فقط الامبراطورية الرومـانية لوحدها، التي وظيفتهـا نشر الانجيل، بل تخصّ أيضـاً ممالك العالم كله، التي تمارس العبـادة المسيحية، لأنها تهدد بدمـار كـامل لجميـع المسيحيـة، ولذلك بادرنا مسرعين بنقل أخبـارها إليكم، وإعلامكم بها، علماً بأن الحقائق الصادقة حول الموضوع قد وصلت إلينا مؤخراً.

منذ وقت قصير مضى ظهـر عرق شعب متـوحش بطبائعه وبطـريقة حياته (من أي مكان أو أصل أنا لاأدري) اسمه التتـار، ظهر مؤخراً من مناطق الجنوب، حيث كـان مختبئاً منذ وقت طويل، قـد أحرقتـه شمس الإقليم الحار، وزحف من هناك نحـو المناطق الشماليـة، واستولى بالقـوة على المنطقـة هناك، وبقي لبعض الوقت، وتكاثر مثل الجراد، وقـد جـاء الآن متقدماً، ليس من دون قضاء مضى من الرب —لكن ليس كما آمل

مؤجلاً حتى أيام هذه الرسالة— لتدمير المسيحية كلها، وقد تبع وصول هؤلاء الناس، مذبحة عامة، ودمار شامل وبأساء لجميع الممالك، مع تخريب كامل للمناطق الخصبة، التي عاث فيها هذا القطيع من الناس فساداً، دون إبقاء لجنس، أو عمر، أو مرتبة، وهم مايزالون يأملون وهم واثقين، من تدمير بقية الجنس البشري، وهم يسعون إلى حكم البشرية والسيادة عليها لوحدهم، واثقين بقوتهم الهائلة، وبأعدادهم غير المحدودة، فبعدما قتلوا كل من وقع نظرهم عليه، ونهبوا كل مكان وخلفوا وراءهم انعدام كامل للسكان، وصل هؤلاء التتار (أو بالحري سكان تارتاروس) إلى مستعمرة الكومان الكثيفة السكان، ولأنهم لم يهتموا بالحياة، ولأن القوس هو السلاح المعتادين عليه كثيراً، أكثر من غيرهم من الشعوب، وبسهامهم، وبأسلحتهم المقذوفة الأخرى، التي يستخدمونها باستمرار، والتي أذرعتهم مدربة عليها وممارسة أكثر من سواهم، والتي باتت أقوى من الشعوب الأخرى مزقوا ذلك الشعب وأخضعوه، والذين لم يستطيعوا النجاة قد ذبحوا بسيوفهم الدموية.

وجعل اقتراب هؤلاء الهمج، مع شيء من الصعوبة الروثينيين Ruthenians, الذين يسكنون على مقربة منهم، يأخذون حذرهم ويستنفرون، ولأنهم كانوا غير معتادين على قتال هذا الشعب غير المعروف، فإنهم تشاوروا حول سلامتهم، وخافوا من غضبهم مثل خوفهم من النار، واتخذوا لأنفسهم احتياطات ضد هجماتهم، وبالهجمات المفاجئة، وحملات ذلك العرق الهمجي، الذي ينقض مثل غضب الرب، أو مثل البرق، فإن كييف المدينة الرئيسية لتلك المملكة قد هوجمت وتم الاستيلاء عليها، وجميع تلك المملكة الفخمة، التي كان من المتوجب توحيد نفسها مع مملكة هنغاريا، من أجل الدفاع عن نفسها، وحمايتها، والتي أهملت ذلك ولم تفعله، تحولت بعدما جرى قتل سكانها، إلى وضع من الدمار الكامل والبأساء.

وكان ملكهم رجلاً كسولاً ومهملاً، وقد أمر بوساطة الرسل والرسائل من هؤلاء التتار، أنه إذا أراد الحفاظ على حياته، وعلى حياة رعيته، فما عليه سوى الاستسلام على الفور حتى ينال حظوتهم، غير أنه لم يخف من هذا، ولم يأخذ حذره، وبذلك أعطى برهاناً لشعبه وللآخرين، أنه يتوجب عليه وعلى شعبه، القيام عل الفور بالاستعداد من أجل حماية أنفسهم، والدفاع ضد غاراتهم، ولكن في الوقت الذي كان فيه هؤلاء الناس المغرورين، أو الجاهلين مستخفين بأعدائهم، وبكسل نائمين والعدو في جوارهم المباشر، ومعتمدين على القوة الطبيعية للمكان وعلى منعته، شق التتار طريقهم إلى المملكة مثل زوبعة ريح، وفجأة طوقوهم من كل جانب.

وعندما وجد الهنغار أنفسهم تحت الحصار، قبل أن يتوقعوا الهجوم، وقد فوجئوا عندما لم يكونوا مستعدين، حاولوا الدفاع عن معسكرهم ضدهم، وعندما بات الجيشان المتصارعان، أي جيش التتار، وجيش الهنغار، على مسافة خمسة أميال عن بعضهما بعضاً، اندفع الجزء المتقدم من التتار فجأة نحو الأمام عند فجر النهار، وطوّق رجاله فجأة معسكر الهنغار، فقتلوا الأساقفة ونبلاء المملكة الذين تصدوا لهم، وذبحوا حشداً من الهنغار في مذبحة ما من أحد يتذكر أن مثلها قد وقع في معركة واحدة، منذ زمن طويل جداً.

أما الملك نفسه، فقد نجا بصعوبة، حيث ركب على فرس سريع، وهرب تحيط به حاشية صغيرة، ليشارك في حصة أخيه ملك ايلليريا Illyria, ولكي يحصل هناك على الحماية على الأقل، وفرح المنتصرون بأسلابهم وغنائمهم، ثم إنهم استقروا في معسكر الهنغار المغلوبين، وكانوا في تلك الساعة ينهبون الجزء الأكبر والأجمل من هنغاريا، فيما وراء نهر الدانوب، ويلحقون الأذى بالناس بالنار وبالسيف، ويهددون بإشراك البقية في الدمار نفسه، وذلك كما أخبرنا من قبل الأسقف

المحترم لفاتزن Vatzen, الذي كان سفير ملك هنغاريا المذكور، إلى بلاطنا، والذي أرسل بعد ذلك الى بلاط روما، وبما أنه كان مجتازاً خلال أراضينا أولاً، فقد قدم شهادة على مارآه، وبيناته صحيحة جداً.

وحصلنا أيضاً على معلومات وافية حول هذه الحوادث، بوساطة رسائل من ولدنا المحبوب كونراد، الملك المنتخب للرومان، وولي عهد مملكة القدس، وملك بوهيميا، ومن دوقي النمسا وبوهيميا، ومن كلام أفواه رسل، أكدوا فعلياً اقتراب وصول العدو، وقد سمعنا بهذا كله، ونحن نشعر بتشوش كبير في عقلنا، ولقد سمعنا —وبحكم أن الإشاعة، عن سيرهم، تسير أمامهم— بأن جيشهم الذي لايمكن تعداده، مقسم إلى ثلاثة أقسام سيئة الطالع، وبسبب تساهل الرب تجاه خططهم الملعونة، قد زحفوا هكذا مقسمين، فواحد من هذه الأقسام قد أرسل خلال أراضي البروكتينيين Pructenian, ودخل إلى بولاندا، حيث سقط أمير تلك البلاد ودوقها ضحيتين لأعمال المطاردة المبيدة، وبعد ذلك استبيحت تلك المنطقة ودمرت من قبلهم، ودخل الشطر الثاني إلى الأراضي البوهيمية، حيث أوقف هناك، لأنه حورب من قبل ملك تلك البلاد، الذي تصدى له بشجاعة بوساطة جميع القوات التي كانت تحت إمرته، وأما الشطر الثالث فهو الذي يعيث فساداً في هنغاريا المجاورة للمناطق النمساوية.

وبما أن الخوف والرعب قد قام بيننا، بسبب شدة هؤلاء الغزاة الجريئين، الأمر الذي نبهنا ودعانا إلى السلاح، والضرورة هي أكثر إلحاحاً، كلما عظم الخطر وازداد، وهي تحثنا على التصدي لهم، وإن التأكد من الدمار الشامل للعالم كله، خاصة للعالم المسيحي، تدعو إلى تقديم مساعدة سريعة ونجدة، لأن هذا العرق من الناس متوحش، وخارج على القانون، وجاهل بالشرائع البشرية، وهم يتبعون سيداً واحداً، ويعدونه مولاهم، وهم يعبدونه ويبجلونه مع طاعة كاملة، وهم

يطلقـون عليـه اسم رب الأرض، ورجـالهم أنفسهم صغـار، وقصـار القامة، هذا بالنسبـة للطول، لكنهم مندمجون، وأقوياء، وكتلهم ضخمة، ومصممون، وأقوياء، وشجعـان، وجاهزون بإشارة واحدة مـن قائدهم للاندفـاع للقيـام بأي واجـب صعب، أو مهمـة قـاسيـة، ولهم وجـوه واسعـة، ونظرات قـاسيـة، ويتفـوهون بصرخـات مـرعبـة، تتـواءم مع قلوبهم، وهم يلبسـون جلوداً غير مدبوغـة، من جلود الثيران، والحمير، والخيـول، وبالنسبـة للدروع هم يحمـون أنفسهم وأجسـادهم بقطع من الحديد مخاطة إليهم، وقد استمروا باستخدامها حتى الآن.

لكن لايمكننا أن نقـول من دون أسف، إنهم الآن، جهـزوا أنفسهم، من أسـلاب المسيحيين المغلوبين، بأسلحـة أكثـر مـواءمـة، حتى يمكن —من خـلال غضب الرب— أن نتعـرض للقتل بدناءة أكبر، بوسـاطة أسلحتنا، وبالاضـافـة إلى ذلك لقـد تزودوا بخيـول أفضل، وهم الآن يعيشون على أطعمة أغنى، ويزينون أنفسهم بملابس أكثر جمالاً مما كانوا يرتدونه من قبل، وهم رماة نبالة لايجارون، ويحملون جلوداً مصنعة، بها يعبرون البحيرات والأنهار الأكثر سرعـة من دون خطر، وعندما تنعدم الأعلاف لديهم، لقـد قيل بأن خيولهم تكتفي بلحـاء الشجر وبالأوراق وبجـذور الأعشاب، التي يجلبهـا الناس إليهم، ومع ذلك يجدونهم دائماً سريعين جداً، وأقوياء في حال الحاجة.

وكنا على كل حال بوسيلة أو أخرى قـد حذرنا سلفاً، ورأينا من قبل متـوقعين جميع هذه الأحداث، وطلبنا دومـاً بوسـاطة رسائل ومبعـوثين من جـلالتكم، وكـذلك مـن الأمـراء المسيحيين الآخـرين، ونصحناكم باخـلاص، والتمسنا منكـم، بالسماح لعـدم العـدوان، والعـواطف، والسـلام بالازدهار بين هؤلاء الـذين بين أيديهم السلطات العليـا، وأن يقومـوا بتسوية جميع خلافـاتهم، التي غالباً مـا تجلب الأذى إلى المصالح العـامة للمسيح، وأن ننهـض برشاقـة وبإجماع للتصـدي لأولئك الهمج

الذين ظهروا مؤخراً، فلقد تبين أن الأسلحة الماضية غير كافية لشفاء الجرح، أي أن لانسمح لعدونا العام بسبب للابتهاج، ولابمزيد من التقدم، بسبب الخلافات المنبعثة بين رؤساء المسيحيين.

يارب كم مرة، وكم غالباً ما كنا على استعداد للتواضع بأنفسنا، واعطاء منفذ لكل نوع من المشاعر الطيبة، في سبيل التمكن من الحبر الروماني، حتى يقلع عن إعطاء سبب للفضائح في جميع أرجاء الدنيا، وذلك بوساطة عداوته لنا، وأن يضع روابط التسامح فوق النصائح العدوانية المريضة ضدنا، وذلك في سبيل التمكن من تهدئة رعايانا الشرعيين، وأن نحكمهم في حالة من السلم، وأن لايحمي هؤلاء الذين يتحركون ضد سلطتنا، حيث أن شطراً كبيراً منهم يلقى الرعاية والمعونة منه.

وهكذا بالتمكن من تسوية المسائل بشكل سلمي، وبإعادة إصلاح رعايانا العصاة، الذين ضدهم أنفقنا مبلغاً كبيراً من المال، وأنهكنا قوانا، إن قدرتنا سوف تتضاعف، وسوف ترتفع بقوة أعظم ضد عدونا العام، لكن بما أن الإرادة هي الشريعة بالنسبة له، وهو لم يستطع التحكم بمسار لسانه المخادع، وقد رفض التمنع عن كثير من النزاعات التي حركها ضدنا، وقد أمر بنشر حملة صليبية ضدنا، ضدي أنا الذي أنا سلاح ومدافع عن الكنيسة، ولقد كان من واجبه، والأفضل له أن يمارس العمل ضد طغيان التتار، أو ضد المسلمين الذي يغزون الأرض المقدسة ويحتلونها، وهو يشجع العصاة من رعايانا، الذين يتآمرون ضد شرفنا وشهرتنا، ولما كان واجبنا الأكثر إلحاحاً العمل على تحرير أنفسنا من الأعداء في الداخل، كيف سنتمكن من صدّ هؤلاء الهمج أيضاً؟، لأنهم اكتشفوا بوساطة جواسيسهم، الذين أرسلوهم في جميع الاتجاهات هذا الخلاف العام، ذلك أن هؤلاء القوم، وإن كانوا يحكمون من دون إعطاء أي تقدير للشريعة اللاهوتية، هم بارعون جداً، في بدع الحرب،

ولقد اكتشفوا الأماكن غير المحمية والضعيفة في البلاد، ولسماعهم بأخبار العداوات بين الملوك، وبصراعات الممالك، لقد تشجعوا، ونهضوا ضدنا بنشاط أعظم، فكم تضيف الشجاعة العالية إلى القوة وتزيدها، وبناء عليه لقد صرفنا اهتمامنا نحو القضيتين معاً، وبعون الحكمة الربانية، سوف نستخدم قوتنا وقدرتنا لتجنيب الكنيسة الفضائح، الناجمة من الجانب الأول عن أعدائنا في الداخل، وأن نحميها من الجهة الأخرى من هؤلاء الهمج، ولهذا قمنا بشكل فعال بإرسال ابننا المحبوب كونراد ومقدمين آخرين من إمبراطوريتنا، مع قوة كبيرة للتصدي لحملات ولعنف هؤلاء الهمج ولصدهم، ونحن نناشد باخلاص عظيم جلالتكم باسم الرب يسوع المسيح، الصانع لعقيدتنا المسيحية، مع التوسل الأعظم دقة، وبوساطة التدبر الحكيم، بأن تتخذوا الاحتياطات من أجل وقاية أنفسكم ومملكتكم، التي أدعو الرب أن يبقيها مزدهرة، وأن تعدوا بأسرع وقت ممكن قوة كاملة من الفرسان الشجعان والجنود، مع تجهيزات جيدة من السلاح، وهذا ما نرجوكم من أجله، بحق دم المسيح الذي سفك من أجلنا، وبحق روابط القرابة التي تربطنا.

وعليهم أن يعدوا أنفسهم للقتال بشجاعة وبحكمة، بالاتحاد معنا، في سبيل حرية المسيحية، وهكذا إنه باتحاد قواتنا ضد هؤلاء الأعداء، الذين ينوون الآن دخول حدود ألمانيا، التي هي الباب إلى العالم المسيحي، من الممكن الحصول على النصر من أجل كرامة وشهرة رب الحشود، ولعله يرضي جلالتكم، أن لاتمروا بهذه القضايا، من دون تقدير، أو تأخير منحها اهتمامكم، لأنهم —لاسمح الرب— إذا ماغزوا الأراضي الألمانية، ولم يواجهوا اعتراض، فإن بقية العالم سوف يشعر بصوت العاصفة، التي هي مقبلة على الهبوب، والتي نعتقد أنها قامت بقضاء من الرب، لأن العالم ملوث بعدوى مختلف الذنوب، بحكم أن الإحسان قد بدأ يصبح أكثر برودة في كثير ممن ينبغي أن يبشروا بالإيمان وأن يرفعوا

شأنه، وسيرتهم الفاسدة قد لوثت العالم بالربا، وبمختلف أنواع السيمونية والطموح.

ولعله يرضي —بناء عليه— جلالتكم، أن تتجهزوا لهذه الطوارىء، وفي الوقت الذي يقوم فيه هؤلاء الأعداء لنا جميعاً في صبّ جام غضبهم في البلدان المجاورة، قم بموجب نصائحكم الحكيمة، فاعملوا الاستعدادات لمقاومتهم، لأنهم غادروا بلادهم، دون الاهتمام بأية مخاطر على حياتهم، مع النية (لاسمح الرب بتنفيذها) باخضاع جميع الغرب، وتدمير الإيمان بالمسيح واجتثاث اسمه، وبسبب الانتصارات غير المتوقعة، التي حصلوا عليها حتى الآن —بإذن من الرب— وصلوا إلى حالة من الخيلاء والجنون، أنهم باتوا يعدون أنفسهم قد حصلوا على ملكية جميع ممالك العالم، ويمكنهم اخضاع، وربط الملوك والأمراء الساجدين لهم كما يريدون، وحسبما يشاءون في خدمتهم الشريرة.

هذا ونحن نأمل بمولانا يسوع المسيح، الذي تحت قيادته وتوجيهه، حررنا حتى الآن أنفسنا من أعدائنا، وانتصرنا عليهم، بأن هؤلاء الذين تدفقوا من مناطق تارتاروس، سوف يجدون فخارهم قد أذل، بعد تجريب قوة الغرب، ومن ثم أن يجري صدّهم عائدين إلى بلادهم في تارتاروس، وأن لايعودوا قادرين على التبجح بأنهم جالوا بكل وقاحة خلال عدد كبير من البلدان، وأخضعوا كثيراً من الأمم، واقترفوا كثيراً جداً من الشرور، وذلك عندما اقتادهم قدرهم الذين لم يحتاطوا له، أو بالحري عندما استدرجهم الشيطان نفسه للموت، أمام النسور المنتصرة لإمبراطوريتنا الأوروبية القوية.

وعندما تنهض ألمانيا بغضب وحماسة إلى القتال، وكذلك فرنسا، التي هي أم الفروسية وحاضنتها، وكذلك اسبانيا المقاتلة والشجاعة، مع انكلترا الخصبة ورجالها البواسل، وهي محمية بأسطولها، وألمانيا المليئة بالمحاربين الشجعان، وداشيا البحرية، وإيطاليا الشرسة غير المدجنة،

وبيرغندي التي لم تعرف السلام قط، وأبوليا التي لاتعرف الراحة والاستقرار، مع جزر القرصان والتي لم تقهر، مثل جزر الإغريق،والبحر الأدرياتيكي، وبحر تيرين Tyrrhene, وكريت، وقبرص، وصقلية، مع الجزر والمناطق المجاورة للمحيط، وكذلك عندما تنهض ايرلندا الدموية، مع ويلز النشيطة، وسكوتلندا المحاطة بالبحيرات، والنروج الثلجية، وكل منطقة فخمة ومشهورة، قائمة تحت النجم الملكي للغرب، فعندما يرسل هؤلاء نخبهم مزينين بشعار الصليب المانح للحياة، الذي يسير أمامهم، وقتها لن يصاب بالرعب والقنوط فقط الرعايا المتمردين، بل أيضاً الشياطين المعارضين. صدر أثناء تراجعنا، بعد استسلام فيانزا وإخلائها من السكان، في اليوم الثالث من تموز.

نشر الرسالة المتقدمة

وجرت كتابة رسائل لها المحتوى نفسه، مع تغيير بالعناوين الرئيسية فقط، وقليل من الكلمات في داخلها، من قبل الامبراطور المدافع المواظب عن الصالح العام، لأنه أضاف الكلمات التالية في رسالته إلى الملك الفرنسي، حيث أثار عواطفه بشكل مؤثر حيث قال: «نحن علاوة على ذلك مندهشون —عارفون بحكمة الفرنسيين— كيف أنكم لم تتنبهوا بدقة أكبر لملاحظة الدهاء البابوي، ونهمه أكثر من الآخرين، ذلك أنه بمطامحه التي لاتعرف الحدود، هو عازم الآن على اخضاع جميع الممالك المسيحية إليه، منطلقاً من بادرة وضعه تحت قدميه تاج انكلترا، وقد تجرأ الآن بطيش كبير، وبوقاحة يفكر باخضاع جلالة الامبراطور وجعله رهن شارته».

انتشار الشكوك ورعايتها

ملأت الطبيعة المدهشة لهذه الظروف أوروبا كلها، بالعجب

والتساؤل، وانتشر ذلك إلى البلدان الاسلامية وانبعثت مواقف مختلفة بين كثيرين، ورعت مختلف الشعوب آراء متباينة حول هذه القضايا، فقد كان هناك بعض من قال بأن الامبراطور، اخترع على عهدته، وتآمر ضاغطاً بحكاية التتار هذه، وأنه بهذه الرسالة البارعة أراد أن يغلف جرائمه الشائنة ويغطيها، وأنه كان بمطامحه الجشعة مثله مثل الشيطان، أو المسيح الدجال، يقوم بالتآمر ضد ملكيات العالم كله، في سبيل تدمير الإيمان المسيحي تدميراً كاملاً.

وقد تبرهن أيضاً أن الرسالة تحتوي على أكاذيب، لأنه قد ورد فيها بأن هذا العرق التتاري غير المعروف، قد تدفق من المناطق الجنوبية للعالم، الواقعة في الإقليم الحار، وهذا زيف واضح لأننا لم نسمع بأنهم عبروا خلال البلدان الجنوبية، لابل ولاحتى من خلال البلدان الشرقية، إضافة إلى هذا لقد تشككوا بأن الخطط السرية، والإجراءات التي لاأساس لها، وكثير من مؤامرات هؤلاء التتار كانت تماماً من الاقتراحات الامبراطورية، لأنهم يخفون طريقته بالكلام، وتفاوت تجهيزاتهم، وأنه إذا ما اتخذ أحدهم أسيراً، لايمكن ولابطريقة من الطرق استخراج معلومات عن خططهم من الأسير، ولا حتى بأي نوع من أنواع العذاب تعرض لها، وبما أنه هناك سبعة أقاليم في الدنيا كلها، وهي: إقليم الهنود، وإقليم الأثيوبيين أو المغاربة، وإقليم المصريين، وإقليم المقادسة، وإقليم اليونانيين، وإقليم الرومان، وإقليم الفرنسيين، وليس هناك من مكان بعيد في جميع أرجاء المسكونة من العالم،لم يجد التجّار طريقاً إليه، كما قال الشاعر:

إلى الهند النائية يجد التاجر طريقه

فأين مثل هؤلاء الناس، الذين أعدادهم كبيرة إلى هذا الحد، ومابرحوا حتى الآن جالسين مخفيين؟ ولماذا هناك الآن مثل هذا المكر، والتآمر السري فيما بينهم؟ وهناك —كما قالوا— الهيركانيين Hyr-

canians والسكيـزيين، المتعطشين دوماً إلى الدمـاء البشرية، والذين يسكنون المناطق الجبليـة والوعـرة في الشمال، والذين يمارسـون حيـاة حيـوانات متوحشـة، ويعبدون آلهة الجبـال في أيام معينة، وهؤلاء الناس قاموا بوسـاطة دسائس الامبراطور، مع جيرانهم الكومان، الذين دخلوا معهم بتحـالف، فشنوا الحرب على ملـك هنغـاريا، وعلى بعض النبـلاء الآخـرين، في سبيل أنهم بإزعـاج ذلك الملك ومضايقتـه، يمكن أن يفـر ليضع نفسه تحت جناحي الامبراطور من أجل الحماية، ويقدم له الولاء، لأنه قـدم إليـه المساعـدة، وبما أن هذه الأشيـاء قد نفـذت، فإنها مـا أن عملت حتى تراجعت قوى الأعـداء، لكن لاسمح الرب أن تكون مثل هذه الشرور الكثيرة قد تآمر على صنعها إنسان واحد.

البابا يحض الأساقفة على ازدراء نصيحة الإمبراطور ومن ثم القدوم إلى المجمع

أعيق في هذه الآونة، بسبب حوادث غير موائمة، السيد جيمس أوف برانستي Praeneste, الذي كـان لبعض الوقت نـائبـاً بـابوياً في فـرنسـا والسيـد أوتو كـاردينال وشماس في Carcere Tulliano, وبعد ذلك نائباً بابوياً في الدانمارك ومن بعد هذا في انكلترا، وغريغوري أوف رومانا Romagna, الذي كان قـد أرسل لتوه بمثـابة نائب بابوي إلى الجنويين ليحللهـم من ذنوبهم إذا مـا أطاعـوه، وتأخـروا في جنوى، وكانـوا يتطلعون إلى أسطول لأنفسهم، وكان هنـاك أيضاً معهم عدد كبير من رؤساء الأسـاقفة، والأساقفة، ورعـاة الديرة، الذين كانوا يخافـون من الإبحـار، بسبب تهديـدات الامبراطور، وقـد تلقـوا بشكل متـواصل رسـائل مـواساة ورسـلاً من البـابا، وجـرى في الوقت نفسـه تحريضهم على الابحـار، وأن يسيروا من دون إعـاقـة من أجل حضـور المجمع، لابـل جـــرى حثهـم بإصرار على ازدراء تهديـدات السلطات العلمانية، وأن يكون استعدادهم أكبر لإطاعة والدهم الروحي.

ثم إنه تقـديراً لمبلغ كبير من المال دفعـه هؤلاء الأسـاقفـة، بناء على اتفاقيـة عقدت بينهم وبين الجنويين، يتوجب على أسـاسها على الجنويين اقتيـادهم جميعاً، أي النواب البـابويين والأسـاقفـة، وحـواشيهم، وهم متحـررين من الخسارة ومن الأذى إلى البـلاط الروماني، حتى ولو كـان ذلك ضد مـوافقة الامبراطور، وعندمـا كانوا عـاقدين لمناقشـات طويلة ودقيقة، حـول هذه القضايا، وعندمـا كان بعضهم في وضع غير المتـأكد حول ماهو الأسلم والأعقل لفعله، أرسل البابا رسالة إليهم، أنه سوف —من دون تلكؤ— يرسـل إليهم مسـاعـدة قـوية وفعـالة على شكل أسطول ليلتقي بهم في البحـر، لدى مغـادرتهم الميناء، وذلـك ليتـولى قيادتهم وحمايتهم، بشكل لاتكون فيه قوى الأعداء قادرة على اعتراضهم بأي شكـل من الأشكال، ولاحتى الامبراطـور نفسـه، الذي أوكـل به صـاحب القـداسة وعهـد إلى جهنم وإلى الشيطان، بحكم أنه مـوضـوع تحت حـرمـانات وتكفيرات مضـاعفـة، وبرسـالة البـابا المقـدسـة هذه وبمـواساته، تحمسـوا وصاروا على استعـداد لتحمل أي خطر، حتى لو كان الموت نفسه.

الامبراطور يسأل الأساقفة الارتحال إلى المجمع من خلال أراضيه

وعندما علم الامبراطور بهذه الرسالة، تفهم بشكل واضح وأدرك أن البـابا مصرّ تمام الإصرار على السعي لإذلالـه، وأنه كـان يعمل على جمع الأسـاقفـة الذين لن يقفـوا بأي حـال من الأحـوال ضـد إرادته، ولهذا السبب، ولأنه أخـذ يشعـر بمخـاوف كبيرة على نفسـه أخبرهم بأنهم يستطيعـون السفـر مـن خـلال أراضيـه، من أجـل أن يعلمـوا تمامـاً بالامتيازات التي وضع فيها ثقته، ولكي لايجري فرضهم، أو أن تفرض عليهم تقارير زائفـة، رجاهم بعدم الابحار بشكل مفـاجىء نحو البلاط الرومـاني من دون التأكـد من وجهـات نظره، وبناء عليـه أرسل إليهم سفـراء خاصين، عندمـا كانوا قـد استعدوا للابحـار، وبلطف وتواضع

أخبرهم أن بإمكانهم الجواز خلال جميع الأراضي التي هي تحت حكمه، بسلام كامل، وأمان تام، شريطة أن لايسافروا بالبحر، أو على طول شاطىء، وطلب منهم التيقن بأن ما من واحد من رعيته سوف يزعجهم أثناء رحلتهم، وقال لهم، بأنهم إذا كانوا غير واثقين بوعوده الامبراطورية، ماعليهم سوى إعداد شكل من أشكال الضمانة، ووعدهم بالالتزام بشروطها بكل تأكيد، والالتزام بجميع الشروط، من جميع الجوانب، وذلك وفقاً لما سوف يكتبونه، كما أنه أعلن أيضاً، أنه بعد قيامه بشرح قضيته شرحاً وافياً إليهم بكلمات الفم، وبعد اخبارهم بجميع خصوصياتها بالتفصيل، سوف يعهد بكل ثقة واخلاص بأن يحكم عليها بعد فحصها، ومن ثم تسويتها من قبل المجمع، ووعد بالخضوع إلى القرار المستقيم لمثل هذا العدد الكبير من الآباء المقدسين، وهكذا قام بوسائل الاقناع، وبالتوسلات، وبالأوامر، ورجاهم بوساطة جميع الالتماسات الممكنة لأن يكونوا نوابه، والمحامين عنه، والقضاة في هذه القضية، وجاء ذلك متوافقاً مع قول الشاعر:

بمزيج من الأوامر، والوعود، والأدعية

ظهر المولى على الفور وظهرت التضرعات

وعلاوة على ذلك اشتكى بمرارة حول العنف غير المحدود لاضطهاد البابا له، إلى حد أنه أثار الذين استمعوا إليه إلى درجة البكاء، ذاكراً بأن البابا قد عمل منه بوسائطه أكثر الهراطقة شروراً وأنه عدو حاد ومكشوف للإيمان المسيحي، مع أنه لم يدن بأنه كذلك، كما أنه لم يعترف بنفسه بذلك، كما أنه تسبب بحرمانه كنسياً في بلدان متنوعة، وشوّه سمعته بمختلف الوسائل التي كان بإمكانه ابداعها، وقد شوّه اسمه وسمعته بشكل لايمكن إصلاحه، وهذا أمر ما من شيء يمكن أن يكون أكثر ضرراً منه، وكان يبذل قصارى جهده ليتولى إذلاله، وقال: «فلقد قام مؤخراً بعدما جرت تسوية، واتفاق بشكل عام من طرفه ومن

جـانبـه، بوجوب عقـد مجمع، فيـه كنا مستعـدين لشرح قضيتنا من على الجانبين، ومن ثم الالتـزام بالقرار العـام للمجمع، غير أنه غيّــر بطيش صيغة الاتفاق المتقدم الذكـر والاجتماع، ووجّه الدعوة إلى جميع الأعداء المكشـوفين لـلامبراطورية، الذين كـانـوا مستعـدين للحـرب أكثــر من استعـدادهم للسلم، وجرى إرسـال رجال دين ورجـال علمانيين —كما هو واضـح من فحـــوى رســـائلي— إلى ملك انكلترا، وإلى الأمـــراء الآخرين، التي فيهـا كشفت بكل تأكيد الشرور الخفية، والمصائـد الخبيثة للبـابـا، وفي تلك الرسـائل حــذرتهم أنهم إذا كـانوا يقــدرون أنفسهم وممتلكاتهم، أن لايسمحوا لأساقفتهم بـالجواز خلال ممتلكاتي»، وأضاف الامبراطور أيضـاً، كما قال في أمـاكن أخـرى، وكما ذكر في رسـائله، أنه سوف يكون خطراً، ومضاداً للمنطق العهـدة بمثل هذه القضايا الصعبة للبـابا الذي هو عدوه المكشـوف، وكان الذين اتفقـوا بآرائهم معه، قـد بدوا أنهم بالحري متآمـرين يستهدفون اخضاع الامبرطورية المقـدسة، لا أن يكونوا حكامـاً بالعـدل، وهكذا عهـد بالقضية إلى محكمـة منحـازة، القضاة فيها جاهلون بالسبب الأساسي للخلاف، وبظروف القضية.

الأسباب التي قدّمها الإمبراطور إلى الأساقفة حول عدم حضوره

وبناء عليه التمس الامبراطور بحـرارة من الأساقفة للقـدوم والعبور بسلام خـلال أراضيه حتى يكونوا متعرفين تمامـاً بقضيته، ولكي يتمكن من إخبـارهم بجميع الظروف الخفية للقضيـة، لأنه أعلن أنه لايستطيع —بأي حال من الأحـوال— القدوم إليهم منه شخصياً، بسبب حـاجته إلى المال، الذي أنفق مبـالغ كبيرة/أثناء الحصـار الطويل لفيـانزا، وأيضـاً بسبب قضايا أخرى، القضية الأساسية بينها مرتبطة بالجيش الذي يقوده ابنه، والذي كان مشغولاً آنذاك ضد التتـار، وقضايا أخرى، لابدّ له من إبقـائها سراً، وكـذلك بسبب العصـاة الجنويين، الذين لم يختر الوصـول إليهم إلا بقوة كبيرة.

النواب البابويون يرفضون الذهاب إلى المجمع من خلال أراضيه

وتشجع الأساقفة —على كل حال— بوعود النواب البابويين، وبرسائل المواساة البابوية المتوالية، التي وعد فيها بإرسال مساعدة سريعة ومؤثرة تلقاهم في البحر، ولذلك رفضوا أن يتخلوا، ولابأي شكل من الأشكال، عن نيتهم المقترحة، ذلك أنهم قالوا: «لايمكن الاعتماد ولا الوثوق بالكلام التافه لرجل محروم كنسياً»، وبناء عليه رفض الأساقفة نصيحة الامبراطور، ومطالبه، ووضعوا ثقتهم بتعداد الجنويين، الذين كانوا مجربين في فن القتال البحري، واستخفوا بتهديدات الامبراطور وبقدراته، وأقلعوا على ظهور سفنهم وسار الجنويون أمامهم، وانخرطوا بتفاخرات كبيرة، وتبجحوا قائلين بأن قوى الذين من الممكن أن يتصدوا لهم، لم تكن مرعبة لهم، ولا بأي حال من الأحوال، وقالوا عن الأساقفة وعن الناس المتعلمين، بأنهم جبناء، ورعاديد، لأن تفاخرهم كان أكبر من قوتهم، وعندما كانت غلايينهم وسفنهم مصفوفة بشكل نظامي، شقوا طريقهم خلال البحر التيراني Tyrrhene, وذلك في رحلتهم نحو الشرق، وسط صراخ وضجيج البحارة، وأصوات الأبواق.

الإمبراطور يأمر باعتقال الأساقفة

وعندما علم الامبراطور بهذه القضية، غضب لأنه وجد أنه قد استخف به، وأن انذاراته والتماساته قد رفضت سواء،وبناء عليه بعث إلى ابنه هنري، الذي اعتاد على أن يدعوه بابنه الطبيعي، والذي إليه عهد بمهمة حراسة البحر، و السواحل البحرية، مع قوة بحرية، وأمره باعتراض جواز الأساقفة، وأن يعتقلهم من دون خوف وهم مسافرون، أو أن يغرقهم، أو أن يقتلهم.

اعتقال النواب البابويين والأساقفة

ثم إن هنري المذكور، أرسل في طاعة لأوامر أبيه، عشرين غليوناً جداً، وقد بنيوا بقوة، وكانوا مجهزين بشكل جيد برجال مسلحين، تحت إمرة ستولليوس Stollius, وكان ملاحاً بارعاً جداً، وكلفه باعتراض الجنويين، الذين كانوا يقودون الأساقفة بثقة واطمئنان، ثم أعقب ذلك نشوب قتال عنيف ودموي في البحر، بين البيازنه الذين كان يقودهم هنري شخصياً مع ستولليوس المتقدم الذكر، الذي انقض كشهاب عاصف وانخرط بالقتال، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر الجنويين، وقد لحقت الهزيمة بالجنويين، ووقع الأساقفة والنواب البابويون بالأسر، باستثناء بعضهم الذين قتلوا أو غرقوا، وكان من بين الجميع رئيس أساقفة فايسنزا Vicenza وكثيرين، عددهم كبير حتى نذكرهم، وكان من بين رعاة الديرة راعي دير سافيني Savigny, فقد نجا مع شيء من الصعوبة حراً، ودون أن يصاب بأذى، بوساطة مساعدة جون أوف لكسنغتون Lexington, وهو أخوه، وكان فارساً شجاعاً جداً، وكان أيضاً رسولاً من ملك انكلترا، وقد حصلنا على معلومات واضحة عن هذه الحادثة التعيسة من خلال الرسالة التالية، ومن خلال تقرير عام يحمل بينة على صدقها.

رسالة الإمبراطور حول الاستيلاء على مدينة فيانزا وحول أسر الأساقفة في البحر

وإثر وقوع الأساقفة، والنواب البابويين بالأسر ومعهم أدلائهم الجنويين، حملوا وأحضروا أمام الامبراطور الذي قام على الفور فكتب إلى ملك انكلترا، وإلى الأمراء الآخرين كما يلي:

من فردريك، الامبراطور، إلى ملك انكلترا، صحة وعواطف مخلصة:

بمشاعر سارة وعواطف مبتهجة تسلمنا رسائلكم ورسلكم الذين بعثت بهم إلينا، وبعناية سمعناهم وفهمنا منهم، وكذلك بالنسبة

للرسائل، والشي نفسه بالنسبة لما أوصله الرسل إلينا بشكل شفوي، من قبلكم، والآن إنه بالنسبة لكل واحد مـن الرسل، ولهم جميعاً، وللرسائل كلهـا التي بعثت بها بوسـاطتهم، سـوف نقدم إليكم أجـوبة كـاملة عبر مـوثقنـا الأمين والمحبـوب كثيراً لدينا المعلـم وولتر دي أوكـرا Ocra, الذي إليه يمكنكم أن تعطوا ثقة كاملة، مثل الذي تعطونا إياه شخصياً، في كل شيء هو سـوف يخبركم به شفـوياً بإسمنا، وإليـه قـد أعطينا سلطات كاملة للتبـاحث في القضية، التي من أجلهـا جاء الرسل الذين تقـدم ذكرهم، إلينا، وأن يعمل على إنهائهـا، وفقاً للصيغـة التي أعطيت إليه من قبلنا.

بالاضـافـة إلى هـذا، إنك في الوقت الذي تبتهـج فيـه معنا بسبب نجـاحاتنا، وفي إذلالنا لرعـايانا المتمـردين، عسى أن يكون ذلك مرعبـاً ومنذراً للآخـرين، نحن نبيح إليكم أخبـاراً مرضيـة، بأن مّدينة فيـانزا، التي لم تضع ثقتها باستحقاقاتها، بل في أسوارها، وبمواءمة فصل الشتاء لها، فتجرأت على الثورة علينا، وأظهرت معـارضة لقواتنا، إنها مع عودة الربيع، كـانت تلك المدينة قـد تعـرضت إلى كثير من الأذى بوسـاطة حملات وقـذائف مجانيقنا، وقـد تسـاقطت الأسـوار، ودخل لاغـومـونا بوساطة أنفاق وممرات إلى داخل المدينـة، وأعقب ذلك قتالاً يداً بيد بين سكان المدينة وجنودنا، وعندما وجدوا الآن أنفسهم مضطرين —بسبب مـاتعرضـوا له من تهديدات— لتعـريض أجسـادهم لسيوفنا، تشـاوروا بعقـلانيـة حـول سـلامتهم لأن هزيمتهم هددتهم بدمـار محيق، لذلك شرعـوا بحكم الضرورة يطلبـون رحمتنا، وفي يوم الأحـد الخامس عشر من نيسان استسلموا بأنفسهم لإرادتنا، وألقوا بأنفسهم وبمدينتهم تحت رحمتنا، وأقسموا يمين الولاء إلينا، وتخلوا عن جميع الأيمان غير القانونية التي كانوا قد أقسموها.

ولدى خضوعهم لرحمتنا، التي هي رفيق دائم للامبراطورية، وحكم،

صاحب حكم عادل، قهرنا مشاعر المنتصر، وأقنعنا أنفسنا بالتعامل برحمة مع المغلوبين، كما أننا فكرنا أن نصرنا سوف يكون نصراً أكثر مجداً، بالعطف على هؤلاء الذي عادوا إلينا ثانية، بدلاً من الانتقام منهم في وضعهم الكئيب، وعددنا أنه نوع من أنواع الانتقام، أن نعفو عن المضار، وذلك في الوقت الذي كان في مقدورنا الانتقام لهم بقسوة، وهكذا قمنا بكرم بالعفو عن جرائمهم، مع أنهم كانوا لايستحقون ذلك، وحللنا جميع الذين كانوا مدانين بالخيانة ضدنا، وبعدما أصلحنا أوضاع المواطنين وأوضاع مدينتهم، تحت سلطتنا، وسلطة الامبراطورية (أكثر من ذلك ما من شيء أعظم سروراً، أو يستحق أكثر) وفقاً لما تسمح به أوضاع الأمور وتتطلبه، صرفنا انتباهنا نحو إفراغ منطقة بولونا Bologna من السكان، ووقتها حدث لسوء حظهم، أن حشداً من الأساقفة مع أسقف برانستي، وأوتو أوف ثورونجيا، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان، والذين احتشدوا من مختلف البلدان، وقد قدموا إلى جنوى لمعارضة إجراءاتنا، وقد التحق بهم في هذا المكان غريغوري أوف رومانا، الذي أرسل لمرافقتهم، ولكي يكونوا مرتبطين ببعضهم بعضاً بقوة أكبر، وعقدوا اتفاقاً مع الجنويين العصاة علينا، ومع بعض الناس من المملكة الفرنسية، و قد حشدوا قوة بحرية كبيرة، وجعلوا رجال عصاباتهم يسلحون أنفسهم، واتفقوا معهم على الذهاب إلى البابا، من أجل زيادة الخلاف.

وفي سبيل أن نعيق تقدمهم، وأن نمنع وصولهم، تدبرنا احتشاد أسطولنا في بيزا، ذلك أنه كان قد استعد قبل بعض الوقت في الماضي، ووضعناه تحت إمرة ستولليوس المنتصر، وكان اسطولنا هذا مشحوناً من قبل رعايانا المخلصين، وقد علم مسبقاً بأخبار تحركاتهم، فجرى إرساله إلى الأماكن والموانىء التي كان لابد لهم من المرور بها، حتى في أعماق البحار، لأنها قائمة على طريقهم وكانوا مرغمين على الابحار

والمرور بها في طريقهم، وكانت الأوامر الصادرة لأسطولنا هي اعتراضهم بالقوة، وعند ذلك هاجم قائدنا المذكور غلايينهم بغلايينا، وبالرب ذي القدرات الكلية، الذي رأى وقاتل من عليين، والذي يقضي بين الصح والخطأ، فهو قد رأى طرائقهم الشريرة، وفساد قلوبهم وبفضله الرباني سلمنا هؤلاء النواب البابويين والأساقفة، وأوقعهم مكتوفين في قبضتنا، فبعدما جرى اغراق ثلاثة من غلايينهم، مع كل شيء كان على ظهورهم، وبعدما خسروا حوالي الألفين من الرجال من دون أمل بالعودة، جرى قهر اثنين وعشرين غليوناً —بعون الرب وحكمته— بوساطة غلايينا، وبعد ايقاع مذبحة كبيرة بين بحارتهم، جرى أسر الجميع، مع ممتلكات كل واحد على ظهور السفن، وكان في هذه الغلايين النواب البابويين الثلاثة المتقدم ذكرهم، مع رؤساء الأساقفة والأساقفة ورعاة الديرة، وعدد كبير آخر من القساوسة، وذلك إلى جانب رسل، ونواب أساقفة، حيث وصل عددهم إلى حوالي المائة، مع سفارات من المدن اللومباردية العاصية، وتألف الذين كانوا ذاهبين إلى المجمع المذكور من أربعة آلاف جنوي، إلى جانب الأشخاص الخاصين والمنتخبين من جنوى، والذين تولوا قيادة الغلايين، ومرافقة الأساقفة، بقصد أخذهم من جنوى وإعادتهم إليها، كما جرى لسوء الحظ الاتفاق بينهم، ووقع هؤلاء جميعاً أسرى بين أيدينا، مع أسقف برانستي، الذي غالباً ما أثار كراهية الرئيس ضدنا.

ويتوجب على هذا الرجل، الذي يحمل شكل ذئب، تحت المظهر الخارجي لشاة، التوقف عن الاعتقاد بأنه يحمل الرب في قلبه، لأننا نعتقد أن قضاء الرب الخاص هو الذي وقع عليه، وعليه أن يعرف بأن الرب معنا، وهو جالس على عرشه ليحكم بين الخير والشر، فهو قد قضى بأن لاتحكم آلية العالم من قبل رجال الدين فقط، بل من قبل الحكام ورجال الدين معاً، وعلينا —بناء عليه— بما أن الرب قد كشف

خططه لنا من السماء، وحوّل كثيراً من الأماكن الوعرة إلى أماكن سهلة، أن نحاول تجنب عرق الحرب، وغبار الصيف، وأن نوجه خطانا، وتفكيرنا، واهتماماتنا نحوه، وهو الذي منحنا المزيد من زيادة السرور والمجد، لنا وللحكام الآخرين، ونحن نهنىء الأمراء الآخرين، وأنت بشكل خاص، لأنك كنت مسهماً في نجاحاتنا هذه المتقدمة الذكر، والتي نرغب بوحدة المشاعر التي تجمعنا، في أن تشارك في واقعة أية حادثة حسن حظ في المستقبل. صدر في فيانزا» إلخ، إلخ.

كيف جرى حمل الأساقفة إلى نابل للسجن فيها

وأرسلت رسائل بهذا المحتوى إلى الأمراء الآخرين، بغية منحهم السرور، لكنهم لم يكونوا جميعاً مسرورين بالذي حوته، كما قال الشاعر الحكيم:

مامن أحد سوف يمتلك

الفخار الذي نما من الجريمة

وبناء عليه، جرى —بناء على أوامر الامبراطور— حمل الأساقفة وإبعادهم بالبحر، وبعد رحلة لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً، جلبوا إلى نابل Naples في أبوليا، حيث أودعوا في سجن أمين، في قلعة كانت محاطة بالمياه، قرب تلك البلدة، هذا ولم يشعروا جميعاً بمصائب السجن في الدرجة نفسها،وكانت أحوال أسقف برانستي تعيسة جداً، مع أن المرض، أو الضعف الشديد قد استبد بهم جميعاً، لأنهم أثناء الرحلة جلسوا مصفدين، ومضغوطين مع بعضهم في أكوام، وترافق هذا مع حر شديد لايحتمل نزل بهم، وكان الذباب يتطاير من حولهم، ويلدغهم مثل لدغات العقارب، فلقد سحلوا على طريق للشهادة طويل، وجرى تعذيبهم بالجوع والعطش، وكانوا عرضة للإهانات والازعاج حسب رغبات ملّاحي القرصان المعادين، وقد تحملوا هذا كله بحكم طاعتهم،

ولذلك بدا السجن بالنسبة لهم مكاناً للراحة، مع أنه لم يقدم لهم أي نوع منها، ونتيجة لـذلك أخذوا يتلاشون، ولاسيما الأكثر ضعفـاً بينهـم، فقد هلكوا تحت مختلف الأمـراض، ولفظ بعـض رجـال الدين، وعـدد كبير آخر أرواحهم التعيسـة، وغادروا تعاسـات هذه الحياة إلى الرب بعـدما حصلوا على رمـز الشهـادة، وبعـد وقت قصير أيضـاً، عبر أسقف برانستي،في طاعـة منه إلى البـابـا حتى الموت، من هذا العـالم الشرير إلى مكان للراحة.

إرسال هنري لمساعدة أخيه كونراد ضدّ التتار

وبعدما توصل الامبراطور —بعون الرب وإذنه— إلى تحقيق غرضه، أرسل ابنه هنري، الذي كما ذكـرنا قد تغلب على الأسـاقفة ومـرافقيهم، للالتحـاق بأخيـه كـونراد، الذي كـان قـد استعـد مع جيش لايحصى تعـداده، قـد حشـد من مختلف مقـاطعـات الامبراطورية، ليضبط عنف التتار والكومـان، وفي سبيل أن يواسي الأخوان كل واحـد منهما الآخر، ويسـاعـده، ولكي يحاطا بقوة أكبر، فقـد أخـذ هنري المذكـور، بناء على أوامـر والده، معـه أربعـة آلاف من الفـرسـان، وكتلة كبيرة من الجنود الرجـالة، الذين عندمـا اتحدوا مع الآخـرين الذين أرسلوا لمسـاعـدتهم، شكلوا جيشـاً عملاقـاً، ولدى اكتشـاف الأعداء لهذا هدأت رعـونتهم، وأمكن ضبط شططهم، وأصبحـوا أكثر بـرودة، ذلك أنه وقعت معركـة دمـوية قـرب ضفاف نهر دلفيـوس Delpheos, ليس بعيـــداً عن الدانوب، وبعـدما سقط عـدد كبير من على الجانبين، أمكن صـدّ جيش العـدو، مع أن تعـداده كـان كبيراً جـداً، لكـن قبل أن يتراجع، وقعت حـادثة، نجمت عن خـداع اليهـود، الذين اعتقـدوا أن أعـداءنا هؤلاء، كـانوا شطراً من الجنس اليهودي، ممن كـان محبـوساً في جبـال القوقـاز، وأنهم على هذا قـدمـوا لمساعـدتهم، في سبيل اخضـاع المسيحيين، ولقـد رأينا أن هذه الشرور العظيمة جديرة بأن نقحم أخبارها في هذا الكتاب.

الشرور الهائلة لليهود

في هذه الآونة، اعتقدت أعداد من اليهود، في القارة، خاصة في المناطق العائدة للامبراطورية بأن هؤلاء التتار والكومان، كانوا شطراً من جنسهم، وهم الذين حبسهم الرب في جبال القوقاز، بناء على أدعية الاسكندر الكبير، وقداجتمعوا بناء على دعوة عامة، في مكان سري، حيث قام واحد منهم، بدا أنه الأكثر حكمة والأعظم نفوذاً بينهم، فخاطبهم كما يلي:

«إخواني، نسل إبراهيم الشهير، وكرم رب السبت، الذين سمح ربنا أدوناي، لأن يعيشوا طويلاً مظلومين تحت حكم المسيحيين، لقد حان الآن الوقت كي نحرر أنفسنا، وأن نقوم بقضاء من الرب بظلمهم بدورنا، في سبيل أن يجري انقاذ بقية بني اسرائيل، لأن إخواننا من أسباط بني اسرائيل، الذين كانوا من قبل محبوسين، قد انطلقوا الآن وتدفقوا لإخضاع العالم كله، ووضعه تحت حكمهم وحكمنا، وبقدر ما كانت معاناتنا الماضية حادة وطويلة، سوف يكون مجدنا أعظم، وهو المجد الذي سوف يصير إلينا، ولذلك دعونا نذهب إلى استقبالهم مع هدايا ثمينة، وأن نتلقاهم بتكريم هو الأعظم، فهم يحتاجون إلى القمح، والخمر، والسلاح».

وسمع الحشد كله كلامه بسرور، وجلبوا على الفور جميع السيوف، والخناجر، والدروع، التي وجدوها معروضة للبيع في أي مكان، وفي سبيل إخفاء خيانتهم، وضعوهم في براميل، ثم إنهم أخبروا المقدمين المسيحيين، الذين كانوا تحت حكمهم، بأن هؤلاء القوم الذين يدعون بشكل عام باسم تتار، كانوا يهوداً، وأنهم لن يشربوا خمرة، ما لم تكن معمولة من قبل يهود، فهذا ما أخبروننا به، ورجونا بحرارة أن نزودهم ببعض الخمرة المعمولة من قبلنا، نحن إخوانهم.

ونحن رغبة منا، في إزالة هؤلاء الأعداء غير البشريين العامين من بيننا، وأن نحرر المسيحيين من طغيان الدماء المحيق بهم، أعددنا حوالي الثلاثين برميلاً مليئين بخمور مسمومة مميتة، حتى تحمل إليهم في أسرع وقت ممكن، ولذلك سمح المسيحيون إلى هؤلاء اليهود الأشرار، بتقديم هذه الهدية الشريرة إلى أعدائهم الأشرار، وحدث أنه بعدما قطع هؤلاء اليهود مسافة طويلة من ألمانيا، وكانوا على وشك عبور أحد الجسور مع براميلهم، طالبهم صاحب الجسر —تبعاً للعادة— بدفع الضريبة مقابل جوازهم، ورد عليه اليهود بصلف، ورفضوا تلبية مطالبه، وقالوا بأنهم كانوا مستخدمين في هذا العمل لصالح الامبراطورية، لابل في الحقيقة لصالح المسيحية كلها، حيث أنهم كانوا مرسلين إلى التتار، بشكل سري لتسميمهم بخمرتهم،وتشكك الحافظ للجسر بتأكيدات اليهود، فأحدث فتحة في أحد البراميل، لكن ما من سائل تدفق منه، وهنا أصبح متأكداً من خيانتهم، فخلع غطاء البرميل، وفتحه بالقوة، فاكتشف أنه كان مملوءاً بالسلاح.

ولدى رؤيته لهذا المشهد، صرخ بصوت مرتفع «عجباً، ماهذه الخيانة التي لم يسمع بمثلها لماذا نسمح لمثل هؤلاء الناس بالعيش بيننا؟»،وعلى الفور قام مع آخرين، جمعتهم دهشتهم من حوله، فكسروا بقية البراميل، وما ان أنجزوا ذلك، حتى وجدوهم مملوئين بسيوف كولونية Cologne, وبخناجر من دون أغمدة، قد صفت وجمعت بشكل مندمج، وهكذا قاموا على الفور بإظهار الخيانة الخفية، والخداع غير الاعتيادي لليهود، الذين اختاروا مساعدة هؤلاء الذين هم أعداء مكشوفين للعالم، والذين كما قيل، كانوا بحاجة ماسة إلى السلاح، أكثر من مساعدة المسيحيين الذين سمحوا لهم بالعيش بينهم، واتصلوا بهم بكل وسيلة من وسائل الاتصال، ولذلك جرى تسليمهم على الفور إلى منفذي العقوبات، من أجل إما أن يوضعوا بسجن أبدي، أو أن يجري

إعدامهم بسيوفهم.

كيف جرى تحليل الناس من عهودهم بحمل الصليب مقابل دفع مبلغ من المال

وجرى في هذه الآونة، في سبيل سلب بلاد انكلترا التعيسة، ونهب ثرواتها، ابداع ألف طريقة، وذلك من قبل الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، الذين كانوا مدعومين بترخيص من قبل البابا، حيث تولوا أثناء وعظهم منح تحليل كامل من جميع الذنوب إلى جميع الذين سوف يحملون الصليب، في سبيل تحرير الأرض المقدسة، وإثر ذلك، وبعد يومين أو ثلاثة أيام على الأكثر، وبعدما أقنعوا كثيرين بحمل الصليب، قاموا بتحليل هؤلاء من تعهدهم، على شرط الاسهام بدفع مبلغ كبير من المال من أجل مساعدة الأرض المقدسة، وأن يدفع كل واحد، بقدر ماتسمح له إمكاناته، ولكي يجعلوا الانكليز أكثر جاهزية، وأكثر قبولاً بمطالبهم أعلنوا بأن المال سوف يجري إرساله إلى الإيرل رتشارد، وعلاوة على ذلك أروهم رسالة منه، وذلك لكي يقدموا ضمانة أفضل، كما أنهم منحوا بعض الغفرانات إلى رجال مسنين، ومرضى، ونساء، ومعتوهين، وأطفال، ممن حملوا الصليب، أو اقترحوا حمله، وتسلموا المال منهم مسبقاً من أجل هذا الغفران، وعرضوا رسائل توثيقية من الايرل رتشارد تتعلق بهذه القضية، وقد جرى الحصول على هذه الرسائل من البلاط الروماني، وبهذه الطريقة أفرغوا محافظ نقود الانكليز، وجرى الحصول على مبلغ كبير من المال، نظراً للحظوة التي تمتع بها الايرل رتشارد، إنما علينا هنا أن نسأل: من الذي سيكون الحافظ الأمين والموزع لهذا المال؟ ذلك أننا لانعرف.

تثبيت المعلم نيقولا أوف فارنهام في أسقفية درم

وفي التاسع من حزيران، في هذا العام، جرى تثبيت المعلم نيقولا

أوف فـارنهام Farnham الأسقف المنتخب لدرم، وتكريســـــه أسقفاً لذلـك الكرسي، في كنيسة القديـس أوسوولد Oswald في غلوستر، وقـد تولى تكريسه وولتر رئيس أسـاقفة يورك بحضـور الملك والملكة، مع عـــدد كبير من الأسـاقفـــة ورعـاة الـديرة، لكن فيما يتعلق بالقضية التـي نظر إليها والمتعلقة بتكـريسه للرهبانيـة، والتي أثيرت بين بعض الذين رغبوا في إثارة الخلاف، رفض نيقـولا المذكور المطالبة بأي امتيـاز ليس له حق فيـه، كما أنـه لم يظهـر نفسـه متعجـرفـاً أو متمـرداً، ولذلك جرى أثناء تكريسـه، بمشهد عـام أمام جميع الأساقفـة والنبلاء، وبحضـور مطرانيتـه، أن قـام وولتر رئيس الأسـاقفـة المذكـور، بمهـابة ووضوح بتكريسـه رهبانياً بصـوت مرتفع، وفقاً للعـادة، وكان ذلك كما يلي:

«أنا نيقولا، الأسقف المنتخب لكنيسة درم أعترف بالطاعـة القانونية، والاحترام، والخضـــوع لكنيســـة يـورك، وإليك أيها الأب وولتر رئيس أساقفتهـا، وأنا أدون هذا بيدي»، ثـم إنه قام على الفور، بحضـور جميع المحتشدين، فوضع عـلامة الصليب بالحبر على رأس الوثيقة، وناولها إلى رئيس الأساقفة كي يجري حفظها لديه في خزانته.

الموت التعيس للإيرل غيلبرت مارشال

في الوقت الذي كانت فيـه الأيام تتضاعف، وتتـلاعب، وتخدع العالم بوقائع متنوعة، أعدّ الايرل غيلبرت مارشال مع بعض النبلاء الآخرين، نوعـاً من أنواع مبـاريات المبـارزات، مما كـان بعضهم يدعـوه باسم «مغامـرة»، لابل بالحري ينبغي دعوته «سـوء مغامرة»، فقـد جربوا أولاً قـوتهم على رمـايـات قـوس زيار من هارتفـورد، حيث تمكـن بوسـاطة براعتـه في تكتيكات الفروسيـة، من الحصول لنفسـه على الثناء في العلم العسكري، وأعلن الجميع، أنه على الرغم مـن صغر حجم جسـده، قـد نال باستحقاق التميز لنفسه نظراً لشجاعته، وهذا ما كان الايرل المذكور

يهدف نحوه بشكل رئيسي، لأنه كان في المقـام الأول، قد أعدّ للالتحاق بطوائف الكهنـة، حيث قيل بأنه كـــان ضعيفـاً، وغير بارع في التمارين الحربيـــة، وامتطى أثناء هـذه المبـــارزة على فـرس أصيل، من الخيــول الإيطاليـة لم يكن معتـاداً عليـه، وكـان مجهـزاً بدرع جميل، ومحاطاً بكتلة كثيفـة من الجنود، الذين مالبثـوا أن تركوه بعـد ذلك، وتفرقـوا، ينوون الحصول على الربح.

وعندمـا كـان الايرل يسلي نفسـه بتفقـد فـرسـه أثناء عـدوه بسرعـة قصوى، ومن دون التـوقف عن لكز طرفيه بركابيـه الحادين، ليحثه على سرعـة أكبر، ولأن الوضع اقتضى شـد المقود، انقطع المقـود من طرفيـه بشكل مفاجىء مـن عند عقدة الاتصال، وأخـذ الفرس يهز رأسـه نحو الأعلى، فأصابه بضربة قاسية على صـدره، وأكد بعض الذين كانوا هناك من دون تردد، بأن اللجام قـد جرى قطعـه بشكل خياني من قبل بعض الأشخـــاص الحسـودين، من أجـل أن يترك هكذا تحت رحمة فـرســـه، فيمـزق إلى قطع ويقتل، أو على الأقل يمكن أسره من قبل خصومـه كما يرغبون، وعلاوة على ذلك كان قد أصابه الصمم بسبب الضجة، وصار أعمى تقريبـاً، بسبب الحرّ، والغبار، والتعرق، وبات رأسـه مثقلاً بسبب وزن خوذته الثقيلة، ولم يعد من الممكن له السيطرة على حصانه وكبحه، لامن قبله ولا من قبل أي واحد آخر، وبعـد بعض الوقت أغمي عليه، وبدأ يتأرجح في سرجـه، ثم مالبث أن سقط شبـه ميت، وجاء سقـوطه من على ظهـر فرسـه، وإحـدى قدميـه معلقـة بالركاب، وبهذه الطريقـة جرى جره لمسافة ما فوق الحقل، حيث أصيب ببعض الجروح الداخلية، التي سببت موته.

ولقـد هلك في مسـاء السـابع والعشريـن من حـزيران، وسط حـزن عميق وصراخ مرتفع من قبل الذين رأوه في بيت الرهبان في هارتفورد، وقبل أن يلفظ نفسـه الأخير، حيث كـان قـد تلقى قـربان الموت، عمل

طلباً إلى الكنيسة، كنيسة العذراء المباركةفي هارتفورد في سبيل إنقاذ روحه، وجرى بعد ذلك فتح جسده، فوجدوا أن كبده كان أسود وممزقاً من قوة الضربات التي تلقاها، وقد جرى دفن أحشائه في الكنيسة المذكورة، أمام مذبح القديسة مريم، التي إليها عهد بروحه أثناء موته.

وجرى في اليوم التالي حمل جسده —حيث تقدم عليه أخوه، وروفق من قبل أسرته كلها— إلى لندن ليدفن قرب أبيه، وقتل أثناء المبارزة نفسها أيضاً، واحد من حاشية الايرل اسمه روبرت دي سي Saye, وأيضاً دفنت أحشاؤه مع أحشاء الايرل، وأصيب أيضاً كثير من الفرسان والرجال المسلحين بجراحات قاسية بالرماح أثناء المبارزة نفسها، لأن حسد وغيرة العديد من الأطراف المسؤولة قد حولت الرياضة إلى معركة.

وعانت شؤون الصليب، ومصالح الأرض المقدسة من خسارة كبيرة، بموت الايرل المذكور، لأنه كان قد نوى الانطلاق نحو القدس في الشهر المقبل من دون تقاعس، حيث كان قد جمع مالاً من جميع الذين حملوا الصليب في البلاد، فقد دفع مائتي مارك إلى البابا للحصول على إذنه، وبهذا قلّد التصرف الحكيم للايرل رتشارد.

كيف جبا إثنان من كهنة البابا مالاً من جميع أرجاء انكلترا من أجل استخدامات قداسته

أثناء هذا الوقت كله عندما كان الحظ يلعب بشؤون حشود البشر، استمر شره الرومان ونهمهم ولم يشبع، لأنه بعد مغادرة النائب البابوي، بقي اثنان من كهنة البابا في انكلترا، من أجل القيام بواجبات النائب البابوي، وكان هذان الاثنان هما بطرس الذي كنيته لى روج، وبطرس دي سوبينو Supino, وكانا اثنان لايعرفان التعب في الجباية، وكانا يحملان ترخيصاً بابوياً من أجل استخراج وكالات، وفرض حرمانات

من شراكة المؤمنين، وحرمانات كنسية، ولقد جبيا الأموال بمختلف الطرائق من الكنيسة الانكليزية التعيسة، من أجل —كما قالا— أن تتمكن الكنيسة الرومانية، التي أصيبت إصابات مضاعفة بمختلف الطرق، من استرداد أنفاسها، وأن تتنفس مجدداً بشكل حر، وتصرف بطرس لى روج، المتقدم الذكر، الذي وضع نفسه في مقام فوق الرجل الآخر، وفق طرائق النائب البابوي، وكتب رسائل إلى راعي الدير هذا، وإلى رئيس الرهبان ذاك، وتوجه بالخطاب برسائله دوماً هكذا: «من المعلم بطرس لى روج، الصديق المقرب، والقريب لقداسة البابا، تحيات، إلخ، إلخ»، واستمر استناداً على هذه الصلاحيات في فرض الوكالات واستخراج الأموال بمختلف طرائق الجباية، وذهب زميله بطرس دي سوبينو إلى ايرلندا، بموجب إذن من الملك، وذلك لصالح البابا، حيث كان يحمل ترخيصاً منه، وبما أنه حصل على المساعدة من السلطة المدنية، قام بطغيان عظيم باستخراج المال من أساقفة تلك الكنيسة، وقدم بعض الذين كانوا معلقين وممنوعين من ممارسة وظائفهم، إلى بطرس المذكور في لندن، لإرضائه بكل ما اختار أن يطلبه، وعاد بطرس سوبينو من ايرلندا في الخريف التالي، وأخذ طريقه إلى روما حاملاً معه ألفاً وخمسمائة مارك، وحقائب سرجه كانت مليئة تماماً.

الملك الفرنسي يعطي مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس

في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، في هذا العام، أعطى الملك الفرنسي، بناء على نصيحة الذين يكرهون مملكة انكلترا، مقاطعة بواتو إلى أخيه أمفولسوس Amphulsus وأضفى في الوقت نفسه، وسط أبهة عظيمة، نطاق الفروسية على أمفولسوس المذكور، كما منحه مرتبة كونتية بواتو، التي كانت كما هو معلوم بموجب الحق هدية الملك الفرنسي الخاصة إلى ملك انكلترا، أو إلى أخيه، كما أنه أوجد في الوقت نفسه عدداً من الفرسان النبلاء لتكريم تنصيب أمفولسوس

المذكور، وبذلك هو قدم قليلاً من التقدير، أو بالحري لاشيء من التقدير إلى إدعاء أو لقب الايرل رتشارد، الذي قاتل باخلاص في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وحرر الأسرى الفرنسيين، ودهش كثيرون إلى حد كبير تجاه أفراد النبالة الفرنسية، التي سمحت بهذا، وبذلك كانوا غير أوفياء، وأعادوا من دون حياء الشر مقابل الخير.

رسالة الإيرل رتشارد الحاوية لرواية عن حجه

وكان في هذه الآونة أصدقاء الايرل رتشارد قلقين حول شؤونه، وقد حصلوا على معلومات وافية عن ذلك في الرسالة التالية التي أرسلت من قبله:

من رتشارد ايرل كورنوول وكونت بواتو إلى النبلاء، وإلى المبجلين والسادة المحبوبين في المسيح ب. B دي ريفر Rivers, وايرل أوف ديفون Devon, وراعي دير بيوليو Beaulieu وروبرت الكاهن، صحة وكل الرغبات الطيبة، مع عواطف مخلصة:

إنه بالنسبة للشدة العظيمة والأسى الذي تعيشه الأرض المقدسة، وبشأن المشكلة الصعبة المتعلقة بإعادتها وتخليصها منذ الفاجعة عند غزة، لقد وصل رجال عقلاء ومجربين وعارفين بالصدق إلى قرب هذه المواضع، ووصلت أخبار من بعيد، إنما يمكن لرسالتنا الحالية أن تكشف سرنا، وبما أن الطريق مفتوح إليكم، فإنها قد تعطي الفرصة لتفاسير خبيثة، لذلك فإن كثيراً من الأشياء سوف يجري إيضاحها فيها، هي الآن نائمة، والكذب يغطي قعر قلبنا.

فمنذ الوقت الذي ابتعد فيه الملوك والممالك عن القدس، ولأنها كانت مقسمة وهي بأيدي متملكين ظالمين وغير عادلين، لقد شعرنا بحزن كبير، ولايمكننا أن نلتزم بالصمت، ولابد لنا من أن نطلق ألسنتنا بشكاوي مريرة، حيث ليس هناك قضية طيبة نشغلهم بها، لأن سيف

الرحمة قد خرق روحنا، إلى درجة أن روحنا لم تعد قادرة على أن تستوعب ذاتها، لأنه بالفعل منذ بعض الوقت تحكم الخلاف بالأرض المقدسة بدلاً من السلام، وحلّ الشقاق مكان الوحدة، والكراهية محل المحبة، والعدل قد أقصي نهائياً، ومن هذه البذور هناك الكثير من النباتات في تلك الأرض، وصار كثيرون جامعون للثمار التي نتجت عنها، وأنا آمل بأنهم الآن قد اجتثوا، هذا وليس هناك بين جميع محبيها واحد يتولى مواساتها، لأن الأخوين التوأمين غير متفقين وهما على صدر أمهما، والذين كان عملهم الدفاع عنها، أصبحوا متشامخين بوفرتهم، وقد أكلوا وتقيأوا هذه المكونات حتى الجذور، وتسببوا بجعل أغصانهم تمتد بالطول وبالعرض، لأن كميات وافرة من الأشياء الجيدة تنتج مثل هذه الأشياء المزعجة بعد خلاف متبادل، ذلك أن تأنيبات الأب المترأس لكرسي بطرس، نظر إليها بعدم تقدير مطلق، مع أن الفئة الأقوى قد بهرت العالم بشهرتها، وفي سبيل تهدئة هذه الفئات المتنازعة قد بذلنا جهداً كبيراً، لكن مازالت خطوات السلام لم تترك أي أثر، بقدر ما أن أتباع الخلاف لم يصبحوا معتادين على كلمات السلام، وتمكن الذين لديهم أموال بسهولة من جذب الآخرين إليهم مادامت الأموال موجودة، لكن عندما حلّ وقت صون اعتدال أمهم، تركوا صانعي السلام، واختلقوا مشاغل سرية، ولم يظهروا الاهتمام بجلب المواساة إلى أمهم، ولهذا السبب فإن العدد الأكبر من الفرسان الغاليين، الذين تعدادهم تقريباً ضعف تعداد المسلمين، قد انغمسوا كلياً وهلكوا بالعادات الشريرة، وتشجع أعداء الصليب بشكل غير متوقع، حتى أن كتلة صغيرة منهم لم تعبأ سوى قليلاً، أو لاتعبأ بالمرة بالعدد الكبير منا.

وبسبب هذا الوضع، وجدنا عندما وصلنا أولاً إلى هنا، أن النبلاء الذين يمكن أن يقدموا العون لنا، قد شرعوا بالمغادرة، وبدا أن انقاذ

تجعل الجراحات من دون وسائل علاجهم، والأسف من دون وسائل المواساة، لأننا عندما كنا متوقعين لدى وصولنا إلى هنا، القيام بالتعاون مع بقية الصليبيين، ببذل قصارى جهدنا، حسبما هو مفروض علينا، بموجب عهدنا، بالانتقام للاهانات التي لحقت بالصليب من قبل أعداء ذلك الصليب، وبمهاجمة أراضيهم، واحتلالها بعد ذلك، وإعادتها بعد ذلك إلى وضع صالح، رأينا ملك نافار، الذي كان آنذاك مقدم الجيش ورئيسه، وكونت بريتاني، ووجدناهما على الرغم من أنهما كانا على علم مسبق بموعد وصولنا قبل خمسة عشر يوماً من وصولنا إلى عكا، قد غادرا مع حشد كبير جداً، وقبل أن يغادرا، وفي سبيل أن يبدوا أنهما قد عملا شيئاً ما، عقدا نوعاً من أنواع الهدنة مع الناصر، صاحب الكرك، وتم الاتفاق بموجب ذلك بوجوب تخليه عن جميع الأسرى الذين أسروا عند غزة، الذين كانوا مسجونين لديه، أو تحت سلطانه، وذلك مع بعض الأراضي المشمولة بشروط الهدنة، وكضمانة على ذلك أعطى ابنه وإخوانه رهائن، وأثبت شرطاً هو مهلة أربعين يوماً من أجل تنفيذ شروط الهدنة، والذي حدث أنه قبل انقضاء تلك المدة غادر الملك المذكور والكونت، دون الاهتمام بالموعد المتفق عليه، أو بشروط الهدنة، وخلال تلك المدة، وبالتحديد عشية عيد القديس ديونيسيوس Dionysius, وصلنا إلى عكا، كما كنا قد أخبرناكم من قبل، وقمنا على الفور، بناء على نصيحةعامة من الجميع، فبعثنا إلى الناصر المذكور، نسأله عما إذا كان سيستطيع مراعاة الهدنة معنا، وهي الهدنة التي عملها مع الملك المذكور، وتلقينا جواباً منه، بأنه على استعداد لفعل ذلك إذا كان ممكناً، وذلك بسبب احترامه لملك نافار المذكور، مع أنه سوف يربح قليلاً منها، وعلى هذا قمنا بناء على نصيحة النبلاء بانتظار استكمال الموعد المتفق عليه، لنرى النتيجة، وعند انتهاء الموعد، تلقينا رسالة أخرى منه، بأنه لايستطيع بأي شكل من الأشكال الالتزام بالاتفاقية المتقدمة الذكر، وعند سماعنا بهذا، قمنا بموافقة من الجميع، بحمل

المتقدمة الذكر، وعند سماعنا بهذا، قمنا بموافقة من الجميع، بحمل أنفسنا إلى يافا، لنتولى، مع جميع الحيطة الممكنة، تحسين أوضاع الأرض المقدسة، التي تدهورت كثيراً للأسباب المتقدمة الذكر.

وقدم إلينا إلى هذا المكان رجل صاحب رتبة وسلطة، من قبل سلطان مصر، وأخبرنا بأن مولاه كان راغباً بالدخول في هدنة معنا، إذا أردنا ذلك، وبعد سماع ماتولى عرضه علينا وفهمنا تماماً لذلك، وإثر طلبنا بكل اخلاص نعمة الرب، قمنا بناء على نصيحة دوق بيرغندي، والكونت وولتر دي بريين، ومقدم الاسبتارية، والنبلاء الآخرين، لابل في الحقيقة الجزء الرئيسي من الجيش، بالموافقة على شروط الهدنة المتقدم ذكرها، مع أنها بدت عند وصولنا قضية صعبة الانجاز، علماً بأنها هدنة تستحق الثناء، وتقدم منافع إلى الأرض المقدسة، لأنها مصدر للبهجة والأمان للناس الفقراء، وللمسافرين، ومفيدة ومقبولة من قبل الطبقة الوسطى من السكان، وصالحة ومشرفة للأغنياء ولرجال الدين.

كما أنه لم يظهر لنا لدى نظرنا إلى الأوضاع المتدهورة للأحداث المحيطة، أننا لايمكننا آنذاك أن نستخدم أنفسنا بشكل نافع أكثر من العمل على تخليص الأسرى التعساء من الأسر، لأنه كان هناك نقص بالرجال والأشياء (مع أننا وحدنا بقينا ومعنا مال من حولنا) وكان من الممكن الإفادة من أيام الهدنة، بتقوية وتحصين المدن والقلاع التي أصبحت مدمرة، في وجه المسلمين وضدهم، ولقد رأينا من الموائم أن نذكر أسماء الأماكن والمناطق التي أعطيت إلينا، بموجب شروط الهدنة، مع أن ذلك قد يكون متعباً لكم، ونحن نفعل ذلك خشية أن يقوم بعضهم بموجب تفسير شرير، فيعزو أعمالنا المجيدة إلى غيرنا، أو أن يقوم بفساد وتآمر بتشويه سماتهم، لأن هناك بعضاً —مع أنهم قلة— قد رفضوا الموافقة على شروط الهدنة، وهذه الشروط هي كما يلي:

إن الأراضي التي أعطيت بناء على شروط الهدنة مع الايرل رتشارد

هي هذه: المنطقــة الجبلية لبيروت، مـع الأراضي والأجـزاء المفصــولة العـائـدة لها، وجميع منطقـة السعيـد Said مع متعلقـاتها، وقـــــلاع: الشقيف، والقـرين، والقلعة الجديـدة مع متعلقاتهن، واللقيــة Lekayt واسكندرون، ولبوة Lebet, وبشيت Becheet(?) واللدّ مع متعلقاتهن، وأراضي كل من الجبـال والسهول، وقـد تخلوا أيضاً عن أراضي بلدة تورون مـع متعلقـاتها، وطابار Tabar(?)ومتعلقـــــاتها، وقلعة Benaer, وقلاع Amabel, وراما Rama, و Amost, وكذلك قلعة Hybile, الواقعة فيها وراء النهر باتجاه الشرق، مع جميع متعلقـــاتهم، كما استسلمت قلعتــا صفـــد والناصرة وكذلك جبـل الطور، واللجون و Aschalis, وقلعة بيت جبرين مع متعلقـاتهم، ومع جميع القـرى العـائــدة إلى بيت اسبتـارية القِـديس يوحنا، وكـذلك ماهو معـروف أنه عائـد إليهم، أي المتعلقات بالقـدس وببيت لحم، وكـذلك جميع الأرض القـائمـة على الطريق التي تقـود من القـدس إلى بيت لحم، ومن القدس إلى لدّ رامـا، ومن اللد إلى يافـا، مع جميع القـــرى التي توجب أن تكون في أيدي الصليبيين، وجـــرى أيضـاً تسليم مـدينة القدس إلى الصليبيين، ومثل ذلك بيت لحم أيضـاً، وجميع الأرض التي من حـول القـدس وجميع القرى، التـي جرت تسميتهـا في شروط الهدنة، وهي القـــديس لعـــازر، بيت عنيــا، بيـت صيــدا، و Wissewurch, و Derphat, وبيت عـــامـــوس Bethamus, و Bechele, وبيتك Bethic, وعنون Anon,وكــــــوكبي Kokabi, وبيرســـامـــول Bersamul, و Bebrit, و Kikai, وبيت أمي Bethuame, و Bebe, و Kipsa, و Bethit, وحـوريب Horeb, و Athacana, و Clepsta, و Tolma, و Argahoga, و Bertapsa, و Bethsaphau, و Tabli, و Sorobooz,(1)

١- لقـد تعـذر ضبط أسماء هذه المواقع، ولم تـذكـر المصـادر العـربيـة المتـوفـرة هذه الهدنة بالتفصيل.

وجميع متعلقاتهم، والأرض المسماة في تقسيمات القدس، وما هو معتمد على الطريق الذي هو هناك، حسبما هو موجود ومشروح في الهدنة الكبرى.

وجميع هذه المناطق،والقلاع الموجودة فيها، التي تقدم ذكرها، مسموح للصليبيين القيام بتحصينها أثناء الهدنة، إذا ما رغبوا، ولسوف تجري إعادة النبلاء الأسرى أيضاً مع جميع الأسرى والفرنسيين فهؤلاء سوف يجري إطلاق سراحهم من على الجانبين، وفور الفراغ من إعداد الهدنة المتقدمة الذكر، أخذنا طريقنا إلى عسقلان، ولكي لاتمر الأيام من دون عمل، قمنا بناء على نصيحة جميع مقدمي الصليبيين بالشروع بتحصين قلعة كبيرة هناك، وأرسلنا من ذلك المكان، رسلاً إلى سلطان مصر، لإقناعه باقسام يمين بالتعهد بمراعاة الهدنة المذكورة، إذا مارغب بفعل ذلك، ولكي يرسل في الوقت ذاته الأسرى الذين تقدم ذكرهم، ولقد قام لسبب لانعرفه بحبس رسلنا لديه، دون إعطاء أي جواب، من عيد القديس أندرو حتى يوم الخميس بعد عيد تطهير مريم العذراء (٢-شباط)، غير أنه خلال هذا الوقت، حسبما وجدنا في رسائله قام بناء على نصيحة أعيانه، فأقسم بالمحافظة على الهدنة المذكورة، ولقد بقينا خلال هذا الوقت كله في عسقلان مواظبين على نيتنا في بناء القلعة المتقدمة الذكر، حيث تقدم العمل فيها كثيراً، وذلك بفضل الرب، إلى حد أنه في الوقت الذي نرسل فيه هذه العروض، قد جرى تزيينها، وقد أحيطت كلياً بسور مزدوج، وبأسوار عالية وشرافات، مع أربع أحجار مربعة وأعمدة منحوتة من الرخام، وكل شيء عائد إلى قلعة، ما عدا خندق من حولها، سوف ينتهي بمشيئة الرب، من دون احباط، خلال شهر من عيد الفصح، وهذا لم يعمل لسبب جيد، هو بما أننا لم نكن متأكدين بأن الهدنة سوف تتثبت، رأينا أنه من الأفضل شغل وقتنا في البناء وفي تحصين هذه القلعة، حتى إذا ما خرقت الهدنة بموجب أي

حادث، يمكننا أن نمتلك في التخوم وعند المدخل نفسه لأراضيهم، هذا المكان، الـذي كـــان من قبل تحت حكمهم، ويكـون لنا مكانـاً حصيناً للالتجـاء إليه، إذا مـا دعتنا الضرورة إلى التراجع هناك، وكـذلك الذين سوف يبقون هناك، لن يكون لديهم مسـوغ للخوف من نتيجة الحصار، لأنه صحيح أن المحاصرين يمكنهم أن يقطعـوا جميع المساعدات والمؤن ويحولوا دون وصولها إليهم، مع ذلـك يمكن لجميع الحاجات الضرورية أن تصل إليهم بالبحر، وفي أيام السلم أيضاً، نحن نعتقد أن هذه القلعة لن تكون من دون فوائدها، بما أنها المفتاح والملجأ في البر والبحر لمملكة القـدس، وهي ستكون في الوقت نفسـه تخريب وتدمير لمصر وللمناطق الجنوبية من البلاد.

وقمنا بعـد هذا في يوم عيد القـديس جرجس، بعـدما جـرى الحلف على مراعـاة السلام من الجهتين، وبعـدما جرى تثبيـت الهدنة، فاستقبلنا —وفقـاً لشروط الهدنة— جميع الأسرى الصليبيين، الذيـن كنا نتـوقع وصـولهم وننتظرهم منذ وقت طـويل، وبعـد إكمال جميع هذه المسـائل، قمنا بتوديع الأرض المقـدسة بسلام، وفي يوم عيـد العثور على الصليب المقـدس، أقلعنا من عكا للعودة إلى الوطن، لكن لعـدم توفر ريح طيبـة أثناء الرحلة، ولأننا كنـا متعبين كثيراً نزلنا في تربيني Trapani في صقليـة، وكـان ذلك في ثمانيـة عيـد القـديس يوحنا المعمـدان، وسمعنا ونحن في ذلك المكان نبـأ اعتقـال وسجن بعـض الأسـاقفــة، وبالآلام المحـزنة الأخـرى التي عـانت منهـا الكنيســة، وبناء عليـه، وفي سبيل استرداد السـلام، ببذل كل مـا نملكه من قوة، بين هؤلاء المتخـاصمين، ولكي نبذل قصارى جهودنا من أجل اطلاق سراح الأسرى، وفي سبيل تقديم المواساة إلى أمنا، صرفنا وجهـة سفرنا، وتحولنا للذهاب إلى بلاط رومـا، وحـالما يسمح لنا الرب، المقـدر لكل شيء ولكل حـدث، ننوي العودة إلى انكلترا، بكل سرعة ممكنة».

قبله مع التكريم كله، وبعدما تعـانقاً، وسط صرخات الترحيب من قبل جميع أتباع الامبراطـور، انخرطا في حديث طـويل، كان مرغـوباً به منذ زمن طويل، وذلك مع مختلف أنـواع التهاني، ومتعـا نفسيهما كأصـدقـاء لعـدة أيام، وأمـر الامبراطور بمعـاملتـه بلطف ونعـومـة، مع الفصـد، والحمامات، ومختلف أنواع الكمادات الطبية حتـى يسترد قوته بعد مخاطر البحر، وامتلك بعد عدة أيام، بمـوجب إذن من الامبراطور، حديثاً حراً وطويلاً مع أخته الامبراطورة، وبموجب أوامر الامبراطور أيضاً، جرى عـرض مختلف أنواع الألعـاب وآلات الموسيقى، التي شريت لتسليـة الامبراطورة، عـرضهـا عليـه لرؤيتهـا ولتفحصهـا، ومنحـه هذا سروراً عظيماً وفرحاً.

وكان بين الأشياء المبدعة التي أدهشته، كان هناك لعبة خاصة أثارت اعجابه وثناءه، فقد كانت هناك فتاتان مسلمتان رشيقتان، قد ركبتا فوق أربع كـرات مستـديرة، قـد وضعت فـوق الأرض، حيث وقفت الأولى فوق كرتين، والأخـرى فوق الاثنتين الأخريتين وقد سـارتا نحو الخلف ونحـو الأمـام، وهما تصفقـان بأيـديهن، وتتحـركـان بسرور فـوق هذه الكرات المتحـركة، وتحركان أذرعتهـن بحركات معبرة، وتغنيـان مختلف الألحان، وتتمايلان بجسـديهما وفقـاً للحن، وتضربان بـالصنوج أو بالكوسات بأيديهن معاً، ويضعن جسديهما في مختلف الأوضـاع المسلية، وقد قدمن مع البهلوانات الآخرين، مشهداً ممتعاً أن تنظر إليه.

وبعد مـرور عدة أيام استراحا فيهـا من متاعبهما، أرسل الامبراطور، الايرل رتشـارد الذي وثق باخلاصـه وحكمته، إلى بلاط رومـا (حسبما وردت الاشـارة الموجـزة إلى ذلك في الرسـالة التي بعث بها الايرل إلى انكلترا) في سبيل إعـادة السـلام بينه وبين البـابـا، وأعطى الامبراطور أيضاً، بالإضـافة إلى التشريفات التي أضفاها على الايرل المذكـور، ورقة مختـومـة بالختم الامبراطوري، تعهـد فيهـا بالالتـزام بقـراره، حـول أية

كان مشتاقاً كثيراً لرؤيته، وذلك بوساطة القيادة والتوجيه المريح لمثل هذا الرجل، الذي كانت تعلوه بحكمة ابتسامة مرضية، وبذلك اكتشف التأثير القوي، للأدعية المتواصلة، للرجال المستقيمين، الذين عهد بنفسه بتقوى إليهم، عندما كان على وشك الشروع بحجه، لأنه عندما كان على وشك القيام برحلته، جاء إلى كنيسة القديس ألبان، الشهيد الرائد لانكلترا، ودخل إلى بيت هيئة الكهنة، وتوسل إلى رهبان الدير، بأن يسمح له بمشاركة خاصة في منافع صلواتهم، والشيء نفسه قد فعله أيضاً في بعض البيوت الأخرى العائدة لرجال الدين، حيث كان من المعتقد أن القداسة مع نظام الطائفة لها مكانة عليّة وتقدير كبير، وللعار ولأسف أولئك من طلاب الكنيسة الرومانية، أن الأساقفة والنواب البابويين، الذين أرسلتهم الكنيسة إلى ما بيننا، لجمع المال، والذين انطلقوا بمثابة مرآة ومثل للرجال العلمانيين، أنهم لم يعملوا وفق الطريقة نفسها، عندما كانوا يقلعون للقيام برحلاتهم، في سبيل أن يكونوا مؤيدين في مخاطرهم بصلوات القديسين، لأننا هكذا أمرنا أن نعمل في الكتابات المقدسة، فعندما وضع القديس بطرس الرسول في السجن، عملت له صلوات بلا انقطاع من قبل الناس، وقد أطلق سراحه من قبل الملاك الذي أرسل إليه من قبل الرب.

الإمبراطور يستقبل الإيرل رتشارد ببهجة

وفي الوقت نفسه، عندما كان الايرل رتشارد على طريقه للالتحاق بالامبراطور، استقبل في مختلف المدن التي اجتاز بها بسرور كبير، وبتشريف، فقد خرج المواطنون مع زوجاتهم لاستقباله مع الموسيقى والغناء، وهم يحملون أغصان الأشجار والورود، وهم أيضاً يرتدون ثياب العيد وزينته، وكان بعض الفرسان يمتطون على خيول ثمينة، وكان ذلك من صنع دليله، الذي كان قد تلقى أوامر من الامبراطور ليتصرف هكذا، وعندما وصل أخيراً إلى عند الامبراطور، استقبل من

انكلترا، وقدم إليه شكوى جديدة حول هذه الجريمة المنحطة، والتمس من الملك بحرارة العمل على اطلاق سراح غريفين، الذي حبس هكذا سجيناً بشكل غير عادل من قبل حفيده داوود، ليمنع خبر وصمة هذا العدوان الظالم من الوصول إلى البلدان النائية، وإلى بلاط روما، مما سيسبب الأذى إلى كرامته الملكية، وبناء عليه لام الملك بحدة حفيده داوود بسبب خيانته، وقام بنصيحته وبأمره بتحرير أخيه، وبذلك يسترد السمعة الجيدة لاسمه، والتحليل من قرار الحرمان الكنسي، وهذا —على كل حال— مارفض داوود بإصرار أن يفعله، وأخبر الملك مؤكداً، أنه إذا ما أطلق سراح غريفين، فإن ويلز لن تتمتع بعد هذا بالأمان والسلام.

وكان غريفين قد علم بهذا، فأرسل بشكل سري رسالة إلى الملك، أنه إذا ما أطلق سراحه وأخرجه من السجن، سوف يستحوذ في المستقبل على أرضه منه، أي من الملك، وسوف يدفع له بإخلاص مائتي مارك سنوياً مقابلها، مع كثير من الشكر لخدماته اللطيفة، وربط نفسه بيمين بتنفيذ هذا، وأن يعطيه في الوقت نفسه رهينة خاصة، وبالاضافة إلى هذا، هو سوف يساعده بنشاط على اخضاع ويلز والويلزيين حتى الأخير، وهم الذين متمردون ضده، ومازالوا غير خاضعين، وقام مقدم ويلزي آخر قوي جداً، اسمه غريفين بن مادوك Madoch, فوعد الملك أيضاً بتقديم مساعدة موثوقة ومتينة إذا ما قام بغزو ويلز، وشن الحرب ضد داوود، الذي كان رجلاً زائفاً، ويتصرف بشكل غير عادل نحو كثير منهم.

ملك إنكلترا يزحف إلى ويلز مع جيشه

وأثارت هذه الوعود الملك وشجعته، فعمل ترتيباته للدخول إلى ويلز، وبناء عليه أصدر رسائل ملكية، أمر بها الجميع في جميع أرجاء

انكلترا، المتوجب عليهم أداء الخدمة العسكرية له، بالاجتماع في غلوستر في بداية الخريف، مجهزين بالخيول والسلاح، للانطلاق في حملة، قرر القيام بها، ثم إنه عقد اجتماعاً في شروبري Chrewbury في اليوم التالي لعيد القديس بطرس في الأغلال، وخلال أربعة عشر يوماً رفع رايته، ووجّه سلاحه ضد حفيده داوود، حيث اكتشف أنه خائن وعاصي في كل مجال، ولأنه رفض الحضور في أي وقت من الأوقات، إلى مؤتمره السلمي الذي دعاه الملك إليه، حتى مع وعد أمان بالمرور، ولأنه بعناد وبإصرار أجاب بأنه لن يطلق سراح أخيه غريفين ولابأي شكل من الأشكال.

ثم قاد الملك جيشه، الذي كان كبيراً، وقوياً جداً، بنظام حسن نحو شيستر، وكأنه يريد أن يشن الحرب مباشرة، وخاف داوود على كل حال من مواجهة عنفه، بسبب الحرارة التي استمرت عالية لمدة أربعة أشهر، والتي جففت جميع البحيرات، وأماكن المستنقعات في ويلز، وبسبب تأييد الملك من قبل كثير من النبلاء الويلزيين، ولاسيما غريفين القوي والعاقل، ابن مادوك، الذي صار حليفاً كبيراً للملك، وأحب غريفين أكثر منه، أي داوود، ولأنه كان تحت عقوبة الحرمان الكنسي، قد بات خائفاً من أن تتدهور أحواله أكثر، ولذلك بعث رسالة إلى الملك، أخبره فيها، بكثير من المنطق، أنه إذا ما أطلق سراحه، فإنه سوف يثير الحرب ويجددها ضده، وفرض داوود على الملك أيضاً شرطاً، أنه إذا ما استقبله بسلام، فسوف يربط نفسه بيمين، وسوف يقدم له رهائن، على أن لايحرمه من ميراثه، وعلى هذا وافق الملك بلطف، وبناء عليه أطلق داوود سراح أخيه غريفين، وبعث به إلى الملك، الذي اعتمد على المشورة الحكيمة، فأرسله لدى وصوله إلى لندن، تحت حماية وكفالة جون أوف لكسنغتون Lexington, ليحفظ هناك في البرج، مع بعض النبلاء الويلزيين الآخرين، ورهائن داوود، وأمراء ويلزيين

آخرين، ووقعت هذه الحوادث كلها فيما بين يومي عيد ميلاد القديسة مريم، وعيد القديس ميكائيل.

اخضاع ويلز وطاعتها للملك هنري الثالث من دون حرب

وأقسم داوود —كما ذكرنا من قبل— على المثول شخصياً أمام الملك، وبذلك حفظ شخصه وشرفه، وأشخاص وكرامة رعاياه، وأن يكون مثوله في لندن، أو في أي مكان آخر، حسبما سيقرره الملك، وعلاوة على ذلك أعطى رهائن من أجل الوفاء بوعده، وبناء عليه، قدم على الملك، إلى لندن، في اليوم الثامن بعد عيد القديس ميكائيل، وبعدما أدى يمين الولاء والتابعية، وقدم جميع الضمانات والمواثيق، سمح له بالمغادرة بسلام، لأنه كان صاحب قرابة وشيجة بالملك، وسمح له بالعودة إلى وطنه، وهكذا بفضل الرب انتصر هنري على أعدائه، وأخضع ويلز من دون سفك للدماء، ومن دون محاولة تجريب الحظ المشكوك فيه للحرب، واكتشفت ويلز في هذه الحالة كلمات ربنا التي ورد ذكرها في الانجيل، ذلك أنها لم تكن خالية من الصدق، وهي قوله:

«كل مملكة منقسمة على نفسها تنتهي إلى دمار».

اكتشاف القصدير في ألمانيا

وتمّ العثور في هذا العام، على نوع نقي جداً من القصدير، في ألمانيا للمرة الأولى، وبكميات أكبر مما هو موجود في انكلترا، ولقد قيل بأن هذا المعدن لم يتم العثور عليه من قبل منذ خلق الدنيا، في أي مكان، إلاّ في كورنوول، وقد تدهورت الآن أسعاره كثيراً وتناقصت بسبب الكميات التي أرسلت من ألمانيا إلى انكلترا.

خلاف بين أسقف لنكولن وراعي دير ويستمنستر

وتفجر في هذه الآونة خلاف بين روبرت، أسقف لنكولن، وبين

راعي دير ويستمنستر، وقــد نجم عنـه نفقــات كبيرة، وتسبب بأضرار عظيمة لكل من الفريقين، وازداد يوميـاً، ذلك أن الأسقف المذكور كان يسعى، مستخدمـاً كل الوسائـط والإمكانات التي قدر على استخـدامها لإضعـاف الامتيازات الصحيحـة لراعي الدير، بتحـويله كنيسة هسـول Heswell لاستخـدامـاته الخاصــة، واستحـوذ على تلك الكنيسـة بالقوة، وعندمـا تهيأت له أول فرصـة أخذها من الرهبـان، ومنحها إلى شخص آخـر، اسمـه المعلم نيقـولا، الذي كـان بإذلال قـد حـرمـه من منافعه، وكان راعي الدير، واثقاً من حقه ومن امتيازاته، فقاوم بشجاعة ووقف في وجهه.

الخلاف بين الملك وبين أسقف لنكولن

ونشب في هذه الآونة خلاف شـديد بين الملك وبين أسقف لنكولن، وكـان ذلـك بسبب واحـد من الكهنة التــابعين للملك،واسمــه جـون مانسيل Mansel, كان قد جُـعل متملكاً لكنيسة التيم Thame, من خلال فضل الملك ومسـاعدته، وكذلك بفضل مرسـوم تمّ الحصول عليـه من البـابا، وكـانت هذه الكنيسـة عندما غـدت شـاغـرة، أعطاها الأسقف المذكور، من قبل، إلى كاهن اسمه المعلم سيمون اللندني، وكان كــاهناً مكلفــاً بالخطايا تـابعـاً لأسقـف درم، ولقـد غضـب الملك من الأسقف كثيراً جـداً بسبب هذا التصرف، ولـذلك أرسل هذا الأسقف إلى الملك رسـالـة بوسـاطة رئيس شمامســة هنتغــدون Huntingdon وليستر عندمـا كان مـايزال في ويلز، وعاتبـه ووجّـه اللوم إليـه، لأنه لم يكن حـامــداً للرب، وغير مقـدر للنصر الذي أعطي إليــه، وأن عليـه التكفير على الفـور عن هذا الذنب العظيم، خشيـة أن يقـوم الرب أثناء غضبه بتحـويل ابتساماته إلى دمـوع، وعلى هذه الرسالة ردّ الملك: «إنني أرد بأمـان، لأن دعــوى استئناف قـد عملت، ومــا من شيء ينبغي أن يتعـرض للتغيير، أثناء إجراءات الاستئناف، وأنـا لم أحاول شيئاً سـوى

أنني تصرفت وفقاً لنصيحة العلماء بالشريعة، مع تأييد من السلطات الرسولية»، وعند ذلك قال واحد من رؤساء الأساقفة: «مولاي الملك، لدى سيدنا، أسقف لنكولن امتياز منح له من قبل البابا، فيه إعفاء له من الاستجابة لأي واحد، وذلك بناء على أمر المقام الرسولي، مالم تتوفر هناك إشارة خاصة إلى ذلك الامتياز، وبالنسبة لهذا الأمر، الذي قيل بأن جون المذكور قد حصل عليه من البابا، والذي بفضله فرض نفسه على هذه الكنيسة، معتمداً على مساعدتكم، لم يرد فيه ذكر لذلك الامتياز، وبناء عليه فإن أسقف لنكولن ليس مجبراً على الإجابة عليه في هذه القضية، ولاسيما فيما يتعلق بالتنازل عن كنيسة التيم، التي كانت من قبل، وبشكل عادل، قد أعطيت إلى آخر، ولنفترض أنه لم يكن مثل هذا الامتياز، إنه أمر غير منطقي بالنسبة إلى أي واحد لأن يدفع بنفسه لتملك أية كنيسة من دون استشارة —إن لم نقل ضد إرادة— أسقف المنطقة، حتى وإن كان معتمداً على تفويض بابوي، ذلك أن البابا يرغب أن تعمل جميع الأشياء، وفق نظام صحيح، وماهو السبب الداعي الآن للتسبب بالخلاف، أو بإيذاء أي من الفريقين؟ لأننا إذا قدرنا فضائل جون المذكور، الذي هو رجل حذر، ومتعلم بما فيه الكفاية، ومن الممكن لصاحب الغبطة أسقف لنكولن أن يستجيب بسهولة لطلبك، أو لطلبه شخصياً، فيجهزه بمنفعة مماثلة بالجودة إن لم تكن أغنى، والمنحة سوف تكون قانونية ومشرفة لكلا الطرفين، ويرجو الأسقف بكل تواضع واخلاص، أن لاتكون الأمور غير ذلك، لأنه على استعداد لإعلان الحرمان الكنسي ضد جميع الذين يسببون الأذى للكنيسة أو يضغطون عليها، ويعتدون على كرامتها».

وعندما سمع جون المذكور، وكذلك الملك ومستشاريه —هذه الرسالة— قال جون:

«ليكن بعيداً عني يامولاي الملك، أن أكون سبباً لأي خلاف، أو

نشــوب أي نزاع بين مثل هذه الشخصيــات المشهــورة، وإنني أتنازل بصبر، والرب سوف يزودني عندما يكون راغباً، مادمت حياً».

وعند ذلك وافـق الملك على إنهاء القضيــة، وبعــدمــا أكمـل جميع الترتيبـات الضرورية في ويلز، ترك هنـاك وولتر الألماني، مع بعض آخـر من الرجال ذوي الحكمة والنفوذ لبناء القلاع، ولتقوية الأماكن الضعيفة من المنطقـة، وأن يشحنها بالسـلاح والرجـال للدفاع عنهـا، وذهب هو نفســه مسروراً إلى لندن، وإلى ذلك المكان ذهب الأسقف المذكـور، وهو مستعـد تماماً للتفـوه بقرار الحرمـان الكنسي ضـد جون المذكـور بشكل خـاص وضـد جميـع المؤذين لكنيستـه ولكرامتهـا، وعندمــا باتت هذه الظروف معلومـة لدى جـون المذكــور، ذهب متـذللاً إلى الملك وقـال: «مولاي الملك إن أسقف لنكـولن منزعج جداً، ولكي لاأكـون أنا سبباً لقيام المزيد من الخلافات، أو فضائح تنتشر في الخارج، إنني أستقيل من هذه الكنيســة، ولدى سماع الملك لهذا، كـان منزعجـاً، خشيـة أن يقـوم الأسقف، الذي كان عنيفاً جداً، بشكل غير اعتيادي، فيذهب إلى المنفى، حيث رآه مستعداً تماماً لفعل ذلك، ومن ثم يضع أسقفيته تحت الحرمان من شراكـة المؤمنين، ولذلك لطف الإجـراءات القاسيـة التي خطط لها، وتوقف عن مساندة جـون في معارضته، لأنه رآه قـد رفض العمل ضد الأسقف.

ثم إنه بناء على ذلك، استحق جون المذكـور نيل جائزة، حيث أضفي عليــه بمنفعـة أغنى، كــانت هي كنيســة ميـدستــون Maidstone, وذلك كهـدية من الملك، وأغني في العام نفســه بالاستحواذ على كنيســة هوفدن Hoveden, الغنية، وهكذا هدأ الأسقف، وبناء على طلب الملك وعظ بشكل علني، وكأنه واحد صدره مشحـون بمفاتيح المعرفة، وعهد بهذا التواضع إلى الفئتين، وبين أشياء كثيرة عمل مقارنة بين أشعة الشمس التي هــي مستقيمـة، وبين عــدالة الملك، التــي ينبغي أن تكون

مستقيمة ودائمة، والآن وقد رأى أن خاطر الأسقف بات هادئاً، بات راغباً في تسوية الخلاف المدمر والمهين بينه وبين راعي دير ويستمنستر، حول مايتعلق بكنيسة هسول Heswell, وبناء عليه لم يترك الأسقف ولم يسمح له بالمغادرة، حتى كان كل شيء قد تمت تسويته بسلام وسعادة، وقام راعي الدير نفسه بتقديم جميع التسهيلات حتى تتم التسوية، وبناء عليه وقعت كنيسة هسول في نصيب راعي دير ويستمنستر، حيث استحوذ عليها، مع الاحتفاظ بالتقدمة طوال الحياة، إلى أسقف لنكولن، وحصلت كنيسة ويستمنستر بموجب هذه الترتيبات على زيادة كبيرة في منافعها وكرامتها، لأن الراعي رتشارد، كان، بالاضافة إلى هذه المنفعة التي لم تكن صغيرة، قد زاد من ثروة رعويته بمورد قدره ثلاثمائة مارك، سنوياً وبشكل دائم، بوساطة خدماته.

خلاف بين أسقف لنكولن وهيئة كهنته

ولقد استمر على كل حال هناك خلاف كان مؤذياً جداً، ونزاعاً لم يكن اعتيادياً بين أسقف لنكولن وهيئة كهنة لنكولن، ولقد تعرض بعض الكهنة الذين كانوا موجودين في لندن إلى سوء المعاملة والأذى من قبل الأسقف إلى حد أنهم كانوا مرغمين على اظهار ورقة، وأن يجعلوا محتوياتها معروفة بشكل علني، وذلك خشية أن تخضع كنيستهم إلى بعض الظلم الجديد، وذريعة ذلك أنا سأحكيها الآن.

استرداد كنيسة لنكولن وكرسيها

بما أنه، قبل الاستيلاء على انكلترا، كان الكرسي الأسقفي الموجود الآن في لنكولن، موجوداً في دورشستر Dorchester, وبسبب أخطاء الذي كان وقتذاك مترأساً على الأسقفية وضع ذلك المكان تحت التكفير من قبل البابا، وجرى خلع الأسقف، ولم يبق من آثار هذه القضية الكبيرة أي شيء بعد مرور سنين كثيرة، وكذلك الكرسي وأيضاً

عناية أسقف وولايته بعد نهاية وقت طويل، وحدث بعد ذلك في أيام وليم روفوس Rufus ابن وليم الأول، أن جرى تدمير كنائس كثيرة في الغابة الجديدة، بناء على أوامر الملك، لكنه ندم بعد ذلك كثيراً على مااقترفه من ذنب، وتلقى نصيحة صحيحة، وقام تكفيراً عن ذنبه، فأعاد تلك الأسقفية الفخمة وأغناها، وحسّن المكان نفسه، حيث أنه اشترى، أو أخذ بالتبادل أرضاً من م. M دي غونت Gaunt وهو نبيل كان قد قدم إلى انكلترا أثناء الاستيلاء عليها، وكان قد تسلم تلك الأرض كنوع من المكافأة بعد الانتصار، وقام الملك وليم الثاني المذكور بتأسيس كنيسة، هي الآن كنيسة لنكولن، وعند اكتمال هذا استدعى كاردينالين نائبين للبابا، كانا قد تسلما سلطة كاملة، للقيام بتكريس أسقف، وقد قدما إلى كنيسته من لدن قداسة البابا، ثم إنه دعا ثمانية رؤساء أساقفة، وستة عشر أسقفاً، وتدبر تكريس تلك الكنيسة بشكل مهيب، وأمر بتعيين رهبان علمانيين فيها، كما أمر بتعيين موردهم المنفرد، وحصصهم الخاصة بهم، وذلك في سبيل أن يتمكنوا تحت سلطة أسقف وعميد، من القيام بواجباتهم بشكل نظامي وشريف، وذلك وفقاً لبعض الأحكام والصيغ، ولكي يبقى هذا التكريس الهام، الذي تمتن بوساطة سلطة مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، وكذلك بوساطة رسائل من الكرسي الرسولي، ولكي يستمر دون أن يخرق إلى الأبد، كان التكريس قد عمل وفق صيغة أنه عندما يجري تكريس أسقف، وبعدما يجري وضع الكهنة في ممتلكاتهم، يمكنهم من ذلك الوقت فصاعداً، القيام بأداء الصلوات إلى الرب، وإلى أمه المقدسة ليلاً ونهاراً، وفق نظام صحيح ووقار، وعندما يحيد واحد من هؤلاء الكهنة عن طريق نظامهم، وبعدما يتلقى اللوم لذلك، ولايقلع ويقوّم طرائقه، يتوجب أن يتلقى زيارة تفقدية وعقوبة من العميد، لكن من دون الخوف بحمل أي شيء مسبق ضد هيئة الكهنة، ويتوجب عمل الشكوى ضده وحده بسبب مااقترفه، لكنه إذا لم يقوّم نفسه بطريقة أو أخرى، يتوجب

حرمانه من منفعته لمدة سنة واحـدة أو سنتين، تبعاً لدرجة خطيئته، وإذا ما ثابر على عصيانه، ينبغي طلب مساعدة الأسقف لاستخدام إجراءات تقـويميـة، لكن مع ذلك إذا مـا استمـر غير مقـوم وفي حـالة المعـاندة، وتحدى سلطتـه، يتـوجب تجريده من جميع منافعـه، وانزال عقـوبة أكثـر قسوة به من قبل الملك، وأعطت هـذه الأحكام الرضا إلى جميع الفئات، ولذلك جرى تدوينهـا كتابة، ومن ثم تثبيتهـا من قبل الكرسي الرسولي، وكتـابتهـا وعند ذلك جـرى تكريس الكنيسـة، وقـام جميع الذين كـانوا حـاضريـن بإصـدار عقــوبة الحرمـان الكنسي بحـق كل من يخرق هذه الأحكام.

وبناء عليـه قال الكهنة بما أن العميـد ليس مهملاً أو جـاهلاً، وليس ضعيفاً للقيام بزيارة تفقـدية للمقصرين، وحيث أن الأسقف قد تصرف بذاته بشكل غير عـادل و شـائـن في استخـراج الزيارات، ولم يظهـر أنه بريء تماماً من وصمـة العقوبة التي صـدرت بشكل مهيب من قبل مثل ذلك العدد من الآباء المقدسين، ولدى سماع الملك بهذا، ادعى أنه طرف في هذه القضيـة، وبالمحصلة فإن فئة الأسقف وهيئة الكهنة قـد ضعفت كثيراً، وبسبب مثل هذه المعيقـات والاحبـاطات، كـان من غير الممكن جلب القضية إلى النهـاية السلمية المرغوبة، لكنها تأخـرت، مسببة كثيراً من النفقات وضياع الوقت.

ملك إنكلترا يتدبر عمل مزار ذهبي لعظام القديس إدوارد

تدبر في هذا العام الملك هنري الثالث، على نفقته الخاصة، صنع مزار من الذهب الخالص والجواهر الثمينة، وأن يجري تشييده بشكل محكم في لندن من قبل عمال منتخبين، من أجل الآثار المقـدسة للقـديس ادوارد، حتى توضع فيـه، وفي تشييد هذا المزار، مع أن المواد كانت بـاهظة جداً، لكن ذلك كان وفقاً لقول الشاعر:

فعل العمال في الحقيقة بتفوق كبير
من المادة الخام شيئاً استثنائياً.

كيف رفض الملك إعطاء ميراث إلى و. W مارشال

أظهر الملك في هذه الآونة نفسه بموقف عدائي نحو وولتر مارشال، أخي غيلبرت الذي مات دون أن يخلّف أولاداً، يتناولون منه الميراث العائد إليه بموجب حق التوريث، وقال الملك له وهومغضب:

«لأن والدك وليم، قد وصم بالخيانة، لأنه قد قيل بأنه أنقذ لويس من أن يقع بالأسر عندما كان في انكلترا، وجرى اعتقال أخاك رتشارد، وقتله وهو حامل للسلاح ضدي، وكعدو مكشوف ومميت لي، وأما أخوك غيلبرت، الذي توفي مؤخراً، والذي منحته ميراثه بناء على مبادرة وساطة من إدمووند، رئيس أساقفة كانتربري، وذلك كعطاء وليس كحق، قد قام مؤخراً لسوء الحظ، فعقد مبارزات في هارتفورد، على الرغم من حظري، وفي هذه المبارزات واجه موتاً مأساوياً، وأنت ياوولتر أيضاً قد كنت موجوداً في تلك المبارزات، ضد إرادتي، ودون أن تعبأ بحظري، وتحدياً لي، وأنت الذي بشكل سفسطائي سميتها مغامرة، فعلى أي أساس أنت تطالب بميراثك، فكيف امتلكت الوقاحة بفعل ذلك؟»، وفي ردّ على هذه التهم خاطب وولتر الملك كما يلي:

«مع أنني يامولاي الملك، أستطيع أن أقدم جواباً مرضياً على كل تهمة من هذه التهم، وعليها جميعاً، إنني أنحني خضوعاً لجلالتك، وأنت قد قمت حتى الآن برعايتي في صدر رحمتك، وعددتني واحداً من أصدقائك المقربين، وليس على الاطلاق واحداً من ضيوف مائدتك، وأنا لم أستحق قط أن أفقد حظوتك إلاّ في قضية واحدة، أنا لايمكنني التنصل منها، وهي أنني كنت موجوداً في تلك المبارزات مع أخي، الذي لم يكن بإمكاني تركه، لكن إذ ما قررت حـ ان جميع الذين كانوا

حضـوراً هناك، فإنك بذلـك لن تثير اضطراباً قليـلاً في المملكة، وبعيـد جـداً عنك، بحكـم كـونك أمير عـادل، أن تجعلني وحـدي أكفـر عن أخطاء الجميع، وبعيـد عنك يامـولاي أن تجعلني الأول في نيل العقـوبة بين مثل ذلك العـدد الكبير»، ولم يعبأ الملك بهذا، واستمـر غضبـه، ولذلك حـافظ وولترعلى الصمت، لأنه رأى بأنه قد فقـد حظوة الملك، وذلك وفقاً لنصيحة الشاعر:

عندما تكون الزوابع الثائرة سائرة بسرعة

أذعن لقوة الزوابع الغاضبة

وهكذا غادر على هذه الصورة، و هو يائس.

الملك يعمل من وولتر مارشالاً

وقدم إلى لندن في هذه الآونة نفسها أسقف درم، الذي كان منذ زمن بعيـد صـديقـاً مقـرباً من الملـك، لأنه كـان الوصي على الجسـد الملكي، وطبيباً ووصياً على الملكـة، ومشرفاً مراقباً لخرق الأخلاق، وقـد قام بناء على طلب وولتر المتقـدم الذكر، بالتعـاون مع نبلاء آخـرين، ومع الملكة نفسهـا، ومع جميع الذين عـرف بـأنهم مقـربين من الملك ولهم مكانتهم لديه، فـاستخدم محاججـة لطيفة، والتماسـات عرضت بصـورة حكيمة، فتمكن من تلطيف غضب الملـك، وجعله يتصـالح مع وولتر، وبعـدمـا هدأ الملك، ورضي على هذه الصـورة،، أضفى في يوم الأحـد، قبل عيـد جميع القـديسين على وولتر المذكور مـرتبـة الإيرليـة، ووظيفة المارشـال، وجعله يحتفظ بين يديه بقلعتين هما: كارديف، وكـارديغان Cardigan في ويلز، وهما اللتين كـان الملك قـد عهـد بهما من قبل، ووضعهما تحت إدارة وليم مـارشـال، ثم أعطاهما بعـد ذلك إلى هيـوبـرت، مسـؤول العـدالة، لأنـه قـدر أنه من الضروري الاحتفـاظ بهما، من أجـل تقـوية المناطق الضعيفـة في ويلز،التي استحوذ عليهـا مؤخـراً، في سبيل تمتينهم بالقلاع والحصون.

الملك يثور غضبه ضدّ أسقف نورويك

إزداد في هذه الآونة غضب الملـك ضـد أسقف نـورويك، بسبب أن ذلك الأسقف وافق على تسميتـه لكرسي وينكستر، ولأنه رفض، وأصرّ على الرفض، بالتخلي عن حقه، ومع أن الملك طلب منه اتفـاقية مكتوبة بالتخلي عن إدعــائـه، لكن الأسقف رفض بثبـات فعـل ذلك، ونتيجـة لذلك حدث شقـاق كبير في أسقفيته، ترافق أحياناً بالكتـابة إلى البلاط، الذي أصيب أخيراً، نتيجة لاغتصابه الطائش بالجراحة، وعانى كثير آخر من الأذى، وفي محصلة ذلك جـرى ضرب كثير مـن رجـال الدين ومن العلمانيين بشكل فاجر، وجـرحوا، وعانوا من كثير من الضرر على أيدي السلطات المدنية، وأعلن الملك، مرفقاً إعلانه باليمين، أنه لن يتوقف قط عن ممارسة مثل هذا الظلـم، حتى يقوم الأسقف المذكور بتـوقيع ورقة، يذكر فيها أنه لن يسمح قط لنفسه بالنقل إلى كرسي وينكستر، لكن هذا كان سببـاً متنافراً مع المنطق، ومعـاكساً للتكريس الأسقفـي، لأنه إذا ما أمـره صـاحب القـداسـة البابـا، بحكم فضيلة طاعتـه، بأن يفعل ذلك، لايمكنه، بأية طريقة من الطرق، لأن ذلك يتناقض مع كونه ابناً للطاعة.

تعذيب رهبان وينكستر

وفي هذه الآونة نفسها، شرع البريتاني، الذي وضعه الملك بالقوة على رأس دير وينكستر، وجعله رئيساً للرهبـان، في إغضاب المجمع الديري بمختلـف الطرق، لأنـه بدســــائـس هذا المغتصـب الزائـف، أثيرت الخلافـات، حتى توفرت أسبـاب جيـدة لإنزال عقوبة الحرمـان الكنسي بالرهبـان الذين عـارضـوه، وبعد مـرور مـدة أربعين يومـاً، جمع بعض وكـلاء الملك وقـال لهم: «اذهبـوا وانتقمـوا لـلاهانات التي وجهت إلى الملك وإلينا من قبل هؤلاء العصـاة علينا، ذلك أنهم مجروسين كنسيـاً، و إنه لن يكون ذنباً إذا ما ألقيتم بأيدي العنف عليهم»، واندفع أتباع الملك وخدمـه وزحفوا نحو الأمـام على شكل عساكـر، وبعنف ألقوا بأيديهم

الآثمة على الرهبان الذين هربوا إلى المذبح الكبير يطلبون الحماية هناك، وقد دفعوا بهم وسحلوهم بعنف شديد، حتى أنهم لطخوا الأرض بالدم، ثم أخرجوهم مطرودين من الكنيسة، وكان ذلك على مشهد من المواطنين، الذين أبدوا دهشتهم، وعجبهم، وحزنهم، وقد دفعوا بهم وسط الشتائم والضربات إلى قلعة الملك في هسفيتري Husvetrey, حيث صفدوهم بالأغلال كل اثنين معاً، وألقوا بهم في سجن مضيقاً عليهم، وهكذا فعل هؤلاء الحراس التابعين للملك،الذين ألقوا جانباً كل خوف من الرب، واحترام للزي الديني، وأنزلوا الظلم بالرهبان وعسفوا بهم، واحتفظوا بهم مسجونين في الظلام، وعذبوهم بالجوع وبالبرد، وعرضوهم لإهاناتهم، مع أنهم حصلوا هكذا على سعفة الشهادة، لمعرفتهم بأن جميع هذه الآلام التي أنزلت بهم، كانت لوفائهم بالعدل، وتحملوها كلها بصبر، لابل حتى بسرور، وذلك بقدرما كانوا مستحقين تحمل التمرد، في سبيل المسيح.

إثنان من وكلاء البابا يستخرجان مالاً من إنكلترا وسكوتلندا وإيرلندا

أمضى بطرس دي سوبينو Supino, الذي كان كاهناً تابعاً للبابا وقته كله بمواظبة كبيرة في جمع المال، باستخراج عشرين جزئاً من الممتلكات من جميع ايرلندا، مدعوماً بترخيص من البابا، وقد أخرج من تلك المنطقة مبلغ ألف وخمسمائة مارك، إلى جانب مختلف الهدايا، وكان بطرس لى روج، الذي جعل من نفسه قريباً للبابا، وصديقاً مقرباً منه، أيضاً محمياً بإجازة من البابا، وشغل نفسه بيقظة في جمع الأموال وتكديسها من المناطق الشمالية من انكلترا، وبوساطة ارسال الرسل إلى مناطق سكوتلندا، وأخيراً سارا وحقائب سروج خيولهما مليئة تماماً، تحت كفالة رهبان كانتربري إلى دوفر، ثم أبحرا فجأة وبشكل سري، لأنهما سمعا من رسل أرسلوا بكل سرعة، بأن البابا مايزال من دون

أمل بالشفاء، أو بالحقيقة هو إما قد مات أو على وشك الموت بالحال، ولذلك قاما بفرار سري ومفاجىء بالبر وبالبحر مع غنيمتيهما، لأنهما كانا يخشيان أنه إذا ما علم الملك بوفاة البابا، سوف يقوم بحكمة باستبقاء جميع الأموال التي جمعاها، ومن ثم يقدر كيف سيتصرف بها لدى استخلاف بابا آخر.

وماكادا يدخلان إلى فرنسا، حتى —عجبا— وصل المعلم وولتر دي أوكرا، وهو رسول من الامبراطور، وصل بكل سرعة، مع أن ذلك جاء متأخراً، حاملاً رسائل اعتماد من الامبراطور وكذلك رسولاً إلى الملك، لإخباره بأحوال الأوضاع في البلاط الروماني، وينصحه إذا ما تم العثور على مثل هؤلاء الناس في انكلترا، بأن يتم الاحتفاظ بالأسلاب، وحبس اللصوص أيضاً، ولكن عندما علم الرسول بأن الاثنين قد نجوا، وجّه اللوم إلى تقاعس الملك و اهماله، وغادر على الفور وهو غاضب وآسف، لأنه قام برحلته من دون فائدة، وتبع خطواتهما بيقظة، وراقب بدقة تسكع هذين الثعلبين حتى يخبر الامبراطور بنتيجة رحلته.

كيف جرى تحويل المال الذّي جمع من قبل وكيلي البابا إلى الخزانة الإمبراطورية

وعلم المندوبان البابويان الآن بوفاة البابا، مع أن الخبر ظلّ مكتوماً عن الناس لعدة أيام، وقد علما أيضاً بأن وولتر المذكور كان يسير خلفهما، فأسرعا بسفريهما، ولم يوفرا فرسيهما، وبعد عبورهما للألب، أخذا نفسيهما إلى مدن وبيوت أقربائهما، وأودعا المال الذي قدماه وهما محملان به في أماكن سرية، ولم يجعلا حضورهما معروفاً لدى الجميع، وبما أن وولتر المذكور لم يستطع العثور على أي منهما، أو على المال، سوى سماعه بعض الاشاعات الهامسة، بعث برسالة إلى الامبراطور حول كل شيء، وحول تفتيشه غير المثمر، وعند ذلك أمر صاحب

الجلالة الامبراطورية القيام ببحث دقيق في جميع المدن الايطالية الخاضعة لحكمه، لاكتشاف من هما هذين الرسولين البابويين، وأي تاجرين كانا هما، اللذان كانا يسعيان إلى اخضاع الامبراطورية، وإلحاق الأذى بالمصالح العامة، وإثارة الحرب، وقد جمعا المال بخداع من مختلف البلدان، ولا سيما من انكلترا، لمنحه إلى البابا، وكانا بذلك يرفعان من جبروته، ويدفعان به لدمار سلام الامبراطورية، ثم أمر بسجنهما بعد اعتقالهما، على أساس أنهما من الأعداء الألداء، ودعوتهما للظهور، ومصادرة أملاكهما وبيوتهما، ومثل ذلك ممتلكات وبيوت أقربائهما.

وهكذا بعدما جرى سجن الرجال الرئيسيين من هؤلاء القوم مع زوجاتهم وأولادهم، أمر باجراء بحث دقيق حول المبلغ المالي الذي جرى جمعه من أجل استخدامات البابا، وأمر بتعداده وكتابة ذلك، ووضعه في أيدي تجار المدن، والذين يفهمون بالأعمال، ومن ثم يجري إيداعه كله، وهكذا فإن هذين اللاهوتيين، اللذين كان من المتوجب حمايتهما تحت جناح البابا، قد جرى تجريديهما تماماً، وتولى أعداء الكنيسة بجرأة تعذيبهما.

موت البابا غريغوري

وفي الوقت الذي كان فيه دولاب الحظ يدور هكذا بشؤون العالم، تأكد التقرير الذي طار في جميع أنحاء العالم المسيحي، والذي ادعى بأن البابا غريغوري، لم يعد بإمكانه تحمل الأحزان التي شعر بها —والتي هو نفسه قد تسبب بها— وقد غادر طريق الجسد في الثاني والعشرين من آب، ليتلقى المكافأة من القاضي في عليين، وفقاً لاستحقاقه، وكان في وقت موته قد بلغ من العمر حوالي المائة سنة، في حين اعتقد عدوه الامبراطور، أنه كان في ذلك الحين ليس أكبر من خمسين سنة، فقد روي بأنه ولد في السنة التي كان فيها رتشارد ملك انكلترا سجيناً في ألمانيا.

السبب الذي عجل بموته

وكان الأسى الرئيسي الذي خرق قلب البابا، والذي أوصله إلى حافة الموت، هو أن الامبراطور، كـان قد استولى إثر عيـد الصعود على قلعـة قـرب مو نت فـورت في كامبـانا Campagna كـانت عائـــدة إلى أحفـاد البابـا وإلى أقرباء آخـرين له، وكـانت قـد بنيت حديثاً بأمـوال الصليبيين من أجل حماية أقـربائه، لأن البابا غـريغوري كـان يعرف تمام المعـرفــة بأن الامبراطور يكره جميـع أقـربائـــه، ورغب أنه إذا مــا قـام الامبراطور بغـزو كـــامبـانا، أن يحال دون الحاجـة لأن يكون معـــرضـاً لحملاتـه، وكان الامبراطور قد علـم بهذه الأوضاع، فقام فجـأة بحصار هذه القلعـة وبتـدميرها وبشنق جميع الذين وجـدهم فيهـا، وكرمـز على تدميره لها ترك نوعـاً من أنواع الأبراج نصف مدمـر، بمثابة ذكـرى على اعتدائـه، وعلى انتقامه أيضـاً، ذكرى لن تموت أبداً، وبالاضـافة إلى هذا كان البابا مصـاباً بالحمى، كما كان قد تقدم بالســن كثيراً،، وقد حرم من استخدام الحمام الذي اعتاد أن يقوي فيه نفسه في فيتربو.

موت إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني

وماتت في هذه الآونة إليانور ابنة غيوفري كونت بريتاني، التي كانت موضوعة منذ زمن طويل في سجن ضيق.

كيف التحق بعض الرهبان بطوائف أخرى

وفي هذه الآونة كان هنـاك بعض الرهبان، الذين عـانوا من التقلبات في عقولهم ومن عـدم الاستقرار، فقلدوا مثل أسقـف هيرفورد، دون أن يعرفوا السبب (لأنه كان مرتبطاً بنـذر)، فتحولوا إلى طائفة غير معروفة، و التحقوا بالدومينيكان وبالفـرنسيسكان، ناسين قول النبي: «لقـد حدد له الطريق الذي اختاره»، فقد قام راعي دير أوسني Osney بعقله الجبـــان، فتخلى عن طائفـــة أوغسطين المعلم الكبير، وانتقل إلى طائفـــة

الفرنسيسكان، راغباً بتجريب الجديد، وقام راعي دير وولدن Wal-den أيضاً، الذي حمل صليب ربنا بألم تحت حكم نظام طائفة القديس بندكت، عندما رأى ديره مثقلاً بالدين، وقد غرق في أعماق اليأس، قام من دون أن يعرف ديره أو رهبانه، فجأة وبلا حياء بالالتحاق بطائفة الدومينيكان، غير أنه ندم على هذا فيما بعد.

الإعاقة التي عملت ضدّ انتخاب البابا

في الوقت الذي مات فيه البابا غريغوري، الذي ذكرناه أعلاه، كان هناك عشرة كرادلة موجودين في البلاط الروماني، وكان هناك اثنان مايزالان في سجن الامبراطور، وبعدما قام هؤلاء العشرة ببعض المداولات —كما هي العادة— حول انتخاب بابا جديد، لم يتمكنوا من الوصول إلى قرار مقنع، لأن عددهم قد انقسم على نفسه، وبناء عليه بعثوا إلى الامبراطور، يرجونه بتواضع أن يرسل أخويهم، الكاردينالين، إلى البلاط، حسب مايختاره من شروط ويفرضه، وذلك في سبيل رفع شأن الكنيسة ولصالحها، التي تعتمد اعتماداً أساسياً على انتخابهم بابا، وأن لايعاق هذا الانتخاب من قبله، وبلطف منحهم الامبراطور هذا المطلب، لأنه كان قد لان أمام التماسات الايرل رتشارد، على شرط أنهم إذا انتخبوا أوتو بابا، عليهم العودة إلى وضعهم المتقدم، وإلى حالهم في السجن.

وبناء عليه، عندما اجتمعوا كلهم في قصر كان اسمه «قصر الشمس»، وقد انتخب خمسة من الكرادلة سادسهم، الذي كان غيوفري الميلاني، أرضى هذا الانتخاب الامبراطور، الذي قام بتهنئته على ذلك، وانتخب الثلاثة المتبقين رابعهم، الذي اسمه رومانوس، وقد عارض الامبراطور هذا الانتخاب، عاداً إياه رجلاً بلا أخلاق حميدة، وذلك بسبب اضطهاده لجامعة باريس، ولأنه قد قيل بأنه في وقت من الأوقات قد فسق ببلانشي، ملكة فرنسا، وأيضاً بسبب اتهامه بابقائه الخلاف

مشتعلاً بين غريغوري البابا المتوفى مؤخراً، وبينه، أي الامبراطور، وكانت أسماء الذين انتخبوا الأول: جايل أسبان Giles Aspan, وستيفن فتزكونت Fitzkonte أسقف بورتوا Portua, ورينرر أوف فيتربو، وجون دي كولونا Colonna, وروبرت سمركوت وكان انكليزياً، والذين انتخبوا الآخر كانوا: رتشارد هانيبال Hannibal, أسقف أوستيا، الذي كان له تبعاً للعادات، الصوت الأول في انتخاب البابا، وسينبولد Sinibald, أسقف أوف سابينا Sabina, ونشب خلاف حاد بين الكرادلة، بسبب هذا الانتخاب، لأن الذي يتوجب انتخابه بابا، هو الذي يجري انتخابه من مجموعتي المنتخبين، ويوافقان عليه، وذلك وفقاً لمرسوم الاسكندر، الذي يبدأ بالكلمات التالية: «على كل حال، لتجنب الخلاف، إلخ»، وهكذا فإن القضية التي تهم الكنيسة بعمق تركت من دون انهاء، وكانوا منقسمين، أو بالحري متفرقين بالتفكير والجسد.

ومات في هذه الآونة جيمس أسقف برانستي، الذي كان واحداً من طائفة السسترشيان وكان عدواً عنيداً جداً للامبراطور.

عودة الفرنسيين الذين أطلق سراحهم من أسر المسلمين إلى الوطن

وكان الايرل رتشارد قد بقي حتى الآن حوالي أربعة أشهر مع الامبراطور، ولذلك استأذنه وانطلق عائداً نحو الوطن، وكان الفرنسيون، الذين أطلق سراحهم بموجب الهدنة التي عقدها الايرل، قد عبروا البحر الآن، بعدما تأخروا كثيراً بوساطته، ليعيدوا إليه الشكر، وليتسلموا المزيد من الاحسان منه، لأنه كان صديقاً جداً للامبراطور، وكان كأنه امبراطور آخر تقريباً، وكان وافر الثروات، وكان أولئك الفرنسيون في حالة فقر مدقع ويحتاجون إلى المساعدة، وزودهم الايرل رتشارد بكرم بالملابس، وبنفقات السفر وبوسائل مناسبة، كما أنه حصل

من الامبراطور على وعد منه، قبل أن يتركه، بوجوب منح السلام إلى الكنيسة، تحت طائلة عقوبة الموت القاسية جداً، لأي واحد سوف يخرقه، ووجوب الاعلان بصوت المنادي في جميع أنحاء المالك الامبراطورية، بوجوب عدم اعتداء أي انسان على شخص لاهوتي أو ازعاجه، أو على حاج، ولاسيما على الفرنسيين العائدين إلى بلادهم، وذلك نتيجة لحالة ترمل الكنيسة الرومانية، بسبب موت عدوه البابا غريغوري، وأمر الامبراطور بوكيل حكيم وصاحب نفوذ بمرافقة الايرل رتشارد، ليزوده بجميع الحاجات الضرورية، وليخدمه بشكل لطيف حتى حدود الامبراطورية، ونتيجة لذلك عندما اجتاز خلال مدن ودول ايطاليا والمناطق الأخرى الخاضعة للحكم الامبراطوري، استقبل بسرور عظيم وبتكريم، وبناء على أوامر الامبراطور استقبل وهو على الطريق من قبل سكان المدن، وهم على ظهور خيول أصيلة، وهم مجهزين بشكل غني، وهم يرتدون الحرير والملابس الثمينة الأخرى، ترافقهم موسيقى آلية وصوتية، وذلك وفق طرائق رفيعة، ولسوف أحذف ذكر جميع الأحداث، وسأتولى ذكر حادثة سارة خاصة في مكان واحد.

فلدى اقترابه من كريمونا، خرج أهل المدينة مسرورين لاستقباله، مع فيل الامبراطور وهو يسير أمامهم، وهو مزين بشكل جميل، وكان يحمل برجاً من الأبراج الخشبية، فيه جلس ساسة الحيوان، وهم يلعبون بالبوق، ويصفقون بأيديهم وهم مسرورين، وكان مع الايرل عدد كبير من النبلاء الفرنسيين، وقد شاركوا في سرور تكريمه، وعند الوصول إلى حدود الامبراطورية، عاد وكيل الامبراطور، وترك بعض الفرنسيون الايرل، بعدما كرروا تحيات الوداع، ورجعوا مسرورين إلى بلادهم، حيث استقبلوا بالمعانقة من قبل زوجاتهم وأولادهم، وآخرين أعزاء عليهم، ونقهوا أنفسهم باستخدام مختلف وسائل النقاهة، والراحة المتعة، ثم إن كل واحد منهم حكى وهو مسرور ذكريات المخاطر

العظيمة التي تحملها في خدمة المسيح، وكيف أنهم هجروا بشكل خياني من الذين كانوا ملزمين بتقديم المساعدة إليهم، وكيف جرى بعد ذلك تحريرهم وتزويدهم بحكمة وبكرم الايرل رتشارد وحده:

وأصغت أذن كل ربة بيت

باهتمام، لسماع حكاية زوجها.

نشوب خلاف بين الداوية والاسبتارية

وبعد مغادرة الايرل رتشارد، غادر عدد كبير من الحجاج الأرض المقدسة في هذه الآونة، وكان الداوية هم الوحيدين الذين لم يوافقوا على تصرفات الايرل رتشارد، وقد أثارتهم لدغات الحسد، فتورطوا في ذمه، وبالنميمة ضده، وبالسخرية منه، وبلاحياء خرقوا الهدنة التي أبرمها، وضايقوا الاسبتارية بشدة وآذوهم، لأنهم قبلوا الهدنة، وتولوا مراعاتها تماماً وقد حبسوهم في عكا وكأنهم محاصرين، ولم يسمحوا لهم بالحصول على المؤن، ولا حتى بجلب موتاهم واخراجهم من بيوتهم، التي كانوا فيها محاصرين، وذلك من أجل القيام بدفنهم، وقام الداوية أيضاً نكاية بالامبراطور، فطردوا جميع رهبان كنيسة القديسة مريم الألمانية، وأخرجوهم من المدينة، وتركوا عدداً قليلاً منهم، هم الذين كانوا أصدقاءهم، وخدم الكنيسة، وهرب الرهبان الذين بقيوا إلى الامبراطور وإلى الأعيان المسيحيين الآخرين، وتقدموا بشكوى ثقيلة حول هذه القضية، ولذلك ثارت فضيحة كبيرة، قامت على أساس فكرة أن هؤلاء الذين سمنوا بوساطة عدد كبير من الموارد من أجل محاربة المسلمين بكل قواهم، قد حولوا الآن قوتهم بشكل فاجر، ووجهوا حقدهم ضد المسيحيين، لابل ضد اخوانهم، وبذلك أثاروا غضب الرب بشكل ثقيل أكثر، ولهذا السبب، فإن الايرل عند مغادرته الأرض المقدسة، وكأنه كان متوقعاً مثل هذه الأشياء، لم يعهد بمدينة عسقلان، أو بالمال الذي تركه هناك، من أجل إكمال بعض أجزاء القلعة، إلى الداوية المتعجرفين،

وفي الحقيقة اختار هو أن يعهد بذلك إلى وكيل الامبراطور، لأن الداوية حملوا مشاعر حقد كبيرة ضد الايرل.

وفاة الكاردينال روبرت سمركوت

وفي تلك الآونة نفسها، غادر طريق الجسد المعلم روبرت سمركوت، الذي كان كاردينالاً من أصل انكليزي، وكان رجلاً مستقيماً وحكيماً، محبوباً من قبل الجميع، ومحسناً إليهم، وكان في تلك الأثناء محبوساً في قصر اسمه «قصر الشمس»، يتداول مع الكرادلة الآخرين حول انتخاب بابا، وهناك —كما قيل— جرى دس السم له، من قبل منافسيه الذين كانوا من أصل روماني، والذين كرهوه، لأنه بدا رجلاً مناسباً، وأهلاً لشغل الكرسي البابوي، ومات كاردينال آخر بطريقة مماثلة، وكان ضحية لتآمر أشخاص حسودين له، وأما جون أوف كولونا، وكان واحداً آخر، فهو بعدما جرى هدم قلاعه وقصره من قبل الرومان، اعتقل وألقي به في السجن، بسبب أنه بدا محبذاً وميالاً نحو الامبراطور.

موت ستيفن سيغريف

في التاسع من تشرين أول من العام نفسه، مات ستيفن سيغريف Segrave في رعوية دير ليستر، حيث كان قد تمدد متخفياً، لبعض الوقت أثناء اضطهاده، وكان ستيفن هذا أثناء شبابه قد تحوّل من كاهن إلى جندي، ومع أنه كان من أصل متواضع، فقد تمكن بوساطة شجاعته، في أيامه الأخيرة، من الحصول على الثروة، ومن الترقية إلى منصب، حيث عدّ بين أوائل الرجال في المملكة، وجرى تعيينه مسؤولاً عن العدالة، وقد أدار جميع شؤون المملكة حسب رغبته، وقد نظر دوماً نحو منفعته وتطلع نحو تقدمه، أكثر من تطلعه نحو المنفعة العامة، ونظراً لبعض أعمال العدل التي عملها في حياته، والتي أرضى بها

الرب، استحق السماح له بعمل وصيته وبتقوى تلقى القربان، ليواجه نهاية محمودة ومرضية.

كسوف الشمس

في السادس من تشرين أول من هذا العام، الذي كان يوم عيد القديس إيمان Faith, تعرضت الشمس للكسوف، من الساعة الثالثة حتى السادسة، وبدت السماء وكأن لها شكل الأرض نفسها وكان هذا هو الكسوف الثاني للشمس، الذي حدث خلال ثلاثة أعوام، وهو حادث لم يسمع بمثله حتى الآن.

موت روجر أسقف لندن

وفي تلك الآونة نفسها، وبالتحديد في التاسع والعشرين من تشرين الثاني، مات المعلم روجر، أسقف لندن، وكان رجلاً صاحب حياة تستحق الثناء، وقداسة مدهشة، ومعارف متميزة، وكان فهيماً في وعظه، وصاحب حديث مشرق، مرح عند المائدة، وصاحب ملامح هادئة، وقد وقع مريضاً في ستوبنهام Stupenham, وهي عزبة كانت له قرب لندن، وهناك قال وداعاً لهذا العالم، وغادر إلى الرب، وجلب جسده إلى لندن، ودفن في كنيسته الكاتدرائية.

وفاة غيوفري دي لوسي

ومات في الشهر نفسه المعلم غيوفري دي لوسي Lucy, صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان عميد الكنيسة نفسها، وبوفاته رميت كنيسة لندن في لجّة فوضى عظيمة لأن الملك لم يسمح بملء أي كنيسة، قبل أن تصبح مدمرة، ولأن الكرسي البابوي كان شاغراً، وكان الكرادلة في حالة اضطراب جسدي وعقلي، ولأنه لم يكن لديهم رئيس أساقفة، الذي من المعروف أن عميده هو أسقف لندن، ولأنها كانت الآن من دون عميد.

عودة أوتو إلى الإمبراطور حتى يسجن

وكـان الكرادلة في هذه الآونة في حالـة عدم اتحاد تقـريباً، وفي حـالة خلاف، وجرى تأجيل انتخاب البابا، وكأنهم كانوا يائسين، ولذلك عاد أوتو إلى الامبراطور، إلى سجنـه، من أجل اطلاق سراح الرهائـن الذين قـدمهم، وليحفظ سمعتـه مـن التلطيخ، بأنه خـرق وعـده، وكـان الامبراطور مسروراً جداً بهذا التصرف الذي تصرفه، ومع ذلك أبقاه في السجن، لأنه كـان غـاضباً عليـه، بسبب أنه عندمـا كـان نائبـاً بابوياً في انكلترا، قـد تولى حـرمـانه كنسيـاً، وسمح بإعـلان حـرمـانه كنسيـاً، وبالتشهير به إلى درجـة عـالية، لكنه عـامله بلطف أكبر، لأنه كـان قـد فعل ذلك من دون إرادته، بل بالاكراه، بحكم طاعته للبابا.

انتخاب فولك باسيت إلى كرسي لندن

ومع اقتراب عيـد الميـلاد، انتخب كهنة لندن، اسقفـاً لهم وراعيـاً لأرواحهم هو المعلم فولك، عميـد يورك، وكان رجلاً مستقيماً وحكيماً، وصاحب أخـلاق حميدة، ومن أسرة مشهورة، وجـاء هذا على كل حال ضـد رغبـة الملك، الذي آثـر المعلم بطرس دي أوغـويبـلانشي Aigueblanche, أسقف هارتفـورد، ودخل بسرعـة إلى بيت هيئة كهنة القديس بولص حتى تجري تسميته أسقفاً لهم، وقد عيّنوا أيضاً في الوقت نفسـه واحـداً اسمـه وليم، ليكون عميـداً لهم، وكـان كـاهناً ومستشاراً لكنيسـة القديسـة مريم، وكـان رجلاً صـاحب حياة جـديرة بالثناء.

وفاة هوغ دي بيتهل

ومع مرور الأيام، وفي حوالي السابع من كانون الأول مات هوغ دي بيتهل Pateshull أسقف سيشتر، وكـان رجلاً مـايزال في نشـاط الحياة وقـوتها، وهو بعدما كـان قد أمضى حيـاته بطريقة تستحق الثناء،

انحرف بوساطة مشورة شريرة، وتحوّل إلى الطرق الشريرة، وصار مطرقة للرهبان، ولاسيما إلى أولئك الذين أوجدوه، وقد مات مع حزن قليل عليه، مع أنه جلس في كرسي الأسقفية لمدة تزيد قليلاً عن سنة واحدة.

وعندما سمع رئيس رهبان كوفنتري والرهبان بهذه الحادثة، جمعوا كهنة ليشفيلد Lichfield وانتخبوا راهباً من كنيسة كوفنتري، كان مدرسهم، أسقفاً لهم وراعياً لأرواحهم، مع أن بعض الكهنة قد عارضوا انتخابه، واختاروا رتشارد راعي دير ايفهام Evesham, الذي كان آنذاك حامل أختام الملك، وكان يمارس واجبات المستشار، ولصالحه كان الملك قد توسط لديهم، ونتيجة لهذا الانتخاب، صار الملك عدواً لكنيسة كوفنتري، وألحق برئيس الرهبان وبالرهبان كل ضرر كان يمكنه فعله في كثير من المناسبات، ولأن الرهبان كانوا هكذا معارضين للملك ولرجاله، وكذلك بعض كهنة ليشفيلد، ولذلك ارتمى دير كوفنتري في حالة من الفوضى، ونال كثيراً من الأذى، بلغ حداً، أن التجمع الديري تفرق ينشد المساعدة من الديرة الأخرى، وقام دير القديس ألبان انطلاقاً من عواطف خيرة، وتكريمية، ففتح صدره الرحيم، واستقبل رئيس الرهبان وبعض رهبانه، وخدمهم وخيولهم، بأعظم احترام، وعاملهم بمنتهى الكرم لمدة سنة انضاف إليها عدة أشهر.

انتخاب غيوفري أوف ميلان بابا وموته إثر ذلك

وفي هذا العام انتخب الكرادلة بابا المعلم غيوفري أوف ميلان، وجاء ذلك بعد نقاشات كثيرة، وبعد التعرض لمختلف أنواع الأذى، ولخطر الانقسام بين الكرادلة، وهو انقسام زرعت بذوره من قبل الشيطان، وأيضاً بعدما تناقص عدد الكرادلة إلى عدد صغير بوساطة البلايا والأسى، وكان الذي انتخبوه متميزاً بأخلاقه، ومتعلماً، ولكنه كان مسناً

وقد مال نحو الضعف، وما كاد يشغل الكرسي البابوي لمدة ستة عشر يوماً، عندما قطع بموت قبل أوانه، ودفع دين الطبيعة، وقد قيل بأن السم قد دسّ له، وهكذا ترك الكرسي البابوي، لابل بالفعل الكنيسة كلها في حالة بائسة، وفي تلك الآونة نفسها، مات واحد من الكرادلة، واسمه رتشارد هانيبال.

مؤتمر أساقفة انكلترا

التقى في هذه الآونة رئيس أساقفة يورك، وأساقفة لنكولن، ونورويك، وكارآيل، واجتمعوا مع عدد كبير آخر من رجال الدين واللاهوتيين المتنفذين والمستقيمين، للتداول حول كثير من مصائب الكنيسة المضاعفة، وليلتمسوا المواساة الربانية، ثم انهم أمروا بعمل صلوات خاصة وبصوم، وأن يراعى ذلك بشكل عام في جميع أرجاء انكلترا، حتى يقتنع الرب بتحرير الكنيسة الرومانية وبردها إلى العافية، حيث كانت الآن محرومة من راع لها وبابا ليحكمها، وبهذا أخذوا مثلهم من أعمال الرسل، حيث ورد فيها، أنه عندما جرى سجن بطرس، صلّت الكنيسة من أجله من دون انقطاع.

وتوصلوا أيضاً إلى قرار جماعي، بإرسال رسل إلى الامبراطور، لحثه بالتماسات باكية، بما أنه يهتم بخلاص روحه، أن يتخلى بقلب مخلص عن جميع مشاعر الغضب والحقد، وأن يهجر جميع أنواع الطغيان، وأن لايعيق تقدم مصالح الكنيسة ومنافعها، لابل أن يكون بالحري رحيماً بالسماح لها بالتنفس بحرية، مع أنه أثير لدراسة رفع شأنها وتقدمها، لأنهم قالوا بأن الذين أثاروا غضبه، هم الآن أموات، ومن الواضح أنه تصرف طغياني وعمل معارض للمنطق، أن يجعل الأبرياء يدفعون من أجل أخطاء الأموات.

وعندما —على كل حال— شرعوا بالتباحث حول انتخاب الرسل،

الذين كان عليهم السفر من خلال فرنسا والبلدان المجاورة، وأن يسعوا إلى استنهاض أساقفة تلك البلاد، لقد انتقلوا إلى العمل بطريقة متشابهة، وبدأ كل واحد يحتج بمسوغات تافهة، ورفض أن يأخذ على عاتقه أعباء مثل هذا العمل الكبير والمقلق، ومثل هذه المتاعب الخطرة، حتى وإن كان ذلك لصالح المسيح وكنيسته، وأخيراً كما قال الشاعر:

بحضور اللص يبتهج

المسافر الذي لايحمل ذهباً.

وبما أنهم لم يجدوا أحداً جاهزاً من بينهم، ليقوم بأعباء الرحلة، اختاروا الدومينيكان والفرنسيسكان لهذا الغرض، لأنهم كانوا جوالين، وكانوا عارفين معرفة جيدة بجميع البلدان، وعندما —بناء عليه— حصل هؤلاء الرسل على مقابلة مع الامبراطور، وقدموا إليه رسالتهم، أجابهم كما يلي قائلاً:

«ومن الذي يعيق تقدم أحوال الكنيسة؟ لست أنا، إنه بالحري التعالي المجنون، والنهم غير المستقر للكنيسة الرومانية.. ومن الذي يمكنه أن يندهش إذا ما كنتُ أنا المعيق لتقدم الكنيسة الانكليزية والرومانية؟ لأنها تسعى باذلة كل جهودها لخلعي من عرشي الامبراطوري، ولقد حرمتني كنسياً، وأساءت إلى سمعتي بدرجة عالية جداً، وبالضرورة صبت الأموال لتلحق الضرر بي»، وهكذا أخفقت خطة الأساقفة الانكليز في إحداث أي تأثير في هذه القضية، وبرهنت أحداث هذا العام أنها كانت غير مواتية تماماً للبلاط الروماني، وذلك جزاء —كما هو واضح— على ذنوبه، وأيضاً غير نافعة للأرض المقدسة، بسبب تصرفات الداوية، ومؤسفة وغير سعيدة للنبلاء الانكليز، لأنه بالاضافة إلى الذين هلكوا في البحر، مات في هذه السنة بعض الأساقفة المتميزين، وهما الحبران الرومانيان، مع بعض الكرادلة، وآخرين، قد تقدم ذكرهم أعلاه.

ذكر مختصر للذين ماتوا في هذا العام

وكان بين النبلاء الانكليز الذين ماتوا في هذا العام: وليم دي فوربس Forbes, ايرل أوف ألبهارل، الذي وهو مسافر لحجه، وقع مريضاً في البحر المتوسط، وبات غير قادر على الأكل، وقد تحمل آلاماً طويلة لمدة ثمانية أيام، وفي يوم الجمعة التالية قبل عيد الفصح، وهو اليوم الذي أسلم فيه المسيح الروح وهو على الصليب إلى أبيه، هو وفق الطريقة نفسها أسلم روحه إلى المسيح، ومات أيضاً النبيل والقوي وولتر دي لاسي Lacy, الذي قد ذكرناه من قبل، وحدثت وفاته أيضاً في حوالي عيد الفصح، تاركاً ميراثه المبدد إلى بناته، وستيفن سيغريف، الذي ورد ذكره في مكانه من قبل، وهو الذي كان مستشاراً خاصاً للملك، وكانت مستشاريته صالحة وعادلة لانكلترا، وغيلبرت باسيت، قد غادر هذه الحياة، وقد أتينا على ذكر سوء حظه أعلاه، ومات كذلك جون بيسيت المسؤول الرئيس عن إدارة عدالة الغابات، وغادر هناك إلى الرب بطرس مولاك Maulac, وهوغ ويك Wake, وروبرت مارميون Marmion, وبطرس دي بروس Brus, وغويسكارد Gusicard, وليديت Laidet, ويوستاس دي ستوتفيل Stutevill, (الذي خلفه في ميراثه زوجة هوغ ويك)، ويودو Eudo, وهامو Hamo, الذي كنيته سن Sin, وبلدوين دي بثيون Bethune, وجون فتز—جون (قهرمان الايرل رتشارد) وغ. G, أخو الايرل المذكور، وجون دي بيوليو Beaulieu, وجيرالد دي فورنيفال Furnival, وعدد كبير آخر من النبلاء الانكليز من كونتية الايرل رتشارد، الذين تسابقوا بشكل مجيد فراراً من هذه الحياة إلى السماء، وذلك تحت حماية المسيح، عندما كانوا يقاتلون في سبيل الرب في الأرض المقدسة، وماتت في هذا العام، كما ذكرنا من قبل إليانور ابنة غ. G, كونت بريتاني، وكانت

وفاتها في بريستول Bristol, وكذلك الأسقفـان المشهوران: روجر أسقف لندن، وهوغ أسقف شيستر، فهما أيضاً ماتا في هذه السنة، وعدد كبير آخر من اللاهوتيين المشهورين، ومن الرجـال العلمانيين، الذين أسماؤهم كثيرة جداً حتى نأتي على ذكرهم.

موت الإمبراطورة إيزابيلا

وفي هذا العـام مـاتت أيضـاً الامبراطـورة ايزابيـلا، التي كـانت مجد انكلترا وأملهـا، وجـاء مـوتها أثناء الولادة، وقـد علمنا بمـوتها المحـزن كثيراً، بشكل كـامل في الـرسـالة الكئيبـة التـاليـة لزوجهـا الامبراطور فردريك.

رسالة الإمبراطور حول موتها:

من فردريك الامبراطور، إلخ، إلى ملك انكلترا، تحيات:

لقد اعتـدنا مؤخـراً في رسائلنا، وبوساطـة رسلنا على أن نقدم إليكم أخبـاراً طيبـة، غير أننا بسبب سـوء الحظ، ولأننا أصبحنا محسـودين بنجـاحـاتنا، قـد أرغمنا بـالحزن على أن نبـوح إليكم مكرهين خبراً مكروهاً، وذلك بقـدر مـا نحن نعـاني من خسارة لاتعـوض، هي وفـاة قرينتنا الأوغسطـة المحبوبة، وهكذا، أرغمنا بوسـاطة الموت القاسي على تحمل الانفصام المحـزن للروابط الاجتماعية، ووقعت هـذه الواقعة ذات الذكـرى المرعبـة لدينا، في اليـوم الأول من الشهـر المنصرم، وهو شهـر كـانون الأول، وذلك عندمـا استجـابت قـرينتنا المذكـورة الامبراطورة وأختك، إلى الطبيعة، أثناء نداء الرب، الـذي يأخذ بعيداً حيـاة الأمراء، والذي لديه لايوجـد استثناء، أو قبـول لأشخاص، لأنه في سبيل شفـاء الذين، لو أن المنيـة رضيت وراعتنا، وأوقفت الطبيعـة دفع دين الموت الذي لابد منه، لما سمح لنا حبنا الثمين وعنايتنا وقرينتنا، بعدم بذل كل نفقـة بالمال، والجهـد، أو الممتلكات، لكن عنـدمـا أخـذها ملك الملوك،

ومولى الموالي، الذي يحكم بقدره من فوق قبة السماء، والذي لايمكن لأحد أن يقاوم إرادته، وأبعدها عن الوحدة مع جسدنا، وعن روابط الأخوة التي كنت بها متحداً معها، لقد قرر بآرائه في عليين، بوساطة ترتيب، أو بالحري بتدبيره، أن تعيش لنا ولكم في ذكرى ولديها، لأنه بمنحة الرب القدير، يعيش أولاد ملكيون، منهما نهض ملك وملكة معاً تحت عيني والدهما، ليحلا محل أمهما ويقفا في مكانها، فبعطائها الخصب تلقينا عهوداً نبيلة، هي التي تمتن روابطنا العامة بالمصاهرة، وتربط برباط وشيج كرسي قيصر وكرسي جلالتكم، بامتياز خاص، بدماء البنوة والحفادة، وعلى هذا إن حبي لكم قائم على ذريتها، التي بها بدأت، وارتفعت إلى الوجوب، وسمات حلف سوف يدوم طويلاً، ومع أنه بناء عليه إن خسارة قرينتنا الأوغسطة، التي هي أختك، لايمكن أن تذكر من قبلي، أو تسمع من قبلك، من دون حزن كبير في القلب، وأسى لموتها لايمكن فصله عن عميق مشاعرنا، ومع ذلك إن ذكرى الأبوين المحبوبين مزدهرة في الولدين، وقد تثبتت علائقنا بشكل لايمكن فصمه بهذين الحفيدين، الذين حملت بهما أختك الأوغسطة وولدتها طفلين لنا. صدر في هذا اليوم الثلاثين من كانون الثاني، إلخ».

حول أوضاع الأنواء خلال هذا العام كله

وكان هذا العام على العموم وافراً بمحاصيل القمح، لكن من عيد البشارة للعذراء المباركة حتى عيد الرسولين سمعان وجود، استمر جفاف وحرارة لاتحتمل جففت البحيرات العميقة والسباخ الواسعة، وجففت كثيراً من الأنهار، كما جففت المطارد، وأوقفت أعمال الطواحين، وبما أن المراعي قد جفت، فقد ماتت الأعشاب، وبالتالي أخذت الأسراب والقطعان بالهلاك بسبب الجوع والعطش، وفي الشتاء أيضاً، ومنذ ميلاد ربنا، كان هناك جليد وثلج، ترافق مع برد حاد لايحتمل، وقد غطى وجه الأرض، وجعله قاسياً إلى درجة عالية، وجمد

في الوقت نفسه الأنهار، حتى ماتت أعداد كبيرة من الطيور، ومثل هذا لم يتذكر الناس أنه وقع من قبل.

بطرس أوف سافوي يعمل استعداداته للعودة إلى الوطن

عام ١٢٤٢، الذي كان العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وفيه عقد بلاطه كما جرت العادة، في عيد الميلاد في لندن، في حال من السلام، وأطال الاحتفالات في الدير لقرابة خمسة عشر يوماً، وخلال ذلك، وبالتحديد في يوم ختان ربنا انتشرت تقارير حول وصول الايرل رتشارد، وعمت جميع أرجاء انكلترا، وفي هذا الموعد أيضاً، قام بطرس أوف سافوي، إيرل أوف رتشموند، الذي كان رجلاً مستقيماً ومحترماً، بتسليم الملك ووضع بين يديه القلاع المتميزة والفخمة للمملكة، التي كان قد تسلم المسؤولية عنهن، لأنه كان يخشى من أن ترقيته المفاجئة، سوف تغضب كثيراً نبلاء انكلترا، وأنه أخذ على عاتقه عبئاً فوق طاقته، في قيامه بوضعه هذه القلاع تحت عهدته، بينما الانكليز مهملين ومعطلين، ولكي لايحدث اضطراب في انكلترا، من خلاله لدى وصول الايرل رتشارد، الذي ربما سوف يستمع إلى شكاوى ثقيلة حول هذه القضية، وبعدما قدر الأمور بعقله بحكمة، ورأى الخطر الكبير والقريب عليه شخصياً، تخلى عنهن جميعاً، وعمل ترتيباته —بعد الحصول على إذن الملك— للعودة إلى الوطن، وبهذا العمل الحكيم الذي يدّل على حكمة وحسن سلوك، به سكّن مشاعر كثيرين، ولكن بالوسائل نفسها التي حصل بها على إذن بالمغادرة، استدعي على سرعة من قبل الملك، قبل أن يركب السفينة، وبناء على طلبه الملح، حصل —مع أنه لم يرغب— على قلعة دوفر، وتسلم المسؤولية عنها.

رعونة كونت دي لى مارشي

في هذا العام، قام كونت دي لى مارشي، وهو أكثر الكونتات البواتيين

قـوة، بتقـديم الطاعـة وتأدية الولاء إلى أمفـولسي [أمفولسـوس]، أخـو الملك الفرنسي، الذي بموجب تقدمـة أخيه غير العادلة، اغتصب ملكية كـونتية بواتو، وبـدأ ينشط ضد سلطة النبـلاء، وبدأ يتمـدد بمقاصـده، وبعـد مضي بعض الوقت؛ جرت دعـوة كـونت دي لي مارشي المذكـور للقـدوم مسـالماً لتناول طعـام الإفطار مع أمفـولسي كـونـت بواتو المذكور،وذلك أثناء الاحتفالات بعيد الميلاد، لكن في إحدى الليالي، بعد مضي أربعـة أيام تقريبـاً على عيـد الميلاد، وكـان على وشك الاستجـابة للدعـوة، وفقـاً للوعـد، لكنـه في الصبـاح تشـاور مع زوجتـه إيزابيـلا، فتوصل إلى قرار بتغيير نيته، وبمعارضة أمفولسي المذكور بالقوة، ولذلك ذهب إلى ذلك النبيل، وقـال له برعـونـة: «لقـد نويت، عندمـا غششت وفرض علي، أن أقدم الولاء لك، لكن الآن غيرت نيتي، حيث أنني لن أرتبط قط بكم بأية روابط طاعـة ولن أعترف بأي ولاء لكم، ذلك أنك رجل عـدواني، لأنـك استوليت من دون خجل على كـونتيـة صهـري الايرل رتشارد، عندمـا كان يقاتل بإخلاص من أجل الأرض المقـدسة، وبرحمة يقـوم بتحـرير الأسرى من أبناء بـلادنا، وهكذا رددنا بالشر على الخير»، وهكذا قام وهو محقون بالغضب، وبالتهـديد بصوت مرتفع، مع زوجتـه، وهو محاط بكتلة من الجنـود، في حين أعـدّ رمـاة القسي الزيارة من البـواتيين قسيهم للرمي، فـاندفـع إلى وسطهم، فألقى النار في البيت الذي كـان ساكناً فيـه، ثم امتطى فجأة فـرساً، وأخـذ بالفرار، الإجـراء الذي أدهش أمفـولسي وأغضبـه، مع جميع الـذين رأوا ذلك، وجعلهم يشـ ملون بالرغبة للانتقام.

تقديم شكوى إلى الملك الفرنسي حول هذا الإجراء

ثم تقـدم أمفولسي المذكور بشكوى ثقيلـة، ووضعها أمام الملـك ضد هذا العدوان، حـول كل من هذا الفرار غير المتـوقع، وإحراق البيت من قبل الكونت المذكـور، الذي كـان مثل فأر في كيس طحين، أو أفعى في

صـدر انسـان، وهكذا ردّ بشكل فـاسـد على استضـافتـه له، وأثار هذه الشكوى بسبب مسوغ جيـد، الملك وكذلك نبـلاء فرنسا، لأخـذ انتقام عادل.

كونت دي لى مارشي يطلب المساعدة من ملك إنكلترا

وبات كـونت دي لى مارشي خـائفاً كثيراً من غضب الملك الفـرنسي، فحصن قِلاعه وشحنها بالسـلاح وبالرجال المسلحين، وكذلك بكميات وافرة من المؤن، وأمـر بتحويل سكك المحـاريث إلى رماح، والمناجل إلى سهام، وقدر الشرور التي يمكن أن تقع، ولشعوره أنه لايستطيع طويلاً مقاومـة مثل ذلك الأمير الكبير، ألح بالرجـاء إلى ملك انكلترا، للقدوم إلى بواتو، مع مبلغ كبير من المال، ذلك أنه يستطيع بمسـاعدة البـواتيين والغسكونيين في قـوة كبيرة، من استرداد جميـع الأراضي التي استـولى عليها الملك الفرنسي من دون حق، ووعده بالمشـورة الفعالة، ومساعدته الشخصيـة، مع مسـاعـدة الأعيان الآخـرين، وخـاصـة ملك أراغـون، وكونت طولوز، مع آخرين عددهم كبير حتى نذكرهم هنا، ووقتها قدّر الملك الانكليـزي هـذه الأمـور كلهـا وتفحصهـا بعقلـه، ووثق بالكلام المخـادع لكونت دي لى مـارشي والبـواتيين الآخـرين، الذين ينبغي أن لايثق بهم.

عقد بارلمان كبير في لندن

وبنـاء عليـــه، كتب الملك هنري، إلى جميع نبـــلائـه الانكليـــز، وإلى رؤسـاء الأسـاقفـة، والأسـاقفـة، ورعـاة الديرة، ورؤسـاء الرهبـان، والإيرلات، والبـارونات، وأعطاهم أوامر دقيقـة للاجتماع في لندن يوم الثلاثـاء التالي، قبل عيـد طهارة العذراء المبـاركة، للتـداول بعناية كبرى حـــول بعـــض القضـــايا الصـــعبة المتعلقـة بـالمملكة، والتي لاتحتمل التأخير.

كيف ذهب الملك إلى استقبال الإيرل رتشارد لدى عودته من الأرض المقدسة

وفي هذه الآونة نفسها، كان الملك متوقعاً وصول أخيه الايرل رتشارد من القارة، وكذلك النبلاء الذين كانوا قادمين من مسافات نائية لحضور المؤتمر، فأطال إقامته في لندن حتى الأول من شباط، أي يوم عيد القديسة هيلاري، لكنه سمع آنذاك بأن الايرل قد نزل في دوفر، في اليوم التالي لعيد الغطاس، وبناء عليه قام ومعه ملكته، يحيط به كتلة كبيرة من النبلاء، فذهب مسروراً لاستقباله، ولدى رؤيته له، اندفع إلى مابين ذراعيه، واستقبله بكل علامة من علامات البهجة، فقد أثار الدم الأخوي العواطف من على الجهتين، وقد أثقله الملك، وجميع النبلاء تقريباً بمختلف الهدايا، وفي اليوم الثاني لعيد القديسة اغنس، وصل الايرل إلى لندن، وعند وصوله تزينت المدينة بالأعلام وبالمعلقات، وكأن ذلك كان من أجل العيد، وأقام الأخوان وليمة مع عدد من الضيوف الخاصين الذين دعاهم الملك.

البواتيون يحثون الملك مع أخيه لعبور البحر لمساعدتهم

وعلم البواتيون بوصول الايرل رتشارد إلى انكلترا، فتابعوا من دون توقف العمل على حث الملك، وكذلك الايرل المذكور، ليقدما من دون تأخير، وليحصلا على امتيازاتها، وبشكل خاص كونتيه بواتو، وحول ذلك تصوّر الملك خطة ثابتة بالعبور إلى فرنسا، حتى أنه لم يمكن اقناعه بالتخلي عن نيته بوساطة منطق أصدقائه، ولابوساطة أصحاب الرغبات الطيبة.

تفرق البارلمان الإنكليزي في حالة غضب

ومع اقتراب حلول موعد عيد طهارة العذراء المباركة، اجتمعت النبالة الانكليزية في لندن وكانت هذه النبالة مكونة من الأساقفة،

والإيرلات، والبارونات، وجاء الاجتماع بناء على طلب الملك وأمره، ولأنهم كانوا يعرفون بأن الملك، قد قام غالباً وفق هذه الطريقة، بإزعاجهم وفق هذه الحجة الزائفة، وباستدعائهم بكل سرعة، فعملوا يميناً مع بعضهم، وتوصلوا إلى قرار ثابت، تحت طائلة عقوبة التكفير، أن لايوافق أحد منهم في هذا المؤتمر، ولابشكل من الأشكال، على أية جباية للأموال سوف يحاولها الملك، وكان الآن قد بات معروفاً بشكل جيد لدى الجميع بأن كونت دي لى مارشي، قد دعا بإلحاح الملك وحثه على العبور إلى القارة، آخذاً معه من المال كل مايمكنه استخراجه وجمعه، دون الاهتمام بأي شيء حول قوة الجيش الانكليزي، وبذلك أعطوا قيمة صغيرة للجندية، أو للقوة الاقطاعية للمملكة، عادين الملك بمثابة بائع متجول، الذي همّه هو الحصول على المال، يضاف إلى هذا أن الانكليز كانوا مثارين —بشكل محق— ضد الكونت وضد جميع أتباعه من البواتيين، ولم ينظروا نظرة رضا نحو الملك الذي وافق على مثل هذه الأشياء، من دون مشاورة نبلائه، وبناء عليه، عندما جعلهم الملك يعرفون قراره في قلبه الذي لاعودة عنه، أي العبور إلى القارة، استجابة لدعوة كونت دي لى مارشي، ومع مناقشات متنوعة طالب بمساعدة مالية منهم، أجابه النبلاء بحدة كبيرة في نفوسهم، بأنه عمل خطته من دون استشارتهم، وأنه كان خالياً من الحياء بتقدمه بمثل هذا الطلب، ذلك أنه ضيق مراراً على رعاياه المخلصين وأفقرهم، بطلبه المال منهم وكأن المسألة صارت عادة، وكأنهم كانوا أحط أنواع العبيد، وأنه غالباً ما استخرج منهم مبالغ ضخمة من المال، جرى انفاقها من دون فائدة، ولذلك قاموا الآن بمعارضته في وجهه، ورفضوا أن يتم تجريدهم من أموالهم بعد الآن، من دون غاية ولا لهدف.

وبناء على ذلك لجأ الملك إلى طرائق الرومان ومكرهم، وأمرهم بالانتظار حتى اليوم التالي لسماع رغباته حول مايتعلق بهذه القضية

وبقضايا أخرى، وجمعهم في اليوم التالي واحداً، واحداً، وفي أوقات مختلفة، في غرفته الخاصة، مثل دعوة الكاهن المرضى للاعتراف، ولأنه لم يستطع اضعاف تصميمهم عندما كانوا مجتمعين، سعى بدهاء إلى اضعافهم واحداً تلو الآخر، بحججه، ورجاهم القيام بتقديم مساعدة مالية، قائلاً لكل منهم: «إنظر إلى الذي قدمه راعي الدير فلان، ودفعه لمساعدتي، وإلى الذي قدمه فلان الآخر إليّ» حاملاً بيده في الوقت نفسه قائمة، أظهر عليها اتفاقية مكتوبة، بأن راعي الدير فلان، أو رئيس الرهبان قد دفع كذا وكذا، أو أنه على الأقل قد وعد بدفع كذا، وكل هذا مع أن ما من واحد منهم قد أعطى موافقته على شيء من هذا القبيل، أو أنه عرف أي شيء عن ذلك.

فبمثل هذه التصرفات الزائفة، والكلمات المعسولة، تمكن الملك بدهاء من ايقاع عدد كبير منهم بشباكه، ووقف آخرون —على كل حال— صامدين، ورفضوا بتاتاً التزحزح عن الجواب الذي اتفقوا عليه بشكل عام، وأقسموا على الالتزام به، وإلى هؤلاء قال الملك وهو مغضب:

«هل سأكون أنا على هذا رجلاً حانثاً بيميني؟ لقد أقسمت يميناً لاعودة عنه، بأنني سوف أعبر البحر، وأطالب باسترداد حقوقي من الملك الفرنسي بذراع ممدودة، وهذا مالا يمكنني القيام به من دون مبلغ كبير من المال، عليكم تزويدي به بكرم منكم»، وعلى الرغم من لجوئه إلى وسائل الاقناع هذه وسواها، لم يتمكن من ايقاع بعضهم في شباكه، مع أنه —كما ذكرنا من قبل— دعا كل واحد منهم إليه بشكل خاص.

ثم إنه بعث —على كل حال— في المرة الثانية، إلى أصدقائه المقربين وخاطبهم كما يلي:

«أي مثل مهلك ضربتموه إلى الآخرين، أنتم الذين ايرلات شجعان، وبارونات، وفرسان، عليكم أن لاتكونوا خائفين، مع أن آخرين، أي

أساقفة الكنائس، قد أظهروا خوفاً، عليكم أن تكونوا، متشوقين أكثر من الآخرين، لاسترداد حقوق المملكة، ولتجريب حظ الحرب ضد أولئك الذين ألحقوا الضرر بنا، وأن نقوم بتقوية قدرتنا ودعم سلطتنا، هو واجب واضح، بموجب الحقوق التي نمتلكها، وأيضاً بموجب الدعوة والوعود التي تلقيناها من النبلاء، وكذلك بموجب مثل ما حدث في ويلز، حيث تمكنا مؤخراً من الانتصار بسعادة، وميول النجاحات الماضية، سوف تقود الطريق إلى نجاحات أخرى، فكيف لديكم قدرة على تركي، وأنا مولاكم، فقيراً، ومهجوراً، في الوقت الذي أنا فيه على استعداد للقيام بهذه المهمة الصعبة، في سبيل الصالح العام، وبما أنني مترابط بكل دقة بيمين لأداء وعدي والوفاء به، بالعبور إلى القارة؟»، وعندما سمع النبلاء بهذا أجابوه قائلين:

«إن الكلمات لايمكنها التعبير عن حيرتنا حول المتاهات التي أغرقت فيها مبالغ لاتحصى من المال، التي جبتها جلالتك من الوصايات المتنوعة على النبلاء، ومن مختلف المواريث، واستخراجات متوالية، من كل من الكنائس الشاغرة، ومن أراضي النبلاء، ومن الأعطيات التي قدمت سلفاً، إنها مبالغ كافية لإحداث الدهشة لدى كل من يسمعهم، ومع ذلك فإن هذه المبالغ المالية، لم تجلب قط أية زيادة، أو منفعة للمملكة، يضاف إلى هذا لقد دعوت مؤخراً إلى المملكة بعض النواب البابويين، أو أشخاص مارسوا واجبات النواب البابويين، وهؤلاء عندما كانوا يجمعون عناقيد العنب التي بقيت، جمعوا لأنفسهم المال الذي كان قد بقي، ومجدداً إن جميع نبلاء انكلترا مندهشين كثيراً تجاه توليكم القيام بمثل هذا العمل الصعب والمرعب، من دون أخذ رأيهم وموافقتهم، حيث أنك وضعت ثقتك في أولئك الذين هم بلا ثقة، وأنك على الرغم من الارادة الطيبة لرعاياك الطبيعيين، معرض نفسك إلى نصيب مشكوك فيه، ثم إنك أيضاً قمت تعريضاً لنفسك للخطر،

السمعة فخرقت من دون كرامة الهدنة المعمولة بين الملك الفرنسي وبينك شخصياً، وهي التي أقسمت عليها بحق روحك، بمراعاتها دونما احباط، وذلك حتى التاريخ الذي كان قد أعده من قبل الايرل رتشارد المشهور، الذي هو أخوك، والايرل ر. R بيغود».

وأضاف الذين هم أكبر سناً، والذين أكثر نفوذاً بينهم قائلين:

«وأنت أيضاً، لخطرك، قد وضعت كثيراً من الثقة، ووعدت بالحضور شخصياً، هؤلاء النبلاء القاريين المشاهير بسوء السمعة، الذين هم قائمين بالتمرد، ورفع أعقابهم، ضد مولاهم، الملك الفرنسي، والذين بناء على هذا بالذات، ينبغي عدم الوثوق بهم، لشهرتهم باقتراف خيانات مضاعفة، وأنت تعرف أيضاً بأن ملك نافار، الذي وعدوك بمساعدته، قد اقترف مؤخراً جريمة في الأرض المقدسة، ندبة جرحها لم تزل بعد، ولتكن مثل أجدادك المشهورين، وليكن واعظاً لك، وناهياً لك ومعيداً عن الذي نويته، أنهم يمتلكون في تلك الأرجاء قلاعاً لاترام، وكثيراً من الأراضي، وجيشاً كبيراً، ومبالغ لاتحصى من الأموال، ومع ذلك كانوا غير قادرين على صد القوات الفرنسية الثابتة والتي لايمكن قهرها، ولا حتى القدرة على الاحتفاظ بممتلكاتهم»، ولدى سماع الملك لهذا الكلام انفجر غاضباً بعنف، ودعا القديسين أن يكونوا شهوداً، وأقسم أنه لن يتراجع عن مقصده، بالخوف، أو أنه سيتوقف عند أية خطابات غامضة، ولن يتوقف عما عزم عليه، وأنه سوف يقلع في ثمانية عيد الفصح، وسوف يجرب من دون خوف حظ الحرب في القارة ضد الفرنسيين، وبهذا ارفض المؤتمر بغضب مغروس بثبات، ولكن بشكل سري في عقول الطائفتين.

ردّ بارونات إنكلترا

وبعد مضي بعض الوقت، ولكي لايضيع مغزى جواب البارونات

ويصبح منسياً، تمّ وضع هذه الأشياء كلها كتابة، وتدوينها كما يلي:

«بما أن السيد رئيس أساقفة يورك، وجميع أساقفة انكلترا، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، وكذلك الايرلات، وتقريباً جميع بارونات انكلترا، إما قد حضروا شخصياً، أو جرى تمثيلهم بنوابهم، واجتمعوا بناء على دعوة من السيد الملك، في ويستمنستر، في يوم الثلاثاء التالي قبل طهارة العذارء المباركة، في عام ألف ومائتين واثنين وأربعين لتجسيد ربنا، أي في العام السادس والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، وذلك بغية سماع رغبة الملك وارادته، والأعمال التي من أجلها دعاهم.

وبما أن مولانا الملك قد أرسل إليهم السيد رئيس أساقفة يورك، والنبيل الايرل رتشارد، ووولتر أوف يورك، وعمدة بيفرلي Beverley, بمثابة رسل خاصين، ليتولوا تبيان رغبته وإرادته وعمله، وقد سأل جميع نبلاء المملكة أن يقدموا مشورتهم ومساعدتهم ليحصل على ملكية ميراثه وحقوقه في القارة، التي هي عائدة إلى مملكته، مملكة انكلترا، وأخيراً بعدما عقد الأساقفة المذكورون، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، مناقشات طويلة، نصحوا الملك في المقام الأول —من خلال النبلاء المتقدم ذكرهم— أن ينتظر حتى انتهاء الهدنة المعقودة بينه وبين ملك فرنسا، لكن إذا صدف وقام الملك الفرنسي بأية مغامرة، متعارضة مع بنود الهدنة، وقتها على ملك انكلترا المذكور ارسال رسل خاصين له لإقناعه بالإعذار وبالانذار، بمراعاة الهدنة، وأن يعيد التفكير في مغامرته، إذا ما كان هو شخصياً أو أحد من نبلائه قد فعل ذلك، وإذا ما رفض الملك الفرنسي أن يفعل ذلك، وقتها سيقومون رغبة منهم بإلحاق أنفسهم برأيه، في سبيل تقديم العون إليه، بقدر ما يملكوه من قوة».

ووافقوا جميعاً على هذا الجواب، وبطريقة مشابهة لهذه، ومنذ أن صار حاكمهم لقد قاموا مراراً، بناء على مطالبه الضاغطة، فأعطوه

مساعـدات، منها الجزء الثالث عشر من ممتلكاتهم المتحركـة، وبعد ذلك الجزء الخامس عشر، ثم الجزء السـادس عشر، وبعد ذلك الجزء أربعين، وأعطوه ضرائب الأرض، وضرائب التخـوم، وعـدة بدائل عن الخدمـة العسكرية، كـان آخـرها بدل عظيم من أجل زواج أختـه الامبراطورة، ومـا كـادت تمر أربعـة أعـوام بعـد ذلـك التـاريخ، عندمـا طلب مجدداً المساعـدة منهم، وحصل أخيراً بعد التماسات مكثفـة وشديدة على الجزء الثـالث عشر، وقـد منحـوه ذلك على شرط،أنـه لاهذه الجبـاية، ولا أية جبـاية متقدمـة ينبغي أن تعـدّ في المستقبل عـادة منتظمة، وقـد أعطاهـم صكاً حـول هذا الموضـوع، يضاف إلى هذا، أنه قـام بوعـدهم بأن جميع الامتيــازات الواردة في الصك، ينبغـي من ذلك الحين، كما كــان فيما مضى، أن تراعى تماماً في جميع أرجاء مملكتـه، وحول هذا أعطاهم صكاً صغيراً، احتوى الأشياء نفسها، وهذا الصك هو الآن بين أيديهم.

وبالاضافة إلى هذا، قام الملك عن طواعية من ذاته، وبوساطة نصيحة باروناته، فـوعـدهم بأن المال كلـه الذي سـوف يجبى من الجزء الثـالث عشر المذكور، يتـوجب أن يوضع في حـرز أمين في قلاعـه الملكية، تحت رعـاية أربعة من نبـلاء انكلترا، هـم: ايرل وارني مع آخرين، وبمـوجب اختيـاره، ووفقـاً لمشــورته، الشيء نفسـه ينبغي انفـاقـه عندمــا تتـوفـر الضرورة، في سبيل منفعة الملـك المذكور والمملكة، وبالنسبـة للبارونات هم لم يعرفوا، ولم يسمعوا، بأن أياً مـن المال المتقدم الذكر،قد صرف بناء على اختيار أو مشورة أي واحد من النبلاء الأربعة المتقدمي الذكر، وهـم يعتقدون بشكل ثابت —وفي الحقيقة، إنه لمن المعروف تماماً— بأن الملك مازال لديه ذلك المبلغ كله دون أن يلمس، ومن ذلك المبلغ، يمكنه الآن أن يزود نفسه بمعـونة كبيرة، وإلى جانب هذا، هم يعرفـون بشكل جيد أنه منذ ذلك الحين جمع كثيراً مـن أمـوال المواريث، بشكل خــاص من رئـاسة أسقفيـة كانتربـري، ومن عدد من أغنى الأسقفيـات في انكلترا،

ومن أراضي الايرلات، والبـارونات، والفرسان الموتى، الذين كانوا متملكين من قبله، فمن هذه المواريث لوحدها، لو أنهم اهتموا بها واعتنوا، لتوجب جمع مبلغ كبير من المال، علاوة على ذلك، إنه من وقت إعطائهم الجزء الثالث عشر المذكور، كان رجال العدالة يرتحلون بشكل متواصل ويدورون خلال جميع أجزاء انكلترا، وهم يجمعون ضرائب الغابات، وجميع الضرائب الأخرى، وعلى ذلك فإن جميع الكونتيات، والمئويات من أجزاء الكونتيات، والمدن، والمناطق، وتقريباً جميع القرى، حتى قرى انكلترا قد غرمت بشكل ثقيل، وبناء عليه إنه من هذه الجولات من المتوجب أن يكون صار لدى الملك مبلغاً كبيراً من المال، إذا ما دفع، وجمع بشكل صحيح، وبناء عليه يمكنهم القول بشكل صحيح بأن جميع انكلترا قد سيمت ظلماً شديداً، وتعرضت إلى فقر شديد بوساطة هذه الغرامات، وبوساطة المعونات التي أعطوه إياها من قبل، إلى حد أنهم الآن قد بقي لديهم القليل من الممتلكات أو لا شيء البته.

ولأن الملك بعد منح هذا الجزء الثالث عشر، لم يلتزم قط بصكه المتعلق بالامتيازات، لابل ظلمهم أكثر منذ ذلك الحين، مع أنه قد منحهم بصك آخر، ووعدهم بأن استخراجات من هذا النوع يتوجب أن لاتصبح عادة، لهذا كله أخبروا الملك الآن بشكل واضح ومؤكد أنهم لن يمنحوه الآن أية مساعدة في المناسبة الحالية، ولكن بحكم أنه مولاهم، عليه أن يتصرف نحوهم وفق مايلي، بأن يصبر حتى تنتهي الهدنة المتقدمة الذكر، وإثر ذلك سوف يقدمون له النصيحة بقدر ما يستطيعون.

وعندما أخبر النبلاء المذكورون، الذين عملوا بمثابة رسل، هذا الجواب إلى الملك، عادوا إلى البارونات، وقالوا بأنهم جزئياً قد قدموا الرد المناسب إلى الملك، لكنه أراد أن يعرف ماالذي سوف يفعلونه إذا

ما خرق ملك فرنسا الهدنة، قبل انتهـاء الموعد، ولقد وعدوا أيضاً باسم الملك بأنه إذا مااقترف أي أذى ضـد أي من نبلاء انكلترا، فـالذي عليه هو أن يعمل تكفيراً عن ذلك، وفقـاً لتحكيم بطرس أوف سـافـوي مع آخرين من مجلسه.

وعلى هذه الأسئلة أجاب النبلاء، إنه إذا ما خرق ملك فرنسا الهدنة، فإنهم سـوف يشغلون أنفسهم، لايجاد خطط، حسبما قـالوا من قبل إنهم سيفعلون، عند انتهـــاء الهدنة، شريطة —على كل حـــال— أن يكونوا متأكدين من أن ملـك فرنسا قـد فعل كذلك، وبالنسبـة للتهمة أنهم من جهة الملك قـد وعدوا بالتكفير عن الأذى الذي نزل بهم، وقـال الرسل بأنهم في الوقت الحالي لن يتجـادلـوا مع الملك، وكـان في أيام منح الجزء الثالث عشر، و. W دي ريلي قد وعدهم باسم الملك، وعـداً مؤكداً وصادقاً، كما يفعلون هم الآن، لكن كيف حفظ الملك وعوده، هو نفسه أحسن من يعـرف، وأخيراً كـان الملك —على كل حال— قـد تبـاحث معهم جميعاً واحداً، واحداً، بشكل أن كل واحد من الجماعة كان جاهلاً بالذي أعطاه إياه الآخر.

عودة إيرل أوف سالسبري من الأرض المقدسة

وفي الوقت الذي كان الزمان يدور فيه هكذا، ويسير على سياقه، عاد ايرل أوف ســالسبري، من الأرض المقـدسـة، ونـزل في انكلترا، ســالماً وصحيحاً، وكان ذلك في بداية شهر آذار.

اعتقال رئيس أساقفة كولون وسجنه

اعتقل في هذه الآونة رعـايا الامبراطور رئيس أساقفة كـولون، الذي كان عائداً من روما إلى ألمانيا متنكراً، وكان رئيس الأساقفة هذا قد تآمر مع أساقفـة آخرين، من الذين قدموا إلى المجمع العـام، من أجل اسقاط الامبراطور، وكـــان قـد سمـع بمصير الذين ســافــروا خـــلال المناطق

الامبراطورية، ولذلك غيّر طريقه، وعاد عبر طريق جانبي، ذلك أن الكمائن قد نصبت في جميع الاتجاهات، ولذلك وقع بالأسر، ووضع بالسجن، والشخص الذي اعتقله، كان —على كل حال— ألمانياً، ومعروفاً بشكل جيد من قبل رئيس الأساقفة، ولذلك سمح لأسيره بالنجاة، بعدما وعده وعداً صادقاً، وأقسم أنه لن يتآمر ثانية ضد الامبراطور، ولن يؤذيه، وحفظ رئيس الأساقفة —على كل حال— وعده بشكل سيء، كما سنحكي في التاريخ المقبل.

الملك الفرنسي يجهز أسطولاً ضدّ الإنكليز

وما لبثت أخبار هذه الأحداث قد انتشرت في مختلف أجزاء العالم، وفي فرنسا، وعلم الملك الفرنسي باقتراب وصول ملك انكلترا بطريقة عدوانية ضده، وعلم بتآمر الذين استدعوه لمساعدتهم، فمركز ثمانين غليوناً مسلحين بشكل جيد، أمام روشيل Rochelle لحراسة تلك الأجزاء من بواتو ضد كل من يسعى للدخول إليهم، كما تدبر أيضاً حشد قوة عسكرية، بقدر ما يستطيع الفرنسيون أن يحشدوا، وأن تجتمع مع بعضها بموجب مذكرة ملكية، جرى توزيعها في مختلف المقاطعات الخاضعة له، وأمر عصابات الجماعات المدنية بأن تستنفر أنفسها، استعداداً لدعوته الملكية.

كيف جمع ملك إنكلترا كميات كبيرة من المال

وتسلم الملك الانكليزي في الوقت نفسه، بشكل متواصل، أكثر الرسائل إلحاحاً من كونت دي لى مارشي، ومن النبلاء الآخرين لبواتو، فصار بذلك ثابتاً على قراره من دون تعديل، معتقداً أنه سوف يتسلم، بدون أدنى شك، جميع الذي وعده الكونت به، وحسبما كانوا قد نصحوه أن يفعل، جمع مبلغاً كبيراً من المال، أما بالنسبة للذين رفضوا تقديم المساعدة المالية إليه، فقد عدّهم إما أعداء مكشوفين له، أو

ضـايقهم بكل وسيلة من الوسـائل بوسـاطة أذنابه، وقـام أثناء الصـوم الكبير بصرف انتبـاهه من دون كلل إلى هذا العمل، لأننا كما ذكـرنا من قبل، أرسل كـونت دي لى مـارشي رسـالة إليـه، بأن يجمع فقط المال، ويجلبه معه، لأنه هو سـوف يزوده بقـوة عسكرية كـافية، وبهذا القـول الذي قـاله الكونـت من دون حيـاء، قـد تجاوز حـدود الصـدق، حسبما ستبرهن نتائج الأحداث فيما يلي.

ملك إنكلترا يحث كثيرين على الالتحاق بالحملة معه

وحـاول الملـك بدهاء، أن يستميل قلوب الـذين كـانوا محتـارين برغبـاتهم، بوسـاطة هدايا ثمينة أضعفت ثبـات كثير من النبـلاء، ولقـد تمكن بوساطة الوعـود المغرية، أن يربح إلى جانبه أخيـه الايرل رتشارد، حتى يرافقه في حملتـه، تحت أمل مكافأة وافرة، وتوصل إلى غـرضه هذا بسبب أن الملك الفـرنسي، قـام بعمل طائش، قبل وقت قصير، وحسبما ذكـرنا من قبل، فمنح كـونتية بـواتو إلى أمفولسي، أخيـه، وبذلك حـرم بشكل غير عادل الايرل رتشارد من ممتلكاته، وقد وعد البواتيون بشكل أكيد بعودتهم جميعاً إليه، لدى وصوله إلى هناك.

إرسال سفراء بشكل مسبق للإعلام بوصول الملك

وجرى الآن ارسـال بطرس أوف سافـوي، ايرل ريشموند، وبطرس أوغويبـلانشي، أسقف أوف هيرفورد، اللذان كـانا المستشارين الخاصين للملك، إلى القـارة لطمأنة أصدقـاء الملك في بواتو بأخبار، بأن وصـول الملك بات وشيكاً، وبهذا ارتفعت آمـالهم، وشرعوا على الفـور بالحرب، وطالبـوا بإعـادة الحقـوق لصـالح ملك انكلترا، وألحقـوا أضراراً كبيرة بالملك الفـرنسي، وبعـد ايصـال الـرسـائل، نجـا بطرس أوف سـافـوي بصعـوبة من كمين نصب له، وعـاد إلى الملك في لندن، قبل وقت قصير من عيد الفصح، وهـو صحيح الجسم، لكن ليس من دون خسـائـر، أما

بطرس، أسقف هيرفورد، فقـد أخذ طريقاً جانبياً غير الطريق المعتاد إلى الوطن، حتى يصل سالماً، وبذلك نجا من كمائن الذين استهدفوا حياته، وذهب وهو على طريقه إلى بروفانس، وطلب من كونت بروفانس، والد الملكتين: الفرنسية والانكليزية، ابنتـه الثالثة سينشيا Cincia للزواج من الايرل رتشـارد، وتجاه هذا استثيرت الجماعة الانكليـزية كثيراً، وبدأ أفـرادهـا يخشـون من أن تصبح جميع شـؤون المملكة تحت إرادة الملكة واختهـا سينشيا المذكـورة، عندمـا ستصبح زوجة الايرل رتشـارد، التي سوف تكون بالفعل ملكة ثانية.

ملك إنكلترا يعمل استعداداته من أجل عبوره

في هذه الآونـة كـان الملـك قـد أكمل جـولة على بعض كنـائس القديسين، وعهد بنفسـه إلى صلوات رجال الدين، وودع المواطنين، وفي اليـوم التـالي لعيـد الفصح أخـذ الطريق إلى بوررتماوث، ليركب السفينة من هناك،وقـد أسرع إلى اتخاذ هذا الإجـراء بـوسـاطة الرسـائل الملحـة والمتواصلة التي أرسلت إليه من القـارة، وأثارت محتويات هذه الرسائل غضب وخجل بعض الانكليـز، الذين يتعلقـون بالكرامـة، ذلك أنها هدفت إلى القول بأنهم قد بدأوا الحرب بشكل مـوائم، وأن عليه القدوم مسرعـاً، ودونما خـوف، إلى مسـاعـدتهم، مع مبلغ كبير من المال، وأن لايهتم بجلب حشـد كبير من الجنود، وكـأن ملك انكلترا قـد كـان مصرفياً، أو صرافـاً، أو بائعاً بالمفرق، وليـس ملكاً، وقائداً نبيـلاً، وآمراً للفرسـان، حيث أنهم وضعوا ثقتهم بـالمال أكثر من وضعهـا في القتال، وليس من المعتـاد إثارة ملك ودعـوته إلى الحرب بهذه الطريقـة، وأظهـر البواتيـون بهذه الطريقة خيانتهم المعتـادة، لأنهم آثروا إنهاك أموال الملك وفضلوا ذلك على وجوب تشجيعـه بالتكريم المناسب، وأن يكون محاطاً بنبـلائه، وفقـاً لكلمات الفيلسـوف سينكا Seneca, عندما تحدث عن زيف النساء بقوله:

عندما يتبدد غضب المرأة المكشوف

وقتها تكون ممتازة جداً

وفي هذا برهنوا —على كل حال— عن أنفسهم أنهم خونة غير بارعين، لأنه عندما:

شبكة الطائر تواجه العين

الطائر الحذر يحتاط لأن يطير

تعيين رئيس أساقفة يورك نائباً للملك

عندما بات الأسطو ل الحربي جاهزاً ومستعداً، عهد بشؤون المملكة إلى رئيس أساقفة يورك، وأعاد رتشارد راعي دير ايفهام، والأسقف المنتخب لشيستر، الختم الملكي، الذي حمله لمدة ثلاثة أعوام بطريقة مرضية، وعاد الملك إلى صداقة أسقف شيستر، الذي لم يستحق مطلقاً فقدانها، وكذلك أصغى ر. R مستشاره، ورالف فتز— نيقولا، وغودفري كروكومب Crowcombe وبعض الآخرين المعزولين إلى إطراءات المداهنة.

إقلاع الملك ووصوله إلى روان

ثم إنه في الخامس عشر من أيار، أقلعت العساكر، ومعها ثلاثين صندوقاً مليئة بالمال المتشوق إليه كثيراً، وركب الملك في سفينة تصاحبه زوجتة الملكة ويصاحبه أيضاً أخوه الايرل رتشارد، مع سبعة ايرلات آخرين، وحوالي ثلاثمائة فارس، وأبحر مع ريح طيبة نحو بوردو، لكن قبل أن يبتعد كثيراً عن الساحل، توقفت الريح، فعاد إلى بورتماوث، وفي اليوم التالي، بما أن الريح هبّت بشكل موائم، أقلع ثانية، ووصل إلى القديس متى دي فينيستير Finisterre في بريتاني، ومكث هناك يوم الأحد لسماع الصلوات المقدسة، وأقلع في يوم الاثنين ثانية، وأبحر في

المياه العميقة فوصل في يوم الثلاثاء إلى رويان Royan, عند مصب غيروند Gironde, وذلك حيث يصب في البحر مقابل القديسة ماري دي سولاك Soulac في غساكوني، ونزل هناك، ومكث لعدة أيام، ومن هناك مضى إلى مدينة بونز Pons الفخمة، حيث تقابل مع رينالد دي بونز، صاحب ذلك المكان، وبعض نبلاء آخرين من سانتاغيو.

الترتيبات الأولية للزواج فيما بين ملك سكوتلندا وابنة ملك إنكلترا

أثناء وقوع الحوادث التي تقدم ذكرها أعلاه، تمّ عقد القران بين الاسكندر الابن الأكبر لملك اسكوتلندا، ومرغريت ابنة ملك انكلترا، من خلال وساطة أسقف درم، وذلك في سبيل أن تكون المملكة أثناء غياب الملك أكثر سلاماً بشكل مؤكد، وكان هذا قد جرت الموافقة عليه من قبل، بناء على رغبة كل من ملكي انكلترا واسكوتلندا، وقد عهد بالجزء الانكليزي المحازي لسكوتلندا إلى عناية ملك الاسكوتلنديين، أثناء بقاء الملك الانكليزي في القارة.

كيف نهب وليم مارش جزيرة لوندي

وفي أثناء وقوع هذه الأحداث، عسكر وليم مارش، ابن غيوفري مارش، فوق جزيرة قريبةِ من بريستول اسمها لوندي Lundy, وكان مكاناً حصيناً لايرام بسبب وضعه الطبيعي، وقد عاش هناك مثل قرصان مع عدد من الرجال المنفيين والأشرار، وقد تورط في أعمال النهب والسلب، وقام بمرافقة أصحابه بالعيث فساداً بالشاطىء المجاور، وسلبوا من السكان ممتلكاتهم، لاسيما الخمرة والامدادات الأخرى، وبوساطة غارات مفاجئة حملوا كميات كبيرة من الأسلاب، من المنطقة الواقعة قرب الجزيرة، وألحقوا أضراراً بالغة بطرق مختلفة،

بمملكة انكلترا في كل من البر والبحر، وسببوا خسائر كبيرة إلى كل من التجّار الوطنيين والأجانب.

وذهب بعض نبلاء انكلترا وايرلندا، الذين لم يكن بإمكانهم البقاء بشكل مشرف في بلادهم، أثناء غياب الملك، وتعرضه لمخاطر الحرب في القارة، ذهبوا في جولة إلى قرب الجزيرة المتقدمة الذكر، فاكتشفوا بأن وليم المذكور وأتباعه لايمكن اعتقالهم من دون خيانة، فأخبروا الملك، بأنهم ينبغي أن لا يعملوا بالقوة، بل بشكل حكيم، في سبيل اعتقال هذا اللص، وعند ذلك أمر الملك رعاياه —مع وعود بجوائز كبيرة— بأن يسعوا بكل يقظة لاعتقاله، وتحرير البلاد منه، لأن وليم هذا كان مكروهاً جداً من قبل الملك، حيث قيل بأنه قام، بتحريض من أبيه غيوفري، بالتآمر على حياته، ولذلك بعث بذلك المجرم، الذي قدم ليلاً، ليقوم بقطع عنقه، عندما كان في وودستوك، وبذلك استحق الإدانة بالخيانة، وبعد ذلك قتل واحداً من الكهنة، وكان رسولاً من نبيل ايرلندي، كان في حضرة الملك في لندن، وبجرأة أنكر وليم المذكور جميع هذه التهم، ومع ذلك لم يحصل على أي تصديق، كما أنه لم يلق أذناً صاغية، ولذلك قام —على كل حال— بحمل نفسه إلى أماكن بعيدة عن الطريق، وصار هارباً وخارجاً على القانون.

وفاة بعض النبلاء

وفي حوالي هذا الوقت نفسه من العام، مات النبلاء: غيلبرت دي غونت، وبلدوين واك Wac, وفيليب دي كايم Kime, وكان ذلك في المناطق الشمالية، وروجر بيرترام Bertram, وبعض النبلاء الآخرين، الذين غادروا هذه الحياة، ومات أيضاً ايرل أوف ووريك Warwick, وفي هذا العام أيضاً، مات هنري، الذي كان واحداً من أبناء الامبراطور، والذي لذنوبه قد أودع لوقت طويل في السجن بناء على أوامر أبيه، وهناك أنهى حياته البائسة، ولقد قيل بأنه مات بيديه نفسه.

الأوضاع البائسة للكنيسة الرومانية

وكان البلاط الروماني في هذه الآونة في وضع فوضوي كبير، وفي حالة بائسة ومتهاوية، حيث كان قد بقي هناك ستة أو سبعة كرادلة في روما، وقد بقي الكرسي البابوي شاغراً، وكان بعض الكرادلة قد انتقلوا من هذا العالم، وبعضهم مازال مريضاً، وكان آخرون قابعون متخفين مع أصدقائهم وأقربائهم في مناطق نائية حيث كانوا قد ولدوا، وبذلك كانوا متفرقين في أماكن مختلفة، وكانوا يعانون من اضطراب في عقولهم، وقد انطفأ شعاع العاطفة فيما بينهم، وأصبحوا كأنهم رمل من دون كلس، وعلى هذا فإن بيت الرب الذي احتاج إلى الوحدة ليضمن القوة، لم يعد قادراً على تلقي الدعم بشكل صحيح منهم.

استعدادات الملك الفرنسي للتصدي إلى ملك إنكلترا

وعلم الملك الفرنسي في الوقت نفسه، بأن ملك انكلترا قد نزل إلى اليابسة لشن الحرب عليه، معتمداً على مساعدة البواتيين، وعلى وعود من الغسكونيين، ولمعرفته بأن كونت دي لى مارشي قد شرع بالحرب ضده، استدعى بوساطة إعلان ملكي جميع القوة العسكرية الفرنسية، وأمر بتزويد قطار العصابات بالسلاح والإمدادات، من أجل أنه عندما تستدعي المناسبة لدعوتهم، يمكن أن يجدهم جاهزين، وتوفر لديه حوالي ألف عربة، فأمر بأن تكون جاهزة لحمل الخيام، والمجانيق، والإمدادات، والسلاح، والأشياء الضرورية الأخرى، ثم إنه أعدّ قواته، التي كانت أفضل ما يمكن لفرنسا أن تنتجه، ووضعها في نظام حسن، وانطلق زاحفاً نحو بواتو، ليصد بالقوة هجمات ملك انكلترا وأعدائه الآخرين، وكان هناك حوالي أربعة آلاف فارس مسلحين تمام التسليح وبشكل فخم، وذلك إلى جانب أعداد من الآخرين الذين قدموا من جميع الاتجاهات، وتدفقوا نحو الجيش، مثل تدفق الأنهار، حين تصبّ في البحار، وقيل بأن عدد الأتباع ورماة القسي الزيارة قد بلغ نحواً من عشرين ألفاً.

اعتقال وليم مارش ومعاقبته في لندن

وفي هذه الآونة، حدث للفارس وليم مارش، الذي أتينا على ذكره، أنه بعدما أمضى بعض الوقت، في الجزيرة المتقدمة الذكر، متورطاً بأعمال السلب والنهب، أنه فوجيء من قبل بعض عملاء الملك، وجرى اعتقاله، وحمله إلى لندن، حيث سجن مضيقاً عليه في البرج، وفي يوم عيد القديس جيمس، وبناء على أمر من الملك، جرت محاكمة وليم المذكور مع ستة عشر من أصحابه كانوا قد اعتقلوا معه، وقد أدين وأدينوا، وقضي عليه بموجب أوامر الملك بموت مهين، وبناء عليه جرى سحله أولاً من ويستمنستر إلى برج لندن، ومن هناك حمل إلى آلة العقوبة التي اسمها المشنقة، وبعدما جرى تعليقه عليها لفظ أنفاس حياته الشقية، وبعدما صار جسده متيبساً قاسياً بعد الموت، أنزل هذا الجسد وجرى تجويفه، وجرى على الفور احراق أحشائه في البقعة نفسها، ثم جرى تقسيم جسده الشقي إلى أربعة أقسام، أرسلت إلى المدن الأربعة الرئيسية في المملكة، حتى يمكن أن يدخل رؤيتهم الرعب إلى الذين سيشاهدونهم، أما بالنسبة لأصحابه الستة عشر، فقد سحلوا في أرجاء لندن، بعد ربطهم إلى ذيول الخيول، وبعد ذلك جرى تعليقهم على المشانق.

وبعدما أدين وليم المذكور، وعندما كان على وشك سماع قرار الإدانة، دعا العدالة الربانية لتكون شاهدة عليه، وأعلن بجرأة بأنه كان بريئاً تماماً وليس مجرماً ولامقترفاً لجريمة الخيانة التي ألصقت به، وكذلك بالنسبة لمقتل الكاهن كليمنت المتقدم ذكره، وأكد أيضاً بأنه حمل نفسه إلى الجزيرة المتقدمة الذكر، ليس إلاّ لسبب واحد هو أن يتجنب غضب الملك، وهو الغضب الذي حاول دوماً، وفوق كل شيء، أن يهدئه بالخضوع إلى أي نوع من المحاكمة، أو إلى أي نوع آخر من التذلل، لكنه بعدما التجأ إلى الجزيرة المذكورة، وعاش هناك لاجئاً، كان

مـرغماً على إطالة أمد حيـاته التعيسـة بالاستيلاء على الامـدادات، حيثما استطاع أن يجدهم، ثم إنه لفظ روحـه بالاعتراف أمام الرب، إلى ج. ل دي سينت جـايلز، الذي كـان واحـداً من رهبـان طائفـة الدومينيكان، واعترف بذنوبه وهـو شـديد الندم، دون أن يسـوّغ نفسـه، أو التفـوه بكلمات شريرة، بل بالحري اتهم نفسـه، ثم قـام عندها هذا الدومينيكاني المستقيم والمتلقي للاعتراف، فأعطاه شيئاً من الترضيـة اللطيفة، وصرفـه بسـلام، وأقنعه بأنه ذاهب إلى الموت الـذي قضي به عليه بمثـابة تكفير، وهكذا عـانى كما ذكـرنا من قبـل، وهو أمـر فظيع أن تحكيـه، ليس من موت واحد، بل من عدة ميتات مخيفة.

نصر الداوية في الأرض المقدسة

وحصل الداوية في هذا العام في الأرض المقـدسة —بوسـاطة معجزة أكثر منه بوسـاطة القوة الإنسـانية— على نصر مجيـد، وغير متوقع، على آلاف كثيرة من المسلمين، كانوا قد قدموا من مناطق قريبة من مصر.

البواتيون والغسكونيون يحصنون أنفسهم ضدّ الفرنسيين

في ذروة الصيف، عندما جففت حرارة الشمس كل شيء، وكل شيء ذبل وتلاشى، قـام البـواتيـون، وهم في حـالة خـوف عظيم من هجـوم الفرنسيين، الذين كـانوا الآن يزحفون مسرعين ضدهم، قـاموا بتحصين قلاعهـم، ومدنهم، وأغلقوا ممرات الجبـال، التي كان من الممكـن للعدو أن يمـر من خـلالها إلى بلادهم لإلحاق الأذى بهم، واستخـدمـوا كتـلاً ضخمـة من الحجارة مع جـذوع الأشجار السـاقطة، وحولوا الطرقـات والممـرات إلى أماكن يتعـذر عبورهـا، وسدّوها بكل نوع من المعيقـات، وقطعوا أشجـار التفاح والعنب التي اعتقـدوا أنها سوف تفيـد الأعداء، وطمّـوا الآبار، وأفسـدوا اليناببيـع والأنهار التي تسيل منهم، لابل إنهم سممـوا بعضها، واجتثـوا النباتات التي كـانت مفتوحـة أمام أعـدائهم،

ودمروا تدميراً كـاملاً كل نوع من الإمـدادات، وكذلك خـربوا الأماكن التي كـان من الممكن أن يحصلـوا فيهـا على الراحـة، آملين بذلك أن يكونوا قادرين على الحيلولة دون وصول الفرنسيين إلى أراضيهم، لأنهم سوف يعانون من الحاجة إلى كل شيء ضروري، وبالفعل لم يكونوا كلياً مغشوشين في توقعاتهم، لأنه في أيـام الشعرى [مابين أوائل تموز وأوائل أيلول] هوجم الفـرنسيـون بموت خطير، إلى حـد أن الملك فقـد ثمانين نبيلاً، كـانوا يحملون أعلامه، حيث أنهم هلكوا في أوضـاع بائسة هناك، أو أنهم نقلوا وهم يتـلاشـون، على محفـات إلى بيـوتهم، وعلى العمـوم، سقط الجنود الرجالة، وكـانت أعدادهم كبيرة، ضحـايا للأمراض، حتى أن الأحيـاء بـاتوا في خطر عظيم على أنفسهم، وبصعـوبة بالغـة كـان بإمكانهم دفن الموتى، كما سوف نرى في سياق الرواية.

كيف جرى اعتقال التجّـار وتجريدهم من مقتنياتهم في كلّ من فرنسا وإنكلترا

وفي تلك الآونة نفسهـا، ومع اقتراب حلـول فصل الخريف المجهـد، أقـدم الملك الفـرنسي على إجـراء غير معتـاد، فأمـر باعتقـال أشخـاص التجّـار الانكليـز، الـذين كـانوا يتنقلون مع بضـائعهم في جميع أرجـاء مملكته، وبذلك أنزل أذى عظيماً على الكرامة القديمة لغاليا، التي وفرت مـن قبـل ملجـأ أمينـاً وحمايـة إلى جميـع المنفيين والمحكـومين، ولاسيما المسـالمين منهـم، فمن هذه الظروف كسبت بالأصل اسم فـرنسـا بلغتهـا خاصة، ووصلت بالحال أخبار هذا الإجراء غير الشريف والوحشي إلى مسـامع ملك انكلترا، وإلى مشاعـره، وبناء عليـه أعطى هو أيضاً أوامـر قضت بأن أي تجار فـرنسيين وجـدوا في أي جـزء مـن أجـزاء انكلترا، يتـوجب تعريضهـم إلى انتقام عـادل مماثل، وأرسل في الوقت نفسـه إلى الأوصيـاء على مملكتـه، أي إلى رئيس أسـاقفـة يورك وزمـلائـه، يطلب إمدادات من المال ونجدات من العساكر، وبناء عليه وفي طاعة منهم إلى

أوامــر الملك، أرسلوا من دون تـأخير خمسين من رمــاة القسي الزيارة، ومبلغاً كبيراً من المال، مع كميات جيـدة من الإمدادات، وبعض الجنود مع أسلحة تحت توجيـه الموانىء الخمسة ولدى رؤية هذا من قبل بعض النبـلاء الانكليز، رأوا أنه عمـلاً غير مشرّف الانخراط في الراحـة، بينما كـان ملكهم منشغـلاً بـالحرب فـوق القـارة، ولذلك أعـدوا أنفسهم للالتحاق بالحملة وبرجالها، وقد تجهـزوا بشكل جيد بالخيول والسلاح، وقـام بعض النبلاء الايرلنديـون، وبالتحديد رتشـارد دي بيرغ، وبعض الآخرين، بناء عل اقناعهم من قبل المستقيم موريس، مسؤول العدالة في ايرلندا، فجهـزوا أنفسهم بالسـلاح، وشحنوا كميـات من الإمـدادات، وأسرعوا متشوقين إلى مساعدة الملك، وتكوّن من هؤلاء أسطولاً كبيراً، وشكلوا قوة بحرية مرعبة، وعندمـا علم بهذا البحارة والقرصان، الذين أقـاموا حـراسـة يقظة على الشـاطىء الفرنسي المقـابل، أعـدوا، بناء على أوامر الملك الفـرنسي، قوة بحـرية، وسلحوا أنفسهم. وأقلعـوا في البحر على ظهــور سفنهم، وكــانت غــلايينهم مشحــونة بأعــداد كبيرة من المجـذفين، وكـانوا يريدون مهـاجمة القوة البحـرية المقبلة، في البحـر، أو إخافـة رجالها حتى يتراجعوا إلى شـواطئهم، وعندما اقترب الأسطولان من بعضهما، هبت فجأة عـاصفة قـوية، ولذلك تفرقـوا، بعضهم باتجاه، وبعضهم الآخر بـاتجاه آخر، ونشد قـادة السفن سلامتهم فقط، وكـانوا محمولين تحت رحمة الرياح، وعـرفوا أخيراً بصعوبة أصحـابهم، أو ميزوا سفن أسطولهم على حده، والفـرنسيون الذين كانوا أقـرب إلى ساحلهم، أكثـر من الانكليـز أو الايرلنديين إلى سـواحلهم، أخـذوا طريقهم بكل سرعـة إلى الجزء الأقـرب من السـاحل، ولأن الريح لم تكن قـوية جـداً ضــدهم، وصلـوا إلى مكان سليم وملجأ، لابـل إن بعضهم وصلوا إلى مـوانئهم الخاصـة بهم، بينما شعبنا الذي خاف خـوفـاً عظيماً من غضب الرياح ومـن غضب الفـرنسيين، فقــد شتتــوا أنفسهم وهـم هاربون، وملاحقـون بـالخوف، والعار، والحزن في القلب، ودفعـوا إلى الشاطىء،

إلى أجزاء بعيدة، وغير معروفة من الساحل، وبسبب هذه الانتكاسة، فإن راعي دير ايفهام، ورتشارد دي بيرغ، وكثيراً آخرين، الذين كانوا في موقع القيادة للحملة، لم يتعافوا بعد هذا، ولم يعودوا إلى الوضع الصحي السليم، لابل إنهم تلاشوا رويداً رويداً، حتى باتوا أخيراً غير قادرين على استرداد قوتهم، بعد كثير من العناء والانهاك في أرض أجنبية، وفي ظل مناخ غريب، ولذلك لفظوا أنفاس حيواتهم المرهقة، وبهذه الانتكاسة نال الملك خسارة كبيرة لايمكن تعويضها، تمثلت بفقدان رجال حكماء وأقوياء، وأسلحة وعتاد، وبشكل خاص القمح الذي كان قد جمعه من رئاسة أسقفية كانتربري، ومن الأسقفيات الأخرى، والمال الذي كان قد جمعه من جميع الجهات.

موت مرغريت بيسيت

ماتت في هذا العام، في هذه المناطق، واحدة اسمها مرغريت بيسيت، وكانت امرأة من أسرة مشهورة، ومتميزة بأخلاقها، حيث أنها رفضت تماماً معانقة الرجال، وأسست على حسابها، الذي لم يكن صغيراً، ديراً جيداً للراهبات، وذلك على الرغم من رغبات جميع أصدقائها الدنيويين، وأصبحت المنفقة عليه والراعية، ونالت هذه السيدة شهرة عظيمة، لأنها في إحدى الليالي، في وودستوك، عندما كانت تمضي الليل في غناء الترانيم الدينية، وفي السهر وفي الصلاة، أنقذت الملك، من أيدي القاتل، بصراخها، وقد جرى من قبل شرح ظروف هذه الحادثة.

الجريمة المرعبة لوولتر بيسيت

وفي تلك الآونة، عقدت مبارزات سيئة الحظ في المقاطعات الشمالية، وفي إحداها التي عقدت على حدود انكلترا وسكوتلندا، أبدع واحد اسمه وولتر بيسيت، وكان شجاعاً وفارساً بارعاً، وقد هزم من قبل خصمه، وهو واحد اسمه باتريك فتز- توماس أوف غالوي

ولذلك أبدع جـريمة لم يسمع بمثلهـا، من أجل أن ينتقم Calway, انتقاماً غير عادل من المتغلب عليـه، فبينما كان باتريك المذكور، مقيماً مع بعض النبلاء الآخـرين الذين كانوا برفقته في ادمـونتون Edmonton, اتخذ مكاناً لنفسـه لإمضـاء الليل في نوع من أنواع الهري، وعندمـا كـان غارقاً في نوم عميق، قام وولتر بيسيت المذكور، فأغلق الباب من الخارج ببعض جـذوع الأشجـار، وإثر ذلك دس النـار من عـدة أمـاكن في الجدران، بوسـاطة بعض العصي المحترقـة، وأحـرق بذلك تقـريبـاً جميع الذين كـانوا في الداخل، وهكذا مـات لذلك باتريك المذكـور مع بعض رفاقـه الشجعان والمشهورين، ولكن عندمـا وصل خبر هذا العدوان إلى مسـامع الايرل باتريك والنبلاء الآخـرين لسكوتلندا، استعدوا للانتقـام لهذه الجريمة الكبيرة، وهاجموا وولتر المذكـور، وهم راغبين في تمزيقه إلى قطع، وقـد هرب —على كل حـال— إلى ملك اسكوتلنـدا، وطلب العدالة والرحمة منه، ذلك أنه أنكر الشر الذي اقترفه، وعرض أن يبرهن على براءته أمـام الملك وأمام بلاطه كله، بعـرض جسده ضـد أي واحد مهما كان قـديراً في السلاح وقوياً، ورفض خصومـه —على كل حال— هذا، حيث أعلنوا أن الجريمة الكبرى لاتحتـاج إلى برهان إيجابي، ولذلك طلبـوا من الملك، بحدة وبسرعـة كبيرة، وبمشـاعـر الكراهية، عـدوهم المعلن، الذي كان مـايزال ملطخاً بجريمة القتل الحالية، وملـوثاً بجريمة غير اعتيـادية تمامـاً، واستطاع الملك بشيء من الصعـوبة تهدئـة غضبهم، ولطف انتقـامهم، بأن وعـد بوجـوب حـرمـان وولتر المذكـور، وأيضـاً بوجـوب مغادرته سكوتلندا، وأن يرسل إلى منفى دائم، وبعـد شيء من الصعوبة وافقوا على اقتراح الملك، وكانوا واثقين بأنهم سوف يصطادونه عندما ينتقل من حماية الملك، وأن يعاقبوه بموت عادل، ووصلت أخبار هذه الخطة إلى علم الملك —الذي كـان رجلاً رحيماً وعـادلاً— فأخفى بعناية وولتر المذكـور لمدة ثلاثة أشهـر، في أمـاكن لايستطيع أعـداؤه الوصـول إليـه فيهـا، وعند انتهـاء هـذه المدة، هرب من البـلاط بشكل

سري، في إحدى الليالي المظلمة، وهو محكوم بالنفي ورجل محروم من ميراثه، ولم يعد ثانية، وكان النبلاء السكوتلنديون، الذين كان كثير جداً منهم يطلبون حياته، كانوا جاهلين تماماً بنجاته، أما بالنسبة لوولتر، فإنه مع أنه أقسم بالمضي إلى الأرض المقدسة، وأن لايعود ثانية، وذلك في سبيل خلاص روحه وأرواح الذين هلكوا بالحريق، مع أنه قال بأن ذلك لم يكن من خلال وسائله، إنه مع ذلك غيّر اتجاهه، وبادر مسرعاً ليتقدم بشكوى أمام ملك انكلترا، حول الأذى الكبير الذي لحق به، وبناء عليه أعلن بأن ملك سكوتلندا، قد حرمه بشكل غير عادل من ميراثه، لأنه لم يستطع بأي طريقة أخرى تهدئة غضب الذين كانوا ثائرين ضده وغاضبين، مع أنه، أي وولتر، كان جاهزاً لتبرئة نفسه، والبرهنة على أنه كان بريئاً من الجريمة التي ألصقت به، بوساطة محنة مبارزة واحدة، وقد أضاف علاوة على ذلك، أنه بما أن ملك سكوتلندا كان تابعاً إقطاعياً لملك انكلترا، لايمكنه من دون موافقة ملك انكلترا، حرمان رجل نبيل من ميراثه، ونفيه من بلاده بشكل أبدي، خاصة إذا لم يكن قد أدين بجريمة، وبالإضافة إلى هذا، قال بأن ملك سكوتلندا، قام إيذاء منه لولائه ولتابعيته التي هو مرتبط بها إلى ملك انكلترا، فاستقبل في أراضيه وقدم الحماية، فهو في هذا الوقت بالذات يقدم الحماية إلى غيوفري مارش، الملتجيء من ايرلندا، والمتورط بالجرائم الخيانية لابنه وليم، الذي حكم عليه مؤخراً بالموت، وشنق في لندن، وبهذا ثار غضب ملك انكلترا إلى درجة عالية ضد ملك اسكوتلندا، لكنه احتفظ بغضبه حتى حلول وقت مناسب للانتقام، كما ستظهر ذلك الرواية المقبلة.

ملك انكلترا يلغي الهدنة ويعلن الحرب ضدّ ملك فرنسا

خلال هذه الآونة، أرسل ملك انكلترا رالف فتز— نيقولا، ونيقولا دي مولي Molis كرسولين خاصين إلى الملك الفرنسي، ليعلنا قراره

—إذا لم يوافق الملك الفرنسي على طلبه— بإلغاء الهدنة، والشروع بالحرب ضده، وعند وصول الرسولين، وجدا الملك الفرنسي يحاصر قلعة فرونتني Frontenaye, التي كانت عائدة إلى كونت دي لى مارشي، والتي قاتلها من دون كلل نهاراً وليلاً، وذلك بحملات عساكره، وبقصف الأسوار بالقذائف من أدوات رمي الحجارة، وبوساطة رمايات متواصلة بالنشاب، كما أنه أخاف المحاصرين وضيق عليهم، حتى أنهكوا تقريباً، ولم يعد بإمكانهم تحمل شدته وحملاته غير المنقطعة، وكان في هذه القلعة واحداً من أبناء كونت دي لى مارشي من زوجته الماضية، وكان فارساً شجاعاً، ومعه أكثر الأصدقاء قرباً من الكونت المذكور، الذين وضعهم هناك للدفاع عن هذه القلعة القوية والجيدة التحصين، وكان الملك متشوقاً كثيراً لاعتقالهم، حتى يلقي الرعب في قلوب الآخرين.

ولدى وصول رسولي ملك انكلترا، استقبلهما الملك الفرنسي بالتشريف والاحترام، وبأدب دعاهما لتناول طعام الافطار على مائدته، وبناء عليه، قدما في الصباح التالي نفسيهما ومثلا أمامه، وببراعة وبنظام، كشفا عن الرسالة التي فرضت عليهما بالكلمات التالية:

«لقد بعث ملك انكلترا، الذي هو قريبك، رسالة إليك، بأنه مندهش إلى أبعد الحدود لأنك من دون حياء خرقت الهدنة المبرمة بينك وبينه، والمثبتة بيمين من على الجانبين، والتي من المتوجب أن تظل سارية لمدة ثلاثة أعوام أخرى، وبهذا العمل ظهر غير ماهو متوقع منك، فقد هززت أركان استقرار الثقة الملكية»، وعلى هذا ردّ الملك بنظرة هادئة:

«الهدنة أنا لم أخرقها قط، كما أنني لاأرغب بأن أفعل ذلك، وفي الحقيقة إنني محافظ عليها دون أن تخرق، وإذا مارغب ملك انكلترا فإنني سوف أطيل مدتها، من دون أي تعويض، وهو أمر أنا لاأفعله، لأنه بعيد عني، كملك لفرنسا، أن أخرق بأي طريقة من الطرق هدنة،

أو أي معاهدة دخلت فيها بيني وبينه، لأني بذلك ألقي جانباً كل تبجيل للرب، واحترام للانســان، ولاأظهـر احترامـاً لروابـط القـرابة، وأخبرا مولاكما بأنني سـوف ألتزم بالهدنة خلال هذه الأعوام الثـلاثة، ولسوف أمـددها، إذا ما رضي، لمدة ثلاثة أعـوام أخـرى، أي أن تقول لمدة ستـة أعوام من الآن من دون أي تعويـض يقدم إليّ، علاوة على ذلك أنا على استعداد للتخلي عن مقاطعـة بواتو، والجزء الأكبر من نورماندي، الذي هو ليس مصـــدراً للشـك أو الخوف من قبلي، ففي هذين البلـدين، هو يقـول بأنه يمتلك حقـاً وتوقعـات، تماشيـاً مع اليمين الذي أداه والدي لويس، عندمــا كــان في انكلترا، وبمـوجب منحـة قـديمـة وإذن من أجـدادي، على شرط، أن يكون مسموحـاً لي، من دون أية معارضـة من جـانبـه، وذلك كمطالب عـادلـة، بأن أعـاقب أي ضرر ألحق بي أو بمملكتي، من قبل أعـدائي، والخونة لي، مهما كـانـت ثقتهم به من أجل مســاعـدتهم، إلى جـانب هذا، عليّ أن أخبر ملك انكلترا، بـأنها مسألة مـدهشــة بالنسبـة لي، وأسأله: بأي روح اقتنـع، أو على أي أسـاس أنا لاأعرف، قد قال بأنني خـرقت الهدنة بيني وبينه، إذا ما هاجمت أنا قوماً يسكنون قربي أو بجـوار مملكتي، وهـم ليسوا عـائدين إليـه بحق الولاء، وذلك إذا مـا آذوني، أو تمردوا علي، دون أن أقول: الذين هم خـونة لي، مـاهو شأنه بالنسبـة لشؤون كـونت دي لى مـارشي؟ لابل بأي حق قـد تدخل في مسألة كونت طولوز؟ إنني لم أعمل هدنة معهما، كما أنه لم يرد ذكــرهما في الهدنة، وعـلاوة على ذلك إنـه بالحقيقـة ذاتها وهي حمايتــه، ودفـاعـه عن أعـدائي، قـد برهـن بالحري بأنه قـد خـرق شروط الهدنة المذكورة، وكذلك لما يتعلق بالعواطف التي ينبغي أن تتوفر بين الأقرباء، وإنني قـــد اقترحت —على كل حــال— بـأن أتصرف بشكل أحسن، وبلطف أكبر مع الاحترام نحوه، ومازلت معطيـاً له العرض الذي تقدم ذكره أعلاه، حول شروط الهدنة».

وقـال الملك الفرنسي هذا كله بـأعظم اعتدال، ومن دون أي خـداع، لأنه كان خائفاً كثيراً من خيانة ملك أراغون، وملك قشتالة، اللذان كانا من أقرباء ملك انكلترا، كما أنه كان يخاف من كونت طولوز، الذي كان منذ زمن طويل يكره الفـرنسيين، الذين نكلوا به، وكان يخاف أيضـاً من كونت دي لى مارشي، الذي كان محمياً بقلاعه التي لاترام، والذي سمن بأمـوال ملك انكلترا، ويخاف أيضـاً من تقلبـات النورمـان الذين كـانوا جيراناً لانكلترا، ومـرتبطين بها بنوع من النسب، وخاف فـوق كل شيء من خرق يمين أبيـه لويس، الذي أداه قبل مغادرته انكلترا، والذي ربط به نفسه بأن يعيد إلى ملك انكلترا حقوقه، إذا ما عاش بعد والده، وكان أبوه، عندما كان على وشك الموت في أفينون قد أوجب عليه، بحكم أنه أبيه، أن يفي بذلك اليمين، وهو لذلك عدّ الأمر مسألة عادلة وتقوية أن يقوم بتحرير روح والده من مثل هذا الرباط.

تسليم رسالة الملك الفرنسي إلى ملك إنكلترا

ومـا أن تسـلم الرسـولان جـوابها، حتى عـادا على الفـور، وباخـلاص رويا لملك انكـلترا كل الذي رأياه وسمعـاه، لكنه —على كل حـال— لم يكن على استعـداد، ولابشكل مـن الأشكـال، أن يصـغي بإيجابية إلى الرغبـات المسالمة لملـك فرنسـا، أو أن يقبل عرضـه النبيل، الذي عـرض عليـه بكل ميـول مسـالمة، لأنه كـان قـد تشجع، وتغيرت مشاعره، بمهارة الخونة البـواتيين، الذين أغلقوا عينيه عن رؤية عظمة المنـافع المعروضـة عليه،وقد وعـدوه، أنه بمساعـدتهم، فإن جميع تلك المناطق، وأكثـر بالاضـافـة إليها، يمكـن الاستيلاء عليهـا بالقـوة، وانتـزاعهـا من يدي الملك الفـرنسي، وبناء عليـه قـام من خـلال بعض الاسبتـارية بتهور بتحـدي الملك الفرنسي، لأنه شن الحرب على كـونت دي لى مـارشي، الذي بحكم العـادة كان يدعـوه بأبي، مع أنه كـان زوج أمه فقط.

بداية الحرب بين الفرنسيين والإنكليز

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا، ندم لأنه عرض مثل تلك الشروط المذلة للسلام على ملك انكلترا، وقال لنبلائه:

«أنا آسف أن ملك انكلترا، الذي هو قريبي، والذي رغبت في أن يكون أعظم صديق لي، هو مفتون، ذلك أنه يصغي أكثر إلى الإثارة الخادعة لكونت دي لى مارشي، ولكونت طولوز، ولأعوانهما، فالأول بينهما مشهور بخيانته، والثاني مشهور بهرطقته، فقد أصغى إليهما أكثر من اصغائه إلى رسائلي الصديقة، وأنا آسف لأنني أهملت، لكنني غير خائف منه، ولست خائفاً من قواته، بل خوفي على اليمين المؤكد لأبي الذي عمله في انكلترا»، ثم إنه تابع نحيبه من دون مواساة حول هذا، وقام واحد من نبلائه بتهدئته قائلاً ببراعة: «مولاي الملك، إنك لاتحتاج أن تكون خائفاً حول هذا الأمر، لأنه عند مغادرة أبيك من انكلترا، عمل يميناً غير قابل للخرق من على الجانبين، بأن لايقوم أي منكما في حالة نشوب حرب، بتسبيب أي أذى إلى مغامراتكما على الجانب الأول أو الجانب الثاني، وهذا يمين قد خرقه ملك انكلترا من دون حياء، عندما شنق ظلماً، وبوحشية قسطنطين فتز— ألوف Aluph, الذي كان مواطناً لندياً، وذلك لمجرد أنه تحدث عن شرف والدك، وهكذا اقترف الملك الانكليزي اثم الحنث باليمين، في حين انك بريء من ذلك».

الاستيلاء على قلعة فرونتني

شعر الملك الفرنسي بوساطة هذه المناقشات على ثقة أكبر، وبناء عليه ضغط بشدة على قلعة فرونتني وضيق الحصار عليها، وجمع بالوقت نفسه جيشاً أكبر عدداً، ووزع المدفوعات على جنوده، وبناء عليه هاجموا القلعة بشدة أعظم من المعتاد، ورموها من دون توقف بالقذائف من

مجانيقهم ومن الآلات الأخرى، وفي الوقت ذاته أصيب عدد كبير من المحاصرين بالجراحة من نشابهم، حتى أن هذه القلعة التي كانت واحدة من أقوى القلاع قد جرى الاستيلاء عليها خلال خمسة عشر يوماً، وذلك على عكس توقعات البواتيين، ووقع ولد كونت دي لى مارشي مع حلفائه بالأسر، وجرى احضار ابن الكونت وأتباعه الأسرى، على الفور، حيث مثلوا في حضرة الملك، والتمس عدد من الفرنسيين، بإلحاح، وجوب شنقهم، في سبيل رمي الرعب في قلوب الآخرين، غير أن الملك صار بالفعل محامياً مخلصاً عن أسراه حيث قال:

«إنه لايستحق الموت، إذا كان قد أطاع أوامر والده حتى الموت، وكذلك المشاركين له، الذين أطاعوا سيدهم وخدموه باخلاص، ولنرسلهم على كل حال إلى باريس ليسجنوا هناك»، وهذا ماحدث.

استيلاء الملك الفرنسي على عدة قلاع أخرى

ونزل الآن خوف عظيم من الملك الفرنسي على سكان المناطق المجاورة، وصاروا مرعوبين من أنهم إذا ما ثاروا ضده، فإنهم سوف يتورطون بمصيبة مماثلة، لابل حتى أسوأ منها، لأن القلعة التي رست عليها آمال الجميع، قد جرى الاستيلاء الآن عليها بالقوة، وكان ذلك في وقت قصير، وذهب الذين كانوا مسؤولين عن القلاع العائدة إلى كونت دي لى مارشي من حوله، إلى الملك وسلموا مفاتيحهم إليه، في سبيل التوصل إلى شروط للمصالحة أفضل، وقام الملك في الوقت نفسه باستباحة المناطق المجاورة، واستولى على عدد كبير من القلاع والبلدات، وأخضعهم لسلطانه من دون أية صعوبة، وهدم القلاع الضعيفة وسواها بالأرض، والقلاع التي كانت قوية في وضعها وفي بنائها، زادها تحصيناً، ووضع بعضاً من أتباعه الفرنسيين المخلصين بها، ثم تابع من هناك زحفه نحو الأمام، فاستولى بطريقة مماثلة على قلعة فخمة، هي قلعة فونتني.

استسلام قلعة فوفانت إلى الملك الفرنسي

ووصل الملك الفرنسي الآن إلى قلعة فوفانت Vouvant الفخمة، والتي كانت عائدة إلى كونت دي لى مارشي، وعندما كان يقوم بعمل الاستعدادات لحصارها، عقد القسطلان الذي كان مسؤولاً عنها مؤتمراً مع أصحابه، وبعد ذلك أرسل بعضاً منهم مع رسالة سلام إلى الملك، لأنه كان خائفاً أنه إذا ما أسر بالقوة، لن تظهر العدالة الفرنسية نحوه أية رحمة، وقام بناء عليه بسرعة وبشكل سري، فتشاور مع الكونت مولاه حول هذه المسألة، وأرسل في الوقت نفسه رسالة إلى الملك الفرنسي، أنه إذا ما منحه سلاماً غير مبطن، نال هو —القسطلان— بموجبه والذين معه الحفاظ على حياتهم وعلى سلاحهم، هو سوف يسلم القلعة إليه، على شرط، أنه —على كل حال— إذا ما أعيد السلام بين ملك فرنسا، وكونت دي لى مارشي، في خلال ثلاثة أعوام يتوجب على الملك الفرنسي أن يعيد القلعة إلى مولاهم، كونت دي لى مارشي، من دون خلاف، وبناء عليه فضّل الملك الاستحواذ على القلعة سالمة من دون أي تأخير، على أن يتسلمها في حالة تخريب من رمايات قذائف المنجنيقات، أثناء حصار طويل، ولذلك منحه مطالبه، وهكذا خضعت القلعة على الفور، ومن دون أية مشاكل، إلى سلطانه.

كونت دي لى مارشي يندم على إقدامه على هذه العملية

ومع انتشار هذه الأخبار، استولى الخوف واليأس على كونت دي لى مارشي، وعلى جميع البواتيين، وكذلك على جميع سكان غاسكوني، وعلى الذين انشغل ملك انكلترا في الدفاع عنهم، وندم الكونت بمرارة لأنه اندفع بطيش، فثار ضد مولاه، الملك الفرنسي.

لكن عندما على الرأس وضع الخوذة البراقة

بات وقتها متأخراً جداً حتى ينسحب من القتال.

سادة الموانى الخمسة يتحولون إلى القرصنة

عندما سمع ملك انكلترا بنجاحات الملك الفرنسي، أرسل أوامر إلى سادة الموانىء الخمسة للقيام بإلحاق الأذى، بكل طريقة من الطرق، بالتجار وبالآخرين العائدين إلى المملكة الفرنسية الذين يتولون السفر بالبحر، وقام هؤلاء الرجال على الفور بتنفيذ أوامر الملك، وانخرطوا مثل قراصنة، بأعمال السلب والنهب، بوحشية تجاوزوا فيها الحدود التي وضعها الملك، وذلك شرهاً منهم للكسب، ذلك أنهم سلبوا حتى مقتنيات الانكليز، وجيرانهم، والذين كانوا معروفين من قبلهم، عندما كانوا عائدين من حجهم، دون إعطاء أي اهتمام إلى الصداقة أو القرابة، وقتلوا بعض الفرنسيين بشكل وحشي، وعندما سمع الملك الفرنسي بهذه الإجراءات، كتب إلى كونت بريتاني، وإلى سكان ساحل البحر من تلك المقاطعة، وإلى والي روشيل وتلك المناطق، وأيضاً إلى البحارة في ويسانت Wissant, وكالي، وإلى الذين كانوا يتولون حراسة سواحل نورماندي، يأمرهم بصد هجمات الانكليز، وبذلك أعطاهم منفذاً للتنفيس عن غضبهم في البحر، وأمرهم أن لايوفروا أشخاصهم أو بضائعهم، ونتيجة لهذا الأمر، وبسبب القوات التي أرسلت بدون توقف، ضد الانكليز، عانى سادة الموانىء الخمسة من خسائر كبيرة، وغالباً ما هزموا بشكل مشين، ونتيجة لذلك أرغموا على طلب المساعدة من رئيس أساقفة يورك.

وصول الملك الإنكليزي إلى مدينة تيلبيرغ

وكان الملك الانكليزي في هذه الآونة مع جيشه قرب قلعة توني Tonnaye, في السهول القريبة من نهر تشارنتي Charente, وفي ذلك المكان منح مرتبة الفروسية إلى أخويه، أولاد كونت دي لى

مـارشي، وعيّـن لهم مبلغـاً من المال، يتسلمـونه سنوياً من الخزينة، وقـد أعطى إلى الأول منهما خمسمائة مارك، وإلى الثاني ستمائة مارك، وذلك إلى أن يتمكن من تـزويدهما بمبلغ ثابت ومتســاوي بالقيمـــة، في الأراضي والموارد، ثم إنه غادر ذلك المكان مع جيشه، وسار إلى حقول قائمة أمام مدينـة تيليبورغ Tailleburg, على نهر تشارنتي نفســه، وبقي هناك لمدة ستة أيام.

فرار الملك الإنكليزي

وكان الملك الفرنسي قد تلقى في الوقت نفسه خضوع عدة اقطاعيات مع قلاعهم، فأصبح أكثر وثوقاً في رفع رايتـه، ووجّـه زحفه نحو مدينة تيليبـورغ، وكانت هذه مـدينة جميلة، غنيـة بكرومهـا الخصبة العظيمـة، وكان لديها نهر جميـل على مقربة منها، وهو نهر تشـارنتي العميق والذي بلامخاضات، وكـان محاطاً بمروج غنيـة، وكان يعبر عليـه بوساطة جسر قـوي، وعند اقتراب الملك الفـرنسي مـن هذه المدينة، كـان السكان غير راغبين بمعارضته، كما أنهم كانوا أيضاً غير قادرين على مواجهته بالقوة، فتبنوا خطة حكيمة، حيث خرجـوا إلى استقباله بسلام، وسلموا أنفسهم ووضعوا مـدينتهم تحت سلطانه، وذلك مع جميع مقتنيـاتهم وامتيازاتهم، وعند ذلك استقبلهم الملك بـالترحـاب، ووضعهم تحت حمايتـه، ودخل إلى المدينة على الفور، واتخذ مقـامه فيها مع بعض نبلائـه، ونصب البقية خيامهـم في الحقل قرب المدينة، وفي اليـوم التالي، الذي كان يـوم الأحد التـالي قبل عيد القـديسة مـريم المجـدلية، عبر الجسر، وعمل الترتيبـات للزحف مع جيشـه إلى أقصى مناطق بواتو، ووصلت أخبار عن زحفـه المنوي وحملت إلى ملك انكلترا، وإلى نبـلائه، الـذين كان كـونت دي لى مـارشي هو الرئيس بينهم، وقام ذلك الملك، بناء على نصيحـة الكونت، فسحب قـواته أثناء الليل، ووصل فجأة مـع جيشـه إلى حقل مـــرتبط بالجسر، ونصب خيـامـــه هناك، وعمل مقـراً لنفسـه في مقـــابل المدينة،

وبذلك صار من الممكن لكل واحد من الجيشين أن يراقب الآخر، وتألف جيش الملك الانكليزي من ألف وستمائة فارس، وعشرين ألف جندي من الرجالة، وسبعمائة من رماة القسي الزيارة، وكان هناك ملك على هذا الطرف من النهر، وملك آخر على الطرف الثاني مثله قريباً من النهر، وشاهد الملك الانكليزي في الصباح الباكر العلم الحريري الأحمر للملك الفرنسي، وخيام ورايات جيشه، وكان الطرف الآخر من النهر مغطى بحشود من الخيم، بدت وكأنها مدينة واسعة ومكتظة بالسكان، ولدى رؤية ملك انكلترا لهذا المشهد، ولأنه كان يتوقع لاشيء سوى القتال، وأنه سوف يفاجيء الفرنسيين بحد السيف، حتى أنه مركز بعض الانكليز ليتولوا حراسة عبور الجسر، عند هذا قال لكونت دي لي مارشي: «أين هي الآن وعودك، يا مولاي وأبي؟ فعندما كنا في انكلترا، أنت وعدتنا، مراراً عدة، بوساطة عدد من الرسل، وأكدت لنا برسائلك الموثقة، أنك وقت الضرورة سوف تعدّ قوة من أجلنا تكون كافية من دون خوف، للتصدي للملك الفرنسي، وأخبرتنا بأن نهتم فقط من ناحيتنا حول المال»، وعلى هذا أجابه الكونت: «إنني لم أفعل ذلك مطلقاً»، فتدخل الايرل رتشارد مقاطعاً إياه قائلاً: «لابل فعلت، وأنا معي الآن رسائل معتمدة حول هذه القضية»، ثم أجابه الكونت: «إنها لم تكتب من قبلي، أو وقعت مني»، وعند ذلك قال له الملك وهو مندهش: «وما هذا الذي أنا أسمعه منك، يا أبي؟ أولم ترسل مراراً إليّ، لابل رجوتني بإلحاح لأن أقدم إلى هنا، بوساطة رسلك، ورسائلك المعتمدة، وكنت تشكو في الوقت نفسه من التأخير؟ أين هي الآن وعودك؟» وعند ذلك قال الكونت، مع يمين مخيف: «إن هذا لم يفعل قط من قبلي، وجّه اللوم لا لأحد، إلا لأمك، زوجتي»، ثم إنه أضاف بعد أداء يمين آخر: «بحق عنق الرب، هي التي دبرت هذا كله دون معرفتي»، وعند سماع الايرل رتشارد لهذا الكلام، جرد نفسه من السلاح، وحمل عصا في يده، وعبر الجسر، للترتيب لهدنة، لأن ملك

انكلترا كـان في خطر عظيم، وقـد بات أسيراً، وقـد حـدث هذا في يوم أحـد، ولدى وصــول الايرل إلى الجيش الفـرنسي، استقبـل من قبل الفرنسيين بتشريف عظيم، وعدد كبير منهم دعـونه باسم منقذهـم، لأنه بوسـاطة السلم الذي عمله في الأرض المقـدسـة، كان قـد حـررهـم من الأسر، ثم إنه استدعي باحترام إلى حضرة الملك، وعندمـا أعلمه برغبته في الحصول على هدنة، منحت إليـه، بعد شيء من الصعـوبة حتى الغد، وقـد حصل على هذا لعـدة أسباب، لأنه كـان انسـاناً لديه حظوة كبيرة لدى الفرنسيين، لقيامه بتحرير نبـلائهم في الأرض المقدسة، الأمر الذي ذكـرناه من قبل، وثانيـة لأنه كان قـريبـاً للملك الفرنسي، وكـذلك لأن اليوم كـان يوم الأحد، ولـدى قيام الملك الفرنسي بـوداعه، عندمـا كان مغادراً قال له: «مـولاي الايرل، مولاي الايرل، لقد منحتك هذه الهدنة طوال هذا اليوم والليلة، في سبيل التداول حول الذي هو أفضل لصنعه في المستقبل، لأن الليل يجلب المشـورة معـه»، وعلى هذا أجـاب الايرل: «لهذا السبب طلبت الهدنة التي حصلت عليهـا»، ثـم إنه عاد على الفـور إلى ملـك انكلترا، وهمس في أذنـه بهدوء: «أسرع، أسرع، دعنـا ننقـل أنفسنا مـن هذا المكان، لأننا في خطـر عظيم، حيث أننا وقعنـا بالأسر»، ثم إنهما تناولا وجبـة سريعـة(لأن الوقت كـان ظهـراً) وعنـد غـروب الشمس، شغل كل انسـان نفسه في جمع أثقاله مع بعضهـا، وعند حلول الظلام، قـام الملك الذي جـرب الآن اخـلاص، أو بالحري، انعـدام اخـلاص البواتيين، فـانسحب بشكل مهين، ولم يتهـاون بالسرعة، وقـد تبعـه جيشـه كله، لكن ليس من دون خطر على الخيـول وعلى الرجـال، لأن كثيراً منهم كانوا لم يتناولوا الطعام، كما كانت خيولهم مرهقة، وكان الملك ممتطياً فرساً سريعاً، لذلك لم يرخ عنانه حتى وصل إلى سانتاغيو.

المعركة التي نشبت بين الفرنسيين والإنكليز عند سانتاغيو

وعندما سمع الملك الفرنسي بهذا الخبر، كـاد أن لايصدقه، ومع ذلك

قام في الليلة نفسها بعبور الجسر بكل هدوء، وقام الفرنسيون في الصباح الباكر من اليوم التالي بنصب خيامهم فوق البقعة نفسها التي كانت القوات الانكليزية مقيمة فيها، وقد ازداد الآن جيشهم بوصول قوات جديدة، وعربات وشاحنات تحمل آلات الحرب والامدادات، وكان عددهم حوالي ألف وستمائة، وقد امتد قطارهم حوالي ثلاثة أميال على الطريق، وفي يوم الثلاثاء التالي انطلق الملك الفرنسي مع قواته ليتولى مطاردة ملك انكلترا، وعند الوصول إلى سانتاغيو، كان بعض الفرنسيون يتجولون، عازمين على جمع المؤن (وهو مايسمى عادة الاحتشاش) فتواجهوا مع كونت دي لى مارشي وهوجموا من قبله، من دون استشاره ملك انكلترا، أو جيشه، وهاجمت كل فئة الفئة الأخرى، وارتفعت صرخات عالية «رجال الملك، رجال الملك» من الجهة الأولى، ومن الجهة الثانية «جبل البهجة، جبل البهجة»، وكانت هذه صرخة جميع الجنود لدى الملكين، ووصلت أصوات الصراخ وقعقعة القتال إلى الملك الانكليزي في سانتاغيو، وقد أخبر بأن كونت دي لى مارشي، بشروعه بالقتال، هو قد رغب إما أن يفقد حياته، أو أن ينقذ سمعته، ونهض الجيشان من على الجانبين، وأعقب ذلك قتال عنيف، وقع خارج بلدة سانتاغيو، في الطرقات الضيقة بين كروم العنب، وقاتل الانكليز وهم على حنق، وحاربوا الفرنسيين بحد السيف، وقاتلوا وهم يائسين جداً، حتى أنهم لو عادلوا أعداءهم بالعدد، لنالوا بنجاح نصراً مبيناً على الفرنسيين، الذين هم أنفسهم كانوا شهوداً على ذلك بعد المعركة، وفي هذه المعركة نال: سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، مع ايرلي: سالسبري، ونورفولك، وروجر بيغود، ووارن دي مونتشسنيل Montchesnil، وهيوبرت فتر— ماثيو، ورالف فتز— نيقولا، وعدد كبير آخر من الشجعان الانكليز، وحصلوا على شهرة سرمدية، وذلك حسبما تحدث خصومهم، ومن الجانب الفرنسي، وقع جون دي باري Barres، مع ستة فرسان أسرى، بيد وليم دي سي، لكن

جرى فيما بعد مبادلتهم بعدد مساوي من الأسرى الانكليز، وكان هناك عـدد كبير آخـر من الفرنسيين قـد أخـذوا أسرى، وكـان من بينهم بيتر أورغي Orige, قهرمان كونت بولون، وكان آسرهم جون مانسيل Mansell, وكان محاسبـاً ومستشاراً خـاصاً لملك انكلترا، وقــد عدّ هذا بين الرجال الشجعان، ومن جيش ملك انكتلرا وقع هنري هيستنغ Hastings بالأسر، مع حوالي عشرين فـارساً، ومجمـوعة كبيرة من الرجـالة، وقـد قـدمـوا هؤلاء جميعـاً بدلاً عن جـون دي باري، والذين أخذوا أسرى معه.

كونت دي لى مارشي يسعى للتصالح بشكل سري مع الملك الفرنسي

وبما أن جيش الملك الفـرنسي قــد ازداد يوميـاً مثل بحيرة تضخمت بميـاه سيول الأمطـار، بدأ كونت دي لى مـارشي يشعـر بالخوف بشكل جـدي أكثـر من ذي قبل، لأن التقارير الشريـرة المتأخرة جـرحت قلبـه يومياً، وكـان أولها الاستيلاء على قلعـة فرونتني، التي فيهـا وقع ابنه مع أربعين فـارساً وذلـك إلى جانب عـدد كبير آخـر من الأتبـاع قد وقعـوا بالأسر، وجـرى أيضـاً الاستيـلاء على كميـات كبيرة من السـلاح، ففي تلك القلعة كـان قد مركز جميع آمـاله وثقته، ثم إنه فقد بعـد ذلك قلعة فوفانت، التي كانت مشحونة بمائـة وأربعين فارساً مع حوالي ستمائة من رماة القسي الزيارة المسلحين، ثم أعقب ذلك سقوط قلعة فيلير Vilers مع عـدد آخر من القـلاع والبلدات مع اقطاعياتهم وحصـونهم، وأخيراً جـرى الاستيلاء على فـونتني مع المناطق المجاورة لها، ولذلك قـام وهو محرض من الألم الداخلي في قلبــه، ومــدفـوع بالخوف واليـأس، مع أنه أخفى اضطراب تفكيره، تحت ملامح هادئة، قام الكونت المذكور فشرع بالتقلب، وبتقـديـر من الذي يمكنه بوسـاطتـه أن يقبـل ثانيـة في حظوة الملك الفـرنسي الذي هو مـولاه، والذي نال باستحقـاق غضبـه، وبعـد

بعض التقدير للأمور، بعث بشكل سري إلى كونت بريتاني، وكان صديقاً قديماً له —وكان هو نفسه خائناً يراسل خائناً— ورجاه أن يعمل بالتعاون مع أسقف سانتاغيو، بكل يقظة ممكنة، بشكل سري وحذر، وأن يسعى إلى إعادته إلى حظوة الملك الفرنسي، وبناء عليه ذهب كونت بريتاني مع أسقف سانتاغيو إلى الملك، وقالا له وهما يبتسمان: «لقد توقفت الحرب لأنها انقطعت بوساطة واحد متقلب»، وبعد التفوه بخطاب أكثر نعومة وفيه المزيد من الإطراء والإثارة، تابع الكونت حديثه، وذلك على مسمع من الأسقف المتقدم ذكره، وعدد قليل آخر من النبلاء الفرنسيين، الذي كان قد بعث خلفهم للاجتماع به والتشاور معه، وقال: «مولاي الملك، إن رعيتك، كونت دي لى مارشي، الذي اعترف بأنه أذنب بشكل خطير نحوك ونحو تاجك، لايسأل الآن العدالة بل الرحمة، كما يقول المثل العام: «إلى الشقي الرحمة ضرورية، وإلى المذنب علينا منح الشفقة»، وهو قد أرسل بي إليكم، بحكم أن روحه يمكن أن تثق بي، ولهذا أتوجه بالالتماس إليكم بكل اخلاص، وإلى لطفكم الأصيل، وإلى جلالتكم، وأرجوكم تقبله بصدركم الرحيم المفتوح، فهو رعيتكم، وقد أصبح الآن مخلصاً إلينا من دون أي من تعليلاته المعتادة»، ثم إنه غمز بعينه نحو الملك، وقال بصوت خافت: «إنني أنصحك بعدم رفض طلبه، لأنك تستطيع أن تضعه وسيلة ضغط لصالحك حسبما تشاء في المستقبل».

كونت دي لى مارشي يصبح متصالحاً مع الملك الفرنسي

وجرى بناء عليه استقبال كونت دي لى مارشي بالحظوة من قبل الملك الفرنسي، على شرط أن يتنازل —أي الكونت— له عن ملكية جميع القلاع التي استولى عليهن الملك مؤخراً بالقوة، وأن يكون ذلك حق دائم، وفي سبيل منفعة المملكة، جرى تجريد الكونت مع ورثته منها بموجب قرار قضائي، وأضاف الاشتراط أيضاً بأن جميع قلاع الكونت

المذكــــور، وهي كــــوغناك Cognac, ولوزغنان Lusignan, وميربن Merpins, والقـلاع التي يظن أنها عائـدة إليه، سـواء التي هي ملكه، أو التي هي ملـك لأصـدقـائـه الذين يستطيع أن يسـوغهم، ينبغي أن توضع تحت سلطـات الملك، وبناء عليــه ينبغي أن تبقى تحت سلطانه، في سبيل إبقـاء الملـك تحت المراقبـة، وأن يرغم، وإن كـان بغير رضـاه، بأن يكون مخلصاً إلى الملك، والمسألة سوف تتـوقف بعـد مضي ثلاثة أعوام على إنعام الملك، وذلك إذا ما خدمه باخلاص، فمن الممكن إعادة القـلاع المذكورة إلى الكونت، وعلاوة على ذلك، يتـوجب، خلال الأعوام الثلاثة، أن يخدم الملك الفـرنسي، إذا ما دعاه بمائتي رجل مسلح على حسـابه، وأن يقاتل باخـلاص لصالح الملك المذكـور، ضد كـونت طولوز، أو أي ثائـر آخـر ضـده، أو ضـد الكنيسـة، وعـلاوة على ذلك أضاف الملك الفرنسي: «إن الصك الذي ناله آباءه من أجدادي منذ زمن طويل مضـى، والذي مـازال حتى الآن يمتلكه، وينال عنه ألـف باوند سنوياً من خـزينتي، في سبيـل حـراسـة هذا الجانب من حـدود مملكتي، والذي غـالباً مـا أسيء القيام به، لاسيما الآن، إن هذا الصك، أنا أقـول عليه التخلي عنه لي مـن دون أية معارضة، والتخلي في الوقـت نفسه عن الدخل السنوي المتقــدم الذكــر»، ولهذا ابتسم كـونت بـريتـاني، وكشر مقطبـاً، وهمس في أذن الملك قـائـلاً: «أنا أنصحك بالاحتفـاظ بالقـلاع والمورد، وأن تستحــوذ من الآن فصـاعــداً شخصيــاً المسـؤوليــة عن التخوم»، ثم إنه غـادر آخذاً بيد الأسقف حيث قـال: «لقد استكملت»، وعندها سأله الأسقف: «ماالذي استكمل؟» فأجابه: «العمل الذي جئنا من أجله وعند ذلـك قـال الأسقف: «أنت تتــولى رعـايـة ذلك، فأنا لم أسمع همساتك السرية».

كونت دي لى مارشي يوافق على الشروط مع أنها شروط قاسية

وعندمـا بـاتت هذه الشروط والمفـروضـات مـن أجل الحصـول على

حظوة الملك معـروفـة من قبل الكونت المذكـور، أي كـونت دي لى مارشي، حيث حملها إليه كونت بريتـاني، حزن حزناً عميقاً، وظل لوقت طويل رافضـاً الموافقة عليهم، لكنه وافق أخيراً عليهم، بناء على نصيحـة كـونت بريتاني المذكـور، وأصدقـائـه السريين الآخرين، الذين كـان يثق بهم، لكن مـوافقتـه لم تكن من دون ألم بالقلب، وفعل ذلـك للحيلولة دون وقوع أي شيء أسـوأ إليه، وبناء عليـه ترك ابنه ملك انكلترا، الذي كـانت أمـواله قـد استهلكت الآن إلى أبعـد الحدود، وهرب إلى الجيش الفرنسي، حيث رمى بنفسه على ركبتيه أمام الملك، فحصل على حظوته، التي لم يستحقها، ثم جرى ارساله على الفـور مع كونت بريتـاني نفسه، لشن الحرب على كـونت طولـوز، لأنه كـان متحـداً مع ملك انكلترا بروابط القـرابة، كما أنه كان حليفـاً، بناء على قسم، وكان متـابعاً الحرب ضـد الملك الفـرنسي، ولهذا السبب، شغل كـونت طولـوز، منذ ذلك الحين، نفسه بالنظر إلى أمـور دفاعه، وبات غير قادر على مسـاعدة ملك انكلترا، الذي إليـه وعـد بتقـديم مسـاعدة فعـالة، لدى تسلمـه المال سلفاً.

وبالطريقة نفسها، لم يعد بـإمكان ملك انكلترا الحصول على المساعدة من ملك أراغـون، لأن الطرق كـانت مغلقة ضـده، ولا كـذلك من أي واحد آخر، كان قد وضع فيه ثقته، وقدم في الوقت نفسه كونت طولوز سراً إلى ملك انكلترا، وبعـدمـا سـوغ نفســه واعتـذر قـال: «لاتيأس يامـولاي الملـك، وابن عمي، لاتيأس أيها الأمير الأعظـم قـوة من أن لاتكون قادراً على صدّ الملك الفرنسي، بما أنـك تتذكر أنني وحدي، مع مساعـدة البابا، قد صددتـه، وحالما أتمكن من طرد هذين الخائنين لي من أراضي التي هي الآن تحت احتـلالهم، سـوف أقـدم إليك بكل سرعـة، لتقـديم المسـاعـدة»، وبعـد قليل من المحـادثات الأخـرى، غـادر ذلك الكونت، وهو محمل بالهدايا.

سبب فقدان الملك لسانتاغيو

وبينما كان كونت دي لى مارشي يتابع تنفيذ خططه الخيانية المتقدمة الذكر، من دون معرفة ملك انكلترا، كان آنذاك ملك انكلترا مقيماً لبضعة أيام في سانتاغيو (التي كانت معروفة بموجب الحقوق القديمة ملكاً خاصاً، ومسكناً لملك انكلترا) وقد قام فيها بعد من دون مشاورة المواطنين، لابل ضد رغباتهم، فأعطى تلك المدينة، وثبت منحته بوثيقة إلى هوغ برن Brun, ابن كونت دي لى مارشي، وأخاً أصغر له شخصياً، وقد كره المواطنون هوغ هذا المذكور، لأنه كان متعجرفاً، ورجلاً شريراً، وغالباً ماقام بتهديدهم بالضغط عليهم، ونتيجة لهذه المنحة، لم يعد المواطنون ينظرون بعين الحظوة نحو ملك انكلترا، كما أنهم لم يعودوا يوافقون على سلوكه وأعماله.

فرار الملك الإنكليزي إلى بلي

ومع اقتراب حلول شهر آب المجهد، وفي الوقت الذي كان فيه ملك انكلترا يظن أنه آمن، ولديه مكان التجاء مضمون في سانتاغيو، وكان يفكر بالبقاء هناك لعدة أيام قليلة، حتى يحصل على وقت يسترد فيه أنفاسه، أرسل فارس فرنسي، كان واحداً من الذين حررهم في الأرض المقدسة الإيرل رتشارد، وكان مطلعاً بشكل سري على خطط الملك الفرنسي، أرسل رسالة سرية مستعجلة إلى الايرل المذكور، بأن ملك فرنسا قد أبدع خطة سرية واستقر رأيه عليها، حيث سيقوم فجأة بتطويق ملك انكلترا في مدينة سانتاغيو، مع حفر خنادق من جميع الجهات، ومن ثم حصاره هناك، فهو ما أن يكمل حشد قواته بقدر ما تستطيع فرنسا تقديمه كما هو معلوم، سوف يتابع الحصار، ولن يتخلى عنه حتى يأسر جميع الانكليز الذين هم هناك، مع ملكهم، وأن يحملهم أسرى مغلولين إلى باريس، وأضاف الرسول نفسه على سرعة، أو وهو مقطوع الأنفاس تقريباً، بأن كونت دي لى مارشي قد تحول، أو بالحري

تبدل وانقلب من كـونه صديقـاً الى أنه بات العدو الأعظم لملك إنكلترا —ومن كونه أبا زائفـاً الى صيرورته زوج الأم— وأنه لايمكنه أن يتأمل أي شيء آخـر من نبـلاء بواتـو الآخـريـن، ومـا كـاد يتـوقف عن الحديث،حتى وصل رسـول آخـر الى الملك،من أخيـه الأصغـر هـ . H المتقدم ذكره، ومن غي دي لوزغنان —أخيه الأكبر— يعلن أن الانكليز إذا مـابقيـوا في البلدة تلك الليلة، هم سـوف يقعـون جميعـاً بالأسر مع ملكهم ومـع السكان، أو أنهم سـوف يحاصرون حتى يمكـن أسرهم، وحـدث هذا في اليـوم التـالي لعيـد القـديس بانتـاليـون Pantaleon, عندما جاء الملك من بونز Pons خلال آركياك Archiac, ثم إلى هيربيزي، ثم وصل إلى سـانتاغيو، داره كما كانت، لكن عندمـا كانوا على وشك اتخاذ مقرات لهم هناك، وكـان وكلاؤهم قد تقـدموا عليهم، وكان المراقبون والمارشالات قد أعدوا جميعاً طعام افطارهم، وكان الملك نفسه على وشك تناول طعام افطاره، وصل رسول ثان أكد بينة الرسول الأول، وبذلك لم يترك أي مجال للشك في هذه القضيـة، وبناء على ذلك غادر الملك المدينة على الفور، معطياً أوامر بـاحراقها، لأنه كان قد سمع من الرسـول المتقدم الذكر، بـأن المواطنين قد أعدوا شروطاً للسـلام مع الملك الفـرنسي، وأباحـوا بشكل خيـاني أسرار خططه إلى ذلك الملك، وعند ذلك لم يوفر هنري مهمازه، أو لكز جانبي فرسه، بل إنه هرب من دون توقف حتى مدينة بلي Blaye, وكان صـائماً وجائعـاً، ولم يهتم سوى قليـلاً بقواته التي تبعته، وعندمـا علم نبلاؤه بفـراره، تركوا فجأة طعامهم نصف المطبوخ، وركبوا خيـولهم السريعة، ولحقوا ملكهم، وهم يرجون ايجاد ملجأ لأنفسهم معه في مدينة بلي.

وسار خلفهم حشد كبير من الانكليز، على أقـدامهم، وهم في حاجة شديدة، وكـانوا يتساقطون من الجوع والضعف، وقد فقـدوا عدداً كبيراً من الرجال المرضى، والخيول المحملـة، والعربات والشاحنات، حتى أن

الدموع عطفاً عليهم تدفقت من أعين جميع الذين شاهدوا أوضاعهم، لأنها كانت رحلة عشرين ميلاً، وفقاً لتقديرات تلك المنطقة، لكنها كانت حوالي الأربعين أو قريباً من الخمسين وفقاً للحسابات الانكليزية، ولولا أنهم قووا أنفسهم، وهم على الطريق، بأكل التفاح البري والتوت، لتخلت قواهم عنهم نهائياً، ووصل الملك الفرنسي في الوقت نفسه إلى سانتاغيو، حيث جرى استقباله باحترام من قبل رجال الدين والمواطنين، واسترد سلطاته من دون صعوبة على تلك المدينة النبيلة، وبعد فرار مهين ومدمر، وصل الانكليز المنهكون وغير القادرين على التنفس إلاّ بصعوبة، إلى مدينة بلي، وبعدما مكث الملك هناك لبضعة أيام للراحة ولاسترداد قواه (لأنه كان لم يأكل أية وجبة ولم ينم منذ يومين وليلتين)، قرر أن يغادر ذلك المكان أيضاً، بحثاً عن مكان أكثر أمناً للالتجاء إليه، ولذلك عقد مؤتمراً مع نبلائه، ثم إنه قرر الانطلاق نحو الأمام إلى بوردو، وفي هذا الفرار فقد ملك انكلترا بيعته مع جميع تزييناته المقدسة بالاضافة إلى الآثار وأشياء أخرى كثيرة، عددها كبير جداً حتى نتولى ذكره، وأثناء فرار الملك الانكليزي إلى بلي طارده الملك الفرنسي بحرارة حتى وصل إلى مكان اسمه كارتليو Cartelegue, حيث أرغم على التوقف بسبب المرض.

استسلام مدينة بونز إلى الملك الفرنسي

وعند سماع رينالد دي بونز بهذه الأخبار، طار على الفور نحو جناحي الملك الفرنسي، ونشد السلام من خلال وساطة بعض الأصدقاء، وقد حصل عليه مع بعض الصعوبة، و سلم نفسه والمدينة إلى سلطات الملك الفرنسي.

الملك الفرنسي يشحن بالجند مدينة بونز وبعض القلاع

وبعدما أعيدت مدينة بونز على هذه الصورة إلى الطاعة، وكذلك

بعض القـلاع من حولها، قام الملـك الفرنسي على الفور بطـرد البواتيين، ووضع بعضاً من الفرنسيين المخلصين هناك.

رئيس الأساقفة وليم يلتحق بالملك الفرنسي

وعندما وصلت أخبار هذه الحوادث إلى الذي يدعى برئيس الأساقفة وليم، قرر هو العمل بطريقة ممـاثلة، لكنه عزم أولاً أن يسمن نفسه على مقتنيـات ملك انكلترا، ولذلك قـام بشكل مخادع فأرسل رسـالة سـلام ومـواســاة إلى الملك المذكــور، معلناً وداعيـاً القضــاء الرباني أن يكون شـاهداً، —مع أن جميع البـواتيين ينبغي عليهم الانحناء، وإبعـادهم من دون كرامة عنه، هو، أي رئيس الأساقفة— أنه طالما نفس الحياة موجود في صــدره، لن يتخلى عـن ملك انكلترا، الذي أضفـى عليــه ثروات عظيمة، ولن يفـر إلى الملك الفرنسي، الذي داس بعجـرفته التي لاتحتمل —والتي جاءت بعـدما ربحوا القدرة— على جميع رعيتـه، وكأنهم كانوا وحـلاً في الشوارع، وبناء عليـه التمس من ملك انكلترا، أن يرسل إليـه من دون تأخير، بحكـم كـونه مـولاه الطبيعي، الـذي عنه لايمكن أن ينفصل بنفســه، بعض الفرسان الشجعـان، المجهزين بجميـع الحاجيات الضرورية إلى مـدينة بارثني Parthenaye التي كـانت مـدينتـــه، وذلـك مـع المـال لتحصينهـا، وإلى هذه الكلمات الناعمـة والمعســولة أصغى الملك برغبــة كبيرة، وتصرف وفقـاً لطلبـه، لكـن لدى وصـول الفـرسـان الـذين أرسلوا من قبل ملك انكلترا إلى مسـاعـدته، طردهم بالقـوة من المدينة، واحتفظ لنفســه بالمال الذي أرسل إليــه للدفع إلى عسـاكـره، ثم إنه طار مع جميع أعـوانه والمواطنين للجـوء تحت جناحي الملك الفـرنسي، لعمل سلام معـه، لكن الملك الفرنسي ضـايقه ووجّـه الملامـة إليه، وقطـع لسـانه، وأشار إليـه باصبعـه، موجهـاً الملامة إليـه بسبب سلوكـه، ووبخه ووسمـه بأنه خـائن، وانسان مـوسـوم بعلامـة قابيل.

عمدة طولوز يتحول عن جانب الملك الإنكليزي

وبات في هذه الأثناء، عمدة طولوز أيضاً على بينة بأوضاع القضايا، وكان رجلاً كدس عليه ملك انكلترا أكواماً هائلة من المنافع، وقد رفع من شأنه في كثير من الطرق، لكنه عندما وجد جيوب سرج خيوله مليئة بأموال استيرلينية جيدة، جاء رده على ذلك خيانته، وبوساطة أصدقائه عمل سلمه مع الملك الفرنسي، وأعيدت مدينته إليه مع البلدات المجاورة، والتحق هو بالجيش الفرنسي، مظهراً بذلك أي نوع من الثقة ينبغي أن توضع في البواتيين.

البواتيون جميعاً يتحولون إلى الملك الفرنسي

ثم إن المواطنين وحراس البلدات، رأوا هؤلاء الأعلى مرتبة منهم أنفسهم قد تحولوا، وأن ملك انكلترا، الذي كان من المتوجب أن يقدم الحماية إليهم، قد هرب، مثل ملاح يهجر سفينة غارقة، تبارى أحدهم مع الآخر في الفرار إلى الحكم الفرنسي المعروف جيداً، وقام أتباعهم في المقاطعات أيضاً، بالتخلي فوراً عن أنفسهم وعن ممتلكاتهم إليه.

إخلاص هارتأولد قسطلان قلعة ميربو

وعندما كانت أخبار هذه الأحداث ومايماثلها تنتشر لتعم مناطق بواتو، كان هناك واحد اسمه هارتأولد Hertold, كان القسطلان المخلص لقلعة ميربو التي لاترام، وقد شعر بحزن عميق، وكان يشعر بشكل مؤكد أنه عندما يحرم من مساعدة ملك انكلترا، هو لم يرغب —على كل حال— بذلك، بل رغب بالتصدي للهجمات الصادرة عن الملك الفرنسي، وقد قال لرفاقه في السلاح: «أصدقائي، ورفاقي الحقيقيين، إن جميع منطقتنا هذه، وياللأسف، عرضة للخراب والدمار، فما الذي ينبغي فعله؟ إن بني قومنا مختلفون فيما بينهم أنفسهم، وهم منقسمون، وهم بالتالي في حالة اضطراب، وإننا سوف نتحول إلى درجة

العبودية من قبل أعدائنا»، وقرر أخيراً، بعد كثير من البكاء، في قرارة نفسه، أن يذهب إلى ملك انكلترا، الذي هو مولاه الطبيعي، ليتشاور معه حول هذه القضية، وعندما وصل إليه، كانت الدموع مبللة وجنتيه، والتنهدات قطعت كلامه، حيث قال: «مولاي الملك، إن جلالتكم ترى بأن الحظ مضاد لنا في كل شيء، وأنا رجل تعيس إلى حد أنني لاأدري ماالذي عليّ أن أفعله؟ هل يمكنك مساعدتي في هذا الخطر العظيم، وإذا ما كان عليّ صد المحاصرين بالقوة إذا حدث وحوصرت؟ وهل سوف أنا أتورط مثل جيراني، في المأساة العامة، وأن أرغم بالأخير على تحمل النير الفرنسي، الذي رفضه آبائي دوماً حتى الآن، وصدوه، وقذفوا به»، وعلى هذا رد عليه الملك وهو مكتئب قائلاً: «أنت ترى ياهارتأولد، مقدار قوتي، التي هي بالكاد كافية لتأمين نجاتي، وإن مولانا ومخلصنا يسوع المسيح، قد جرت خيانته من قبل تلميذه يهوذا، وبناء عليه من الذي يمكنه أن يتوقع أن يكون آمناً؟ لقد تركني كونت دي لى مارشي، الذي عددته وأحببته بمثابة أب، وقد ضرب مثلاً مدمراً لكم جميعاً، فلقد اعتمدت على قصبة وجعلتها بمثابة عصاي، فجرحتني شظاياها، وأنت وحدك عملت بطريقة محمودة، بقيامك بمشاورتي في هذه القضايا، وبناء عليه إن جميع ماتمتلكه باسمي، أنا أمنحك إياه بحرية، بمثابة هدية مني، وبناء عليه، افعل الذي تراه أكثر مواءمة لك ولحقك»، ثم إن هارتأولد غادر حضرة ملك انكلترا وهو آسف، وذهب على الفور بشعر مشعث، وعينان حمراوتان من البكاء إلى الملك، الفرنسي الذي إليه توجه بالخطاب قائلاً كما يلي: «مولاي الملك، لقد كدس الرب الغاضب أكواماً هائلة من الشرور عليّ، حتى بت مرغماً —مع أنني غير راغب— بأن أطير إلى رحمتك حتى أنال الحماية والملجأ، لقد تركت إلى نفسي، ولذلك طرت إلى جلالتك، وبناء عليه تسلم قلاعي، وتقبل في الوقت نفسه خدمتي»، وعلى هذا رد الملك الفرنسي بنظرة هادئة: «ياصديقي لقد عرفت معرفة جيدة بأنك قد ذهبت إلى ملك انكلترا،

وأنا أعلم الذي قلته له، فأنت وحدك قد عملت باخلاص، وأنا على هذا عن رضا أتقبل القيام بحمايتك أنت والذين أتباع لك، وكما أنت، أنا أتقبلك، ولذلك فإن صدر الرحمة هو مفتوح لك دوماً»، ولذلك تخلى هارتأولد عن قلعة ميربو الفخمة، ووضعها بين يدي الملك الفرنسي مع جميع متعلقاتها، لكن ذلك الملك قام على الفور، إثر تلقيه يمينه بالتابعية، بإعطائه المسؤولية عنها ثانية، وكذلك معها جميع جزء تلك البلاد، باستثناء مونتوبان Montouban, وعدد قليل من الأماكن، فهذه جرى تسليمها إلى سلطات الملك الفرنسي.

ولادة ملكة إنكلترا لطفلة في بوردو

وبقي ملك انكلترا في بلي حتى عيد صعود العذراء المباركة، عندما جاء المخاض ملكته التي كانت مقيمة في بوردو —وكانت خيامه منصوبة في حقول جميلة قرب تلك المدينة— وكان مستعداً لأن يطير على الفور، إذا ماسمع من جواسيسه بأن الملك الفرنسي قد اقترب من بلي، وفي يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، ولدت زوجته، الملكة إليانور —كما ذكرنا من قبل— بنتاً في بوردو، وقد منحت اسم بيترايس Beatrice, الذي كان اسم أم الملكة.

قدوم كونتسة بيرني إلى ملك إنكلترا في بلي

وفي الوقت نفسه، قدمت كونتسة بيرني Biarne, التي كانت بمفردها ذات حجم كبير إلى الملك مع ابنها غاستون Gaston, وكان برفقتها ستين فارساً، وقد اقتنعت بفعل ذلك برغبتها بالحصول على بعض المال، حيث كانت تعرف بأن ملك انكلترا كانت لديه كميات وافرة منه، وبعدما دخلت معه في اتفاقية من أجل الدفع، بقيت مع الملك، وهي تتسلم منه يومياً مبلغ ثلاثين باونداً استيرلينياً، ولكنها كانت ذات موقف معادي منه، وقد تخلت بالنهاية عنه كلية، أو بالحري خانته وأفقرته.

انتشار وباء بين الفرنسيين

ورأى الملك الفرنسي في الوقت ذاته أن الحرب متطورة لصالحه بين يديه، فعقد مؤتمراً مع نبلائه، وقرر أن يلاحق الملك الانكليزي بعدوانية إلى بلي، لأنه كان يعرف بأن هذا الملك كان قد حرم من مساعدة البواتيين، وكان الآن غارقاً في وضع ميؤوس منه، وقرر أيضاً أن يطارده من بلي إلى بوردو إذا ما تراجع إلى هناك، وهكذا تصور أنه يمكنه بيقظة غير متوانية، أن يجلب الحرب إلى نهاية، غير أن الرب «الذي يمنح الخلاص إلى الملك كما يريد» امتلك رحمة نحو الملك ونحو مملكة الانكليز، ففرق بين قلوب الفرنسيين المتعجرفين الذين لايعرفون التهاون، بإثارة الشقاق والخلاف فيما بينهم، وعلاوة على ذلك، فإن جيشهم الذي كان كبيراً جداً، كان مرهقاً يعيش تحت نقص الامدادات، ولذلك فإن الجوع والعطش قد استبد بهم، وأخذ الناس يتلاشون بوساطة الأمراض، ولإصابتهم بمختلف الآلام، لفظوا حيواتهم الضعيفة، لأن السكان المحليين كانوا قد أغلقوا أفواه الآبار، وسمموا وأفسدوا الأنهار والينابيع، وفلحوا المروج، ونقلوا القمح، ونتيجة لذلك هلكت الخيول لحاجتها إلى الماء، وفي أيام الشعرى (مابين أوائل تموز وأوائل أيلول) التي كانت آنذاك في ذروتها، التزم الناس بمضاجعهم وهم مرضى، ولأنهم كانوا غير قادرين على الحصول على الراحة وعلى الدواء ماتوا، ومات من الجيش الفرنسي، ثمانون نبيلاً ممن كانوا يحملون الرايات، ومن الجنود الرجالة وقع حوالي العشرين ألفاً ضحايا، وفي هذه الآونة، وقع الملك نفسه مريضاً مرضاً خطيراً، ووقع على الفرنسيين خوف عظيم وقنوط كبير، ذلك أنهم خافوا أن يفقدوا ملكهم بين يدي الموت، الموت الذي لم يوفر أحداً، وذلك وفق الطريقة نفسها التي فقدوا فيها والده الملك لويس فجأة، ومات بسبب المرض نفسه كثير من الفرسان الشجعان الذين لامثيل لهم، وكان من بينهم روبرت مالت

وكـان نورمانـدياً، ورجلاً استحق التميـز بالثناء، ورتشـارد Malet, بيومـونت Beaumont, وكـان رجلاً من أصل نبيل، ومتميـزاً بين الفـرنسيين لأعماله النبيلة، وكـان واحـداً ممن حـرره الايرل رتشـارد في الأرض المقــدســة، ولذلك أرغم الملـك الفـرنسي، بسبـب الظروف المعـاكسـة، على الموافقـة على هدنة لمدة خمسـة أعـوام، وهي التي طلبهـا الملك الانكليزي، ثم إنـه عاد إلى فرنسـا إلى مناخه المعتـاد عليه، ولذلك منحت الهدنة إلى الملك الانكليزي عن رضا، لابل مع سرور عظيم.

الملك الفرنسي الذي وقع مريضاً يبرم هدنة مع ملك إنكلترا ويعود إلى فرنسا

وبناء عليه، قام الملك الفرنسي، فجـأة بتغيير خططه، وعاد إلى فرنسا، من أجل أن يمتلـك وقتـاً للتنفس، ولأن ملك انكلترا كـان مستعـداً للانتقـال إلى أقصى منطقـة من البـلاد، وكـان من الصعب مطاردته في أراضيه، ولأن فصل الشتـاء الممطر بات قريباً جداً، وهكذا أخـذ طريقه مروراً بمدينة سانتاغيو، التي كان قد استرد ملكيتها، فأمر بتحصينها، في سبيل تقـدم المملكة الفرنسيـة، بأسوار جـديدة، وبتحصينات خارجيـة، وبترميم الأسـوار القـديمـة، وأعطـى الأوامـر نفسهـا فيما يتعلق بالمدن الأخرى، وتلقى يمين الاخلاص، والرهائن، من الذين تركهم مسؤولين عنهم، وقام بشحن القـلاع بشحن فرنسيين، وبالذين كـانوا مخلصين له، وتراجـع ملك انكلترا في الـوقت نفســـه، مـن دون خطة بـذهنه، إلى غسكوني، حيث أمضى أيـامـه من دون نشـاط مع ملكتـه، وأثناء ذلك أظهـر الغسكونيون مـع (الكونتسة، دي بيـارد) Biard قليلاً من الرحمة نحـو أمـواله، وفي ثمانيـة القـديس متى الرسـول، وصل الملك الفرنسي إلى فرنسـا، والذين زرعوا بذور الفوضى في المقاطعـات البواتية قد اعتقلوا مع الاهانة، بعدما عادوا إلى فرنسا، وبعد آلام طويلة غادروا جميعاً طريق الجسد.

الملك الفرنسي يطلب الحصول على مساعدة مالية من اللاهوتيين

وبعد مضي وقت قصير دعا الملك الفرنسي وأمر أساقفة المملكة الفرنسية بالاجتماع بباريس، وهم:

رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان السود من طوائف السسترشيان والبرامونستريت، ورؤساء هيئات الكهنة الكاتدرائية، وطلب مساعدة مالية منهم، ولكي لايعطي فرصة يمكن أن تتخذ ذريعة لرفض طلبه، أعطى سبباً بأنه يرغب في مهاجمة الهراطقة الألبينيين، لأنه اتهم كونت طولوز بجريمة الهرطقة القديمة، وكبرهان على ذلك قال بأن ذلك الكونت قد قتل مؤخراً، بشكل دنيء، بعض الرهبان الدومينيكان، ونظراً لإدراك الأساقفة أنهم كانوا محرومين من حكومة البابا، ومع أنهم لم يكونوا ملزمين بحق الاسهام بأي شيء، بناء على أمر أي علماني، حتى لاتظلم الكنيسة، ومع ذلك مقدرين أن الزمان كان زماناً سيئاً، وبما أنه كان هناك عدداً داخلين في اطار الخطر، كان لابد من إعطاء بعض المرونة للأحكام القاسية، ووافقوا بالاجماع على عمل تسوية للقضية، بمنح جزء من عشرين من مواردهم لذلك العام، وأن يجري دفع ذلك في وقت قصير.

تكريس الكنيسة في وولتهام

وفي اليوم التالي لعيد القديس ميكائيل في هذا العام، جرى تكريس كنيسة ديرية تابعة إلى كهنة وولتهام Waltham, بشكل مهيب من قبل وليم أسقف أوف نورويك، وقد ساعده في ذلك عدد كبير آخر من الأساقفة المحترمين والنبلاء، وقد حدث هذا فوراً، إثر تكريس كنيسة القديس بولص في لندن في سبيل أن يعبر الحجاج ثم يعاودوا العبور من الأولى إلى الثانية من دون زيادة تأخير.

استخراج ضريبة بدل الخدمة العسكرية من قبل الملك

في هذا الوقت نفسه أمر الملك باستخراج ضريبة بدل الخدمة العسكرية من جميع أرجاء انكلترا. وفي هذا العام جرى تثبيت آدم راعي دير ويردون Waredon, أسقفاً على كونور Connor, وهو كرسي موجود في انكلترا، خاضع إلى المطرانية الأسقفية العائدة لرئيس أساقفة أرماغ Armagh.

بعض نبلاء إنكلترا يطلبون الإذن بالعودة إلى الوطن

وفي الوقت نفسه، جاء إلى الملك ايرل بيغود، وايرل روجر أوف وينشستر، وعدد آخر من النبلاء، واشتكوا إليه بمرارة، بأنه جرهم بشكل غير معقول من بيوتهم إلى المقاطعات النائية لهؤلاء الخونة له، من دون أن يقدموا إليهم أية مواساة أو مساعدة، ولذلك عندما تراجع الملك الفرنسي مع جيشه إلى داخل فرنسا، من أجل تجنيد قواهم، هم سألوه أيضاً الإذن بالمغادرة والعودة إلى انكلترا من أجل الغرض نفسه، فسألهم الملك: «هل الطريق آمن؟» وعلى ذلك أجابوا: «إننا سوف نسأل»، ثم إنهم طلبوا ممراً حراً خلال فرنسا من الملك الفرنسي، فمنحهم إياه قائلاً: «دعوهم يغادرون بحرية، ويسافرون من دون اعتراض خلال أراضيّ، وأنا آمل أنهم لن يعودوا مطلقاً» وعندما ليم على هذا من قبل نبلائه، قال: «بودي لو أن جميع أعدائي يرتحلون بعيداً عني، وأن لايعودوا مطلقاً»، وبناء عليه أخذ الانكليز طريقهم بسلام خلال فرنسا —ليس على كل حال من دون نيل الأذى من السكان— وعادوا إلى انكلترا، وقد حدث في حوالي الوقت نفسه، أن واحداً من النبلاء الانكليز، واسمه وليم دي روز Roos, وكان قد جاء من المناطق الشمالية لانكلترا، لم تتوفر لديه الامكانات للمكوث أية مدة أطول مع الملك في القارة، ولذلك أمر الملك بتهور أن تنتزع منه أراضيه من دون حكم صادر عن نظرائه، وقد بدا هذا إلى الجميع أنه عمل غير

عادل، وتصرف طغياني، لأنه بسبب أن وليم دي روز المذكور كان رجلاً فقيراً، قال للملك: «تقبل أراضي تحت اسم تعهد، وامنحني الوسائل لكي أخدم بشكل موائم كفارس، ومن ثم سوف أقيم»، ولدى سماع الايرل رتشارد بهذا الإجراء وبإجراءات أخرى مماثلة، وجّه اللوم إلى أخيه بحدة، ونشب خلاف بينهما نتيجة لذلك، وقد ترك أخاه وهو متألم بروحه كثيراً، وقرر العودة إلى الوطن، ولذلك استدعى بعض النبلاء، وعمل الاستعدادات من أجل الابحار.

ثم إن الملك، تصرف فجأة بشكل غير حكيم، فانفجر غاضباً مهدداً ضد الايرل، ولكي يخفي الايرل عنف أخيه وغضبه، كظم مشاعره، وبقي معه، ولكن عندما رآه قد تصرف بشكل مضاد مباشرة لنصيحة شعبه، قام مع وليم، الايرل مارشال، وايرل هارتفورد، وعدد كبير آخر من النبلاء، وترك الملك، الذي كان قد أسلم نفسه تماماً لرغبات أهل بوردو، مع الغسكونيين، وازدرى نصيحة رعيته الطبيعيين، ولذلك أخذ سفينة وعاد على الفور إلى الوطن، وشغل الملك نفسه وتمتع بالراحة مع ملكته إليانور، التي جلبت له بنتاً، فأطال إقامته في بوردو من دون عمل، وبدد أمواله في مختلف الطرق غير النافعة.

المخاطر التي واجهها الايرل رتشارد ورفاقه في البحر

أقلع النبلاء الذين تقدم ذكرهم في البحر في يوم عيد القديس لوقا، وبعدما عانوا من كثير من المخاطر والعديد من الاضطرابات أثناء رحلتهم، وصلوا مع كثير من الصعوبة إلى كورنوول، وبعدما عمل ايرل رتشارد نذراً بزيارة أحد الديرة من أجل الحفاظ على حياته، تمّ انقاذه بعد صعوبات جمّة من فكي الموت، ونزل على جزيرة قرب كورنوول، أما السفن الأخرى، التي كانت قد غادرت الساحل الفرنسي، في الوقت نفسه الذي غادرت فيه سفينة الايرل رتشارد، فقد تفرقت بعنف العاصفة، وحملت إلى شواطىء أخرى.

عاصفة وأمطار غزيرة

في يوم عيد القديس إدموند، من العام نفسه، كان هناك رعد متميز مترافق ببرق، مع نذير شؤم عن وصول عاصفة طويلة، مخيفة للقلوب والآذان للأحياء، ولم يكن الانذار زائفاً، لأنه تبعه أنواء متواصلة في غير وقتها، وبأوضاع للرياح مزعجة ومضطربة، استمرت لعدة أيام، وتساقطت آنذاك أمطار غزيرة جداً، حتى أن نهر التيمز فاض عن حدوده المعتادة، وعن شواطئه القديمة، وأظهر نفسه فوق المنطقة الممتدة نحو لامبث امتداداً حتى ستة أميال، وغمر المنطقة بالطول وبالعرض، واستحوذ على البيوت وعلى الحقول في تلك المنطقة، ونظراً لفيضان المياه، ركب الناس في القاعة الكبرى في ويستمنستر على ظهور الخيول.

إرسال مؤن من إنكلترا إلى الملك

وأرسل الملك في تلك الآونة رسالة إلى رئيس أساقفة يورك، الذي كان وصياً على المملكة، آمراً إياه بارسال القمح الذي نما في أسقفية كانتربري، وفي العزب الأخرى التابعة للأسقفية نفسها، وكانت آنذاك فارغة، إليه إلى بوردو من دون تأخير، ومع القمح لحم خنزير وملح والأشياء الأخرى اللازمة والامدادات من أجل الشتاء، وكذلك أقمشة من أجل صنع ملابس، ونتيجة لذلك جرى ارسال عشرة آلاف عبوة من القمح وكثيراً من لحم الخنزير، إنما وهي مرافقة بمبلغ كبير من المال، وكأن انكلترا كانت بئراً لاينضب.

أوامر غير صحيحة لملك إنكلترا

وأرسل الملك أوامر دقيقة إلى رئيس الأساقفة المذكور، كي يصادر أراضي وممتلكات الذين هجروه على القارة، وتركوه بلادفاع وعرضة لتقلبات الأحداث، وعدهم خونة، وبشكل خاص ممتلكات وليم دي روز، وبعض النبلاء الآخرين، العائدين إلى المناطق الشمالية من انكلترا،

وقـد عـانى هؤلاء، نتيجـة لهذا الأمـر من خسـارة كبيرة، وكـان رئيس الأساقفة على كل حال، رجلاً حكيماً، ومقدراً للأمور، وكان يعرف أنهم ينبغي عدم لومهم، إذا كـانوا قد تركوا الملك لبعض الوقت، بعـد ابرامه لهدنة، وقد تركوه بسبب الفقـر الذي استبد بهم، أو تركوه لكي يستردوا صحتهم، ولذلك لم يرغـب، لدى صـدور هذه الأوامـر الطغيـانيـة، أن يلطخ أخلاقه وسمعته، من أجل رسالة ليست ذات قيمة، بل فضّـل أن يتركها تمر بصمت، لاسيما وأن الملك كان مرغماً على الموافقة على المشورة الحكيمة لكل من أخيه الايرل رتشارد، ولرعاياه الآخرين الموثوقين، بأن عليـه والأفضـل له العـودة إلى مملكتـه، لكنه اختـار الكـلام الناعم للغسكونيين، وبقـي في بوردو مع ملكتـه وسط سخـريـة ومـزاح الفـرنسيين، الأمـر الذي لم يكن لمصلحتـه تمامـاً، هـذا وبقي مع الملك سيمون دي مونتفورت، ايرل أوف ليستر، وايرل وليم أوف سالسبري، وعـدد كبير آخـر من النبـلاء الانكليـز، لكن ليس من دون المعـاناة من خسائر كبيرة، مع تعريض أنفسهم للأذى، حيث أثقلوا بالديون، وعانوا من جميع أنواع الشدائد، وكـانوا يقضون أوقاتهم من دون عمل ونائمين بشكل مهين.

تزايد خزي ملك انكلترا وعاره

وفي الوقت نفسـه وصم الملك نفسه بوصمة مـن غير الممكن إزالتها، بسبب أنه رفـض نصيحـة مستشـاريـه الطبيعيين، حيث أذعن مـراراً، وبطريقـة صـديقـة تماماً واستجـاب لرغبـات كـونت طولوز، وكـذلك لرغبـات ملـك أراغـون، وكـانا صـديقين هشين من القصب، حيث لم يقدمـا له في وقت الحاجة أي عمل جيـد، لابل بالحري عارضـاه ووقفا ضده، فقـد كان أولهما هرطقي، وكان الثـاني ملطخاً بعار عـدم المحافظة على معـاهداته وخرقهـا، لابل إنهما حـاولا زرع بذور الخلاف بينه وبين رعاياه الاقطاعيين، لاسيما الايرل سيمـون دي مونتفـورت، على أساس

الكراهية السالفة لأبيه، الذي كان من قبل قد ألحق هزيمة شديدة، بملك أراغون والألبينيين، ولم يقم الغسكونيون لا الآن، ولا من قبل،لابتدليل ملك انكلترا، ولا بإطرائه، الأمر الذي عندما أخبروا به ملك فرنسا، من أجل أن يفرح لدى سماعه له، قال: «كونوا هادئين، كونوا هادئين، ولاتسخروا منه، أو أن تحاولوا جعلي أكرهه، لأنكم تكرهونه، إن صدقاته وقداساته، سوف تنقذه من جميع المصائب والمخاطر»، ولقد سمعت أيضاً أن رأياً مماثلاً صدر بشأنه عن للويلين، أمير شمالي ويلز، الذي كان عدواً له.

وفاة رتشارد دي بورغ

وفي هذه الآونة نفسها، مات رجل نبيل، هو رتشارد دي بورغ، وكانت لديه أراضي كثيرة وممتلكات في ايرلندا، كان قد ورثها من أعمال التوسع لأبيه المشهور.

موت هيوج دي لاسي

وفي هذا العام نفسه، غادر هيوج دي لاسي هذه الحياة، وكان مقاتلاً صاحب شهرة كبيرة، وحاكماً مشهوراً لشطر كبير من ايرلندا.

روبرت أسقف لنكولن يترجم أناجيل البطاركة الاثني عشر

وفي هذه الآونة أيضاً، ترجم روبرت، أسقف لنكولن، وكان رجلاً بارعاً جداً، إلى اللاتينية، من الاغريقية، ترجمة صحيحة جداً أناجيل البطاركة الاثني عشر، وكانت هذه الأناجيل غير معروفة منذ سنين طويلة، ومخفية من خلال حسد اليهود، لأن النبوءة المتعلقة بمخلصنا موجودة فيهم، لكن الاغريق الذين هم أكثر المتقصين بحثاً من دون ملل عن جميع الكتابات، كانوا أول من علم حول هذا الموضوع، فترجموهم عن العبرية إلى الاغريقية، ولم يكونوا معروفين في أيام القديس جيروم، أو من قبل أي مترجم آخر للكتابات المقدسة، ولم

يصلوا إلى معـرفـة المسيحيين، بأي شكل مـن الأشكال، بسبب الخطط التـآمرية لليهـود، وبناء عليـه، قـام الأسقف المذكور بـالترجمة، يساعـده نيقولا، وكان اغـريقياً، وكاهناً في دير القديـس ألبان، وجاءت الترجمةإلى اللاتينية، واضحة، وكلمة مقابل كلمة، لتلك الرسائل المجيدة، في سبيل تمتين الإيمان المسيحي، ولتسبيب الإرباك الكبير لليهود.

وفاة راعي دير إيفهام

وفي هذه الآونة، أنهى أيامه، راعي دير ايفهـام، وأسقف كوفنتري، في غسكوني، بعـدمـا شغل دوراً كبيراً أسـاسياً في انكلترا، وبعـدمـا أمضى كثيراً من الأيام المجهدة في خدمة الملك، وحدثت وفاته في منطقة اسمها ريغيـولا Regula أو لى ريولي Reole, في اليـوم الثـامن من كانون أول، وتولى أسقف تلك المنطقة دفنه بكل احترام.

وفي هذا العـام نفسـه، في التاسع والعشرين من تشريـن الثاني، مـات جـوسلين، أسقف باث، عن عمـر مديـد، وكان متميـزاً لحيـاته الجديرة بالثناء وأخلاقه.

إنهاك خزينة ملك انكلترا وطلبه المال

وفي هذه الآونة أيضـاً ضلل ملك انكلترا من كل جـانب، أو بالحري خدع من قبل البـواتيين والغسكونيين، وبات فقيراً، وسيء السمعة، لأن بدلات الخدمة، والاستخراجات، وجميع الخزائن والهدايا التي جمعت من أجله، جـرى تبديدها مـن دون فائـدة، فضـلاً عن هذا عاد إلى ممارسة الاستخـراجـات، وفرض الضرائـب، والطرائق الأخـرى، فبعدمـا فقـد أراضيه وكـرامته في بواتو، وجـد الآن نفسه في غسكوني مثقـلاً بالدين، مع أنه ببدل الخدمة استخرج —لكن ليس من دون مصاعب جمة سببها للانكليـز— ثلاثة ماركـات عن كل بدل، وقال بعضهم لابل استخـرج عشرين شلناً.

الملك يطلب العون من السسترشيان

وفي ذلك الوقت، طلب ملك انكلترا بشكل رسمي، وتقدم بالرجاء بشكل حبي إلى رئيس أساقفة يورك، بأن يقوم رئيس الأساقفة بتوجيه الدعوة إلى جميع رعاة دير طائفة السسترشيان إلى الاجتماع وأن يلقاهم بكلمات لطيفة، وأن يحرضهم وأن يثيرهم للاهتمام بمولاهم وملكهم، الذي كان يحارب في مناطق أجنبية، في سبيل رفع شأن المملكة ومن أجل مصالحها، إلى حد تعريض شخصه إلى حظوظ الحرب المشكوك فيها، ولذلك يتوجب عليهم أن يقدموا إليه خدمة فعالة، بتقديم المال إليه، وبذلك يقدمون إليه معروفاً، ومساعدة قيّمة، وبناء عليه اجتمعوا، وردوا عليه في الاجتماع الأول قائلين: «كم تريد يامولاي»؟ فأجابهم رئيس الأساقفة قائلاً: «قليلاً»، وعندما سأله السسترشيان: «وكم هذا القليل»؟ قال لهم رئيس الأساقفة: «بقدر مايمكن أن تحصلوا عليه من أصوافكم لعام واحد»، مما كان مساوياً إلى قول:

حياتك كلها هي كل ما أطلبه،

والبقية أتركها بين يديك.

لأنه من الذي يمكنه أن يعاني من الحاجة إلى ضروريات الحياة لأيام قليلة، وقد حرم من الضروريات التي تتطلبها الحياة، من الذي يمكنه أن يفعل ذلك دون أن يلفظ أنفاسه؟ لكنها كانت كلمة الملك في فم رئيس الأساقفة.

جواب السسترشيان

وشعر هؤلاء السسترشيان بأن مصيدة قد نصبت إليهم، وأن خسارة وشيكة الوقوع، لذلك أجابوا بحكمة كما يلي:

«مولانا رئيس الأساقفة، نعمتك وحسن تقديرك على دراية بأننا جميعاً

جسد واحد، وأننا لايمكننا الموافقة على الذي طلبته لصالح مولانا الملك من دون إذن الهيئة الرهبانية العامة، علاوة على ذلك، لنفترض أنه جرى الآن عقـد اجتماع للهيئة الكهنوتيـة العـامـة، نحـن نعلم،وأنتم بحكم تقـديركم تعلمون، أنه غير مسمـوح لنا تقديم المسـاعدة إلى أي انسـان، يبـاشر أعمال الحرب، التي فيهـا سفك للدماء، لاسيما الـدماء المسيحيـة، خشيـة أننا بتقـديم مثل هذه المســاعـدة، سـوف ننأى عن أحكام نظام طائفتنا، التي تخاف خـوفاً عظيماً من الدمـاء، لكننا على استعداد لتقـديم العـون إلى مولانا وولي نعمتنا بصلوات مفيـدة ومستمـرة، وبالصدقـات وبأعمال أخـرى مـن التقـوى، وإنه بدون شك علينـا الاعتقـاد، أنه بهذا سـوف يفـوز، وذلك مما لاشك فيـه، كما أنه سـوف ينتصر بشكل مجيـد أكثر، ولسوف يشعر بأن العون اللاهـوتي سوف يمد قضيته بالتقدم، إذا مـا تـابع —كما هو الآن— وظل ثـابتـاً بإيمانـه»، وعلى هذا رد رئيس الأسـاقفـة، وهو منزعج، ومـلامحه مضطربة متبـدلة قائـلاً: «بأي وجـه سـوف تطلبـون أي شيء من الملك وقت الحاجـة، وهو الذي أجبتمـوه بهذه الطريقة الجافيـة، ورددتم على رجائه في هذه الأزمة الهامـة»؟، فقال واحـد من الرعـاة السسترشيان: «مـولانا نحن نتـذكـر، أنه عندمـا توج ملكاً، أقسم أنه سـوف يظهر العدل نحـو كل انسان، ونحن سـوف لن نسأله أي شيء خـــارج الطريق العـــام، كما أنه لايمكنه، ولايجوز له، أن يحرمنا الذي أقسم على منحه لنا، وعليـه أن يحكمنا بعدل، دون أن ينزل بنا أي ضرر غير قانوني، لكنه إذا أراد، في سبيل صالح روحه، أو أرواح أجداده، ولفائـدة مملكته، أن يضفي أية منفعة خاصـة علينا، سوف نفتح له صدورنا شاكرين لاستلامها».

الرعاة السسترشيان لايعبرون البحر إلى الهيئة الرهبانية العامة

وكـذلك في ذلك العـام، لم يسمح لرعاة الديـرة السسترشيان، بعبـور البحـر، كما أنهم أنفسهم لم يرغبوا أن يفعلوا ذلك، لأنهم خـافـوا خوفـاً

عظيماً من أن تكون هناك مكيدة منصوبة لهم من رجال الملك في البحر، وكأن ذلك بدون معرفة الملك، وذلك بسبب أنهم رفضوا منحه صوف سنتهم، ولذلك اعتذروا عن أنفسهم بأدب، بوساطة أساقفتهم، حتى لايظهروا أنهم كانوا هم السبب.

أوضاع الهواء خلال السنة كلها

وانقضى هذا العام، بعدما وفر كميات كبيرة من الفواكه والخضراوات، وذلك على الرغم من أنه كان جافاً وحاراً، وكان هناك قرب نهايته وباء عام، وحميات ربعية.

ملك انكلترا يبدد وقته في بوردو

في سنة النعمة هذه التي هي السنة ١٢٤٣، والتي هي السنة السابعة والعشرين لحكم الملك هنري، كان الملك نفسه يمضي الشتاء في بوردو، ومكث هناك في حالة بهجة، واستخرجت كونتسة بيارد منه مع ابنها غاستون الغسكونيين المال يومياً، وذلك إلى جانب راتب مفروض، لم يكن تافهاً بالمرة، ولقد استخرجا هذا كله من الملك، الذي كان تحت سلطانهم.

حصار دير فيرني

بينما كانت الأمور تسير على هذا المنوال، ولكي لايكون رجال الملك من دون عمل، جرى اخضاع بلدة لبعض العصاة الغسكونيين في أراضي بوردو، وجاء اخضاعها بالقوة وجعلها تحت سلطان الذين ظلوا مخلصين للملك، وكان هناك دير اسمه دير فيرني Verine, فيه اعتصم العصاة على الملك، حيث حولوا الكنيسة إلى قلعة، أو بالحري إلى كهف لصوص، وجرى حصار هذا الحصن بشدة، وهوجم من قبل خدم الملك المخلصين، لكن من دون نجاح، ووقتها قام واحد من كتّاب الملك، وكان مستشاراً خاصاً لديه، واسمه جون مانسيل، وكان رجلاً

شجاعـاً بـالحرب، وصـاحب روح عـاليـة، قـام بتـوجيـه اللوم إلى المهاجمين، واتهمـهم بالتقـاعس وإضـاعـة الوقـت، وفي الوقت الذي كـان يريد أن يضـرب فيـه مـثلاً للآخـريـن بالنهـوض بشكـل أكثـر فعالـية ضد الأعـداء، وكـان يرغـب في إعـداد طـريق، قـام واحـد مـن المحـاصرين، وكـان متـمركـزاً في الجـزء الأعـلى من الكنيسـة، باطـلاق حجـرة ذات وزن ثقيـل نحو الكـاتب المذكور، فسحق سـاقه مع المفـاصل والنخـاع في عظـامه، وعـندمـا كـان الرجـل نفسه يعدّ العـدة لتحطيـم بقيـة جسـده بـالحجارة، قـام رفـاقـه والمرتبطين به بإخـلاص، فغطوه بـأجسـادهم، وبترسـة كبـيرة، اسمـهـا الدرابيء، وهكذا حـرروه بصعـوبة من خطر الموت، وظل جـون هذا نفسـه الذي أصيب بجراحة حادة في جسـده، لمدة طويلة فاتر الهمة وضعيفاً، غير أنه تعـافى بوسـاطة براعـة الجراحين، وبدأ يتنفس، وعندمـا رأى الملك هذه الشجاعة الكبيرة، وشـاهد إخلاصه حوّله من كونه مستشـاراً خاصاً له، وعمل من جـون المذكـور مستشاراً أكثـر خصـوصيـة، ذلك أنه استحق بفضـائله المبرهن عليـهـا أن يكـون صـاحـب مـرتبـة بين الأعلين في انكلترا.

رهبان كوفنتري ينتخبون قائد جوقة المرتلين لديهم أسقفاً

وحوالي هذا الـوقت نفسه، سمع رهبـان كوفنتري رواية مؤكـدة عن وفـاة راعي ديـر ايفهـام، الذي كـان قـد عمل بوسـائط الملك أسقفـاً لشيستر، فانتخبوا وأعلنوا بمـوافقة عامة، وبوسـاطة موافقة بعض كهنة لشفيلد، أسقفـاً لهم، رئيس جـوقـة المرتلين لديهم، الذي هو وليم أوف مونتبلر Montpellier, غير أن الملك، الذي كان ناوياً وضع إنسان آخر في ذلك الكرسي، لم يقبل لابالانتخاب ولابالأسقف، ووقف بعض كهنة لشفيلد إلى جانب الملك، وقد أثار هؤلاء على الجانبين خلافاً مرهقاً ونكداً.

ملك انكلترا يشكو من فقره

وفي حوالي الوقت نفسه، ومع اقتراب شهر آذار، قدمت رسائل من ملك انكلترا من المناطق الأجنبية، إلى رئيس أساقفة يورك (الذي مارس في مملكة انكلترا أعمال الحاكم الرئيسي) تحتوي على شكاوى تعيسة، لأن ما من سفينة قدمت إليه، تحمل مساعدات عسكرية أو مساعدات مالية، منذ تاريخ وصول راعي دير ايفهام، الذي تأرجح بوساطة الأمواج العاتية، وبعدما أرهق لعدة أيام فارق هذا العالم، لكن رئيس الأساقفة كان مندهشاً كثيراً تجاه هذا، لأنه كان قد أرسل إليه مالاً، مع كميات كبيرة من الإمدادات والمؤن، ولذلك بات يعتقد بثبات، ويخشى من أن الغضب المنتقم للرب الخالق قد دمرهم وأغرقهم في أعماق البحر، ولذلك أعدّ مؤناً حتى ترسل إلى الملك، مع مال، كان الآن مبلغاً صغيراً جداً.

ولاة الموانىء الخمسة يطلبون المساعدة من رئيس أساقفة يورك

وقدم أيضاً ولاة الموانىء الخمسة إلى رئيس أساقفة يورك، يشكون إليه بشدة، بأنهم قد صدوا الآن ثلاث مرات، ليس من دون خسائر لاتعوض بالرجال، وبالسفن والأشياء الأخرى، وذلك من قبل الناس الذين يواجهون شواطئهم، وبشكل خاص سكان كالي Calais الذين هاجموهم في سبيل النهب، وعلاوة على ذلك أكدوا بشكل يقيني، أنه لا هم أنفسهم، لابل ولا حتى الأسطول الانكليزي كله، يستطيع أن يصمد في وجه الأسطول الذي جرى إعداده من قبل هذا العدو، وأضافوا قائلين: «يتوجب على مجلس الملك الاستعداد والتجهز ضد الخونة الخفيين، وضد الغارات المكشوفة، التي أعدت، وسوف تعدّ ضد أنفسهم، وضدنا نحن، والتي تهدد بأن تصبح كل وقت أكثر إخافة، وأكثر شدة، لأن كونت بريتاني، مع جميع سفن بريتاني وبواتو، قاموا وهم مجهزون بشكل جيد بالرجال والسلاح، بمهاجمة جميع الذاهبين من

جهتنا، ومن عندنا إلى الملك، وكـذلـك جميع المسـافـرين من عند الملك، إلينا، بطريقة عدوانيـة، وحيث أننا بتنا محرومين من جميع المساعدات من الملك، وكذلك من المساعدات الماليـة والعسكرية، فررنا إلى طلب العون من نصيحتكم، لأننا بتنا أنفسنا عاجـزين عن تشكيل رأي، وعلاوة على هذا، وتتـويجاً لاضطراباتنا، نادراً مـايسمـح لنا سكان تخوم نورمـاندي، والذين يحرسون السواحل الأكثر بعـداً، مع قرصان ويزانت Wissant وكـالي، ولو حتى إلى مسـافـة صغيرة، بـالقيـام بأعمال صيـدنا للسمك، والقراصنـة أيضاً الذين يحرسـون أعماق البحار في غـلايين، لايسمحون حتى للمسافـرين بالعودة إلى بلادهـم، كما أن ملك انكلترا محصور الآن في بوردو، وكأنه في سجن، مالم تزودنا حكمتكم بحملة عسكرية بحرية وبكثير من المال».

وعندمـا وصلت هذه الأشيـاء إلى مسـامع رئيس الأسـاقفـة، لم يعـد يتجـــرأ الآن على أن يرسل إلى الملـك السفن المحملة، التـي أصبحت جاهزة، وذكـر للملك بشكل رسمي أنه إذا كان يقـدر نفسه، وممتلكاته، عليـه أن يبـادر بسرعـة إلى تصحيح أخطائـه التي وقع فيهـا، وأن يخرج ناجيـاً من المصائـد التي وقع فيهـا بشكل خياني، وأن يعجل عـودته إلى انكلترا، وقال ممازحاً الملك، عن طريق الاشارة:

السلاح على الأرض، والسفن عند البحر، ونحن نخاف

فبين الاثنين، عليك أن تدير الدفة بحذر

إعاقة انتخاب بابا بسبب الخلافات بين الكرادلة وبقاء الكرسي البابوي شاغراً

وفي الوقت نفســه أبلغ الامبراطور فردريك الكرادلة، الذين كـانوا في مناطق مختلفة، ولكل منهم موقفه، برغبته بضرورة وجوب اجتماعهم مع بعضهم، والقيــام بشكل اجماعي بـانتخـاب بـابا، وأكـــد لهم أنه بسبب

غلطتهم قد عـاني شخصياً من ضرر كبير لحق سمعتـه، لأن كثيرين يعتقدون ويؤكدون، من خلال جهلهم بحقيقة الوقائع، بأنه هو كـان المعيق الرئيسي لتقدم كنيسة روما، ولمنافعها، وأنه كان السبب في بقاء الكرسي الرسولي شاغراً، لكن الكرادلة الذين لم يروا أدنى بارقة أمل، ولا حتى بصيص نار تحت الرماد، وذلك من خلال مكائد الشيطان، العدو القديم للجنس البشري، لم يكونوا مجمعين في رغباتهم، كما أنهم لم يكونوا راغبين بالاجتماع من أجل انتخاب حبر روماني، وقاموا على كل حال بتقديم الرجاء على الفور إلى مولاهم الامبراطور فردريك، أنه إذا ما رغب في أن يعدّ المحامي عن سلام الكنيسة وحريتها، أن يسمح لأساقفة الكنيسة، الذين مايزال يحتجزهم، بأن يغادروا محررين، تحت أمل أكيد جداً بسلام سعيد.

إطلاق الإمبراطور فردريك سراح النواب البابويين والأساقفة

وبناء عليه، وضع الامبراطور ثقة مطلقة بكلام الكرادلة، ولاعتقاده بثبات بأن بابا سوف يجري اختياره، وأن الكرادلة سوف يكونوا متأكدين بأنه سيكون مـوائماً لصنع سلام مشرف بين الامبراطورية والبابوية، ولذلك سمح من دون مقابل، للنواب البابويين والأساقفة الذين كانوا مسجونين لديه بالمغادرة أحراراً من دون أية معيقات أو فدية.

بقاء الكرادلة غير قادرين على الإتفاق لانتخاب بابا

لكن الكرادلة بقيوا متصلبين، ومكثوا مختلفين مع وجود كراهية متبادلة، وكأنهم كانوا يتملقون للامبراطور، أو كأن الشيطان قد زرع الخلاف فيما بينهم، لذلك ما برحوا غير راغبين بالاجتماع مع بعضهم، ولهذا توجهوا جميعاً بالدعاء والصلاة إلى نعمة الروح القدس، وأن يزودهم بسعادة وبشكل موائم في سبيل صالح الكنيسة العالمية، وكذلك

الكرسي البابوي، علماً بأنهم عندما أطلق مؤخراً سراحهم من السجن الامبراطوري، قد وعدوا الامبراطور، الذي أطلق سراحهم، أنهم بوساطة البحث الدقيق عن الحق، وبكلمة الصدق، التي هي كلمة الرب، سوف يبذلون غاية جهدهم، للحصول على السلام للكنيسة، وأن يكون ذلك موائماً للامبراطورية، ولمكانة ورفعة الكرسي البابوي.

الإمبراطور يمنح جنوده ممتلكات الكرادلة

وعندما وجد الامبراطور فردريك وعودهم فارغة من التنفيذ، وأنه قد خدع بآماله، شعر بغضب عظيم، ولأنه كان قد حشد جيشاً كبيراً تألف من تسع وحدات، تحتوي كل واحدة على خمسة آلاف من الفرسان، قام بحصار الشطر الأكبر من روما، لمعاقبة المواطنين والكرادلة الذين وضح أنهم فعلة هذا الشقاق وموسعيه إلى حد مدمر للكنيسة وللامبراطورية.

ولكن سكان المدينة الذين بسببهم قرر الامبراطور مهاجمة المدينة، سوغوا أنفسهم بشكل قانوني، وبرهنوا بما فيه الكفاية على براءتهم، وأكدوا بأن الكرادلة كانوا منقسمين في أرواحهم أكثر منه بالجسد، وكانوا موزعين ومتخفين في بلدات مختلفة، وبناء عليه أمر الامبراطور برفع الحصار، وأن يجري نشر المرسوم والأمر التالي في جميع أرجاء الجيش: «تتوجب استباحة جميع ممتلكات وكنائس الكرادلة، وكذلك الممتلكات العائدة للكنيسة، من قبل الجيش».

اجتماع الكرادلة لخوفهم لانتخاب بابا

ثم قام بعض من المسلمين، ولصوص آخرين، مع مقترفين للشرور، كانوا يقاتلون مأجورين لدى الامبراطور بهجوم مفاجىء على مدينة ألبانو المشهورة، واستباحوها بشكل وحشي، وهكذا حدث أنه مابين مائة وخمسين كنيسة، ما من واحدة وفرت، أو تركت من دون استباحة،

وقد سلبوا الأثواب، وكؤوس القربان، والكتب، وفي الحقيقة استولوا على كل شيء ظهر أنه كان ثميناً، أو أن له أية فائدة ومربح، وكان ذلك بعدما نهبوا الناس ومحقوهم بشكل رهيب، وعندما بات الجيش مستعداً للقيام بسلب مشابه للممتلكات الأخرى للكنائس، راسل الكرادلة مولاهم الامبراطور، وتوسلوا إليه بتواضع كي يوقف غضبه، وأن يأمر بايقاف أعمال الاستباحة، حتى يتمكنوا على الفور، تماشياً مع تصوره ورغبته، فيمضون وهم واضعين الرب نصب أعينهم، فيختارون حبراً رومانياً، موائماً للكنيسة وللامبراطورية، وبناء عليه هدأ غضب الامبراطور، وأوقف بموجب مرسوم امبراطوري أعمال السلب والنهب.

استخراج المال من مواطني لندن

وتعرض سكان لندن في هذا الوقت نفسه إلى ضيق شديد، بسبب فرض ضريبة ثقيلة عليهم، أطلق عليها اسم المكس الاقطاعي، وجرت جبايتها على الشكل التالي: قدم الجباة الملكيون والموظفون إلى كذا وكذا من المواطنين، قائلين: «ينبغي أن تقرضوننا كذا وكذا مبلغاً من المال إلى مولانا الملك، الذي يحارب في مناطق أجنبية في سبيل مصالح المملكة، وذلك إلى أن يعود إلى الوطن»، ووفقاً لإرادة هؤلاء الجباة وتقديراتهم، جرد السكان من أموالهم، علماً بأن جميع هذه الأشياء، وأكثر، كان السكان مستعدين عن طواعية لتحمل دفعها لو أنهم رأوا أنها سوف تفيد الملك أو المملكة، ولكن:

عندما يتوقف الجهد والعمل،

تزداد بالفعل مطالبنا.

عقد هدنة بين ملكي إنكلترا وفرنسا

في يوم عيد القديس جورج، جرى تثبيت الهدنة التي كانت قد

أعـدت، وجرت الموافقـة عليهـا بين ملك فـرنسا وملك انكلترا، وجـاء التثبيت من على الجانبين، لمدة خمسـة أعوام، وكان ذلك بوسـاطة تدخل رجال حكماء ومخلصين، كانوا أصدقاء لكلا الطائفتين، وتم الاتفاق على إبقاء كل ما استولى عليه الملك الفرنسي في تلك الحملة، بين يديه، علاوة على ذلك أعيـدت بعض البلدات إلى حكـم الملك الفـرنسي، وهي التي بعـدما عـاد ملك فـرنسا من كـونتيـة بواتو، كـان الملك الانكليزي قـد استــولى عليهن بمسـاعــدة الغسكونيين، ولكي يتم ضمان تنفيــذ هذه المعـاهدة الصعبة في البر وفي البحـر، خـلال ذلك الوقت المحدد، تعهـد ملك انكلترا بأن يدفع باخلاص إلى ملك فـرنسا مبلغ خمسة آلاف باوند استرليني، أي ألف باوند عن كل سنة، غير أن كونت بريتاني، الذي كان رجلاً ماكراً وداهية، تظاهر بأنه كان جاهلاً بجميع هذه الأشياء، وشغل نفسـه بيقظة وفق طرائق القـرصان بالسلب والنهـب فوق سطح البحـر بغـلايينه وسفنه الأخـرى، ولم يرغب بالقدوم إلى الشـاطىء، خشيـة أن تكبح الارادة الملكيـة حملاته الشريرة والمفسـدة، وكـان من الأعمال التي اقترفها بشر كـونت بريتاني المذكـور، الاستيلاء على، ونهب سفينة تجارية كبيرة جـداً تابعة لبيـوني Bayonne, وكانت محملة بالتين واللوز، ومختلف أنواع التوابل، وكـانت متوجهة ومبحرة نحـو انكلترا، وحدث هذا قرب أيام الصوم الكبير، ثم إن ملك فرنسا، كبح —بناء على طلب ملك انكلترا— وأوقف الهجمات الشريرة للكونت المذكور، وذلك تحت تهديد الحرمان من الميراث.

وفاة هوغ دي ألبينت إيرل أرونديل

وفي السابع من أيار، من العام نفسه مات هوغ دي ألبينت Albinet ايرل أرونديل Arundel, وهو في زهرة شبـابـه، حيث أنه كـــان بالكـاد قـــد اجتـــاز حـــدود الشبـــاب، وقـــد دفن في ويمـــونـدهام Wymonham, في كنيسة القديسة مريم، وهي رئاسة رهبان عائدة

إلى دير القديس ألبان، وجاء دفنه إلى جـانب أبيه، الذي كان راعي تلك الكنيسـة ومؤسسهـا، وإثر موتـه جرى تقسيم ميراثه النبيل بين أخـواته الأربعة.

وفاة هيوبرت دي بيرغ إيرل كنت

وفي الوقت نفســه، في الثـاني عشر من أيار، أنهى أيامــه ايرل كنت، يعني هيوبرت دي بيرغ، وجـاءت وفاته عن عمـر طويل، ووفق طريقة تستحق أعظم الثناء، وكــان ذلك في عـزبتــه في بانستـد Banstead, وذلك بعدما تحمل عدداً من الحمـلات غير المسوغة والاضطهادات من الملك مع كثير من تقلبات الحظ، وجرى حمل جسده المحترم بكل تقدير إلى لندن لإدخــاله إلى بيت الرهبــان الدومينيكان، الذيـن منحهم أثناء حياته كثيراً من الأعطيـات، وأشياء أخرى كـان من بينها قصره الفخم، الذي لم يكن بعيداً جداً عن قصر الايرل رتشارد في ويستمنستر، والذي اشتراه فيما بعد رئيس أساقفة يورك.

رغبة ملك إنكلترا بالعودة إلى الوطن لكنه منع بسبب ظروف متنوعة

وفي هذه الآونة، رأى مولانا الملك أن الحظ معارض له في كل شيء، واكتشف بأن أتبـاعه الانكليـز المخلصين قـد أخبروه الصدق، فعـاد إلى نفسـه ثـانيـة، مع أن ذلك جــاء متأخـراً، وندم أنـه لم يذعن إلى آرائهم الصحيحة، ولذلـك أشار إلى رئيس أساقفـة يورك أن يحضر له اسطولاً، عندمـا يستطيع، وأن يـرسله حتى يقـابله، لكي يتمكن أثنـاء سفـره من تجنب مصائد أعدائه بشكل فعـال، إذا ما صدف وكان أي شيء من هذا القبيل قد أعدّ له، كما أنه أعطى أوامـر بوجوب استقباله بسرور من قبل جميع نبـلاء انكلترا، على الشـاطيء، عنـدمـا ينزل إلى اليـابسـة، وجـرى ارسال اسطول كبير لمقابلته، وكانـت نتيجة هذا الأمر إفقار نبلاء انكلترا

بشكل تعيس جداً، الذين كانوا ينتظرونه يومياً على شاطىء بورتماوث، ليس من دون تحمل نفقات عالية، والمعاناة من الارهاق والانهاك، لأنه أخر عودته حتى عيد القديس ميكائيل، لأن الملكة كانت مرهقة بالحمل أو بمتاعب أخرى، وعلاوة على ذلك، وجد شعب بوردو، لابل بالحري جميع الغسكونيين، بأن تأخر الملك كان عظيم المنافع لهم، ولذلك كانوا يسعون بكل وسيلة ممكنة، لاقناع الملك لإمضاء الشتاء معهم، وأن يبدد ماله من دون فائدة له شخصياً، سواء المال الذي استخرجه أو سوف يستخرجه من مملكته، المهم أن ذلك مفيد لهم، ولقد حدث على الفور، بعدما كان الملك على وشك مغادرة بوردو، وبعدما كان قد عيّن نيقولا دي مولي Molis, كشخص مناسب ليعمل بمثابة حاكم، وهو الذي يدعونه القهرمان، وبعدما اتخذ جميع الإجراءات الاحترازية من أجل سلامة الأرض، وبعدما أقلع بسفينته، وكان مبحراً في أعماق البحار، متوجهاً نحو انكلترا، نشب خلاف حاد بين الغسكونيين، فجرى استدعاء الملك على وجه السرعة، بوساطة غليون أرسل خلفه، وقد أرغم على العودة، من أجل أن يخمد النزاع الكبير الذي نشب، وهكذا أعيقت رحلته إلى انكلترا بكثير من المعيقات.

نشوب خلاف بين دير كانتربري وأسقف لنكولن

وأثناء مرور هذه الأيام، وبينما كان الملك، كما تقدم وقلنا، كان مايزال في الخارج، نشب خلاف ساخن بين دير كانتربري، وأسقف لنكولن، وقد نشب بسبب مايلي: طالب أحد الكهنة بشكل غير لائق راعي دير بارديني Bardeney بسداد دين، وكان واحد من هؤلاء قد تعاقد عليه مع سلف الراعي نفسه، وعندما نشب خلاف حول هذا، كان هناك رئيس شمامسة لنكولن، وكان يرغب في الحط من مكانة الراعي المذكور الذي كان مرشحاً لمرتبة أسقفية، وكذلك أن ينال من مكانة ديره، المكانة التي تمتع بها رهبان الدير دون أن يؤذيهم

أحـداً، ولذلك قال للكاهن المذكـور، عندمـا كان يطالب بسـداد الدين المذكـور: «تقـدم بشكوى إليّ بطريقـة جـادة ومـوائمـة فيما يتعلق بهذا الضرر الذي عانيت منه، وأنا سوف أتولى اخضاع وتطويع هؤلاء الذين لم يعرفـوا الخضوع حتى الآن، أعني خصومك الرهبـان، وسوف أسترد جميع الدين إليـك، وأستـخرجـه منهـم بالقـوة، إذا كـان ذلك ضرورياً».

وبناء عليـه تبع نصيحة هذا الأرعن المختـال، فتقـدم بشكوى قاسيـة ضـد راعي الدير ورهبـانه بشكـل معلن، أمـام رئيس الشمامسـة، الذي استدعى راعـي الدير للظهور أمامـه، حتى ضمن امتيازاته، لـلاستجابة للقانون حول هذا العنوان، وعندمـا أدرك راعي الدير أن ذلك كان ضد قـانون الكنيسة، وضـد العـرف، تقدم بشكوى استئناف مضـادة، ثم إن رئيس الشمامسة عندما وجد نفسـه معارض بشكل غير قانوني، استدعي راعي الدير للظهور في مكان آخـر، لكن راعي الدير قال: «لا»، مستنداً على شكواه الاستئنافية المتقـدمة، لأنه كـان عارفاً بأنه كـان يتآمـر ضده، وكـان لايطلب شيئاً سـوى حجـة مـن أجل مسخ امتيـازه، وتحويله إلى لاشيء، وكانت عـدة محاولات قد جرت من قبل، أكـدتها هذه المحاولة الأخيرة، جعلته يتأكد أن ذلك كان مقصد عدوه، وقد عرف علاوة على ذلك، أنه إذا ما جرى تقديم هـذه الشكوى أمام الأسقف، (وهو ماكان رئيس الشمامسـة يسعـى بدهاء أن يفعله) فإن الأسقـف سـوف يكون مؤثراً اخضـاع الرهبان، لأنه كان يعـدّ مضطهداً عامـاً لطوائف النساك، ومعـادياً بشكل خاص للامتيـازات الممنوحـة للرهبان، ولهذا استهـدف رئيس الشمامسـة الحصـول على سبب لتفجير خـلاف وصراع، وصنع مصاعب لايمكن لأحد التخلص منهـا، لذلك تقدم بشكوى حول هذه المعـارضـة إلى الأسقـف، وبناء عليـه استـدعى الأسقف راعـي الدير للاجابة على هذه الشكاوى المضاعفة، لكن راعي الدير ظل ثابتاً باعتماده

على استئنافه المتقدم، فرفض الاستجابة إلى هذا الاستدعاء، ولأنه كان يعرف أن الأسقف سهل الإثارة إلى حد الغضب، وأنه في هذه الحالة سوف يظهر المحاباة لرئيس الشمامسة، وبناء عليه غضب الأسقف غضباً شديداً، وامتلأ حقداً أكثر مما ينبغي، فقام بانزال عقوبة الحرمان الكنسي ضد راعي الدير، في تلك البقعة، وعدّه متمرداً، الأمر الذي تحمله راعي الدير بصبر، حتى لايتعرض في النهاية للعقوبة من أجل العصيان، وبعد مضي عدة أيام أرسل الأسقف مفتشين إلى بارديني، وكانوا مدنيين، وكان الهدف توجيه الاهانة إلى الرهبان، وليس تقويم الذنوب، إذا كان أياً منها موجوداً، ولذلك رفضوا منحهم القبول، لأنهم جاءوا باسم الأسقف، الذي كان عدوهم المكشوف، ولأنهم كانوا مرسلين بشكل شرير، يضاف إلى هذا، لأنهم كانوا مدنيين، وجاهلين تماماً بالأنظمة الديرية، ثم بسبب أن راعيهم، الذي كان رئيسهم وقائدهم، والذي من دونه لايمكنهم اتخاذ أية إجراءات، كان مغلولاً بسلاسل الحرمان الكنسي، بموجب قرار صادر عن الأسقف المذكور، وبناء عليه أصبح المفتشون عرضة للإهانة، لابل حتى عرضة للتهديد، وصاروا معرضين أنفسهم للعنف من قبل الذين أثاروهم، وصدهم البوابون، وبعدما أغلقوا الأبواب قالوا لهم: «نحن نرجوكم بتواضع بالمغادرة بسرعة، قبل أن تتعرضوا للهجوم عليكم من قبل عدد كبير من الساخطين من الناس في هذه المنطقة، فنحن لايمكننا ضبط عنفهم»، ثم إنهم غادروا بعدما عملوا تهديدات وتقدموا بشكاوى حول هذه الأشياء إلى الأسقف، لكن مع مبالغات كبيرة جداً، وقالوا بأنه كان لدى الرهبان رجال مسلحين لمهاجمتهم، وأن خدم الرهبان قد ضربوهم بالهراوات، وبذلك أسرفوا بشكل وقح بتجاوز حدود الصدق، ولذلك أثير غضب الأسقف إلى أبعد الحدود، فهدد بانزال الدمار والفوضى على راعي الدير، وعلى الرهبان، وذلك بقدر ما يمتلك من قدرة، ولذلك أصيب راعي الدير بالحزن، وأخذ يفكر بالذي يمكنه أن يعمل، وبعد التقصي علم بأن دير

كـانتربري يمتلك امتيـاز تلقي وسماع شكاوى الاستئناف أثناء فـراغ الكرسي البابوي، لذلك لجأ إلى هذا العلاج، وتقدم بشكوى حادة حول الأذى الذي تحمله.

وبناء عليـه، قام الأسقف وهو حـانق جداً، فجمع في هارتفـورد آدم أسقف كونور Connor وبعض رعاة الديرة من الطائفـة السوداء، الذين كـانوا في أسقفيتـه، مثل رعـاة رمـزي Ramsey وبيتربورا، وخلع بشكل شائن راعي دير باردني المذكـور، أثناء غيابه، ولأنه لم يكن هناك انسـان آخـر يجيب عنه، وعـدّه مـداناً ومتمـرداً، وادعى بأن راعي الدير لم يسر بشكل نظامي باستئنـافه، ولم يبـدأ بالتقـدم بالشكوى إليـه، فهـو كان أسقفـه، كما أنه أعلم رهبـان باردني بأنهم غير ملزمين بطاعتـه بأي شيء، بل يمكن عدّه وكأنه وضع جانباً وخلع، وذلك بالاضافة إلى كونه محروم كنسياً.

وعندمـا علم دير كـانتربري بأن أسقف لنكولن قـد خـرق امتيـازاته واعتدى عليها بهذه الطـريقة الفاجرة، جمعوا خمسين كـاهناً من الأسقفية المذكورة، وقاموا مع جمع كامل فيـه خمسين راهباً— كاهناً، أو حتى أكثر من ذلك، والشمـوع مشتعلة، والأجراس تقـرع، فحرموا كنسياً بشكل مهيب، الأسقف المذكـور، أسقف لنكولن، على أسـاس أنه عـاق، لابل هو متمرد نحو الكنيسة، التي من الواضح هو أسقف فيها، ولكن عندما تسلم الأسقف رسائل هذا الحكم، ألقى بها وهو غـاضب أرضاً، وداس عليها، مما أدهش كثيراً الذين رأوه، لأن صـورة القديس تومـاس كانت مطبوعة على الشمع، وقد وصل غضبه إلى حد الجنون، حتى أنه قال إلى جميع الذين سمعـوه: «أنا لاأريد ولاأطلب بأن يقـوم الرهبـان بالصـلاة بشكل معـاكس مـن أجل نفسي، إلى السرمـدية كلهـا»، وبعـدمـا أثقل الرسـول بكثير من الشتـائم والاهانـات، أمـر باعتقـاله، وكـان خـدمـه مكرهين، وخائفين من فعل هذا، بسبب احترامهم للكهانة (لأن المرسل

كـان كـاهناً) فأمـر بالكاهن نفسه بأن يطرد من البيت، مثل عبد شرير، أو بالحري لـص من اللصـوص، الأمـر الـذي زاد من دهشـة واستغراب جميع الرجال المستقيمين، والأشخاص المتعلمين، الذين كانوا في الدير، وبات الحال، إنه لو لم يكـن هناك من سبب، سـوى قيـام الكاهن المذكـور بشكل منطقي بـاتهام الأسـقف بوضـع أيدي العنف عليـه، لكفى، لكن الأسقف المذكـور أعطى قليلاً من الاهتمام إلى قـرار الرهبـان، لابل استخف به، فلـم يتـوقف عن ممارسـة أعماله الأسقفيـة، وبالقيـام بتكريـس الكنائس، وبالاستمـرار بالقيـام بوظـائفـه وواجبـاته الأسقفيـة، ومن الممكـن أن يكـون القـرار غـير عـادل، لكن رفضـه للبـلاط واستخفافـه بالمحكمـة، كان من الممكن أن يصبح ضـده خطيراً جداً.

الفرنسيون يطالبون بوجوب انتخاب بابا

وأرسل الفرنسيون في الوقت نفسـه رسائل رسمية إلى مجلس الشيوخ الرومان، يـرجونهم بطريقة مقنعـة ولطيفة ويخبرونهم برغبتهم بكـل دقة وفعالية بأن يقوم الكرادلة بشكل نظامي بانتخاب بابا، وأن يتم تجهيزهم بامكانية المداولات من أجل الكنيسـة الكاثوليكية، في سبيل أن يكون لها راعياً يقـدم لها العزاء، وإذا ما ثابروا على إهمالهم، فإنهم سوف يقـومون من دون تأخير بـانتخـاب، وبتأمين حبر حـاكم من هـذا الجانب من الجبـال، وهم سيقومـون بأداء اليمين على طاعتـه، وقـد أعلنوا عن هذا بحـرية، معتمـدين على امتيـاز قـديم، تمثـل بإذعـان القـديس كليمنت، وتسليمه إلى دنس Denis المقـدس رسـولية الشعب الغـربي إليـه، وبناء عليـه نهض الكرادلة، وكأن الإثارة والتشجيع جـاءت من الجانب الأول من قبل السيد الامبراطور، ومن الجهة الثـانية من قبل الفرنسيين، فاجتمعوا مع بعضهم، وقدموا إلى روما، وهناك عقدوا مؤتمراً، وانتخبوا بابا.

رؤية نجوم تساقطت من السماء

وفي العام نفسه، في ٢٦- تموز، كانت السماء صافية تماماً، وكان المناخ نقياً جداً، ولذلك ظهر درب التبانة واضحاً، حسبما اعتاد أن يفعل في أكثر ليالي الشتاء الهادئة، وكان القمر في اليوم الثامن، وفجأة رؤيت نجوم تتساقط من السماء مسرعة، وتنقذف نحو الأمام ونحو الخلف، ولكن على عكس ما يحدث عادة، لم يكن هناك أي شرر اندفع بعدها، حسب عادات النجوم (الأمر الذي ذكر على أنه ظاهرة طبيعية في كتاب أرسطو «الظواهر الجوية»)، أي مثل البرق الذي ينتج بوساطة الرعود، وشوهد في حالة واحدة ثلاثين أو أربعين قد انقذفت أو تساقطت، كما ظهرت نجمتان أو ثلاثة نجوم وهي تطير فوراً في قطار واحد، وعلى هذا إنهم إذا كانوا نجوماً حقيقية (الأمر الذي لايعتقده انسان عاقل) ما من نجم قد بقي في السماء، ما لم يعلن الفلكيون عن ماهية هذا النوع من الأشياء، وعما تنذر به، الأمر الذي يبدو غريباً وإعجازياً لكل من رأوه.

صيرورة السلطة البابوية وانتقالها إلى جماعة الكرادلة أثناء شغور الكرسي البابوي

وفي الوقت الذي كان الزمان يدور فيه، ولأن كثيرين اعتراهم الشك ولم يكونوا متيقنين إلى من صارت السلطات البابوية، أثناء شغور الكرسي البابوي، وهل آلت إلى جماعة الكرادلة، أم لا، نحن نمتلك رواية مؤكدة حول هذه القضية، من الرسالة التالية، التي رأينا أنه من المناسب ادراجها في هذا العمل:

«بوساطة الرحمة الربانية، من كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة: رومانوس أسقف أوستيا، وفيليتري Velleti الأول، الذي له لقب القديس براكسس Praxes, وسينبولد Sinibald الذي له

لقب القـديس لورانس في لوسينو Lucino, وستيفن، الذي له لقب القـديسة مـريم فيها وراء التيبر، والكهنة: رينير Reynier, الذي له لقب القديسـة مريم في كـوسمدين Cosmedin, وجايلز الذي له لقب القـديس كوسماس والقديـس دوميان Domian, وأوتو، الذي له لقب القديس نيقولا في سجن توليـان، والشمامسة، إلى الرجل المقدس راعي دير ويردون Waredon, صحة بالرب:

بالنيابة عن المعلم بطرس، كاهن كنيسة رئيس الرسل، وقسيس كنيسة موردون Mordon, ابن جيمسْ جون كابوت Capot, المواطن الرومـاني، لقد أعلن أمـامنا، أنه منذ وقت طويل، منذ أيام مولانا البـابا غريغوري، صاحب الذكرى المبـاركة، قد أثير بوساطة اقتراحات باطلة، فـوجّه رسـائله إلى أسقف إيلاي، ذاكـراً إلى ذلك السيـد أو إلى شخص آخـر باسمـه، بأن عليـه عـدم تقـديم أي حسـاب عن مـوارد الكنيسـة المتقـدمة الذكـر، وأن لايسمح بتقـديم أي حسـاب، بل أن يحتفظ بتلك الكنيسة بين يديـه، وأن يجمع مواردها ويتمتع بها، وأن يصرفهـا لصالحه ولسروره، وأن يضبط جميـع المعترضين بانزال العقـــوبات اللاهوتيـــة بحقهم، من دون استئناف.

ولقـد قرر البـابا المتقدم الذكـر، بأنه ينبغي عـدّ جميع الرسائل ملغيـة وفـارغة، سـواء أتمّ الحصـول عليها من الكـرسي المقدس، باسم السيـد المتقدم الذكـر، أو سوف يتم الحصول عليها من الآن فصـاعداً، وبذلك مـا من واحد ينبغـي دعوته لتقـديم حسـاب بموجـب قوتهم، ومـا من واحد أيضاً يمكن أن يعاني من أية إجراءات قضائية بموجب سلطانهم، وإذا كـانت أية إجـراءات قـد بدأت مـن خـلالهم، ينبغي عـدها لاغيـة وفارغـة، مالم يعملوا ذكـراً كامـلاً للمتقدم الذكـر، وجرت إنابـة عمدة يورك، ورئيس شمامسة ريتشمـوند للقيام بأداء هذه الأشياء كلهـا، ولقد قيل بأن الأسقف نفسه، السائر في تنفيـذ هذه الوصاية، قد فرض عليك

بوساطة رسـالة، بأنه إذا كان ضمان الكنيسة المتقدمـة الذكر، أو أي جزء منها، صدف ووقع بين يديك، عليك أن تؤمن التخلي عنها وايداعها في بارنول Barnwell, ووضعها تحت وصاية رئيس الرهبان، والحافظ للذخائر للمكـان نفسه، ومنذ ذلك الحين فلاحقاً، عـدم تقديم حساب، ولابشكل من الأشكال إلى السيـد المذكـور، أو إلى أي شخص باسمـه، وذلك فيما يتعلق بمـوارد الكنيسة المتقدمـة الذكر، بل يتـوجب أن تودع هناك، وأن أي حساب يقـدم حول الأمر نفسه، يتـوجب أن يكون وفقاً لرغبات الحبر الأعظم.

وبناء عليـه لقد طلـب منا السيد بطرس المتقـدم الأكبر بتـواضع، أنه يرى أنه غير جـدير، وضـد المنطق، إنزال عقوبة بـواحد بريء كليـاً من التهم التي قدمت ضده،إننا سنتلطف برحمة منا بتقديم حل موائم حول هذه القضيـة، ونحن الآن، الذين بين أيدينا راسية السلطة، أثناء شغـور الكرسي الرسـولي، نرغب في تقـديم رعـاية وإحسان خـاص إلى السيـد المتقـدم الذكر من أجل استقـامته، ونأمـركم بدقة، بمـوجب سلطة هذه التقدمـات بأن تقدمـوا ترضية كـاملة إلى السيد المذكـور أو إلى نائبه، أو رسـوله، فيما يتعلق بضمان الكنيسـة المتقـدمـة الذكـر، وأن تأخـذوا منه سلطات الوصاية المتقـدم ذكرها، وأن تقدموا الآن حسـاباً كاملاً، حسبما أنتم ملزمـون، دون الاهتمام بالرسـائل المتقـدم ذكـرها، أو بالاجـراءات القضائيـة التي بدأت حول الموضوع، ولكي لاتعود إلينا وصـايتنا ملغاة وفارغة، ليكن معلومـاً من قبلكم، بأننا أعطينا رسائل إلى رئيس الرهبان الدومينيكان في نـورويك، وإلى بطرس دي آرشي Arche, كـــاهن كنيســة القـــديس أنجليـوس Angelus أوف فيرينتينيــــــــوم Ferentinum, لضبطكم بوسـاطة العقـوبـات اللاهوتيـة، من أجل الغاية أعلاه، فيما إذا كـان ضرورياً، انه سيفعل ذلك. صدر إلخ، في سنة ألف ومـائتين وثلاث وأربعين لتجسيـد الرب، حيث الكرسي الرسـولي شاغراً».

تحدي إيرل التخوم للمبارزة

وفي هذه الآونة، وجـد إيرل التخـوم، أن الحظ معـاكس له من كل جانب، حيث تم هجرانه كلياً من قبل ملك انكلترا، الذي كان قد تخلى عنه بشكل شرير، كما كـان قد استحق أن يكون مهجـوراً من قبل ملك فـرنسـا، ولـذلك تعـرض للاتهام بشكل علني، وجـرى تحديه من قبل فارس فرنسي جريء، وكان ذلك بحضور ملـك فرنسا وأخيه ألفونسو، كونت بواتو، ولهذا السبب جرى حجـز الايرل المذكور، وكأنه قد وضع في سجن، ومع أن الايـرل المذكـور أنكر بثبـات التهمـة، فإن الجندي المتقدم الذكـر، أقدم على الفـور، وفي الطريقة الفـرنسية المعتـادة، فسلمه قفازه، عـارضاً عليه البرهنة على ذلك بجسده أمـام البلاط، وذلك وفق رغبة البلاط الملكي، طـالباً تقديم العدالة إليه عن طـريق المبارزة، تماشياً مع شريعـة الفـرنسيين، الموافق عليهـا منذ القـديم، والتي أقسم الآن قضائياً عليها من قبل الملك الفرنسي.

وأخذ الايرل القفـاز، بمثابة تعهد بالقتـال، واعداً بالدفـاع عن نفسه بالقتـال ضـد الرجل الذي ألصق تلك التهمـة به، وعندمـا أطلق سراح الابن الأكبر، لايـرل التخـــوم، من سجـن الملك، وسمـع بهذا، ثارت عاطفته، وقال على الفور متعجبـاً: «إذا كان يرضيك، فإنني سوف أقاتل من أجل أبي، وأبين براءته، ضـد أي انسان في العالم، لأنـه سوف يكون عملاً وحشياً، أن يقوم انسان صاحب سلطة كبيرة، وسن متقدم بالقتال مبارزة»، لكن الفـونسو، كونت بواتو أجاب: «ليس كـذلك، هو سوف يقـاتل من أجل نفسـه، ويظهـر نفســه بشكل واضح أنه عجـوز مسن، ملطخ بعدد مضاعف من الجرائم».

ثـم جـرى تحديد يوم، ومكـان للقتـال، وبعـد ذلك غـادروا، وبناء علـيه، عـندمـا سمعــت الكونتـسة بهذه الأخبـار المحـزنة، وهي التي كـانـت من قـبل ملـكة انكـلترا، واســمها ايـزابلا، وكـانت مـدركـة

لكثير من الأعمال السيئة التجأت إلى دير للراهبات في فونتيفرولت Fontevrault, ولكن حتى هناك، في قلايتها السرية، تحت الرداء الديني، لم تكن بالفعل سالمة، لأن عدداً كبيراً من الفرنسيين والبواتيين طاردوها بكراهية لاهوادة فيها، قائلين بأنها يتوجب تسميتها بـ «يزبل» Jezebel الشريرة، وليس بـ «ايزابلا»،لأنها زرعت بذور كثير من الجرائم.

انقاذ الإيرل نفسه من خطر الموت من قبل أصدقائه

وانتشرت الآن الأخبار بسرعة، بأن ايرل التخوم، سوف يقاتل في مبارزة مفردة ضد مبارز جريء، وهو إما سوف ينظف سمعته، أو سوف يعاقب قضائياً، وعندما بدأ الخبر ينتشر بين الأوساط العليا الفرنسية، بأنه سوف يهلك في المبارزة، وسوف يجري اعدامه بموجب القانون الفرنسي، وأنه بالتالي سوف يقوم أولاده، وأقرباؤه بالثورة، ولسوف ينتقمون من مثل هذه الوحشية، ويشكلون مؤامرة لقتل الملك الفرنسي، إما بالسم أو بالتآمر، أو باغتيال مكشوف، أو في جميع الأحوال، الذين سوف يتولون بواتو ويستحوذون عليها سوف يثورون بموجب مثل هذا السبب، من أجل تجديد الحرب، وستتم خسارة الحرب، من دون حذر، مثلما ربحوها تحت حكم ملك ضعيف ولين، ورأوا أن البواتيين متقلبون مثل ديك الأنواء، لذلك حزن أصدقاء الفريقين، وكذلك فعل الرجال المخلصون، ولهذا بذلوا غاية جهودهم للتدخل، وهكذا تمكنوا من تهدئة غضب الملك مع أخيه، بحيث أعطيا التشريف المستحق، وجرى انقاذ القانون، وأظهرت الرحمة، وقاموا بإرضاء المتحدي، وتمكنوا بحسن تصرفهم من تحرير ايرل التخوم من امكانية الوفاة بشكل مهين، وبناء عليه غادر البلاط، وهو مغلول بروابط أقوى مما ارتبط به قط بالسلطات الفرنسية السامية.

الملك الإنكليزي يوقف نفقاته التي بلافائدة

وصار الآن ملك انكلترا، وإن جاء ذلك متأخراً، متأكداً بوساطة كثير من المؤشرات الواضحة، كما أنه تعلم بالتجربة، بأن عليه تجنب دهاء ومكر البواتيين، ولذلك استهدف منذ ذلك الحين فصاعداً، أن يضع في خزانته الخاصة الأموال التي أنفقها بشكل مجنون عليهم في كل عام، لأنه كان قد أعطى سنوياً إلى هؤلاء الذين ضحكوا عليه، لابل ضحكوا عليه واستخفوا به، سبعة آلاف استيرلينية من خزائنه المنهكة، التي زودته بها انكلترا، وتفصيل ذلك: خمسمائة إلى رينالد دي بونز، والمبلغ نفسه إلى وليم رئيس الأساقفة، وأيضاً المبلغ نفسه إلى فيزكونت دي ثوارث Thouars, وإلى عدد كبير آخر من نبلاء بواتو، الذين لاتستحق أسماؤهم الذكر، لابل ولاحتى الكتابة، حتى وصل المبلغ إلى العدد الذي ذكرناه من قبل، وذلك إلى جانب الأعطيات التي منحها إلى كونت دي لى مارشي (الذي دعاه الملك بأبي الأكثر محبة)، والذي نال بالحصص أكثر من جميع البواتيين الآخرين، وبالحصة نفسها تلقى النسبة الأعلى، أما بالنسبة لزوجة الكونت، فقد اعتاد الملك، بسبب الأمومة، أن يقدم إليها أعطيات استثنائية مسرفة بقدر الإمكان، وكانت كل هذه الفوائد التي حصل عليها الملك.

عودة الملك إلى إنكلترا

وفي هذا الوقت أيضاً، وبالتحديد في حوالي عيد القديس رمي Remy, كان ملك انكلترا قد قام بتسوية الذي توجب عليه تسويته في غسكوني، وعهد بحكومة البلاد إلى نيقولا دي مولي، الذي كان جندياً شجاعاً جداً وحكيماً، وذلك بعدما عمل منه قهرمان غسكوني، وبعد هذا أخذ سفينة، وتمتع برحلة جميلة عبر القنال، وعاد إلى انكلترا، فنزل في بورتماوث في الخامس والعشرين من أيلول، وبناء عليه أعلن على الفور إلى رعاة الديرة، وإلى رؤساء الرهبان، بأن عليهم شراء

خيول، وعربات تجر بوساطة فرسين، وخيالة يسيرون في الأمام، للإعلان عنه بموجب حقهم الضروري بالمرور، لأنه كان تماماً مجرداً من مثل هذه الأشياء، و ذلك من أجل أن يتمكن الانكليز من أن يعلموا مباشرة، بوصول ملكهم، وعندما وصل إلى وينكستر، جاء إلى هناك تقريباً جميع نبلاء انكلترا لاستقباله وتحيته، فأعطى أوامر بوجوب تزيين المدينة أثناء دخوله، بالمعلقات، والستائر، والأكاليل، والشموع المشتعلة، وأن على المواطنين استقباله في ثياب العيد، ويتوجب كذلك قرع أجراس المكان بسرور، وعلاوة على ذلك، تدبر الإعلان بوساطة صوت المنادي، وبوساطة أسرع الرسل، بوجوب خروج أربعة من أكثر المواطنين أهمية، أو البورجوازيين من كل مدينة أو منطقة، لاستقباله، وكل منهم قد ارتدى ملابس ثمينة، وامتطى على مطية غالية، وهكذا بناء على أوامره، ومرسومه، الذي فرض طاعته، أرغم كثيرون على الاسراع من أقصى المناطق الانكليزية لاستقباله، ولم يكن ذلك من دون نفقات عالية ومتاعب جمة، ولدى وصوله إلى لندن، خرج الناس إلى استقباله وهم يرتدون ثياب العيد، ويمتطون خيولاً هي الأغلى ثمناً، وهي مجهزة حديثاً، ومشوا لاستقباله في مسيرة، وكل واحد منهم يتبارى مع الآخر، ليكون الأول في استقبال الملك آنذاك، الذي حيوه باحترام، وربح كثيراً بوساطة هداياهم المتنوعة والثمينة، ولدى حلول الاحتفال بعيد القديس إدوارد، أي في الثالث عشر من تشرين الأول، أمر الملك، بأن يرتدي الرهبان ثيابهم اللاهوتية، وأن يمشوا أمام المسيرة لاستقباله، وهم يحملون كميات كبيرة جداً من الشمعدانات، وهكذا استقبل بشكل اسطوري وبفخار، وبأبهة كانت مترفة.

انتخاب انوسنت الرابع بابا

وجرى في هذا العام أيضاً، في يوم عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، انتخاب اللورد كاردينال سينيبولد Sinibald بابا، بعدما

ظل كرسي البابوية شاغراً لمدة سنة وتسعة أشهر، وجرى تكريسه في يوم عيد الرسولين بطرس، وبولص، ومنح اسم انوسنت الرابع، وبعد التكريس قام مباشرة بتثبيت القرار الذي كان قد صدر ضد الامبراطور فردريك، من قبل سلفه غريغوري، وقد عمل بابا في أناغني Anagni, ولذلك انزعج الرومان وامبراطورهم، وكأنهم أصيبوا بجراحة مضاعفة، فاستعدوا لاضطهاد البابا الجديد، والتآمر لنصب المصائد ضده، وصاروا أكثر استعداداً لأن الامبراطور قد اعتمد على انتخاب بابا يكون موائماً له، ولذلك وضع الامبراطور حراسات يقظة على الطرقات والموانىء، ووزع كذلك الغلايين في البحر، حتى لايتمكن الحاملين للمراسيم الابحار والذهاب مسرورين بالسفر من دون إعاقة، وليس بعد مضي وقت طويل من هذا اعتقل الامبراطور اثنين من رهبان طائفة الفرنسيسكان، وكانا يحملان بشكل سري خبيث —بناء على أوامر من سادتهم— رسائل موجهة لإثارة الحرب بين بعض النبلاء، وبشكل رئيسي ضد الامبراطور، فأمر بشنقهما على الفور.

أعمال عدوانية من الداوية ضدّ الاسبتارية

وفي هذه الأثناء، اضطهد الداوية بحدة الاسبتارية في الأرض المقدسة، إلى حد عدم السماح لهم بحمل موتاهم إلى خارج بيتهم (الذي كان في عكا) من أجل دفنهم، وعلاوة على ذلك، قام الداوية أنفسهم، كراهية منهم للامبراطور، بطرد الرهبان التيوتون التابعين لكنيسة القديسة مريم، ونفيهم من مناطقهم، وبذلك أنزلوا على رؤوسهم غضب الرب، ورفعوا من شأن آراء أعداء الصليب.

ارفضاض اجتماع الهيئة الكهنوتية العامة للسسترشيان

وفي هذه الآونة، وفي التحديد بعد ارفضاض اجتماع الهيئة الكهنوتية للسسترشيان، قدم إلينا رعاة الديرة من اجتماع الهيئة الكهنوتية،

وأخبرونا بشكل صادق بالأخبار التالية، التي أفادت بقدوم ملك فرنسا إليهم، وأنه على عكس عادات الرومان، كتب إليهم —أي إلى الهيئة الكهنوتية— مولاهم البابا، يلتمس منهم بعبارات لطيفة، بأن يقوموا من ذلك الوقت فصاعداً، بتقديم صلواتهم لصالح الكنيسة المتداعية، ومثل هذا أيضاً طلب منهم بعض الكرادلة وبعض الشخصيات الأخرى، الأعطية الثمينة نفسها، أنهم في قتالهم من أجل الرب، يمكنهم خدمة الكنيسة، وبشكل مؤكد أكثر يمتنون وضعهم، ولأنهم يعلمون أن رعاة ديرة تلك الطائفة، قد أعيقوا في العام المنصرم، بسبب الحرب، من القدوم إلى اجتماع الهيئة الكهنوتية، يمكنهم الآن القدوم بأعداد أكبر إلى الاجتماع العام للهيئة الكهنوتية، وقد طلب ملك فرنسا مساعدتهم، وصلواتهم بشكل أكثر اخلاصاً من الآخرين، لأنه تصور، أنه منذ ذهابه إلى الحرب في بواتو، قد ضعفت صحته كثيراً، وأنه فقد كثيراً من نشاطه الجسدي، هذا وأرسل ملك انكلترا لوحده، رسلاً خاصين إلى هناك، طالباً على الفور مساعدات مالية منهم، وكان الرهبان الذي وجدوا هناك من كل طائفة سسترشيان شعب من الشعوب تحت الشمس، فمن هؤلاء جميعاً الذين كانوا حضوراً، استحق الملك الانكليزي لوحده الرفض دون نيل فائدة، لكن مع اضطراب كبير ومضايقة للانكليز الذين كانوا حضوراً، لأنه طلب صوفهم من جميع رعاة الديرة المقيمين في انكلترا.

أسقف لنكولن ورهبان دير كانتربري يرفعون شكواهم إلى البابا

رسالة البابا

أثناء هيجان تلك الأيام، قام أسقف لنكولن من الجانب الأول، ورهبان دير كانتربري من الجانب الآخر، بإرسال رسل خاصين، كانوا كهنة مخلصين، إلى البلاط الروماني، من أجل تسوية النزاع الذي نشب بينهم، وكان القرار الذي جلبوه معهم حول هذا الموضوع هوالتالي:

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أبنائه المحبوبين رهبان ورئيس كنيسة كانتربري المسيحية، تحيات ومباركات رسولية:

ذكرت الشكوى التي تقدم بها إلينا أخونا المحترم أسقف لنكولن، بأنكم ادعيتم ممارسة السلطة عليه وعلى الذين تحته، بالدفاع عن قضاياهم وعن استئنافاتهم، وأنكم أيدتم هذا الإدعاء بالمحاججة بأن الادارة القضائية للمطرانية هو عائد إليكم، أثناء شغور كرسي كانتربري، في منطقة كانتربري، وذلك بمثابة امتياز من الكرسي الرسولي، وكذلك من الامتياز العام، وهو الامتياز الذي لم تمارسونه حتى الآن، ونظراً لتصوره لحاق ضرر به، وقيام مصاعب ضده شخصياً، أحال القضية إلى الكرسي الرسولي، حيث من الصعب تقرير إلى من تعود المقاطعة، أثناء شغور الكرسي المطراني، ولقد أمسكتم بهذه الفرصة، واستخدمتموها حسب رغباتكم، فأنزلتم به وبالذين تحته قرارات التعليق والحرمان الكنسي، وبناء عليه التمس منا بتواضع، أن نزوده في هذه القضية بمواساة أبوية، واستجابة، ورغبة منا في منصبنا بتقديم النجدة إلى الأسقف المذكور، وإلى الذين تحته، ولكي لانخرق امتياز انسان آخر، نحن نأمر جماعتكم بموجب الكتابات الرسولية، أن تقوموا خلال ثمانية أيام بعد استلام هذه الرسائل، من دون تسبيب الأذى إلى أي من الطرفين، بسحب القرارات المتقدمة الذكر، في ظل ضمانة مناسبة، وعلاوة على ذلك أعطينا أوامر برسائلنا إلى أخوينا: رئيس أساقفة يورك، وأسقف درم، بأن يقوما على الفور، ومن دون تسبيب الأذى إلى أي من الطائفتين، بحل القرارات المذكورة، وكذلك فيما يتعلق بقضايا الإدعاء، وأيضاً قضايا التملك، وضبط جميع الاستنكارات بوساطة العقوبات اللاهوتية، من دون استئناف. صدر في أناغني في اليوم الثالث والعشرين من آب، في السنة الأولى من بابويتنا».

تثبيت أسقف نورويك أسقفاً لوينكستر

وفي الوقت نفسه جرت تسمية أسقف نورويك لتسلم أسقفية وينكستر، وقام دون المبالاة بمعارضة الملك ومقاومته بالانتقال إلى ذلك الكرسي، وكان ذلك بوساطة البابا، الذي آثره ووجد الحظوة نحوه لديه.

تثبيت بونيفيس في رئاسة أساقفة كانتربري

وفي هذا الوقت بالذات جرى تثبيت بونيفيس، خال الملكة، الذي كان منتخباً لبلي Bellay, ومن شعب بروفانس، تثبيته من قبل البابا، في رئاسة أساقفة كانتربري، وذلك من خلال الضغوط الشديدة للملك، مما أدهش الكثيرين، وفي الحقيقة قام الملك في سبيل أن يجعل رفع بونيفيس إلى رئاسة أساقفة كانتربري أكثر سهولة، بكتابة كتاب، بناء على تحريض من الملكة، حيث أسرف كثيراً في إطرائه ومدح أخلاقه، وعلمه، وكرم بونيفيس المذكور، مع أنه كان غريباً بالنسبة له، ووضع خاتمه عليه، وجعل تقريباً جميع الأساقفة الانكليز يفعلون الشيء نفسه، وكان راعي دير القديس ألبان الوحيد الذي مال الى تجنب تقديم مثل هذه الشهادة الزائفة، ذلك أنه عندما شاهد ختم راعي دير ويستمنستر مثبتاً، قال بأنه لم يكن من المتصرفين بشكل جيد نحوه،لأنه من المؤكد أن راعي دير القديس ألبان هو الأجدر،وذكر امتيازه«على أساس أن القديس ألبان كان أول شهيد في انكلترا، ولذلك فإن راعي ديره هو الأول في الطوائف وفي المرتبة بين جميع رعاة الديرة في انكلترا»ولذلك يتوجب أن يظهر خاتمه أولاً،ولذلك ترك المسألة تمر حتى جرى بحث حولها،وأرسلت هذه الكتابة الى البابا،من أجل أن يكون كامل المعرفة حول فضائل بونيفيس.

استخراج ذهب وفضة من اليهود

وفي حوالي الوقت نفسه استخرج الملك من اليهود التعساء كثيراً،

فـديةكبيرة من الذهب والفضـة، ودون أن نتحـدث عن الآخـرين، استخـرج من يهودي واحـد، هو هرون اليـوركي أربعـة مـاركـات من الذهب، وأربعـة آلاف مـارك من الفضـة،وتسلم الملك من كل يهودي سـواء أكان رجـلاً أو امـرأة، الذهب الذي كـان بين يديه، وأصبح هذا من الملك بمثابـة نوع من جمع الضرائب، لكن الفضة جـرى تسلمها من قبل آخـرين لصـالـح الملك،وقـد تسلم هـدايا ثمينة مـن رعـاة الديرة،ورؤساء الرهبـان وفق هذه الطريقة، وكـان إذا لم يعجبه شيئاً ولم يرضـه، يرفضهـم، ويستخرج أعطيـات أكثر ثمناً، وأكثـر إرضاء للمقـام الملكي، وكل من رفض، كان لايجده ملكاً، بل طاغية.

انتخاب وولتر أوف سفيلد أسقفاً لنورويك

هذا وعلـم رهبان نورويك بتثبيت اللورد دي ريل Raele, الذي كان مرشحاً لأسقفية وينكستر، والذي كان أسقفهم، فاستمطروا النعمة من الروح القـدس، وانتخبـوا بـالاجماع ليكون أسقفـاً لهم، وراعيـاً لأرواحهم المعلـم وولتر أوف سفيلد Suffield, وكـان رجـلاً صـاحب علم كبير، ومتميـزاً في أخـلاقـه، وبسمعتـه، وبأصله وجـرى تقديمه أصـولياً إلى الملك، وكما جرت العادة أعطى الملك مـوافقته لكل من المنتخب والانتخـاب، لأنه لم يكن هنـاك من سبب للاعتراض، ومع ذلك أجـل لبعض الـوقت منـح خطواتـه الكاملـة، وذلك حتـى يصبح متأكداً بمعلوماته حول تثبيت أسقف وينكستر.

وصول رائع لبيترايس كونتسة بروفانس

وفي حـوالي الوقت نفسـه، أي في الأول من كـانون الثـاني، نزلت في دوفر بيترايس كـونتسة بروفـانس، وأم ملكتي انكلترا، وفرنسـا، وكـانت امرأة ذات طلعة بهية، وحكيمة ومتحضرة، وجاء قدومها بناء على دعوة من الملك، الذي دفع نفقـات رحلتهـا، وقدمت في أبهة عظيمـة مع كثير

من الاحتفالات الفاخرة، ومضى كثير من النبلاء الانكليز لاستقبالها وذلك بموجب أوامر الملك، وجاء ذلك على شاطىء البحر، من أجل تجنب كل تأخر مختلف عليه، وفي ثمانية عيد القديس-مارتن، وهو التاريخ الذي كان من المتوقع وقتها لوصول الكونتسة المذكورة إلى لندن، أمر الملك بوجوب تزيين مدينة لندن بالمعلقات، والستائر، وبمختلف أنواع التزيينات الأخرى، وذلك شروعاً من الجسر إلى ويستمنستر، وأن يزال من أمام ناظري العابرين خلال المدينة المعيقات من الأخشاب، والطين، والأوساخ، وجميع أنواع المعيقات، وقد جلبت معها ابنتها سينشيا، حتى تتحد بالزواج بالايرل رتشارد، وجرى ارغام كثير من النبلاء من قبل الملك، على القدوم من المناطق النائية للمملكة، لابل حتى من الأجزاء القائمة على حدود سكوتلندا، لاستقبالها وهي على طريقها.

موت رالف تشينديوت

ولفظ في اليوم نفسه روحه رادولف تشينديوت Cheinduit الذي كان المضطهد القاسي والذي لايعرف الملل، لكنيسة القديس ألبان، والمغتصب الوقح لامتيازاتها لمدة ثلاثة أعوام، وأنا أقول هذا لأن جميع الأتباع المؤمنين بالمسيح تمكنوا أن يروا بينة المعجزة، والانتقام العادل، الذي أنزل به ألبان الشهيد الرائد لانكلترا، وفي الحقيقة، بعد بقائه لمدة ثلاثة أعوام تحت العقوبة، ولأنه بوقاحة استخف بمفاتيح الكنيسة، وقام وهو في قصر ويستمنستر، وهو يهز رأسه بطراً، فقال لكثيرين كانوا قد اجتمعوا هناك: «ها، ماالذي تقولونه حول رهبان القديس ألبان؟ إيه، ماالذي تقولونه حولهم؟ لقد حرموني كنسياً منذ وقت طويل، مراراً وبشكل فعال، إلى حد أنني الآن أفضل حالاً بسبب ذلك، ووضعي جيد،وقوي وثابت، حتى أنه يصعب عليّ القعود في سرج فرسي، عندما أركب على ظهره»،وما أن كاد ينهي كلامه حتى

أصيب فجأة بالضعف وبفقدان القوة، وصار في وضع ميئوس منه، ولايكاد يستطيع التنفس، وقد حمل إلى البيت، وهو على وشك لفظ أنفاسه وأظهرت الحشرجة التي تقدم على الموت نفسها، وقتها أظهر اللطف العظيم للشهيد القديس ألبان نفسه، ففرض بمشيئة الرب، الذي لايرغب بهلاك أي انسان، قبل أن يهتدي، أن تمكن رالف من التنهد بعمق، وأمر بأن يدعى بسرعة كبيرة بعض الرهبان، الذين كان يعرفهم أكثر من الآخرين، حتى يخضع لإرادتهم، وليقدم لهم ترضية كاملة عن الاعتداءات التي هو مجرم بها نحوهم، الأمر الذي تقبلوه بكل صلاح، من أجل أنه إذا مات، لايسقط في متاهة اليأس ولكي لايهلك بذلك وهو مدان وملعون، بسبب جرائمه، وقد منحوه منفعة التحليل، عندما وعد بعمل تكفير عن الأذى وعن الشرور التي اقترفت من قبله، ومثل هذا أيضاً عانى قليلاً أيضاً عدد من الآخرين، كان من بينهم فرسان أقوياء، ومغتصبين، ومزعجين، معتدين على امتيازات كنيسة الشهيد المذكور، كما عانى آخرون من عقوبات أكثر شدة بوساطة حكم الانتقام الاعجازي،ويمكنني أن أضرب مثلاً بألان دي بيكل Alan de Beccles رئيس شمامسة نورويك، وآدم بن وليم المسؤول عن مقعد العدالة الذي أصيب بموت مفاجىء.

وفي العام نفسه، في يوم عيد القديس كليمنت، اقترن الايرل رتشارد بزوجته سينشيا، ابنه ريموند كونت بروفانس، وأخت الملكة، وكان ذلك في ويستمنستر، وكان هناك احتفال عرس بهيج، واحتفال عظيم بين الضيوف من النبلاء، حيث مامن شيء كان من الممكن مقارنته بفخامة العناية بالضيوف، وسوف يحتاج ذلك إلى رسالة طويلة وشاقة لوصف ذلك، ومن الممكن لي تلخيص الكثير من الأقوال ببضع كلمات، فقد كان في مكان الطبخ ثلاثين ألف صحن كانوا جاهزين لتقديمهم إلى الذين جلسوا وراء الموائد للطعام، وجرى عرض أكثر العروض روعة

بحضــور الملك، والايـرل العــريس الجديد، والملكـة واختهــا سينثيــا Cynthia, التي كـانت عروسـة شابة، وقـد جرى تغيير اسمهـا إلى سينشيـا، وبيترايس كونتسـة بروفانس، وشخصيـات نبيلة أخرى،كـانت أكثـر من أن تعـدّ، وكـانت في الوقت نفسـه أعين المشـاهدين وعقـولهم مفتـونة بسرور أمـام أبهة دنيـوية لم يسمع بمثلهـا من قبل، فقـد جـرى عــرض كل نوع من أنـواع المبــاهج والمجــد، في أشكال الناس المغنين المرحين، وأنواع ملابسهم المتنوعة، وعدد الصحون، وحشود المحتفلين، ولكن هذه كلها جاءت برهاناً كيف أن مثل هذه المسرات زائلة وعبثية، وكم هو غير مشرق ومخادع في هذا العــالم، وذلك عندمـا ينقشـع فجـر اليوم التالي، وتكون هذه الأعمال المتنوعة مثل سحابة عابرة.

منع أسقف وينكستر من الدخول إلى مدينته

وفي هذه الأيام كانت عـلاقات الملك سيئة مع وليم دي ريل، أسقف وينكستر، لأنه تصرف بذاته، وكأنه كان أسقفـاً حقيقياً، ونظر إليه وكأنه كــان كـذلك، وهكـذا دعي، إلاّ من قبل بعض الرهبــان في وينكستر، ولذلك رفض الملك قبوله لنيل القبلة، أو لاستقباله بأية تحيـات صديقة، ومع ذلك فإن هذا الـرجل بعـد وصـوله من المناطـق الأجنبيـة، جـرى الاحتفاء به بالتهـاني المدنية، وبالتحيات، وسلم عليـه جميع نبلاء انكلترا تقريبـاً، وخاصة الأسـاقفة بقبلة، وأقـاموا محادثات مقبولة معـه، وشعر الأسقف بنذير سوء من هذا العمل، ورأى الأسقف بوضوح مثل ضوء النهـار، بأن غضب الملك المتجذر، قـد ازداد قسـوة، وتحول إلى كراهيـة دائمة، فأخفى نفسه بين أصدقـائه، الذين اعتقد بأنهم يميلون لأن ينالوا حظوة البـلاط، وذلك حتى يـزوره اليـوم الذي سـوف ينبع من عليين، وغضب الملك قـد تلاشى، لكن الملك ثابـر على غضبه، وأقـام مـراقبـة دقيقـة على عزب الأسقف، وبذلك بوسـاطة مـوظفيه، الذين كما كـانت عادتهم، تجاوزوا كثيراً أوامر الملك في إلحاق الأضرار وسوء معاملة أهل

الأسقفية، بكل نوع من أنواع الإذلال، وكانوا فقط متشوقين لنيل الربح لأنفسهم، وعندما قدم الأسقف المتقدم الذكر لزيارة الكنيسة الكاتدرائية في وينكستر، ورغب بدخـول تلك المدينة، أمـر الملك بحراسـة الأبواب بدقة، وقام رئيس رهبان وينكستر —لو أنه استحق أن ينظر إليه على أنه رئيس رهبـان، أو أن يدعى بمثل هـذا الاسم— بصحبـة شطر كبير من الرهبان بعمل تآمري، ورفعـوا كعبهم ضد أسقفهم، حيث أكدوا بشكل معلن، أن كل من يقدم له عـوناً أو نصيحة، سـوف يعدّ عدواً مكشـوفاً لمولانا الملك، ولسوف ينال عقوبة حادة لقيامه بذلك، ولذلك كان هناك انشقـاق بين كل من الرهبــان، ورجـال الدين العلمانيين، ونشب صراع شديد، وصل إلى حد سفك الدماء،

موت رئيس رهبان وينكستر

لفظ هذا الـرجل التعيس، الذي حمل المظهـر الخارجي لـرجل دين، وصار يدعى رئيس رهبان بناء على أوامر الملك، وذلك بهدف الاشراف على عــدد كبير جــداً من الرهبــان، الآن أنفـاســه، في وسط هذه الاضطرابات التي أثارها.

زيادة الملك يومياً من اضطهاد أسقف وينكستر

ولم يكن من الممكن ضبط الملك بأي تقـدير مهما كان نوعـه، بل تابع مسـاقـاً بإرادته، واستمـر في إلقـاء يـده أثقل فأثقل على الأسقف، وعلى ممتلكات كرسيه، وأعلن علانيـة بأنه لايجوز لانسان تقديم الرعاية لبيت وليم دي ريـل، الذي ادعى بشكل زائـف (هكذا قــال) فجعـل الناس تحييـه بمثـابة أسقف لوينكستر، كما منـع الناس من التعـامـل معـه، أو تزويده حتى بـالضرورات الحيـاتيـة من أطعمــة، وأعلن أن أي انسـان سـوف يسـاعده بمثـل هذه الطريقـة، سوف يعـدّ بمثـابة عـدو للملك وللبلاد، كما أرسل الملك رسـائل إلى أكسفورد، لتشـويه سمعة الأسقف

نفسه في أعين الجامعة، وأكد أنه حصل على موافقة بوساطة تصريحات زائفة من مولانا البابا، بوجوب تسميته لأسقفية وينكستر ونقله إليها، وأن الملك سوف يكشف، وسوف يبرهن بوضوح، ويعرض جميع أعمال الخداع التي مارسها أمام البلاط الروماني، وأمام مملكة انكلترا، وكي يثبت هذا، أحضر بعض المستدربين الرومان ليكونوا مراسلين له لحمل رسالته هذه، كما أمر بمصادرة أسقفية نورويك، حتى يحرم الأسقف المتقدم الذكر من جميع سبل المواساة، ويصبح محاصراً من كل جانب، وعلاوة على ذلك، أرسل مولانا الملك إلى البلاط الروماني ضد الأسقف المتقدم الذكر: ثيوبولد، وكان راهباً من ويستمنستر، ورئيس رهبان هيرلي Hurley, وأيضاً المعلم الاسكندر، وكان محامياً كنيته المدني، بقصد أن يقوم هذان الاثنان، بوساطة التوسل، أو بوساطة الرشوة، أو بأي طريقة أخرى بقدرتهما، حتى يتمكنا من خلع الأسقف من وظائفه ومناصبه.

وضع مدينة وينكستر تحت الحرمان من شراكة المؤمنين

ووصل في الوقت نفسه الأسقف وهو حافي القدمين، وبلباس متواضع إلى واحد من أبواب المدينة، ثم انتقل بعد ذلك إلى الأبواب الأخرى في خارج المدينة، وطلب السماح له بالدخول إلى كنيسته، لأنه وجد لدى وصوله أن جميع الأبواب قد أغلقت ضده، وواجهه عمدة المدينة وتصدى له مع ضباط الملك، وبوقاحة رفضوا السماح له بالدخول، وعلاوة على ذلك أضافوا إهانة إلى إهانة، وعند ذلك تفوه الأسقف بقرار الحرمان من شراكة المؤمنين على المدينة، وعلى الكنيسة الكاتدرائية، وعلى الكنائس الأخرى، وغلّ بالوقت نفسه بأغلال عقوبة التكفير المرعبة جميع الرهبان الذين يتبعون رئيس الرهبان المذكور أو يؤيدونه، وطعنهم بذلك ومعهم الملك.

خسارة الامبراطور مدينة فيتربو وأماكن أخرى في الأحواز

جعلت أعمال الظلم، التي مورست في ذلك الحين، من قبل رجال الملك، على سكان فيتربو، تلك المدينة مع المنطقة المحيطة بها، تقرر التحول إلى الرومان الذين أيدوا البابا، وتحت ثقل الظلم، ونير عبودية غير معتادة،وشدة المعاناة تحولوا بأنفسهم وبمدينتهم، وانتقلوا إلى الحزب الآخر، ولجأوا إلى الكاردينال رينير دي فيتربو، حتى يقدم إليهم العون والمشورة من أجل أن يتمكنوا من الدخول بتحالف مع الرومان، ونسوا جميع الخلافات القديمة، وصاروا شعباً واحداً، حتى يكونوا أقوى للثورة ضد أعدائهم، وحولوا أنفسهم بشكل أكثر ضماناً وانتقلوا من الأسى الامبراطوري، بوساطة تجنبه على هذه الصورة، وحدث بناء عليه من خلال عمل متواصل وجهد كبير قام به رينير المذكور، فحاك مؤامرة يجري تنفيذها فوراً وبشكل سري، وبموجبها وصل الرومان بأعداد كبيرة، واعتقلوا بحسن تدبر جميع الحرس الامبراطوري، واقتادوهم، بعدما اتخذوهم أسرى، عائدين إلى روما، حتى يسجنوا هناك، وأبرمت معاهدة بين الرومان، وبين شعب فيتربو، وأحلوا محل الاداريين القضائيين الامبراطوريين أناساً من قومهم، أي من الرومان ومن أهل فيتربو، وكذلك فعلوا بالنسبة للأبراج والقلاع والأماكن الحصينة، وهكذا بات الرومان في عدائهم للامبراطور فيتربويين، والفيتربويين روماناً.

وعندما سمع الامبراطور بهذا اغتاظ كثيراً، ومضى مسرعاً مع قوة مسلحة كبيرة، وحاول طم الخنادق بالبراميل، والأعشاب، وقطع الأخشاب، وأكوام التراب، وأراد شق طريقه بالقوة، حتى يتمكن على الفور من قتل جميع السكان، وشاهد السكان من الأعلى ما كان يقوم به، وماهو عازم عليه، فصدوه بفعالية، ومنعوا من الداخل أعداءهم وأحبطوا محاولاتهم، هذا من الداخل، أما من الخارج، فقد وصل الرومان بأعداد كبيرة، وتمكنوا بقوة من إحباط محاولات الامبراطور،

وكانت هناك معركة، سقط فيها كثيرون من جانب الامبراطور، وكان هناك عسكري مشهور من جانب الامبراطور، كان مزيناً بدروع خاصة، فهلك بشكل تعيس، مما سبب حزناً كبيراً للامبراطور، ذلك أنه أصيب برمية قوس زيار، وارتفع تهليل وصراخ أعدائه لسقوطه، وصرخوا بسرور، ظانين أنهم قتلوا الامبراطور نفسه، لكن الامبراطور زحف تتقدمه أبواقه، وتمكن بصعوبة من تخليص جيشه من أيدي أعدائه الغاضبين، الذين كانوا قد زحفوا ضده، بشكل غير متوقع، ثم إنه انكفأ، وتراجع نحو بيزا، ليجند قواته، علّه يصبح أقوى، من أجل مهاجمة العصاة، لكن الذين سكنوا في تلك الأحواز والمناطق، عندما شاهدوا التراجع المهين للامبراطور، مع الخسائر الكبيرة، بالرجال وبالأملاك، ومع العار، تخلى كثير منهم عن ولائهم له، وتحالفوا مع الرومان والفيتربويين، وذلك وفقاً لقول الشاعر:

الرعاع المتقلّبون يتبدلون دوماً مع الأمير

اظلام شهرة الامبراطور

ولهذا تناقصت شهرة الامبراطور بسبب هذه الحادثة كثيراً، لأن كونت سيمون أوف توسكانيا، الذي إليه كان قد أسند المسؤولية عن فيتربو مع ثقة كاملة، قد حمل مع رفاقه، كما ذكرنا من قبل، واقتيد أسيراً إلى روما، وتمّ فقدان مدينة فيتربو نفسها بالاضافة إلى بعض البلدات والقلاع في الجوار، والامبراطور نفسه أرغم تقريباً على الفرار، فكان أن تلطخت سمعته، وقد أشيع من حوله أنه لم يتنازل بعد ذلك لحضور القداسات، وأنه لم يعد يصلي، أو يعامل اللاهوتين باحترام، ولم يعد يراعي الإيمان الكاثوليكي بشكل صحيح سواء في الممارسة، أو بكلماته، وأن له علاقات حميمة وجنسية مع امرأة مسلمة، وأنه قد دعا مسلمين، وكذلك كفاراً آخرين إلى امبراطوريته، وسمح لهم ببناء مدن محصنة.

كثير من النبلاء يتخلون عن الامبراطور

ولذلك تخلى عن الامبراطور عدد كبير من النبلاء الحكماء والأقوياء، مثل: مركيز دي مونتفرات، ومركيز مالاسبينا Malaspina, وفيرسيلي Vercelli, وألسسندريا Alessandria, وعدد كبير من نبلاء المدن، وعلى هذا تضاعف أعداؤه، لأن الناس اعتادوا فقط على اتباع أصحاب الحظ، وفي ألمانيا أيضاً، تخلى كثيرون عن قضيته، ولم يرغبوا بالاستمرار بأن يكونوا من رعاياه المخلصين، فاختاروا لأنفسهم ملكاً آخر، أو امبراطوراً، هو اللاندغريف، وكان رجلاً شجاعاً وصاحب مكانة عالية، وإليه وعدت ألمانيا والشطر الأكبر والأعظم الأقوى من إيطاليا، بتقديم العون والرأي، من دون كلل أو ملل، إلى حد عرض حياتهم وتقديمها في خدمته.

تصرف الامبراطور في أزمته

وتصرف الامبراطور نحو هذه المخاطر بعقل عميق التفكير، وعهد بقيادة جيشه إلى واحد من أقرب أصدقائه إليه، ولم يخبر أحداً بالضرورات التي دعت لاتخاذ مثل هذه الخطوة المفاجئة، وبسرعة أدار توجهه إلى هناك، وكان على ثقة كبيرة، لأن اللاندغريف المذكور لم يكن قد وافق تماماً على الانتخاب المتقدم الذكر، لابل إنه لم يعطهم حتى موافقته، وأكثر من هذا هو لم يعطهم حتى جوابه، لأنه كان مرتبطاً بالامبراطور، ويمقت مغالطات البلاط الروماني، ولذلك وصل الامبراطور إليه، واستدعاه بشكل حبي وسري إلى مكان آمن، ودخلا في نقاش متبادل، وبحوار صديق، وتصافحا قبل أن يفترقا، ودخلا في تحالف، وبذلك صار اللاندغريف وتحول من كونه مشكوكاً به إلى الصديق الأعظم ثقة، وأعلن بشكل مكشوف إلى جميع الذين انتخبوه، أنه لايمكنه ولابأي شكل من الأشكال الموافقة على مثل هذا العمل السريع والطائش، وبعدما أنهى الامبراطور هذه القضية وسواها بما

يرضيه تماماً عاد إلى جيشه، بالحكمة نفسها، التي غادره بها.

إذلال الامبراطور

وارتفع شأن الذين كرهوا الامبراطور، وفرحوا، واعتلاهم السرور كثيراً تجاه الخسائر التي عانى منها، وهي الخسائر التي أتينا أعلاه على ذكر تفاصيلها وتعدادها، ولذلك تعرض الامبراطور في تلك الأثناء إلى قليل من الإذلال، وذلك وفقاً لقول النبي: «املأ وجوههم بالعار حتى يمكن أن يلتمسوا اسمك يارب»، ولذلك تدخل رجال نبلاء على درجة عالية من الحكمة، وعملوا بيقظة وبشكل متواصل، وشغلوا أنفسهم في سبيل إعادة تأسيس السلام بين الكنيسة وبين الامبراطور، لكن الامبراطور رفض ولم يقبل بأي شكل من الأشكال أن يقسم على اخضاع نفسه تماماً للعقوبات اللاهوتية، مالم يجري الاصغاء إلى مناقشاته، ويتم ايضاح الطريق أمامه، مع شرح جميع الشروط، أو التخلي عن الذي استحوذ عليه، كيفما كانت طريقة الاستحواذ، وذلك فيما يتعلق بالامتيازات القديمة للامبراطورية، وهكذا تجدد الخلاف ثانية بوساطة بدع عدو الجنس البشري، وفي تلك الآونة، عمل أوتو، الذي كان كاردينالاً بلقب القديس نيقولا في سجن توليان، والذي كان نائباً بابوياً في انكلترا، عمل أسقفاً لبورتو Porto.

رسالة مرعبة حول وحشية التتار

وفي الوقت نفسه، جرى ارسال الرسالة التالية، إلى رئيس أساقفة بوردو، وهي مرعبة كثيراً حتى إلى أكثر الناس شجاعة، وتتوافق الرسالة في كثير من الأمور مع الرسالة الامبراطورية التي جرى إرسالها إلى كثير من الملوك المسيحيين، فيما يتعلق بالدمار المريع الذي أحدثه القوم غير الانسانيين، الذين يدعون باسم التتار، وقد ورد اسمهم في هذه الرسالة باسم التاتار أو التتر.

«إلى جيرالد، الذي هو بنعمة الرب رئيس أساقفة بوردو، لقد جرت تسميتك من قبل نربوني Narbonnes كان من قبل أدنى كهنتك، صحة وقوة تتحول إلى مواهب الذين عهد بهم إليه:

إن أرواح غير العابئين المشغولين بالشؤون الأرضية، غير مهتمة بتهديدات العدالة الربانية، ولم يدخل الرعب إلى قلوبها العنيدة، حتى تطعن بوساطة قرار بالإدانة المرعبة، لأنني أعجب عندما يجري تهديد المسيحيين بمثل هذا الافناء والمحق، والعناد مسيطر بشكل عام على الملوك وعلى بقية رجال السلطة على الأرض، وكيف أنت الذي قيل بأن لديك غيرة من أجل الرب، لم تحاول تحريك القلوب المتصلبة بموجب ثقل نفوذك، وأنت ترى كثيراً من الناس العقلاء سوف يلتزمون بسلطتك ويؤمنون بكلامك، والخبرة وحدها تظهر مدى عظم المخاطر التي تهدد المسيحيين من خلال غزو التتار، لأن وصف وحشية ودهاء ذلك الشعب هي حقيقة غير مشوهة بذاتها ولايمكن أن تكون كذباً، ولسوف نخبركم باختصار عن عاداتهم الشريرة، ولسوف لن أذكر شيئاً هو مشكوك به، أو مجرد رأي، بل الذي سأذكره هو المبرهن عليه بكل تأكيد، وهو الذي أنا أعرفه.

وسلف من قبل أن اتهمتُ —كما تعلم— من قبل منافسي، بتهمة هرطقة الفسوق، بحضور روبرت كورزون Curzun, النائب البابوي للبلاط الروماني، من دون تمحيص بالضمير، ولقد انزعجت كثيراً بسبب دناءة التهمة، ورفضتُ هذا الحكم، وغدوتُ لهذا السبب هدفاً للمزيد من الريبة، ولذلك عندما سمعتُ بتهديدات ذلك الرجل صاحب السلطة، هربت من وجه المضطهد، وأرغمتُ على الارتحال والسفر إلى كثير من البلدان، وتفوهت بشكايتي إلى البيترنيين Peterinians, الذين سكنوا في مدينة كوما، وكيف أنني بسبب عقيدتهم التي —يشهد الرب— أنني لم أتعلمها قط، أو اتبعتها، إنني

الآن في المنفى، بسبب قرار حكم صدر ضدي، ولقد فرحوا لسماعهم هذا، وقالوا بأنني أستحق الحسد، لأنني عانيتُ من الاضطهاد في سبيل الاستقامة، وجرت استضافتي بينهم هناك لمدة ثلاثة أشهر في شهوانية وفخامة، وأصغيتُ في كل يوم بصمت إلى كثير من الأخطاء، أو بالحري الآثام المرعبة، التي تفوهوا بها ضد الايمان الرسولي، وقد ربطوني إليهم بإحسانهم ولطفهم حتى أنني وعدت من ذلك الحين، بأنني سوف أسعى لاقناع المسيحيين، الذين سوف تكون لي أحاديث جدية معهم، بأن ما من أحد يمكن انقاذه بإيمان بطرس، وبأنني سوف أثابر بجرأة بالتبشير بهذه العقيدة، وعندما وعدتهم بكلمتي متعهداً بشرفي، بأن أفعل هذا، بدأوا يكشفون لي أسرارهم وأخبروني بأنهم أرسلوا من جميع مدن لومبارديا تقريباً مع بعض من توسكانيا، طلاباً باحثين أكفاء إلى باريس، بعضهم لدراسة المسائل المعقدة للمنطق، وآخرين لدراسة المقالات اللاهوتية، من أجل الحفاظ على أخطائهم، ونقض قواعد الإيمان الرسولي، وللغاية نفسها أرسلوا كثيراً من التجار إلى الأسواق، لحرف الأغنياء من العلمانيين، وكذلك رفاقهم على الموائد، ومضيفيهم الذين امتلكوا فرصة للحديث معهم بود، وبذلك قاموا بمقايضات مضاعفة، فحصلوا من هذا على أموال الآخرين، ووضعوها بين أيديهم، وجمعوا في الوقت نفسه أنفساً لصالح المسيح الدجال، وحصلت أخيراً على إذن بالمغادرة من عند هؤلاء الرهبان المرتدين، وأرسلت من قبلهم إلى ميلان، حتى تجري استضافتي من قبل أتباعهم الدينيين، وبهذه الطريقة اجتزت خلال جميع مدن لومبارديا على شواطىء نهر البو Po, وكنتُ أقيم دوماً بين البيترنيين، وكنت دوماً عند مغادرتي أتسلم تقديماً إلى آخرين من الطائفة نفسها، ووصلت أخيراً إلى كريمونا Cremona, وإلى بلدة مشهورة في فريولي Frioli, حيث شربتُ أفضل خمرة للبيترنيين، وأكلت من زبيبهم المحفوظ، وتوتهم، ومن لحوم أخرى مثيرة، وخدعت المخادعين، وأعلنت عن نفسي أنني من

البيترنيين، مع أنني مازلت مستمراً، بعون الرب، مؤمناً بالمسيحية، على الرغم من أنني لستُ تماماً كذلك من حيث الأعمال، ووقفتُ لمدة ثلاثة أيام في كريمونا، وتسلمت أماناً من الرهبان، لكن اللعنة من واحد من أساقفتهم اسمه بطرس غلّو Gallo, الذي نظر إليّ نظرة ريبة، وقد سمعتُ —على كل حال— فيما بعد، أن هذا الرجل قد خلع من قبلهم بسبب الفسوق، ثم إنني انطلقتُ مع راهب علماني، ووصلتُ أثناء سفري إلى أقنية أكويليا Aquileia, وتابعنا من هناك سفرنا، واتخذنا لأنفسنا مقراً مع بعض الرهبان في بلدة صغيرة في فريساك Frisac, وفي اليوم التالي تركني الراهب العلماني، وبقيتُ لوحدي، وعبرتُ لوحدي خلال كارينثيا Carinthia, وتابعت السير على طريقي في النمسا، وتوقفتُ في بلدة اسمها باللغة الألمانية نوستادت Neustadt, أي المدينة الجديدة، حيث أكرمت وفادتي من قبل رهبان في طائفة جديدة اسمهم البيغونيين Beguins, ثم أخفيتُ نفسي لبضع سنوات في جوار مدينة فينا وفي المناطق المجاورة، مازجاً —يؤسفني القول— الخير مع الشر، لأنني عشت عاجزاً ملطخاً بإثم الشيطان، وكنت عدواً قاتلاً لنفسي، مع أنني تمكنت من تخليص عدد كبير من إثم البيترنيين، الذين كنتُ قد تحدثتُ عنهم.

ونتيجة لهرطقتهم، ولأشياء من الذنوب كثيرة قامت بين المسيحيين، استثير غضب الرب، وأصبح غاضباً مدمراً، ومنتقماً مرعباً جداً، وأنا أقول هذا، بسبب عرق حاد من المخلوقات غير البشرية، والذي شريعته هي اللاشريعة، والذي غضبه حنق، وهو عصا غضب الرب، وهو الآن يقوم بعبور منطقة واسعة من البلاد، ويقوم بالعيث فيها فساداً بشكل مميت، ويتولى محق كل شيء بشكل مخيف بالنار والسيف، يعترض سبيلهم، ففي خلال هذا الصيف بالذات، غادر هؤلاء القوم، الذين اسمهم التاتار بانونيا، التي استحوذوا عليها بالاستسلام، وقاموا

بوساطة آلاف لاتحصى، بحصار البلدة المذكورة أعلاه بشدة، والتي صدف أنني كنتُ آنذاك مقيماً فيها، ولم يكن في البلدة عساكر من جانبنا للتصدي لهم، سوى خمسين فارساً، وعشرين من رماة القسي الزيارة، كان الدوق قد تركهم في الحصن، ولدى صعود هؤلاء فوق مكان مرتفع في الجوار، شاهدوا الجيش العملاق معسكراً من حولهم، وارتعدوا بسبب شدة هؤلاء الذين هم من أتباع المسيح الدجال، وسمعت الآن آهات صاعدة نحو رب المسيحيين، من الذين دهشوا في المنطقة المجاورة، وقد هلكوا جميعاً سواء من دون تمييز بالمرتبة، أو المكانة، أو الجنس، أو العمر، وجاء هلاكهم بمختلف أنواع الموت، وتغذى أتباع المقدمين الذين كانوا مثل كلاب آكلة للحوم البشر، من لحوم أجساد الموتى، وكأنها كانت خبزاً، ولم يتركوا شيئاً سوى العظام للوحوش، لكن مدهش أن نقول بأن الوحوش والطيور الجارحة، مع أنها كانت جائعة، لم تقبل بأكل بقايا اللحوم، إذا صدف وكان قد بقي شيء منها، وأعطيت النساء العجائز والقبيحات إلى المسؤولين عن الكلاب الآكلة للحوم البشر —كما كانوا يسمون— ليكونوا طعامهم اليومي، لكن اللائي كن جميلات احتفظ بهن أحياء، ليخنقن وليقهرن من قبل عدد من مغتصبيهن، على الرغم من صراخهن وبكائهن، فقد جرى اغتصاب العذراوات حتى متن من الإنهاك، ووقتها كانوا يقطعون أثدائهن ليجري الاحتفاظ بهن بمثابة طعام لذيذ لمقدميهم، أما أجسادهن فاتخذن لوجبة طعام سارة للمتوحشين.

وشاهد في الوقت نفسه، الذين كانوا ينظرون من أعلى مكان مرتفع، وصول دوق النمسا، وملك بوهيميا، وبطريرك أكويليا Aquileia, ودوق كارينثيا Carinthia, ومركيز بيد Bade, كما قيل، مع عدد كبير من أمراء الدول المجاورة، وكانوا على تعبئة جاهزين للقتال، وفي لحظة واحدة اختفى ذلك العرق اللعين، وعاد الخيالة إلى هنغاريا

التعيسة، ومثلما وصلوا فجأة، كذلك اختفوا بشكل مفاجىء، وهذه واقعة خلقت رعباً عظيماً في عقول الذين شاهدوها، وأسر أمير دلماشيا ثمانية من الفارين، وكان واحداً منهم معروفاً من قبل دوق النمسا، على أنه رجل انكليزي، كان قد نفي بشكل أبدي من مملكة انكلترا، بسبب إحدى الجرائم التي كان قد اقترفها، وكان هذا الرجل قد قدم مرتين كرسول وترجمان من ملك التاتار إلى ملك هنغاريا، وبشكل مكشوف هدد الهنغار وأنذرهم بالشرور التي وقعت فيما بعد، إذا لم يذعن ملكهم ويتنازل هو ومملكته ليكونوا خاضعين للتاتار.

وأقنعه الأمراء ليقول الحقيقة حول التاتار، وقام هو من دون تردد، بعد أن أدى كل نوع من أنواع الأيمان، وقدم إفادات قاسية جداً، حتى أنه من الصعب على الشيطان نفسه أن يصدقها، وتحدث أولاً عن نفسه، أنه بعد نفيه، وقبل أن يكون في الثلاثين من عمره، خسر كل شيء كان لديه بالميسر في مدينة عكا، وأنه لم يمتلك في أيام الشتاء سوى قميص من المسوح، وحذاء من جلد الثور، وقبعة مصنوعة من شعر الحصان، وتمكن بهذه الحالة من العوز، وإظهار حالة من الضعف بالجسد، وبشعر مشعث كأنه شعر مهرج، وباطلاق صرخات جمجمة كأنه رجل أخرس، فعبر كثيراً من البلدان، ولاقى لطفاً كبيراً من الذين قدموا له الضيافة والإحسان، متصرفاً بحياته بشكل أو آخر، مع أنه رغب يومياً في طيش لسانه والجنون في قلبه، ورغب في قرارة نفسه أن يكون لدى الشيطان، وأخيراً بعد طويل أمد أصيب بمرض شديد، بسبب الإنهاك الشديد الذي عانى منه، وبسبب تغير الأنواء والأطعمة، بين الكلدانيين، وصار مالاً من حياته، ولم يعد قادراً على متابعة السفر نحو الأمام، أو العودة، فوقف حيث كان، وكان يتنفس بصعوبة، ولأنه كان معتاداً بعض الشيء على الكتابة، بدأ يدون كتابة الكلمات التي جرى الكلام بها هناك، ثم شرع يتفوه بهن بشكل صحيح، إلى حد أنه عدّ من السكان المحليين،

وقد تعلم عدة لغات ببراعة، وسمع التاتار عنه من خلال جواسيسهم، وتمكنوا من جره إلى جانبهم، وعندما شرعوا يسعون بتطبيق دعواهم باخضاع العالم كله، ربطوه بهم، ولكي يكون مخلصاً في خدمتهم، منحوه كثيراً من الأعطيات، لأنهم كانوا بحاجة ماسة لأشخاص، يكونوا تراجمة لهم.

وفيما يتعلق بأخلاقهم وسماتهم، وأوهامهم التي يؤمنون بها، وأمزجة وآفاق ذواتهم، وبلادهم وطرائق قتالهم، أقسم أنهم كانوا جشعين، وانفعاليين، ومخادعين، وبدون رحمة بشكل فاقوا به الناس الآخرين، وشدة وقسوة العقوبات التي تنزل بهم من قبل مقدميهم، تمنعهم من النزاعات، أو بالحري من خداع بعضهم بعضاً، أو إلحاق الضرر ببعضهم بعضاً، ويدعون الذين أسسوا قبائلهم الأرباب، ويقيمون تعبدات في بعض المواسم، ولديهم احتفالات خاصة كثيرة، وأربعة أعياد نظامية فقط، ويعتقدون بأن كل شيء قد عمل من أجلهم، ويؤمنون أنه لاتوجد وحشية في ممارسة كل نوع من أنواع القسوة، ضد الذين يشورون ضدهم، ولهم صدور ثابتة وقوية، ووجوه مائلة وشاحبة، وكتفين قاسيين وعاليين، وآناف قصيرة ومشوهة، وذقونهم حادة وعالية، وفكهم العلوي منخفض وعميق، وأسنانهم طويلة وقليلة، وتمتد حواجبهم من الشعر إلى الأنف، وعيونهم سوداء وغير مستقرة، وملامحهم طويلة وقاسية، ومظهرهم الخارجي عظمي وانفعالي، وأ جلهم غليظة لكنها قصيرة تحت الركبة، والبناء الجسدي مساو لنا، لأن الذي خسروه تحت الركبة جرى تعويضه بطول أكبر لأجزائهم العلوية.

وبلادهم الأصيلة هي مساحات واسعة، وكانت من قبل صحراء، واقعة خلف الكلدانيين، قد طردوا منها الأسود والدببة، والوحوش الأخرى، وكان ذلك بوساطة قسيهم وأسلحة الحرب الأخرى، وقد

صنعوا من الجلود المدبوغة لهذه الحيوانات لأنفسهم دروعاً هي خفيفة المظهر، لكن لايمكن خرقها، ولديهم خيول ليست ضخمة، لكنها قوية جداً، وتتطلب قليلاً من الطعام، وهم يربطون أنفسهم بثبات على ظهورها، ويستخدمون النشاب، والهراوات، وبلطات القتال، والسيوف في الحرب، ويقاتلون بشجاعة وثبات، وميزتهم الأساسية هي في استخدامهم القوس، وفي براعتهم في القتال، ودروعهم الواقية لظهورهم رقيقة، حتى لايحاولوا الفرار، وهم لايتراجعون عن القتال حتى يرون العلم الرئيس لمقدمهم يتراجع، وعندما يسقطون لايطلبون الرحمة أبداً، وهم أنفسهم لايوفرون واحداً قد سقط، وفي غايتهم الثابتة في اخضاع العالم كله ووضعه تحت سيطرتهم، يصرون على ذلك كأنهم رجل واحد، كما أنه من غير الممكن عدّ الألف منهم مثل ألف من الآخرين، وعدد أتباعهم، الذين يدورون في فلكهم ستمائة ألف، وهم يرسلون هؤلاء أمامهم لإعداد أماكن من أجل الجيش، ويستطيعون على ظهور خيولهم السريعة قطع مسافة سفر ثلاثة أيام في ليلة واحدة، ويقومون فجأة بنشر أنفسهم فوق منطقة واحدة، وينقضون على السكان غير المسلحين، والذين بلا دفاعات، والمتفرقين، محدثين فوضى ودماراً عظيماً، إلى حد أنه لو حاول أمير أو ملك البلاد المحاصرة حشد جيش ليحضره إلى ساحة القتال ضدهم يعجز عن ذلك، وفي أيام السلم يخدعون الناس وأمراء البلدان بأسباب هي غير منطقية، فهم يقولون أحياناً بأنهم تركوا بلادهم لاسترداد الأجساد المقدسة لملوك المجوس، الذين يزينون مدينة كولون Cologne, ويقولون في أحيان أخرى، إنها في سبيل ضبط شره وتفاخر الرومان، الذين ظلموهم في القديم، وهناك سبب آخر، هو أن يخضعوا تحت سلطانهم شعوب وقبائل الهيبربوريان Hyberborean البربرية، ثم إنهم قالوا بأن غايتهم هي إطفاء غضب التيوتون بوساطة تسامحهم ولطفهم، وأحياناً لتعلم فن الحرب من الفرنسيين، وأحياناً أخرى للحصول على أرض خصبة كافية

للقيام بأود حشودهم، وقالوا أخيراً بأن الغاية هي القيام بالحج إلى القديس جيمس في غاليشيا Gallicia, وتمكنوا بهذه الحكايات من السيطرة على بعض الملوك البسطاء،لأن يبرموا معاهدات معهم، ولكي يمنحوهم مجازات حرة خلال أراضيهم، ولايحافظ التاتار على المعاهدة، ويتعرض هؤلاء الأمراء للهلاك سواء.

ولدى رؤيتنا مثل هذه المخاطر العظيمة، وهي قائمة مهددة جميع العالم المسيحي، ماالذي يعمله هؤلاء الرهبان المقدسين، مع طقوسهم الدينية الجديدة، وصدوراً عن نار الفرن الجديد التي صيغوا منها، من الذي يرغب أن يعتقد بأنهم وحدهم قد عثروا على طريق الكمال دون الآخرين؟ وبوساطة الاعتراف ووسائل الإلفة الأخرى سوف يتمكنون من الحصول على الحظوة لدى الملوك والأمراء، وهم يصرخون بحرارة وإلحاح في آذانهم ضد التاتار، وهم يسيئون، إذا لم يصرخوا، ويفعلون الأسوأ إذا اكتفوا بالتظاهر بذلك، والأسوأ من هذا كله إذا ماقاموا بمساعدة العدو، فما الذي يفعله الرهبان السود والبيض؟ وماالذي يفعله الكهنة النربونيين الذين يرغبون بالتفكير لو أن العالم ميت؟ لماذا لايبشرون بصليبية ضد التتار لدى رؤيتهم اقتراب جميع هذه المخاطر؟ وعجباً للاستشارات الحمقى للملوك! وللصمت الفاتر للأساقفة ورعاة الديرة! ولشدة التاتار ولوحشيتهم التي لم يسمع بمثلها! فلقد جرى حتى الآن تدمير ست ممالك مسيحية، والمصير نفسه معلق فوق الآخرين، في حين إن مثل الذين هلكوا لايفيد كوسيلة انذار للأحياء، فنحن قد أهملنا أسوأ أعدائنا في داخل البلاد، وقاتلنا الذين بدون أذى فيما وراء البحر.

وهذه هي الأسباب التي اقتادتني، أنا الذي أدين بالفضل لعنايتكم الأبوية، فأنا كما أنا، أتقدم بالنصيحة إليكم في الرب، بأن تقوموا بإقناع ملوك: فرنسا، وانكلترا، واسبانيا، الذين بينهم تحتلون مكاناً وسطاً، وأن

تستخدموا كل الوسائل التي باستطاعتكم استخدامها، لكي يضعوا جانباً خصوماتهم الخاصة، إلى الأبد، أو على الأقل لبعض الوقت، وأن يعقدوا بسرعة وعقلانية مؤتمراً فيما بينهم، حول كيف يمكنهم بأمان التغلب على مثل هؤلاء الآلاف من هذه النوعية من المتوحشين، وأدعو أنا الإيمان بالمسيح، الذي به آمل بالانقاذ أن يكون شاهداً، أنهم لو توحدوا جميعاً، فلسوف يسحقون هؤلاء التنينات، أو سوف يسحقون إفرادياً من قبلهم. وداعاً».

الصراع بين الامبراطور وبين البابا يثير اضطراب كل شيء

كان مقدراً لهذه الرسالة المرعبة أن تثير كثيراً قلوب الملوك والنبلاء، الذين وصلت إليهم، ولكانت أثارتهم بشكل فعال للانتقام للأذى الذي ألحق بالمسيح، وبالكنيسة الكاثوليكية، وبالمسيحية كلها، لولا قيام النزاعات المتبادلة بين البابا وبين الامبراطور، ومن ثم نشرها الاضطراب فوق العالم كله، ولذلك فإن هذا الصراع قد تفجر في الخارج خلال جميع المناطق، في الطول وفي العرض، لأنه لم يكن في كل المسيحية أحداً أعلى مرتبة، لابل ما من أحد في مثل تلك المرتبة العالية، مما أنعش قلوب التاتار، وأبهجها، لابل جميع الكفار، وعلاوة على ذلك جميع أعداء المسيح، وجعلهم يضاعفون آمالهم، ولذلك قالوا وهم يتفاخرون ويتقيئون أنفسهم، بأن الرب منزعج وضد المسيحيين، الذين قاتلوا ومزقوا بعضهم بعضاً، وأنه بات أكثر راضياً عنهم ولصالحهم. وزاد من تعدادهم، وضاعف قوتهم.

تشديد الحراسة على الطرق في روما

ورأى الامبراطور في الوقت نفسه، أن البابا المنتخب حديثاً، قد قام بتأكيد قرار سلفه، وأنه لايرغب بتقديره بأية طريقة من الطرق، ولذلك رفض من جانبه الخضوع تمام الخضوع إلى وصايات الكنيسة، وأعطى

أوامر بتشديد الحراسة على جميع الطرقات، والموانىء، والجسور، وأن لايكون هناك انسان يقوم بالعبور وهو يحمل مالاً، لأنه كان يعرف بأن في البلاط الروماني عطش بشكل غير متناهي، وصرف ابنه كونراد نفسه بيقظة لهذا العمل، ووقف بتيقظ في الطرقات وسدها، في كل من البحر والبر، ولم يوفر أحداً من المسافرين، حتى الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان، أو أي واحد متخفي، وكل من اعتقله عذبه حتى الموت.

تزايد أعداد البيغونيين

وفي الوقت نفسه، وبشكل خاص في ألمانيا، أعلن كثير من بعض الأشخاص من كلا الجنسين، لكن بشكل رئيسي من النساء، أنهم صاروا رهباناً، وارتدوا اللباس الديني، ولم يكن هذا اللباس ثقيلاً جداً، وعملوا تعهداً بعفة الحياة وبساطتها، بوساطة تعهد خاص، وذلك من دون الالتزام بأحكام أي قديس، كما أنهم لم يحبسوا أنفسهم داخل إطار أي دير، وباختصار تزايدت أعدادهم إلى درجة أنه وجد في مدينة كولون وجوارها، ألفين منهم.

خلاف بين الرهبان الفرنسيسكان والدومينيكان

ولكي لايظهر العالم أنه شاغر من تزايد الاضطرابات من كل جانب، نشب صراع بين الرهبان الفرنسيسكان والرهبان الدومينيكان، مما سبب الدهشة لكثيرين، لأنهم بدوا بأنهم اختاروا الطريق السليم، أي طريق الفقر والصبر، فمن الجانب الأول ادعى الدومينيكان وأعلنوا أنهم هم الذين تأسسوا أولاً، ولذلك السبب هم أعلى مقاماً، وأنهم أكثر عقلانية في مظهرهم الخارجي، وعن جدارة استحقوا نيل اسمهم ومقامهم من أعمالهم التبشيرية، وأنهم كانوا بالفعل والحقيقة حصلوا على تميز بوساطة المقام الرسولي، وقدم الفرنسيسكان من الجانب الآخر جواباً، بأنهم اختاروا في سبيل الرب طريقاً للحياة أكثر قسوة وتواضعاً، ولذلك فهم

أكثر جدارة، لأنهم أكثر قداسة، وأن الرهبان يمكنهم، وينبغي بشكل مؤكد أن ينتقلوا من طائفة الدومينيكان إلى طائفتهم، على أساس الانتقال من جماعة أدنى إلى جماعة أكثر تفوقاً وتشدداً، ونقض الدومينيكان مقالتهم مواجهة، قائلين صحيح أن الفرنسيسكان يسيرون وهم حفاة، ويلبسون ألبسة خشنة، وهم متحزمون بحبل، وهم يتمتعون بامتياز أكل اللحوم، أو أطعمة أكثر لطفاً ولذة، وأن هذا ليس محظوراً عليهم حتى أمام الناس، وهو أمر محظور بالنسبة لجماعة الدومينيكان. ولذلك لايمكن القول بأن الدومينيكان يمكنهم الدخول إلى طائفة الفرنسيسكان لأنها طائفة أكثر تشدداً وأكثر جدارة، بل إن العكس هو الصحيح، ولذلك نشب نزاع بين هؤلاء، مثلما نشب أيضاً بين الداوية والاسبتارية، في الأرض المقدسة، من خلال بذور الخلاف التي زرعها عدو الجنس البشري، صراع تآمري عنيف، وكان مثله مثل الصراع بين الرجال المتعلمين والجامعيين، لابل أشد خطورة بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية، وكان علامة على غضب عظيم سوف يحل بساحتها، والذي هو مزعج، ونذير سوء هو أنه لمدة ثلاثمائة سنة أو أربعمائة أو أكثر، لم تسرع الطوائف الرهبانية نحو الدمار مثل اسراعها الآن، كما تفعل طائفتيهما، ذلك أن رهبانها لم يمض الآن على وجودهم في انكلترا بالكاد عشرين عاماً، حتى بنوا لأنفسهم مساكن نافسوا فيها القصور الملكية، وهؤلاء هم الذين يعرضون للمشاهدة كنوزهم التي لاتقدر ولاتحصى، ويوسعون مبانيهم الفخمة، ويشيدون الأسوار العالية، ولذلك خرقوا بحماقة حدود فقرهم الأصيل، واعتدوا على قواعد دينهم، وذلك وفقاً لنبوءة الألماني هايلد غريد Hildegrade, فعندما يكون الرجال النبلاء والأغنياء على حافة الموت، يقومون بحثّ الذين الذين يعرفون أنهم مستحوذين على ثروات كبيرة، وفي حبهم للربح يحثونهم بإلحاح لإلحاق الأذى والخسارة بالأساقفة العاديين، وأن يستخرجوا اعترافات ووصايا خفية، رافعين أنفسهم، وطائفتهم فقط،

وواضعين أنفسهم أمام جميع الآخـرين، و هكذا فإن الرجل المؤمن الآن يعتقـد أنه يمكن أن يحفظ، فقـط إذا مـا جـرى توجيهـه بمشـورات الدومينيكـان والفـرنسيسكان، ورغبـة من هؤلاء في الحصـول على الامتيـازات في بلاطـات الملوك والأعيـان، أخـذوا يشغلون أدوار المستشارين، والحجاب، والساسة رجال الأعراس، والمتوسطين من أجل الزيجات، وهـم الذين يتـولون تنفيـذ الاستخـراجـات البـابوية، وهـم في قداساتهم إما يتـولون الإطراء أو النقد الحاد، ويكشفون الاعترافات، أو يقـومـون بأعمال الاتهام بوقـاحـة، ويـزدرون أيضـاً الطوائف التي تولى وضعهـا الآباء المقدسـون، أي التي أسسهـا القديس بندكت، والقـديس أوغسطين، ويستخفـون أيضاً بـأتباعهم (وظهـر هذا الشيء بوضـوح في قضيـة كنيسـة سكاربورا Scarborough, عندمـا انسحب الفرنسيسكان بشكل مهين) وهم يضعون جماعتهـم أمام الآخرين، وهم ينظرون إلى الرهبـان السسترشيـان على أنهم أجـلاف، لايـؤذون، شبـه أصـلاء، أو بالحري ذوي أصل رديء، ويعـدون كهنة ورهبـان الطائفـة السوداء متكبرين ومنغمسين بالملذات الحسية.

جامعة باريس تتراجع عن أخطائها وتستنكرها

وكذلك في ذلك الوقت، وبالتحديد بعـد عيد القديس ميكائيل، تمت عملية إعادة اجتماع المدارس والدارسين، وبدأ معلمـو اللاهوت، خاصة كبار المحاضرين من الدومينيكان والفـرنسيسكان المناظرة والمناقشة بدقة تفصيليـة أكبر، وبعمق أعظم مما ينبغـي، أو مما هو مفيـد، ولم يترددوا في وزن الجبـال، حيث يمكن لمجـد الرب أن يخزيهم، وغـامـروا بطيش في تفحص أسرار الرب القـديـر التي لايجوز البحث بها، وأقـدمـوا على البحث في أحكامـه التي هي عميقـة جـداً، وكـانوا بالنتيجـة غير أكفـاء بالنسبـة للمهمة، وتفحصـوا هكذا بعمق، وتجولوا حيث ليس هناك ممر، بسبب انتقام الرب، الذي يكون أكثـر رضا بالبسـاطة الصحيحة للإيمان

الثـابت، أكثر من رضـاه بالبراعـة الأكثر ظهـوراً في اللاهوت، ومع أنه أسلم وأكثـر فضيلة أن نتقبل ببساطة وأن نعتقـد في الآثار التي تلقيناها من الآباء، من أن نحـاول البرهنة عليهـم، بهذه الوسـائل التي يقـدمهـا العقل البشري، لقـد اختـاروا أن يغـرروا بـأنفسهم وأن يرتفعـوا فـوق المستوى الصحيح.

هذا وعندما علم أسـاقفة الكنائس بهذه الأشيـاء، وكانوا متيقظين من أجل مصلحـــة الكنيســـة والإيمان المسيحي، واستنـدوا على سلطة الانجيليين والأنبياء في لجم وقاحتهم الطـائشة، ودعوا إلى اجتماع للناس ذوي الإيمان المستقيم، وأعلنوا بحكمـة عـن حقيقـة الإيمان، وكـانت غلطتهم الأولى: هي أن الجوهر الـلاهوتي لم يشـاهد، ولن يشـاهد، من قبل إنســان في حـال الطهـارة أو من قبل مـلاك، وعلى هذا أجـاب الأسـاقفـة: نحن ندين هذه الخطيئـة، ونحـرم كنسيـاً الذيـن أعلنوها ويتمسكون بها، لأننا نـؤمن بثبـات، ونؤكـد، بأن الـرب في جـوهره، وتكوينه، أو طبيعتـه، سـوف يشاهد من قبل الملائكـة المقدسين، عندمـا يكون في حـال التجلي، وكـانت الخطيئة الأخـرى هي: مع أن الجوهر اللاهوتي هو نفسه في الأب والابن، والروح القـدس، ومع ذلك بالنسبة للشكل، إنـه ليس نفســه في الروح القــدس كما هـو في الأب والابن مأخـوذين مع بعضهما، ومع ذلك إن الشكل هو الشيء نفسـه، كجـوهر لاهوتي، وعلى هذا قـدم الأسـاقفـة الجواب التـالي: نحن نـدين هذه الخطيئة، إلـخ، لأننا نـؤكـــد بشكل ثـابت بـأن هناك اتحاد بـالجوهر، والتكوين، أو الطبيعـة، في الأب والابن، والروح القـدس، وأن الجوهر هو نفسه بالنسبة للشكل، وهو نفسه في الأب، والابن، والروح القدس، وخطيئة أخرى هي: أن الروح القدس، لكونه نوعاً من الحب، أو رباطاً من التعـاطف، لم يصدر عن الابـن، بل عن الأب فقط، نحن ندين هذه الخطيئة، إلخ، لأننا نعتقـد بثبات ونعلن بأن الروح القدس، لكـونه نوعاً

من الحب، أو رباطاً من التعاطف، قد صدر عن الاثنين، وخطيئة أخرى هي: أنه لا الأرواح الطاهرة، ولا الأجساد الطاهرة سوف تكون مع الملائكة في السماء العليا، بل في السماء المائية، أو الشفافة، الموجودة فوق قبة السماء، حيث أنهم افترضوا، ووضعوا العذراء المقدسة، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات ونعلن، بأن المكان الجسدي نفسه، أي السماء العليا، سوف تكون مشاعاً للملائكة، ولأرواح القديسين، وللرجال الممجدين، ومثل هذا المكان الروحي نفسه مشاعاً للرجال وللملائكة، وخطيئة أخرى: هي أن الملاك كان شريراً من اللحظة الأولى لخلقه، ولم يكن قط غير ذلك، أي غير شرير، إننا ندين هذه الخطيئة ونمنعها، وأولئك الذين يعلنونها ويتمسكون بها، إلخ، لأننا نعتقد بثبات ونؤكد بأنه كان فيما مضى صالحاً وليس شريراً، وقد صار فيما بعد سيئاً باقتراف الذنب، وخطيئة أخرى: هي أنه كان هناك من الأزلية حقائق كثيرة، وهي لم تكن رباً، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن، بأنه كانت هناك حقيقة واحدة من الأزلية كلها، التي هي الرب، وأنه كان هناك باطل، هو لم يكن رباً، وخطيئة أخرى، هي أنه يمكن للملاك أن يكون في أماكن مختلفة في الوقت نفسه، لابل حتى في كل مكان إذا ما اختار، نحن ندين، إلخ، لأننا نؤمن بثبات ونؤكد هو أن ملاكاً موجوداً في مكان واحد مؤكد، وبناء على ذلك إنه إذا كان هنا، لايمكنه في الوقت نفسه واللحظة ذاتها أن يكون في مكان آخر، لأنه من الممكن لواحد أن يكون كلي الوجود، لأن ذلك معزو إلى الرب وحده،وخطيئة أخرى: هي أن البداية، والوقت الحالي، والخليقة، والآلام هي كلها ليست خالقاً ولامخلوقاً، نحن ندين، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن بأنهم جميعاً قد جرى خلقهم، وخطيئة أخرى: هي أن الملاك الشرير، لم يمتلك قط أرضاً يمكنه الوقوف عليها، ولا حتى آدم عندما كان مايزال في مرحلة البراءة، نحن ندين إلخ، لأننا نؤمن بثبات، ونعلن أنهما امتلكا مكاناً ليقفا عليه، لكن —على كل حال— لم يربحا من ذلك، وخطيئة أخرى:

هي أن الذي لديه ونال المنحة الأحسن بشكل طبيعي، سوف يكون بالضرورة لديه المزيد من النعمة والمجد، ونحن نستنكر هذه الخطيئة، إلخ، لأننا نعتقد بثبات، ونعلن بأن النعمة والمجد سوف تمنحان حسبما يراه الرب مناسباً. وهذا مقدر من ذي قبل.

خلاصة أحداث هذا العام

وعلى هذا عبر هذا العام، مع وجود مخاطر مهددة واضطرابات للكنيسة، وكان عاماً وافراً بما فيه الكفاية في الخضار والفواكه، وقد جلب الموت والازعاج لعدد كبير من النبلاء في العالم المسيحي، وجلب الملامة والأذى إلى مملكة انكلترا وإلى ملكها، وأحضر معارك وعداوات إلى الايطاليين، وانعدام ثقة بالنسبة إلى الأرض المقدسة، وحدوث انشقاق ومؤامرات بين الداوية والاسبتارية.

الوليمة السخية للإيرل رتشارد في وولنغفورد

في سنة النعمة ١٢٤٤، التي هي السنة الثامنة والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، كان الملك نفسه في عيد الميلاد، ضيف أخيه، الايرل رتشارد، في وولنغفورد Wallingford, حيث أقيمت وليمة سخية، قد دعي إليها جميع النبالة الانكليزية تقريباً، وكانت هذه الوليمة آخر الحفلات التي شرع بها في لندن، وكل مايمكن أن يفكر به قد أحضر لجعل احتفالات الزواج فخمة، وكان بين الحضور بيترايس، كونتسة أوف بروفانس، وابنتها سينشيا، المتزوجة حديثاً، وكانت جميلة المظهر، وقد بذل الملك جهوده كلها حتى يظهر لطيفاً وكريماً.

مغادرة كونتسة بروفانس لإنكلترا

وبعد الفراغ من هذه الاحتفالات، بادر الملك، ترافقه بيترايس، الكونتسة المذكورة، مع عدد كبير من النبلاء من الجنسين، ومن العائدين إلى كل من انكلترا، وبروفانس، بادروا مسرعين إلى لندن، في أيام عيد

الختانة، للاحتفال هناك، بأعظم أبهة، بعيد القديس ادوارد، بحضور الضيوف من بروفانس، وأمام أعينهم، وتوجهت بعد ذلك الكونتسة المذكورة نحو البحر، وعادت إلى موطنها وجرت مرافقتها بشكل رسمي حتى البحر من قبل الملك مع حشد كبير، لكن حتى لايمر سرور في هذا العالم من دون انتكاسات، حدث أنه قبل أن تغادر الكونتسة وتركب السفينة في دوفر، وصلها حملة لأخبار محزنة، حيث أعلنوا لها بأن زوجها ريموند كونت بروفانس قد أصيب بمرض عضال، وهو على حافة قبره، وهو الرجل الذي قدم مساعدات فعالة إلى الكنيسة الرومانية، في جميع أزماتها، بإلحاقه الأذى بالامبراطور، وعندما جرى إعلام الملك بهذا، أصيب بحزن عميق، وطلب رحمة الرب للكونت، بالصلوات، وبتقديم الصدقات، إلى غاية ما كان بإمكانه.

إرسال البابا الجديد رجلاً جديداً إلى انكلترا لاستخراج المال

وأرسل في تلك الآونة نفسها البابا المنتخب حديثاً، مستخرجاً جديداً للمال إلى انكلترا، اسمه المعلم مارتن، وهو يحمل رسالة اعتماد من البابا، ومفوضاً بسلطة فرض عقوبة الحرمان الكنسي، والتعليق وبانزال العقوبات بطرق كثيرة، بالذين يعارضون رغباته، وقام وهو متسلح بمثل هذه السلطات، فعلق الأساقفة الانكليز، حتى لايعود بامكانهم جباية أية منفعة من منافعهم حتى يكونوا قد أرضوا نهم البابا، الذي جبا جميع مواردهم لصالح كهنته أو أقربائه، وقد أرتأى أنه ليس بذي قيمة أن يتسلم أي مبلغ ما لم يصل إلى ثلاثين ماركاً، أو أكثر، خشية أن يبدو ذلك الرجل العظيم حريصاً على التوافه، ولذلك شرع المعلم مارتن المذكور بغطرسة بمطالبتهم والاستخراج من الأساقفة وخاصة من الرهبان، الهدايا، وخاصة الخيول الفخمة، فقد فرض في رسائله مثل هذا على رعاة الديرة، أو رؤساء الرهبان، أن يرسلوا إليه خيولاً تكون موائمة لكاهن خاص للبابا، ليمتطيها، والذين عارضوا، وتقدموا

بتسـويغات، وعـرضـوا أسبـاباً لعدم الطـاعة، حتى وإن كـانت أسبـاباً منطقيـــة (مـن ذلـك على سبيل المثـــال راعـي ديـر مـــالمسبري Malmesbury, ورئيس رهبـــان ميرتون Merton) جـــرى تعليقهم، ومعـاقبتهـم بقسـوة إلى أقصى حـد يرضيــه، لأن هذا المنقب الحريص تجول بعينيــه وتطلع نحــو جميع الكنائس الشـاغـرة، وجميع الأوقـاف، حتى يتمكن بوسـاطتهم من سـداد جميع المطالب المكشـوفـة للبابا مع حـاجاته، وكان من بين أوقاف الكنائس الغنيـة، أوقاف كنيسة سالسبري، التي كانت مـرتبطة بقائد جوقة المرتلين، التي غـدت شاغرة، فوضـع يديه على هذا الوقف، على الرغم من معارضـة الأسقف، وجميع أعضاء الهيئة الكهنوتيـة، وقام بناء على أوامر البـابا، بإعطاء هذا الوقف إلى واحـد من أحفاده، وكـان مجرد طفل، مما أدهش كثيرين وآلمهم، لأن كثيرين اعتقدوا وأملوا بأن نهم البـلاط الروماني، سوف يعتـدل بوساطة شيء من العقلانية، وذلك بعـد العقوبات التي نزلت به حتى الآن مراراً بوساطة غضب الرب.

تصرف غير عادل من الملك نحو أسقف وينكستر

وحـدث كـذلك في الوقت نفســه، أن قـام الملك بشكل غير صحيح بظلم أسقف وينكستر، بوضع يد ثقيلة عليه، ولم يتنازل مطلقاً بقبوله في مـؤتمر مصـالحة، أو لنيل قبلة سـلام وصـداقـة، وذلك أثناء عـودته من مناطق عبر البحـر، حيث قدم الأسقف نفســه بكل تقـوى، وقد لاحقـه بكراهية شـديدة، ولم يسمح لأي رجل علماني بأن يعيش معــه، أو يتولى خـدمتـه، ولم يأذن له بتلقي الضيـافـة في أي من الـديرة، بل إنه نظر إلى الذين استقبلوه وواسوه، على أنهم أعداء معلنون، وأعـاق أيضاً بوحشية ومنع أن يصل إلى الأسقف سفينـة وعـربات محملة بـالمؤن والإمـدادات القـادمـة من نورويك، ولـدى سفـر الأسقف إلى لندن، لم يتجــرأ على الدخـول إلى قصره في سـاوثوورك Southwark بسبب خجله من

الظلم الذي تلقـــاه من أتبـاع الملك، واستضيف وهـو متخفي في بيت رهبـان سـاوثوورك، الذي هو قـرب قصره، وواقع في أسقفيتـه، وانتظر هناك بتواضع تبـدل الأوقات المعارضة، وإلى أن يزوره التـوفيق والرضا من عليين، لكن الملك الذي كـان يتصرف بناء على نصيحة قـوم ظالمين، منع كل واحـد في مـدينة لندن من بيعه حتـى ضروريات الحياة، الأمـر الذي لانتـذكر أن مثله قـد أوقع حتى بالقديس تومـاس رئيس أساقفـة كـانتربري، ثم إن الأسقف قـام وهـو حـزين يعـاني من كثير من الأذى والاضطراب، فـاشتكى —مع سبب صحيح— إلى زمـلائـه الأساقفـة، وعندمـا علمـوا بذلك قـام أساقفـة لنكولن، وووركستر، وهيرفـورد، تحركهم العاطفة، وغاضبين غيرة على العدل، فبادروا مسرعين إلى ردنغ، حتى يتمكنوا من توبيخ الملك، ونصيحته حتى يقوّم أخطائه، لكن الملك أعلم بقـدومهم، فهـرب رافضاً نصيحتهـم المسالمة، إنما عندمـا وجـدوه أخيراً، انفجر غاضباً وتفوه بكلمات تسويغ لنفسه وكراهية، ولم يكن من الممكن تسكينه بتحريضاتهم، بل إنه تصرف على العكس بشكل واضح، فبعث لإلحاق الأذى بالأسقف، بثيبولد دي هيرلي Hurley, والمعلم هنري دي ســوسـا Susa إلى البـلاط الرومـــــاني، مع مبلغ كبير، استخـرجه لهما حتى ينفقـاه، ولكي يعدا بمبلغ أكبر بكثير إلى البـابا وإلى البـلاط الرومـاني، على شرط أن يقـومـا بخلع الأسقف المذكـور بشكل مهين، لكن بما أن ذلك سوف يكون غير مستقيم بشكل مكشوف، وغير عادل، وسـوف يسبب فضيحة عامة ضـد الكنيسة، لم يتمكنا بأية وسيلة من الوسـائل من إكماله، ولأن رئيس الرهبان المتقـدم ذكره أعـلاه، كان يعرف هذا بشكـل مؤكد، عـاد بشكل عقلاني، لكن رفيقـه هنري هرب بشكل شرير ودنيء، وأخــذ مـال الملك وهرب به، وسـافــر إلى مناطق مـوطنه، حـاذياً حـذو الغـراب الذي لم يعـد إلى سفينة نوح، ولم يعـاود الظهور في انكلترا.

موت الكاردينال جون أوف كولونا

وفي ذلك الوقت نفسه من السنة، أي في ثمانية عيد طهارة العذراء المباركة، مات جون أوف كولونا Colona, وكان كاردينالاً رومانياً، ووعاءً لكل أنواع العجرفة والوقاحة، وكان الأكثر شهرة، والأعظم قوة في الممتلكات المدنية بين جميع الكرادلة، وكان الفاعل الأكبر والراعي المغذي للخلاف بين الامبراطور والبابا.

تثبيت المعلم روجر أسقفاً لباث

وجرى في الوقت نفسه تثبيت المعلم روجر، رئيس جوقة سالسبري في أسقفية باث، حيث شاهد بسرعة أن وقفه في سالسبري، سوف يعطى إلى حفيد البابا، وفي الوقت نفسه كان هناك راهب اسمه توماس أوف غلوستر، جرى انتخابه بشكل نظامي من صدر الكنيسة، ومن ثم تمّ تنصيبه بصورة شرعية راعياً لدير ايفهام.

موت رالف نيفيل أسقف شيستر

وأيضاً مات في العام نفسه الأب المبجل رالف نيفيل، أسقف شيستر، ومستشار انكلترا، وكان رجلاً يستحق الثناء بكليته، وكان عموداً لايمكن زحزحته بالاخلاص لشؤون الدولة، وقد أنهى مهمته الحياتية ليدخل في الحياة السرمدية، في الأول من شباط، وكان ذلك في لندن، في قصره الفخم، الذي بناه من الأساسات على مسافة عظيمة عن الهيكل الجديد.

حرمان النورمان من ممتلكاتهم الانكليزية

وفي مجريات هذه الأيام، قام ملك فرنسا، فجمع في باريس، جميع الناس من عبر البحر الذين لديهم ممتلكات في انكلترا، وخاطبهم على هذه الصورة:

«بما أنه من غير الممكن لأي رجل، يعيش في مملكتي، ولديه ممتلكات في انكلترا، أن يخدم بشكل كامل سيدين، لذلك عليه إما أن يربط نفسه بي بشكل لايمكن فصمه، أو بملك انكلترا»، وبناء عليه توجب على الذين لديهم ممتلكات وموارد في انكلترا، أن يتخلوا عنها، وأن يحتفظوا فقط بالممتلكات التي لديهم في فرنسا، والعكس صحيح، وعندما وصل هذا إلى علم ملك انكلترا، أمر بوجوب انتزاع ممتلكات جميع الناس الذين هم من الشعب الفرنسي وخاصة النورمان، ومن ذلك بدا الأمر بالنسبة لملك فرنسا أن ملك انكلترا قد خرق المعاهدات التي أبرمت بينهما، بسبب أنه لم يفعل كما فعل ملك فرنسا، بإعطاء خيار للذين سيخسرون أملاكهم، بأن يكون ذلك في المملكة الأولى، أو في المملكة الثانية، وبذلك يمكنهم أن يختاروا لأنفسهم أي المملكتين يمكنهم أن يبقوا فيها، لكن بما أنه كان ضعيفاً جداً بجسده منذ عودته من بواتو، لم يرغب في تجديد الحرب، وفضل أن يلتزم بالصمت، لابل إنه استهدف اسكات الشكاوي الملحة للنورمان، وكذلك الرغبات النهمة والغاضبة التي أظهروها، للثورة ضد ملك انكلترا.

رسالة حول أحوال الأرض المقدسة

وانتشرت في الوقت نفسه في الأجواء المسيحية أخباراً مرضية، تأكدت بوساطة الرسالة التالية:

«من الراهب هيرمان أوف بيريغورد Perigord, القسيس المتواضع لفقراء جنود الهيكل، إلى أخيه العزيز في المسيح، روبرت أوف ساندفورد، المدرس في انكلترا، تحيات في الرب:

بما أننا ملتزمون بإخبار اخوتكم برسائل أو برسل حول ما يتعلق بأحوال الأرض المقدسة، كلما تهيأت الفرصة وقدمت نفسها، والذي ينبغي أن تعرفه أن سلطان مصر، بعد الأضرار التي تلقاها منا، وأن

الناصر، الذي كـان آنـذاك يتـوسع بمشـاريعـه، والذي هـو مسـاعـده، والمضطهد للصليبيين، والـذي لم يتوقف، قد أرغـم مؤخراً وذلـك وفقاً لقواتنا، على التفـاوض معنا، وإن كان مكرهاً، وعلى إعـادة عقد الهدنة، وقد وعد بأن يعيد إلى الصليبيين جميع الأراضي الواقعة على هذا الجانب من الأردن، وبناء عليـه رأينا أنه من المناسب أن نرسل في هذه المناسبـة، إلى حضرة السلطان المذكور في مصر، مندوبين، رجـالاً نبلاء ومستقيمين من إخواننا الرهبـان، وقد تحفظ عليهم وأبقـاهم لمدة نصف سنة وأكثر، وقد اقتطع مما كـان وعدنا به من قبل: غـزة، والقديس ابراهيم (الخليل) ونابلس، وبيسان، وأماكن أخرى، وكان هذا الإجراء مؤذياً لنا، ثم إنه لم يعطنا شيئاً سـوى كلام مخادع وفـارغ، لكننا نحن أدركنا بفضل النعمـة الربانيـــة مكره وغـــدره، لأنه أراد الحصـول على الهدنـة منا فقط، حتى يتمكن بسهـــولة أكبر أن يضع تحت سيطرتـه سلطاني: دمشق، وحمص، والناصر صـــاحب الكرك مع أراضيهم، حتى عندمـــا يتمكن أخيراً من وضع الأراضي الاسلامية بين يديه، التي هي مجاورة لأراضي الصليبيين، هو لن يحافظ ولابشكـل من الأشكال على أي من عهـــوده معنا، وذلك مثلما خرق وعوده مع قومه، ووقتها سوف لن يتمكن الصليبيون، الذين هم على هذا الجانب من البحـــر، والذين هم ضعفـاء جـــداً، وعـددهم صغير من الصمود، ووقتهـا لن يكونوا قـادرين على المقاومة، وقـد قمنا بحكمة بالتـداول حول هذه المسألة، وكنا بحـاجة إلى نصيحة الأسـاقفة وبعض بـارونات البـــلاد، وبعـــد ذلك رفضنـا بشكل صحيح هـدنة السلطان المذكـور، ورأينا من الأفضل التعـامل مع سلطان دمشق، ومع الناصر صـاحب الكرك، وبنـاء عليـه تخليـا للصليبيين عن جميع الأرض الواقعـة على هذا الجانب من الأردن، وذلك بـاستثناء القـديس ابراهيم، ونابلس، وبيسان.

ولهذا يتوجـب على الملائكة والرجـال أن يبتهجوا، لأن مـدينة القدس

المقـدسـة مسكونة الآن من قبل الصليبيين فقط، لأن جميع المسلمين قـد جرى طردهم منها، وجميع الأماكن التي منذ ست وخمسين سنة لم تشهد دعاء لاسم الرب، يقـوم أساقفة الكنيسة باصـلاحها وتطهيرها، ويحتفل بالقـداسات الآن فيهـا يومياً، ولذلك الحمـد للرب وله الشكر، ولزيارة هذه الأماكن الطـريق هو مفتوح وحر، وآمن للجميـع، وهذا ليس أمراً مشكوكـاً به، بل من الممكن بقـاء ذلك بسعـادة، وبوضع مـزدهر لوقت طويل من الزمـن، إذا مـا كـان المسيحيين وحـدهم على هذا الجانب من البحـر، شروعـاً من هذه اللحظة بعقل واحـد، وبقلـب واحـد، ولكن ياللأسف، كـم عـددهم كبير الـذين مـوجـودين، والذين من خـلال الكراهيـة والحسد هم مضـادين لنا، ويسببـون الاضطرابات لنا، في هذه القضايا وسواها، التي توسع الأرض المقدسة.

وبناء عليه إننا وحدنا، مع رهباننـا، وأساقفة الكنائس، مع عدد قليل من بارونات الأرض، الـذين قـدمـوا إلينا كل مسـاعـدة ممكنة لديهم، نحمل على أكتافنا عبء الدفاع عن الأرض، وقـد رغبنا بامتلاك مدخل إلى المنطقـة، التي تلامس أرض مصر، وممراً أيضاً في أرض القـدس، أي أن تقـول نحو غـزة، وبهذا نلنا العـون من سلطان دمشق، وكـذلك من الناصر، صـاحب الكرك، لكن ليـس من دون خطر عظيم، ومتـاعب وانهاك لأشخاصنا، ونفقـات كبيرة في المال، مع تفكير حكيم وطويل قد أعطي إلى هذه الأعمال، ومع ذلك نحـن نخشى بأن يقـوم الرب بأخـذ انتقـام ثقيل، بمعـاقبـة العـاقين الذين كـانوا متراخين وعصـاة في هذه القضية، علاوة على ذلك، إننا نقترح، في سبيل حـراسة وسلامة أرضنا، أن نبني قرب القـدس، فوق جبل الطور، قلعة قوية جـداً (إذا ما نجحنا بالحصـول على عون رجال شجعـان) بها نأمل بأن تكون عمليـة الحفاظ على الأرض أكثر سهولة، ومدافع عنها إلى الأبد، ضد الأعداء، ذلك أن الأشيـاء التي نمتلكها، إننا ولابحـال من الأحوال في وضع يمكننا فيـه

تملكها والدفاع عنها بقوة لوقت طويل ضد السلطان، الذي هو قوي جداً، ورجل بارع، وذلك إلاّ إذا قام المسيح وأتباعه المخلصين بتقديم مساندة فعالة لنا.

مصداقية الرسالة المتقدمة مدعاة للتساؤل

عندما وصلت هذه الأشياء إلى مسامع كثير من المسيحيين، لم يتمكنوا من منح الثقة لا إلى الكلام ولا إلى الكتابة، ومرد ذلك وسببه سوء سمعة الداوية، ومثلهم أيضاً سمعة الاسبتارية، لأنهم قالوا بأنهم دوماً يثيرون الصراع بين الصليبيين والمسلمين، حيث يمكنهم أثناء الحرب الحصول على المال من الحجاج القادمين من جميع البلدان، وكذلك بسبب خلافاتها المتبادلة، وكذلك بسبب أن لديهم نية باعتقال شخص الامبراطور، علاوة على ذلك، يمتلك الداوية في العالم المسيحي تسعة آلاف عزبة، ويمتلك الاسبتارية تسعة عشر ألفاً إلى جانب التعويضات ومختلف الموارد التي تأتي من رهبانهم، ومن المقتنيات، التي كلها تزداد بامتيازاتهم، ويمكن لكل عزبة من هذه العزب، أن تجهز من دون صعوبة جندياً واحداً، مسلحاً بشكل جيد وأن يكون شاكي السلاح، من أجل نجدة الأرض المقدسة، وأن يكون أيضاً مزوداً بجميع الأشياء التي لها علاقة بالتسليح الكامل للجندي، وعندما يتأمل المسيحيون بهذه الأشياء، ويتفكرون حولها، يفترضون دوماً أنهم يخفون بعض الغش، وأن لديهم بعض الخيانات الذئبية تحت رداء الشياه، لأنه لو لم يكن هناك بعض الخيانة والغش، لأمكن لأعداد كبيرة جداً من الفرسان الغربيين الشجعان، أن يخرقوا جميع صفوف المشارقة وأن يلحقوا بهم هزيمة ماحقة.

إصلاح طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان وفق نظام البندكتيين

وفي الوقت نفسه، كان الرهبان، وبشكل رئيسي رهبان الدومينيكان،

جـاهلين بأحكام طائفتهـم، وقـد أدينوا بشكل غير حكيم تمامـاً، على أسـاس تجاوزهم لأنظمة القـديس بندكت، الأمر الذي أظهـرناه في هذا الكتاب، قبل عدة فصول، وقد عـوقبوا بممارسة القسوة البابوية عليهم، وجرى توجيههم نحو طريق أفضل بموجب سلطات الرسالة التالية:

«مـن أوتـو الـذي هـو بـالاذن الـربـاني، أسقــف بـورتـو Porto, للقديس روفين Rufin وغودفـرد Godfred, وبالرحمة الربانية كـاردينال شماس للقـديس أدريان Adrian, إلى جميع الذين ســوف يحترمون هذه الرسائل، تحيات الرب:

اعلموا بأننا رأينا، وبيقظة تفحصنا الرسائل الرسولية، التي لم تمح، أو تمسح، أو تتشـوه، في أي جـزء، بل هـي في شكلهـا الأصيل، فـوجـدنا مرسوماً صحيحاً، لم تتعرض خياطته أو كتابته، ولاورقه للتلف، والذي محتواه هو التالي:

من انوسنـت، إلخ، إلى معلم ورهبـان طائفـة الدومينيكان، صحـة ومباركـات رسوليـة: إنه ليس فقط لصـالح الرهبان، بل أيضـاً لصالح الدير، أنه جرى منح وقت للامتحان وسمح به من قبل الآباء المقدسين، في أن يتمكن أحدهم في الحصـول على نموذج عن صرامـة طريق الحياة ذاك، وأن يتمكن الآخـر من الحصـول على الـوقت لكي يتعلـم مبـادىء مثل الدير والرهبـان، وفي أحكام القديس بندكت جـاء الأمر أيضـاً، أن الذين هم على نقطة التحول، سـوف لن يجدوا دخولهم إليـه سهل جداً، بل حسب تعاليم الرسول، ينبغي فحصه لتبيان فيها إذا كانت الروح من الرب، وأن المصاعب والمخـاطر القائمـة على الطريق إلى السماء، يتوجب إيضاحهـا تماماً، وأضيف فيها بعد في الأحكام نفسهـا، ينبغي إخباره، أن هناك شريعـة، في ظلها عليك أن تتابـع الأعمال الروحية المفيدة، فـإذا ما كنت قادراً على الالتزام بها، ادخل إلى الرهبنة، لكن إذا لم يكن بإمكانك ارجع حـراً كما أتيت، وعـلاوة على ذلك، فإن سلفنا البابـا غريغـوري،

صاحب الـذكرى السعيدة، قـد وضع شريعة قضت بإعطـاء المستجدين الذين هم تحت الامتحـان، قبل ارتداء الـزي الديني، إلى الذين يعملون النذور الرهبـانيـة، أو قبل أن يعملوا نذورهم، يمكنهم —إذا أرادوا— خلال عام، العودة إلى طريقتهم الماضية في الحياة، ومرة ثانية، حتى نزيل كل شـك حـــول هذا الموضـــوع، بما أنـه هناك في بعض الـديرة، زي المستجدين فيهـا ليس متميزاً عن زي المحترفين، لأن الثيـاب التي تعطى إلى الذين عملوا نـذورهم تجري مبـاركتهـا أثناء الاحتراف، من الممكن عمل تمييـز بين أزياء المستجـدين وأزياء المحترفين، ومع أنك بحماسك، لديك رغبـة عظيمـة لكسب الأرواح إلى الرب، مـع ذلك إنه بسبب أنه من المطلوب ومـن الموائم، أن لايكون حكم العقل بحـاجـة إلى نقــاء الضمير، خشيـــة أن يحصل أذى إلى الخلاص من ذلـك المصـــدر، الذي صمم فقط لمنح المنفعـة الروحيـة، قمنا نحن بناء على نصيحـة إخـواننا، وبمـوجب سلطات هذه العروض، بمنعكـم بكل دقة، بمـوجب فضيلة طاعتكم، وتحت طائلة آلام عقـــوبة الحرمـان الكنسي، من الإقـدام على قبول أي واحد سوف يعمل النذر في طائفتكم، أو أن يتخلى عن الدنيا، قبل انقضـاء سنة امتحـان، تؤسس بشكل نظامي بمثـابة عـون للضعف البشري، ولمنع أي إنســان، بكل طريقـة من الطرق، إذا كـان في وضع المستجـد أو الامتحـان، من العبور، أثناء سنة الامتحـان نفسهـا، إلى أي طائفـة رهبانية أخـرى، سوف يظن أنها أفضل، أو يعتقـد أنه أحسن إلى حـريتـه الانتقال حسـب إرادته، دون أن يعبأ بأي نظام يمكن أن يكون معـاكساً، وإذا كنا قـد أمـرنا قط بشيء من هذا، نحن نعلم هنا أن ذلك ملغى وفارغ، أو أية رسائل تمّ الحصـول عليها، أو سيتم الحصول عليها من الآن فصـــاعـــداً، من الكرسي الرســـولي، لاتقـــدم ذكـراً واضحـــاً للمقـدمـات، وإذا صدف بشكـل ما وأقـدمتم على استقبـال أي واحـد بشكل معاكس لهذه المحظورات، نحن نرسم، بأن الذي جـرى استقباله على هذه الصـــورة، هو ليـس مـــرتبط بطائفتك، وأنك منـذ وقت تقبله

للاحتراف في الطائفة نفسها، سوف تكون بالفعل معلقاً، وأكثر من هذا عرضة للعقوبة التي يجري انزالها برهبان الطائفة، بسبب جرائم أعظم، لاتدع أحداً، بناء عليه إلخ. صدر في مدينة كاستيلانا Castellana, في السابع عشر من حزيران، وفي السنة الأولى من حبريتنا».

«وقمنا بناء على شكوى الرهبان الفرنسيسكان، بنسخ محتويات هذه الرسائل كلمة كلمة، وأن يجري تثبيتها بأختامنا. صدر في سوتري Su-tri في اليوم الثالث من حزيران».

وجرى نشر هذه الرسائل، التي تمّ الحصول عليها، في هذه الآونة من السنة وتعميمها، مع الأمر بالالتزام بها كما تقدم.

ملك إنكلترا يتولى تعيين بعض المستشارين الجدد

وفي هذه الآونة عيّن السيد الملك اللورد بوينتز بيبر Poyntz, Piper فارساً، يقوم بأعمال القهرمان لقصره، وكذلك بوينتز نفسه، وجون مانسيل Mansel, مستشار كنيسة القديس بولص في لندن، وكانا معاً شخصين حكيمين ومجربين، ليكونا مستشاريه الرئيسيين وكذلك المعلم لورانس من كنيسة القديس مارتن، الذي كان فيما مضى مقيماً كمرافق مقرب لوليم، الأسقف المنتخب لبلنسية، ولييج، والذي هو مدير لجميع مجالس الملك، ولجميع القضايا المتعلقة بالكنيسة، فقد جرت ترقيته الآن ليكون قسيسه وكاهنه الخاص، لأنه كان رجلاً صاحب حكمة كبيرة وخبرة.

فرار أسقف وينكستر إلى فرنسا

وفي تلك الآونة، لاحق أساقفة: لنكولن، وووركستر، وهيرفورد، الملك، الذي وضح أنه كان يتجنبهم، ووجدوه، أخيراً في ويستمنستر، فوجهوا الملامة إليه بحدة، من أجل اضطهاده وطغيانه، الذي لم يتوقف عن ممارسته يومياً نحو أخيهم وزميلهم، أسقف وينكستر، وفي الوقت

الذي قـدموا فيه الالتماس بعـد الالتماس، أضافـوا التهديد إلى التهـديد، وكـانوا جاهـزين لوضع بيعته تحت الحرمـان من شراكـة المؤمنين، طلب الملك بعض التأخير، حتى يمكنه إجـابتهم حـول الموضـوع بدقـة أكبر، وذلك حتى يعود رسـوليه، اللذان كانا قـد عبرا الألب، لأنه كان يأمل، من دون أدنى شك، بأنهما سوف يرشوان البلاط البابوي، وأن ينفذا كل شيء وضعـاه بذهنيهما، وتولى الأسـاقفـة الذين تقـدم ذكـرهم أعـلاه الاستجابة لطلب الملك، ولكن عندمـا شاهد أسقف وينكستر انخفاض حرارة اندفاعهم، هرب بشكل سري، في العشرين من آذار، حيث ركب ظهـر سفينة في لندن، في سبيل أن يعبر إلى فـرنسـا، وقـد أبحـر عبر نهر التيمز، وقطع مسافة قصيرة إلى البحر، ووصل إلى ميناء القديس فاليري Valerie, قبل حمل أخبـاره إلى الملك، أو إلى أي واحـد من أعـوانه، ثم أنـه انتقل مـن هناك إلى أبيفيـل Abbeville, وهناك استقبـل بشكل رسمي من قبـل مبعـوث من ملـك فـرنسـا، فقـد استقبله هذا المبعوث نيابة عن سيده، بسرور وبهجة، وبأسارير فرحة، ووعده بجميع الأشيـاء التي نصح بها الملـك، وبالمسـاعـدة، مع كل مـواسـاة وحماية، وأعطى أيضاً أوامـر، صادرة عن سيـده، بأن يقوم عمـدة أبيفيل بإعداد جميع سكان أبيفيل، وأن يجعلهم جاهزين للدفـاع عن الأسقف المذكور، إذا صدف وأمـر ملك انكلترا بملاحقتـه وإلحاق الأذى به، وأن يطيروا وقت تطلب الحاجـة إلى السـلاح، وأن يقـاتلوا برجـولة ضـد جميع المهاجرين دفاعاً عنه.

مقتل غريفن بن للويلين أثناء محاولته الفرار من برج لندن

أثناء موت الحظ، وتأثيره هكذا على شؤون العـالم، كان غريفين الابن الأكبر لـ «للويلين» أمير شمالي ويلز، مـايزال محبـوسـاً سجيناً في برج لندن، وكـان يتسلم كـل يوم من خـزينة الملك، نصف مـارك لتـزويده بالطعـام وإلخ، وبسبب مكانتـه، ومع أن زوجتـه تسلمـت إذناً بزيارته،

كـان متأثراً بعمق بمشـاق السجن الطويل التي كـان غير معتاد عليهـا، وفكر كثيراً حـول كيف يمكنه الفـرار مـن مـوضع سجنه، وفي إحـدى الليالي، قـام بعدما خـدع سجانيه، فعمـل حبلاً من أغطية فـراشة، ومن ستائره وأغطية مـائدته، قام بتدلية نفسه عامـودياً، بوساطة الحبل نفسه، وذلك من أعلى البرج، وبعـدما نزل بعض المسافـة، انقطع الحبل، بسبب وزن جسده، وسقط مـن علو كبير، لأنه كان رجلاً كبيراً، وبـدين جداً، وبهذه الطريقـة دق رقبتـه ومـات، وتـم العثـور على جسـده المحـزن في الصباح قرب سور البرج، وقـدم مشهداً مؤسفاً لجميع الذين رأوه، لأن رأسه مع رقبته كـانا مدفونين تقريباً في صـدره، بين كتفيه، وعندما سمع الملك بهذا، وبخ الحراس وعـاقبهم بسبـب إهمالهم، وأمـر بابن غـريفين المذكـور، الذي كـان مسجـوناً مع أبيـه، فشـدد الحراسـة عليـه، ومـات غـريفين المذكـور، الذي سقط من البرج كما ذكـرنا، في اليـوم الأول من آذار.

تناقص شعبية ملك إنكلترا بسبب نفي أسقف وينكستر

عندمـا نفي أسقف وينكستر، تناقصت سمعـة ملك انكلترا كثيراً، في جميع أرجـــاء البلـدان الواقعـــة على هـذا الجانب مـن الألب، واتخذ الفـرنسيون، الذين كـانوا دوماً خصـوم الانكليز، ذلك حجـة من أجل فضحهم، قائلين:

«انظروا إلى هناك، نحـو ملك انكلترا، الكسـول والمهمل بالنسبـة إلى جميع أعداء المملكة، لكـن المضطهد والمعذب لأسـاقفته المقـدسين، ولقد كان هناك مـن قبل القديس أنسلم رئيس أسـاقفة كانتربـري، ومن بعده القـديس تومــاس الشهيـد، والآن في السنوات الأخيرة المعترف المجيـد ادمــوند، ومثـل ذلك هناك الآن الرجل التقـي أسقف وينكستر، الذي خـدمـه لوقت طويل بإخـلاص، وكـان صـديقـاً مقـرباً منه، لكنه الآن يرفض أن يسمح له أن يكون في أمان السـلام، والذي طرده، بلا حياء،

إلى خارج حـدود مملكته، ثم هو يطارده بطريقـة عدوانيـة»، الأمر الذي عندما بات معروفـاً من قبل بونيفيس الأسقف المنتخب لكانتربري، قام صدوراً عن عـاطفته ولطفه الفطري، ولحزنـه على تناقص شعبية الملك، فكتب بطريقة حبية كثيراً إلى أسقف وينكستر كلمات مواساة، وإلى ملك انكلترا كلام تقريع، وفق الصيغة التالية:

رسالة بونيفيس المنتخب لكانتربري إلى أسقف وينكستر

«من بونيفيس، الذي هو بنعمـة الرب، المنتخب الحقير لكانتربري، إلى الأب المبجل في المسيح وليـم، الذي هو بنعمـــة الرب أسقف وينكستر، تحيات في الرب:

بما أنك قـدمت في رسـائلك طاعتـك إلينا، وللمنصب الذي نشغله، نشكرك في المسيح من أجل تقواك، وحسبما قضيت أنه مناسبـاً أن تتقدم بطلب إلينا بوسـاطة المعلم وليم، الذي هو كـاهنك، إعلم بأننا تعـاطفنا مع شكواك، بقدر أن لانغضب الرب، أو نخرق القانون، وسوف تسمع المزيد حـول هذا من وليم المذكـور، واعلم واسترح متأكـداً، أنه قبل قـدومنا إلى انكلترا، إذا لم يكن السـلام بينك وبين الملك لم يسترد، بإننا سوف نصرف أنفسنا بكل فعالية لذلك، ولسوف نستخدم وسائل أقوى للحصول على محصلة عادلة لهذه القضية، وبما أنه ليس لدينا ختم خاص بنا، استخدمنا هذا الختم العائد لهيئة كهنة بيلي Bellay, وداعاً».

رسالته إلى ملك إنكلترا

«من بونيفيس، إلخ، إلى الملك، إلخ:

لقـد تلقينا رسـائل من بعـض الأسـاقفـة المسـاعـدين في كـانتربري، يلتمسـون فيهـا بكل اخـلاص إقـامـة سـلام بينكم وبين الأب المبجل المسمى لكنيســة وينكستر، والذي تسميتـه قـد جـرى قبـولها من قبل الكرسي المقـدس، ولذلـك يتـوجب تثبيتـه، وإننا بناء عليــه، رغبـة منا

بالهدوء للمملكة، وبالحفاظ على سلام الكنيسة، التي هي عرضة للخطر في هذه المناسبة، ولأن الذي يصغي، كما يليق إلى شكوى الأب المذكور، يجد من المعروف أنه مفيد ونافع لكل من الكنيسة وللمملكة، نرجو سموكم بتقوى بأن تتلطفوا بأن تعيدوا الأب المذكور إلى حظوتكم، بحكم أنكم ملك صالح، وأمير يخاف الرب، وهكذا ينبغي أن يفعل، وبما أنه ليس لدينا ختم خاص بنا» إلخ (كما من قبل).

كما أنه كتب أيضاً إلى أسقف هيرفورد، ليشغل نفسه بيقظة وبفعالية، بما يتعلق بهذه القضية، أي قضية أسقف وينكستر بالإقناع بالالتماسات وبالتهديد.

ملك هنغاريا يطلب المساعدة من الامبراطور فردريك

وكان ملك هنغاريا في هذه الآونة قد طرد من مملكته من قبل التتار، لذلك تقدم بطلب إلى بلاط الامبراطور، وطلب نصيحة فعالة ومساعدة ضد العدو المشترك، وجرت مداولات سرية وطويلة، إثر ذلك، وقد تقرر بأن يقوم الامبراطور بيد قوية بالعمل على تحرير مملكة هنغاريا من نير الاحتلال البربري على شرط قضى أنه عندما سيسترد الملك مملكته، وعندما تعود إلى الحرية والسلام بوساطة الامبراطور سوف يعدّ الامبراطور سيداً سامياً له.

وبناء عليه جرى إرسال جيش كبير، وتمكن الامبراطور من تحرير المملكة المتقدم ذكرها أعلاه من التتار المتوحشين، لكن ذلك لم يكن من دون بذل كثير من المال، والتعرض لمخاطر عظيمة ولقد طردهم بقوة وبقدرة إلى ماوراء حدود المملكة، وكان هناك بعض الذين قالوا بأن هؤلاء التتار المقوتين، قد جاءوا أولاً بموجب دسائس الامبراطور ومؤامراته، وكانوا بانتظار مطالبه، ومرتبطين بتنفيذ أوامره، وقد تصرفوا بطريقة تمكن الامبراطور من اخضاع ذلك الملك ووضعه مع مملكته

تحت سلطانه، لكن هذا ما كـان قد تهامس به الذين كـانوا غيورين منه، ومثل هذا الافتراء ينبغي عدم تصـديقه، وعندمـا على هذا صارت مملكة هنغـاريا محررة، وعـاد ملكهـا بسـلام، صــارت هنغـاريا خـاضعـة إلى الامبراطورية، وصارت ملزمة بتقديم ثلاثمائة فارس مع أتباعهم، للقتال على الحدود لصالح الامبراطور، باخلاص واستقامة.

هزيمة امبراطور القسطنطينية والتجائه إلى الامبراطور فردريك

وفي ذلك الوقت نفســه هرب امبراطور القسطنطينيـة مـن اضطهـاد الاغريق، وبما أنه لم يكن لديه شيئاً في خزينتـه يمكنه من متابعة الحرب، أو الوقـوف ضد الهجمات المتتـابعة لـلاغريق، هرب إلى بلاط فـردريك الامبراطور الرومـاني من أجل النصيحـة والمساعـدة، وقـام الامبراطور أولاً بتقديم تهديد مـرعب ضد الاغريق، ثم إنه قام بشكل أكثـر حكمة بالمنـاقشــات معهـم، وحصل له أخيراً على هـدنة لمدة عـــام، ووافق الامبراطور فــردريك نفســه على زواج بين ابنتــه وبين المقــدم الكبير للاغـريق واسمـه بتّاكيـوس Battacius, وسبب هذا غضباً عظيماً وازعـاجاً لمولانا البـابا وإلى البـلاط الروماني كله، بسبب الشقـاق الذي أثير بوسـاطة بتّـاكيوس، وقـامت منذ ذلك الحين كـراهيـة قـاسية جـداً ومستمرة بين مولانا البابا، وبين الامبراطور فردريك.

التتار يتفرقون باتجاه الشرق

وفي الوقت نفســه، كـان التتــار يتربصـون هناك، غير قــادرين على الصمود أية مـدة أطول ضد هجمات الامبراطور، لذلك غـادروا المناطق الشمالية، وارتحلوا مسرعين نحـو الشرق، وعندما كانوا يجتـاحون بشكل وحشي بعض مناطق ايران، كـان هناك بعض الناس المتـوحشين جـداً، والذين سكنوا على تخوم البحـر الأحمر، وكـانوا إلى حـد بعيد خـاضعين لسلطان مصر، وكانـوا يعرفون باسم الخورازميـة، وكانوا قـد هربوا من

أمام تهديدات العاصفة الهوجاء، محاولين تجنب الاجتياح التتري، وقد ذهبوا إلى سلطان مصر، وطلبوا بسرعة وبوقاحة وصلف مكاناً يسكنون به، وعندما وجد السلطان أنه إذا مارفض برعونة مطالبهم سوف يستولون بالقوة على ماطلبوه وسيحصلون عليه بحد السيف، قال لهم:

«هناك على مسافة ليست بعيدة عن هذا المكان، يوجد بعض الناس، الذين يدعون باسم الصليبيين، وهم يسكنون في الأماكن الساحلية، وهم يزدرون شريعتنا، وهم مثيرين للمتاعب لنا، ويسببون الأضرار لنا، ويهددون بالبقاء هكذا والاستمرار، ومركزهم المهم ومقرهم الرئيسي هو مدينة القدس، اذهبوا بناء عليه، واطردوهم وعيشوا حيث يعيشون الآن، وهذا عندما تحصلون عليه، سوف تصبحون أثرياء بالأسلاب الثمينة، وسوف تمتلكون أراضي خصبة، وستبتهجون بالقلاع والمدن التي تتمناها قلوبكم، وسوف تكونون من ذلك الوقت سعداء في ظل حمايتي، وظل حماية جميع شعبي»، وبناء عليه فرحوا كثيراً بهذا الكلام، وهاجموا أولاً القدس وقتلوا عدداً كبيراً من الصليبيين، حسبما حصلنا على معلومات وافية عن ذلك في رسالة من نبلاء تلك البلاد.

رسالة الامبراطور حول إفراغ الأرض المقدسة من السكان

«من فردريك، الذي هو بنعمة الرب، امبراطور الرومان، والأغسطس الدائم، وملك القدس وصقلية، إلى ابن ختنه المحبوب، رتشارد، ايرل أوف كورنوول، تحيات، وعواطف خالصة أكيدة:

في راما سمع صوت بكاء ونحيب، وعويل، وحزن عظيم، وهو صوت، انتشر، كما أفادت الأخبار، مثل انتشار أخبار حزننا، وهو صوت، كما يبدو يدفعه تيار الحظ المعاكس إلى آذاننا، ليوضح أن الشرور لاتأتي لوحدها، فهناك أخبار تجلجل مثل أصوات الرعد ويتردد صداها حول القدس، وتعلن عن العاصفة المقبلة، التي فيها إفناء دموي لأتباع

المسيح، وعن الخسارة المؤلمة لضريح الرب، ثم عن التدمير المريع للمدينة المقدسة، وهذا في أيامنا! وفتحت هذه البروق سحب السماء، ليس من أجل تساقط الندى، أو زخات مطر خفيفة، بل لتهطل علينا بفيض من المصائب، ولبعض الوقت أنعش الحب، والإيمان الصحيح، المسيحيين الذين نجوا من المذبحة التي عملها الخوارزمية، ليقوموا بالانتقام لذلك الدمار، ولتلك الفاجعة الكبرى، ففي اللحظة نفسها لمؤتمرات القادة، ومع رغبة كل عسكري خاص ألهم لأن يفعل شيئاً ما رداً على تلك الانتكاسة، كان بطريرك القدس، يأمل بأن يحصل لنفسه على مجد النصر كله، وكان يبحث عن كل أمير آخر، وشريك هناك غير جدير ليكون شريكاً معه، وهنا بدأ يبشر بصليبية الرب، ورفع من معنويات الذين سمعوه، وألهبهم بشجاعة وصلت إلى حد الطيش، وبناء عليه قام الجيش الصليبي، من دون انتظار للساعة الموائمة، وهي القاعدة الأكثر أهمية في الحرب، في يوم الاثنين قبل عيد القديس لوقا الإنجيلي، وهو مكوّن من جميع أنواع الفرسان الأجانب، قام أفراده بإلقاء أنفسهم على الخوارزمية المتقدم ذكرهم، الذين كانوا متوقعين للهجوم، وكانوا مستعدين للمقاومة، وهكذا حدث في هذه المعركة السيئة الطالع، أنه لم ينج أحد من جميع الصليبيين، من القتل، أو من الوقوع بالأسر، ونجا آخرون —وكانوا قلة قليلة— بفضل وسائل التفريج التي واجهوها أثناء فرارهم، وكان معظم هؤلاء من الذين لم يندفعوا بطيش إلى وسط حومة القتال، حيث كان هناك قرع للسلاح، وزمجرة ضربات المتنازلين، وكان الذين نجوا من بين جميع بارونات الأرض المقدسة، ومن عساكر مملكة القدس، ومن بين جميع عسكريي رهبان الداوية، الذين بعثوا بثلاثمائة، ومن اسبتارية القديس يوحنا، الذين كانوا قد أرسلوا مائتين، ومن بين جميع الذين حشدهم فرسان رهبان القديسة مريم للتيوتون، كان الذين نجوا من هؤلاء ليس أحداً، إلاّ البطريرك المتقدم الذكر، واللورد سيمون دي مونتفورت (الذي كان

حامل علم المملكة، وقائد المقدمة) وأربعة فرسان، وعدد ضئيل جداً من خدم الداوية، وتسعة عشر من الاسبتارية، وثلاثة خدم فقط من خدم الفرسان التيوتون، فهؤلاء فقط الذين عادوا، ولقد عادوا إما لحسن حظهم، أو بوساطة الفرار، وكان هناك رجال من ذوي الشهرة مثل أسقف اللد، وصاحب حيفا، قد سقطا على أرض المعركة، وقد أصيبا بجراحة مميتة، وقد أصيب وولتر أسقف يافا بجراحة قاتلة، أما رئيس أساقفة صور الذي لم يمت من جراحاته، فقد ألقي به في السجن، وقد علم سمونا بهذه الأشياء كلها، من الرسائل التي أرسلت إلينا من بيت رهبان القديسة مريم للتيوتون.

وتسبب هذه المحصلة المحزنة للأشياء، وتقدم في ذاتها سبباً للأسى، وتسحب المرارة من قلوبنا، ومن قلوب جميع أمراء الإيمان المسيحي، وهي تستحق انهمار فيض من الدموع من أعيننا، بسبب طبيعة الفاجعة، لأنه تقدم عليها خطأ كبير، وتبعها كثير من الإهمال، لأنه بالاضافة إلى إثارة هياج الفخار الديني للداوية، الذين عاشوا على موارد بارونات الأرض، لقد أرغموا بحرب غير عادلة وغير حكيمة سلطان مصر على طلب مساعدة الخوارزمية، وذلك في ازدراء كامل لمعاهدتنا الملكية التي عقدناها مع ذلك السلطان، ومعنا بيتي رهبان القديس يوحنا، والفرسان التيوتون للقديسة مريم، وقد أظهر هؤلاء الذين تقدم ذكرهم سذاجة طفولية، ودليل على الحماقة وذلك عندما وضعوا ثقتهم في البرابرة المتذبذبين، متوقعين أن يجدوا الوفاء لدى الخونة، فباستخدامهم لوسائل غير أمينة، اتحدوا مع سلطاني دمشق، والكرك، اللذان لم يختلفا عنهم بالعقيدة فقط، لابل تفاوتا معهم بالمصالح، وكان الهدف من ذلك تقديم العون ضد الخوارزمية والسلطان، وكانوا بهذا كمن أرسل بكميات من الزيت لصبها فوق النار الملتهبة.

وبناء عليه، حسبما سمعنا بشكل واضح، وروي لنا، من بعض

الرهبـان الذين قدمـوا من المناطق الأجنبيـة، استقبل الداوية السلطانيين المتقـدمي الذكـر، مع أتباعهما في أرباض بيـوتهم، أي بيـوت الداوية مع الفرح و الاحتفالات، وسمحوا لهم بممارسة شعائرهم الوهمية، وأبهتهم المدنيـة، مع الدعـاء باسم محمـد (صلى الله عليـه وسلم)، ولم يعـد من الممكن إبعـاد هؤلاء الذين وجهت إليهـم الدعـوة، ولابـأي شكل من الأشكال، ولاباللطف من طبيعتهم، كما أنهم لم ينثنوا عن البقاء بوساطة وعد التحالف، الذي أقسموا عليه، وذلك عن متـابعة ميولهم العدوانية، لابل أظهروا بشكل واضح جداً أن الحنث باليمين وليس بالحري الوفاء به، هو الذي قائمين به، أمـا سلطان حمص، الذي أرسله سلطان دمشق، لمسـاعدة الذيـن عملوا تحالفاً للقتـال ضـد سلطان مصر، والذي لم تكن لديه آمـال بنيل الخير على يدي سلطان مصر، فقـد هرب، ونجـا من المعركـة مع خمسة فقط من رجالـه، أما بالنسبة للبقيـة، فإنهم بعد صراع قصير، تظاهروا فيه بالقتـال، ذهبوا سـالمين مع رجالهم كلهم إلى سلطان الكرك، من دون قتـال، ولاحتى مايشبـه القتال، وهكذا صفـوا أنفسهم على جـانب الذين اقترنوا بهم في قلوبهم، وعـلاوة على ذلك إن الإهمال الشـديد الذي هو الخطوة الأخيرة نحـو الدمـار، عندمـا تكون سـلامـة واحـد معلقـة على عصـا، ويلفظ كل خطر، ويهددنـا بدمـار سريع، وبالنسبـة لـزعماء الشريعـة الأرثوذكسيـة —وهو أمـر نحن جميعـاً أرثوذكس— لايمكننا أن نكتب عنهم من دون ألم كبير، هم بعيدين عن التفكير حـول ترميم مثل هذه المأساة المحـزنة، باستثناء التنهـدات، وفق طريقـة أجـدادنا، من أجل مثل هذه الأحـداث المؤسفـة، ولكن وكأن الشـؤون لم تكن شـؤون المسيحيين، أو الإيمان المسيحـي، لم نهتم بجراحاتنا، ولم نهتم حول أوجـه المعالجات، فالرب قد طاردنا، ونحن لم نتشكى، فنحن محاطون مـن كل جـانب بأسقفنا المحترقـة، ومع ذلك لم نركض من أجل احضـار الماء، لابل كل واحد متمجـد مسرور في سوء حظ الآخر، ففـي المكان الأول الوحشية الجديدة للتتـار قد أذهلتنا، وفي

المكان الآخر هناك النكد القديم للشعوب البربرية يحرقنا ويعذبنا.

ثم هناك في الأماكن الأخرى الخيانة المخجلة للبيترنيين التي قد أغضبتنا، وفوق كل شيء، خيانة الذين يضعفون الامبراطورية المقدسة في إيطاليا بوساطة أعمال عصيانهم، حيث أنهم بذلك يعيقوننا عن اخضاع الشعوب البربرية إلى الامبراطورية المسيحية، وفقاً لما تطلبه الكنيسة الكاثوليكية في طقوسها المقدسة، وهكذا دفعنا في كل اتجاه من قبل الأعداء المعلنين، أو من قبل عذاب الأعداء المتخفين، والشيطان يعمل بشكل متواصل، وهو متيقظ، بينما سمعان نائم، ونحن غير مُتسامح معنا هناك، حيث يمكن للنوم أن ينعش أعيننا، وللرقاد أن ينعش قلوبنا، وانهضوا بناء عليه، أيها الرجال الشجعان، واحملوا سلاحكم وترستكم للانتقام لأذى أيامنا، فهي مدونة بشكل أننا لايمكن أن نتجنبها، والرب هو الشاهد علينا، بأننا قدمنا دوماً بكرم زائد العون لمساعدة الأرض المقدسة، أكثر مما طلبته من عون من الآخرين، لأننا نعتقد أنك لست جاهلاً بالعسكريين من وراء الألب، الذين هم قوم يحبون القتال، وكيف أنهم حملوا شارة الصليب الرائع، وعهدوا بأنفسهم لخدمة الأرض المقدسة، ثم كيف دعوا بوجوب أن يعهد بها إلى مقدم مشهور، وأن يجري توجيهها من قبل الذين كانوا يعبرون البحر، فلم يرفض سمونا منحها التأييد بموافقتنا.

علاوة على ذلك، لقد عرضنا شخصنا، أو شخص ابننا، أو أي قائد آخر، يراه هؤلاء القوم أنه شخص مناسب، واعدين بوجوب أن يصاحب الجيش ألف فارس مأجورين، نحن سوف نتولى الدفع إليهم باستمرار، للمساعدة في مثل هذا الشيء الجيد، وبناء على هذا أرسلنا بيرارد Berard, رئيس أساقفة بلرم، وأسقفي ريغيو Reggio, وفلورانسا، وكذلك غ. G أسقف سوسة، المحببين منا والمقربين إلينا، إلى غريغوري، الذي كان آنذاك الحبر الأعظم الحاكم، وذلك

ليكونوا بمثابة نواب خاصين من سمونا، ليسألوه لاشيء أكثر من الحماية —بوساطة حارس أمين ومناسب— لنا، ولأولادنا، ولامبراطوريتنا، ولممالكنا، ولكي يمكن أخيراً إرجاع اللومبارد المعاندين الوقحين والعصاة علينا، إلى معاودة الاعتراف —حسبما متوجب عليهم أن يفعلوا— بالحقوق وبالسيادة العائدة إلى الامبراطورية الرومانية، ومن أجل أنه عندما يشاهد العصاة المتقدم ذكرهم أعلاه، أن إتحادهم، أو بالحري، تآمرهم قد جرى تدميره، وقتها يمكن أن يدفعوا من أجل أن يسددوا لنا مواردنا، مثلما يفعل رعايانا الآخرون، وكما تدفع الدول الأخرى إلى ملوكها وسادتها الشرعيين.

ثم إننا بعدما قدرنا الظروف، وأحوال الزمان، رأينا مسبقاً ماوقع حالياً، وارتعبنا منه، (مع أن معرفة الذي سيكون هو أمر مرفوض ولايمكن معرفته من قبل إنسان فاني) لأن شرور الأيام قد اتسعت بشكل كبير، وأنه في سبيل دمار ايطاليا سمح البابا الحاكم للكنيسة، بموافقة مع البابوية وتنسيق بزيادة عدد أعدائنا، وغريغوري البابا الحاكم قد مات، وقد ضعفت السلطة البابوية بخلافات هذا الوقت وتمزقاته، والذي يحكم الكنيسة الآن، والموضوع على رأس البابوية، قد قدمنا له، بوساطة مندوبينا مقترحات أكبر بكثير، مما كان من قبل، وهي مقترحات ما من أحد فكر مصيباً قط، أن من الحق جواز رفضها، وعدم قبولها، وهذه المقترحات، هي أننا بعد اعتمادنا على مولانا الجبار يسوع المسيح، الملك المنتصر، صرفنا أنفسنا لأن نحمل على أكتافنا حملاً ثقيلاً، وأن نثقل أنفسنا بجميع شؤون ماوراء البحر، وعلاوةعلى ذلك فيما يتعلق بالعاصفة المهددة للتتار، وبالمخاوف من جهة امبراطورية القسطنطينية، فذلك سيكون وفقاً لما قدمه الرسول المتقدم لسمونا من تعليمات إليكم وإلى الملوك الآخرين والأمراء.

آه، كم كانت الفوائد كبيرة، التي كانت ستكون بعد حين، لفائدة

الصالح العام، من الترياق الذي تم عرضه من قبل اخلاصنا، في الوقت الذي كـان من الممكن فيـه معـالجة الضعف، وذلك قبل وقـوع الضربة الثانيـة من الحظ المعاكس، وتوجيهها ضد الجرح، ومضـاعفة آلام الندبة الأولى، ونحن لانعتقـــد أن الأمـــور ينبغي أن تترك هكـذا لليأس أو للمـوت من دون التفكير بعـلاجـات هـي ممكنة وينبغي العـودة إليهـا، وبالنسبـة إلينا، إن جبروتنا لايمانـع في المسـاهمة في خطة مفيـدة من هذا النوع، لابل إننا نعـد بتقديم مكاتبنا الجيـدة برغبة أعظم، ولأننا نشـاهد بأن الفأس قـد وضع عند جـذر الشجرة، نقـدر أنه بات من الضروري بالنسبـة لنا ولجميع أمـــراء الإيمان الصحيح، أن يقـــدمـــوا بناء عليـــه المسـاعدة، حيث مـادامت إيطاليـا على كل حال بسـلام معنا، وممتلكاتنا وحقـوقنا التي تمتع بها أبوينـا الأقـربين بسـلام في كل من الامبراطورية والمملكة، حيث عـادت إلينا ومعنا بسـلام، فإنـه بذلك استرد جناحـانا نشـاطهما، وتماسك ريشهما، فبهما يمكن أن نحلّق عــاليـاً بأمـان أعظم. صـدر في فـوجيـا Foggia, في السـابع والعشرين من شبـــــاط، في العلامة الثالثة».

رواية موجزة حول الفاجعة المذكورة أعلاه

وكـان سبب هذه الفـاجعة المحـزنة، التي ورد ذكـرها أعـلاه، والتي وقعت أولاً في مدينة القدس هو مايلي: عندمـا قام الخوارزمية بهجومهم المفـاجىء على البطريرك، وعلى سكان المدينة، هرب البطريرك المذكـور، مع أسر أهل المدينة بكل سرعة إلى يافا، للالتجاء هناك، وقام الخوارزمية المكرة، في سبيل إعـــادة الفـــارين، واصطيـــادهم لقتلهم، برفع أعـــلام الصليبيين —الذين كانوا قد هربوا فجأة— فوق شرافات أسوار المدينة، ونتيجـة لهذا، فإن بعض الصليبيين الذيـن كـانوا متخفين خـارج المدينة، تركـوا أمـاكن تخفيهم، وامتطـوا خيـولاً سريعـة، ولحقـوا ببني جلدتهم الصليبيين، بموجب عـواطف روح الأخوة، ودعـوهم للعودة، وأعلنوا

بأن رفاقهم الذين بقيوا في المدينة، قد انتصروا بسعادة على أعدائهم، ورفعوا أعلامهم بسرور فوق الأسوار، وبناء عليه عادوا، لكن عندما حملوا أنفسهم مع شعور بالأمان، ودخلوا إلى المدينة، أو إلى أحوازها، كان القوم المتقدم ذكرهم مسلحين حتى أسنانهم، وكانوا مستعدين من قبل، ولذلك انقضوا على الصليبيين الفارين، وقتلوهم جميعاً بحد السيف، ثم قام قومنا الذي بقيوا سالمين ولم يتعرضوا للأذى في المدن والقلاع الأخرى، فحشدوا جيشاً كبيراً، وقرروا بالاجماع طلب الانتقام لدماء إخوانهم، وأن يكون انتقامهم من أعدائهم دموياً وبأيدي ثقيلة، وأنشبوا معهم القتال، لكنهم سحقوا، كما هو واضح من رسالة الامبراطور المكتوبة أعلاه، وهكذا كان نصيب الأكثرية القتل، وكانوا قلة الذين جرحوا والذين نجوا بالفرار، بعدما تركوا أعداءهم يتفاخرون بالنصر الدموي الذي نالوه عليهم، وذلك حسبما اعترف الأعداء أنفسهم بأفواههم، بعد المعركة، التي استمرت من الصباح الباكر حتى وضع حلول ظلام الليل نهاية لها، لأنه لم يعد بمقدور أي من الفئتين تمييز الأخرى.

رسالة أخرى أكثر تفصيلاً من مقدم الاسبتارية في القدس

«إلى اللورد م. M دي ميرلي Merlaye الأعظم قوة، يرسل تحياته غ. G من القلعة الجديدة (نيوكاسل) الذي هو بنعمة الرب المقدم المتواضع للدير المقدس في القدس، والوصي على الأتباع الفقراء للمسيح:

من المعلومات الواردة في رسائلنا التي أرسلناها لكم في كل عبور يمكنكم أن تروا بها فيه الكفاية من الوضوح، كيف سارت شؤون الأرض المقدسة بشكل سيء، وذلك بسبب النزاعات التي كانت قائمة منذ زمن طويل، وذلك في وقت عمل الهدنة، وفيما يتعلق بالارتباط بموقف الدمشقيين ضد سلطان مصر، ونحن نرغب أن يعلم معاليكم

بالأحداث الأخرى بعد انقضاء الهدنة، حيث اعتقدنا أنه من المفيد أن نخبركم أنه في حوالي بداية الصيف الذي انصرم أخيراً، تصالح سلطان دمشق مع السلطان الناصر، صاحب الكرك، بعدما كانا من قبل متعادلين، فقد أقاما سلاماً فيما بينهما، ودخلا بمعاهدة مع الصليبيين، على شرط أن يعيدا إلى الصليبيين جميع مملكة القدس، والأراضي التي كانت بحوزة الصليبيين قرب نهر الأردن، إلى جانب بعض القرى، التي احتفظوا بملكيتها في الجبال، ومقابل ذلك توجب على الصليبيين أن يعطوهم كل المساعدات التي بإمكانهم في قتال سلطان مصر، وتمت الموافقة على شروط هذه المعاهدة من قبل الفريقين، وشرع الصليبيون يتخذون أماكن استقرارهم في المدينة المقدسة، بينما بقي جيشهم في غزة، برفقة جيش السلطانين المتقدمي الذكر، لمناوشة سلطان مصر ومضايقته، وبعدما انخرطوا في هذا العمل لبعض الوقت، وصل بطريرك القدس من بلاد ماوراء البحر، وبعد استراحته جسدياً لبعض الوقت، حرّكه الشوق لزيارة ضريح ربنا، وانطلق ليقوم بذلك الحج، حيث كنا أيضاً برفقته، وبعدما وفينا بنذر حجنا، سمعنا في المدينة المقدسة، بأن حشداً لاعدد له، من الجنس المتوحش والعنيد، والذين يعرفون باسم الخوارزمية، قد قام بناء على استدعاء سلطان مصر وأوامره، باحتلال جميع المنطقة الموجودة في الجزء الأقصى من أراضينا المجاورة للقدس، وتغطية وجهها، وقد جعلوا كل نفس حية طعماً للموت، بالنار وبالسيف.

وجرى عقد مؤتمر حول هذه المسألة، من قبل الصليبيين، الذين كانوا يعيشون في القدس، وبما أنه لم يكن بمقدورهم مقاومة هؤلاء الناس، ترتب بشكل عقلاني، بأن يقوم جميع سكان القدس من كلا الجنسين، ومن كل عمر، بالزحف تحت حراسة كوكبة من الفرسان إلى يافا، بحكم أنها كانت مكاناً أميناً للالتجاء إليه، وفي تلك الليلة نفسها،

وبعـدما أنهينا مـداولاتنا، اقتـدنا قومنـا بحذر إلى خـارج المدينة، وسرنا ونحن مطمئنين، نصف المسـافـة، حيث أظهـر المعيق الأكثر تدميراً لنا نفسه، وذلك بسبب تدخل الشيطان الذي هو عدونا الماكـر القديم، وقد رفع القوم المتقـدم ذكرهم على أسـوار المدينة بعض الأعلام التي تـركها الفارون خلفهم، حتـى يمكنهم بهذه الوساطة إعـادة الغافلين، بمنحهم الاعتقـاد بأن الصليبيين الذين بقيوا، قـد هزموا أعـداءهم، وبادر بعض أتبـاعنا من الصليبيين بالإسراع خلفنـا، لإرجـاعنا، وبعثـوا الطمأنينة بنفـوسنا بملامح مشرقـة، وأعلنوا بأن أعـلام الصليبيين، التي يعرفـونها معرفـة جيدة، قد رفعت فوق أسـوار القدس، وذلك بمثابة عـلامة على أنهم هزموا الأعداء، وهم بهذا قد خدعـوا، وخدعونا معهم أيضاً، وبناء عليه عدنا ونحن مسرورين واثقين إلى المدينة المقـدسة، ظانين أننا سوف نسكن هناك بأمان، وقام كثيرون انطلاقاً من مشـاعر التقوى، وآخرون بأمل الاستحواذ على مواريثهم والاحتفاظ بها، بالاندفاع من دون حذر، فعـادوا إلى المدينـة نفسهـا أو إلى أرباضهـا، وسعينـا نحن —على كل حـال— لثنيهم عن هذا كلـه، خـائفين مـن خيـانة من هؤلاء القـوم الغادرين، ولذلك تخلينا عنهم وغـادرناهم، وحدث بعد أمـد وجيز من مغـادرتنا، أن قـدم هؤلاء الخوارزميـة الخونة بقـوات كبيرة، وطوقـوا الصليبيين في المدينة المقـدسـة، وحملوا عليهـم حملات عنيفـة يوميـاً، مع الحيلولة بينهم وبين الدخول إلى المدينـة أو الخروج منها بكل وسيلة من الوسـائل، وأنزلوا بهم البـلاء بمختلف الطرق، وبسبب هذه الهجمات، والجوع، والأسى، وصلوا إلى حـالة اليأس، واتفقـوا جميعاً على تعـريض أنفسهم لحظوظ مخاطر الموت على أيدي العدو، وبناء عليه غادروا المدينة أثناء الليل، وارتحلوا وسـاروا فـوق الطـرقـات في المناطق المهجـورة من الجبال، حتى وصلوا أخيراً إلى ممر ضيق، وهناك وقعـوا في كمين للعدو، الذي طوقهـم من جميع الجهـات، وهاجمهم بالسيـوف، والنشـاب، والحجارة، وغير ذلك من الأسلحة، وقتلهم، ومزقهم، وقطع إلى أشلاء

حـــوالي سبعـة آلاف من الـرجـال والنســاء، وذلك وفقــاً لأصح الاحصائيات، حتى أن دم هؤلاء المؤمنين، قد جرى على جوانب الجبال مثل الماء، وذلك كما رأيته وأنا حـزين، وأخـذوا الشباب والعـذراوات معهم إلى الأسر، وعـادوا إلى المدينة المقـدســة، حيث قطعــوا أعناق الراهبات والرجال المسنين الضعفـاء، الذين كانوا غير قادرين على تحمل متاعب الرحلة والفرار، وذبحوهم وكأنهم أغنام كان من المقرر ذبحهم، وجـاء ذلك بعـدما هربـوا إلى كنيسة الضريح المقـدس، وإلى الجمجمـة، وهوالمكان الذي تكرس بدم ربنا، وهكذا اقترفوا في هذا المعبـد المقدس، جريمة، لم تشهد أعين الناس مثيلاً لها منذ بداية الدنيا.

وبعد مرور بعض الوقت، وبما أن وحشية هذه الجريمة الكبرى، التي لايمكن التهـاون نحوها، أثارت المشـاعر الدينيـة لدى جميع الصليبيين، ودفعتهم إلى الانتقام من الإهانات التي ألحقت بخـالقهم، ولذلك جرى الاتفـاق الاجماعي بأنه يتوجب علينا جميعـاً —بعـد طلب المساعـدة من السماء— إعـداد أنفسنا وتنظيمها، للاشتبـاك بمعـركة مع هؤلاء القـوم الخونة، وبناء عليه هـاجمناهم، وقاتلناهم من دون استراحـة من الصباح الباكر حتى انتهاء النهار، عندما حال الظلام بيننا وبين التمييز بين قومنا وبين أعدائنا، وقد سقطت أعداد كبيرة من جانبنا، كانت أربعة أضعاف ماقتل من أعدائنا، فهذا ما أمكن معرفته بعد القتال.

وفي اليـوم التالي (عيـد القديس لوقـا الانجيلي) كـان فرسـان الداوية والاسبتارية قد وجدوا أنفسهم، قـد استردوا شيئاً من قوتهم، فاستمدوا العون من عليين، مع جميع الرهبان الآخـرين الذين كرسوا أنفسهم لهذه الحرب، وأوقفـوا طاقـاتهم عليهـا، واحتشـد جميع الصليبيين في الأرض المقدسة، بناء على دعـوة وإعلان من البطريرك، وتحت قيادته، واشتبكوا بمعركـة هي الأكثر دموية مـع الخوارزمية المتقدم ذكـرهم، وخمسة آلاف فارس مسلم آخرين كانوا الآن يقاتلون تحت قيادة سلطان مصر، وذلك

بعد انضمامهم مؤخراً إلى هؤلاء الخوارزمية، وجرى قتال حاد من على الطرفين، ولم يكن بإمكاننا تجنبهم، لأنه كان هناك جيشاً قوياً وكبيراً على جانبينا، وكنا أخيراً غير قادرين على الصمود في وجه مثل تلك الحشود، لأن قواتاً جديدة غير متعبة من الأعداء، تابعت التدفق علينا، ذلك أنهم كانوا عشرة أضعاف تعدادنا، وكنا منهكين وجرحى، ومابرحنا نشعر بتأثير المعركة التي وقعت مؤخراً، ولذلك كنا مرغمين على الفرار، تاركين لهم ساحة المعركة، مع نصر دموي وغالي جداً، لأن أعداداً كبيرة سقطت من على جانبهم كانت أكثر مما سقط من على جانبنا، وقد سوعدنا كثيراً من قبله، الذي هو حافظ للأرواح، حتى أنه لم ينج مائة بالفرار، لكن طوال ما كنا قادرين على الصمود، شجعنا بعضنا وواسينا بعضنا بعضاً في المسيح، وقاتلنا بدون تعب وبشجاعة، مما أدهش أعداءنا، حتى وقعنا أخيراً بالأسر، وهو ما حاولنا أن نتجنبه، بأن نقتل، ولذلك قال العدو، فيما بعد، وهو مندهش، إلى أسراه: «أنتم عن طواعية ألقيتم بأنفسكم في طريق الموت، فلماذا كان ذلك»؟ وعلى هذا أجاب الأسرى قائلين: «كنا نفضل بالحري أن نموت في المعركة، ذلك أننا بموت أجسادنا، نحصل على التمجيد لأرواحنا، وذلك بدلاً من أن نفر بدناءة، فمثل هؤلاء الناس، هم بالحقيقة، يُخاف منهم كثيراً»، وسحقت في المعركة المذكورة، قدرة الصليبيين، وكانت أعداد الذين قتلوا من على الجانبين لاتحصى، وجرى قتل مقدمي الداوية والاسبتارية، وكذلك مقدمي الطوائف الأخرى، مع فرسانهم وأتباعهم، أما وولتر كونت بريين Brienne, واللورد فيليب دي مونت فورت، والذين قاتلوا تحت لواء البطريرك، فقد جرى تمزيقهم إلى أشلاء، ونجا من الداوية ثمانية عشر فقط، وستة عشر من الاسبتارية، وكانوا فيما بعد آسفين، لأنهم أنقذوا أنفسهم. وداعاً».

كيف استهدف الانكليز رمي نير العبودية البابوية

بينما كان الجنس البشري هكذا مضطرباً كثيراً، بوساطة عدد كبير من العواصف، في سورية، وفي انكلترا أيضاً، والبلدان المجاورة لها:

لعبت القدرة اللاهوتية بالأشياء الإنسانية

لأن البلاط الروماني، الآن في أيام بابانا الجديد، انوسنت الرابع، قد ألقى جانباً جميع مشاعر الحياء، وتابع دون توقف —على عكس جميع آمالنا— استخراج مواردنا بوساطة مراسيم يومية وقحة، وتفجر الآن عدم الرضا الذي شعر به الانكليز طويلاً، واعتمل في قلوبهم، نتيجة لذلك، على شكل شكايات مكشوفة، وذلك بعدما تمخض طويلاً، وتكلموا بشكل مكشوف، لأنه لم يعد بإمكانهم حبس أنفسهم، ولأن صبرهم صار إهمالاً وتراخياً، وصار تواضعهم غير مفيد أبداً، لابل بالحري مؤذياً، وفي مؤتمر جرى عقده، جرى التصريح بالاعتبارات التالية لصالح الملك والمملكة:

إذا ماقام البابا بالنظر بعين عقله إلى أوضاع الكنيسة الأولى في انكلترا، وكيف كانت في عمرها الوسيط، وكيف هي الآن، هو لن يهز أساسات الكنائس، واللاهوتيين، ولن يقوم بظلمهم والضغط عليهم على هذه الصورة، أو أن يدعي، أو أن يستخرج من الكنائس، التي ليست كنائسه، لأنه بموجب تبشير القديس أوغسطين، الذي هو رسول الانكليز، جرى تحويل الملك ايثلبيرت Ethelbert إلى الإيمان بالمسيح، وأسس كنائس: لندن، وروكستر، وكانتربري، ووضع رجال دين وكهنة في مكان أول، ورهبان في مكان آخر، وعيّن إليهم مايكفي من الأراضي والممتلكات من أجل عيشهم، وأوكل إليهم وظيفة واحدة هي أداء القداسات في الأماكن المعينة إليهم، وصب الحمد والشكر إلى الرب في الليل والنهار، ومنح الصدقات، وممارسة أعمال التقوى الأخرى، وتقديم الضيافة إلى الفقراء، وفقاً لطاقة إمكاناتهم، ووفق الطريقة نفسها أيضاً، قدم الملوك الآخرون الهبات إلى الكاتدرائيات

الأخـرى، وإلى الكنائس الكهنوتيــة والرهبـانيـة، وهو مـايمكن رؤيتـه لـدى تفحص تعليماتهم وقوائم أعطيـاتهم، وهم على كل حال، لم يعطوا هـذه المقتنيـات بكرم مطلق، بل كـانت مقـرونة بثـلاثة شروط دائمـة، فـالأشيـاء الممنوحـة إليهم هي من أجل الفـائـدة العامـة للمملكـة، أي مــن أجل الحمـلات العسـكرية، ومن أجل تـرميم وإصلاح الجســور والقـلاع، لأنــه بهذه الوسائط يمكن صـد هجمات الأعداء، وإذا كـانت هذه الأشيـاء —بنـاء عليه— قد أعطيت مـن الأوقاف، ومن الايجارات المدنيــة للمــلك والأمــراء، إلى الأمــاكن الروحيــة فأي حق —نحن نسأل— يمكــن لأسـاقفــة هذه الأمــاكن، كأنـاس مثبتين في الكنائس الكاتدرائية، وكذلك رعاة الديرة والراعيات، يمكنهـم —من دون إلحاق الأذى بحق الآخـريــن— تحويلهم إلى استخـدامــات واحــد آخـر، أو استخـدامــات أخـرى؟ خـاصة إلى الاستخـدامـات التي منها صـدر الذبـح، والنـار، وسفك الدمـاء، لأنه عندمــا ســأل بطـرس قـائــلاً: «مـولانـا، إذا ضربنـا بالسيف»؟ أجابه الرب: «ضع سيفك في الغمـد»، ومجـدداً إذا ما جـرى إرسـال الموارد الأسـاسية لرجال الدين في انكلترا إلى إيطاليــا، من أين يمكنهم تأمين الوسـائل لترميم الجسـور والقـلاع، ومن أجل الحمـلات العســكرية إذا كــان ضرورياً؟ ومن أين يمكنهم الحصـول على الوسائل لإبداء الضيـافة؟ وكيف سيكونـون قـادرين على البقاء في الأمـاكن المعينـة إليهـم؟ ومجـدداً، هناك شرور أخـرى، فالذين سيـذهبــون من انكلترا إلى البـلاط الرومـاني، يمكن أن يتعـرضـوا إلى الأذى على أيدي عمال الامبراطور، فـالذي هو واضح وملموس بما فيـه الكفاية، أن أراضي الامبراطـور مفصولة فقط عن انكلترا ببحـر ضيـق، من الممكن عبـوره بتيـار مدّ أو جـزر واحـد، وبما أن الامبراطور ذاهب الآن إلى تلك الجهــات، يخشى أنه إذا مــااســتثير الامبراطور على هذه الصــورة، أن يقــوم بغـزو المملكـة كعــدو، وذلك حسبما قـال المعلم وولتر دي أوكرا Ocra بحضرة الملك أثناء مؤتمر عــام للبارونات

في لندن، عندما رجا الملك بحرارة عظيمة، باسم الامبراطور، بأن لايسمح بجمع المكوس من المملكة، سواء من الكهنة أو من العلمانيين، في سبيل مساعدة البابا ضد الامبراطور، وأعطاهم بالوقت نفسه أن يفهموا بشكل مكرر، أنهم إذا فعلوا كذلك، سوف تثور حروب لاتحصى في المملكة، وأن الملك ونبلاء المملكة سوف يكشطون أنفسهم إلى العظام.

ومجدداً قام الملك بناء على نصيحة الكنيسة ورغبتها وطلبها، فأعطى اخته بالزواج إلى الامبراطور، وهي التي إليه أعطت أولاداً، هم بشكل واضح من جنسنا، ومن الدم الانكليزي، فما الذي يكونه، إذا ما أسهمنا بالمال ضد الامبراطور، غير تدمير هؤلاء الأولاد الذين نبعوا من أمتنا؟ لاسمح الرب بذلك، وماذا أيضاً سوف تكون النتيجة سوى منع الامبراطور من مساعدة ملكنا في استرداد أراضيه؟ ومجدداً لو أن البابا قام بتقدير النوازل والخسائر، التي لحقت بانكلترا، على يدي الملك الفرنسي لويس، الذي غزاها، و الذي لم يوفر لاكنائس ولا لاهوتيين، بل إنه نهب كل شيء إلى درجة أن أساقفة انكلترا بات من الصعب عليهم التنفس بحرية منذ ذلك الحين فصاعداً، إن البابا لو قدّر ذلك لما أقدم على تكديس النوازل فوق النوازل ثم فوق النوازل، بل لاتخذ خطة أفضل، بالقيام بتقدير للخسائر التي لحقت بالكنيسة، ومن ثم إرسال جيوشه وبعثها ضد العدو، وهو أمر كان قادراً على أن يفعله —على الرغم من أن ملك انكلترا عارض ذلك— دون أن يطلب من الامبراطور المساعدة، ضد الملك والمملكة.

ومجدداً لدى الكنيسة ذهباً، ولديها ميراثها، وعندها مدن، وحصون وقلاع، ومع أنهم قد يكونوا غير كافين للتصدي لمثل هذا الأمير القوي، يمكنها أن تستدعي إلى بين يديها منافع الايطاليين والرومان التي منحتهم إياها، وهم ليس عددهم صغيراً، وكذلك في انكلترا، وفي

بلدان أخـــرى، ومن منتجـــات أولئـك الذين أفـــادتهم كثيراً، حيث يمكنهـــا بذلك صنع ترتيبات عـدوانية، ولكن ليس بمواردنا، التي هي لم تمنحنا إياها، والتي ندين نحن بها إلى أولياء نعمتنا فقط، الذين أعطونا كل ما يستطيعون، وهم الذين علينا دعمهم في كل حـاجة، إذا ماحدث وطلبـوهـا، وعلى البابا أيضـاً أن يتذكـر أنه أثناء عـذاب الاســرائيليين وضـائقتهم، أطلق فرعـون سـراح الكهنة واللاويين وحـررهم من دفع أي مكس مهما كان نوعه.

ملك إنكلترا يكتب إلى البابا يشكو من مكوسه

وبنـاء عليـه، ثار الملك، بســبب هـذه المضـار، وغضب من الشـــره المضاعف للرومان، فكتب إلى البابا كما يلي:

«إلى الأب الأعظم قـداســة في المســيح مـولانا إنـوسنت، الذي هو بنعمـة الرب الحبر الأعظم، إليكم من هنـري الذي هو بالنعمـة نفسهـا ملك انكلترا، إلخ، صحة وقبلات إلى قدميه المباركتين:

كلما أخضع الابن نفسـه أكثـر إلى رغبـات أبيه، وأظهـر نفسـه أكثـر استعداداً واخلاصاً لإطاعة أوامره، كلما استحق الحصول على حماية أبيه، وقطف منافع إخلاصه وخدمتـه، وفي هذا المقام، أظهرنا —بناء عليه— أنفسنا، خـلال حكمنا كله مع مملكتنا، طائعين لرغباتكم ولأوامـركم في كل شيء وخلال كل شيء، ومع أننا وجدنا في بعض القضايا المتعلقة بنا أنفسنا وبمملكتنـا، بشكل عـــام الاهتمام واللطـف الأبوي، مـع ذلك وجـدنـا في بعض مـراسيمكم، التي منحـت من قبلكم إلى كهنة انكلترا وبلدان أخـرى، أنـه جـرى إثقـالنا نحن أنفسنـا ومملكتنا، وظلمنا ليس بدرجـة خـفيفـة، وفي الحقيقـة أثقلت الكنائس الانكليـزية بكثير من مثل هذه الاثقـالات، ومن هذه النوعيـة، إلى حد أنه ليـس فقط أولياء نعمـة الكنائس وحماتها، والذين واجبهم هو هبـة المنافع اللاهوتيـة، قد سلبـوا

من حقوقهم، بل إلى جانب هذا قد جرى التخلي عن كثير من أعمال الإحسان، لأن المنافع التي منحت بالعادة من أجل أعمال الإحسان، إلى البيوت الدينية من أجل عيشها، هي وجميع الآخرين تقريباً، قد أنهكت بوساطة مراسيمكم، وبما أن الكرسي الرسولي عليه أن يظهر الحظوة نحو المشتكين إليه، وأن يزود الآخرين بحقوقهم لا أن يتولى إضرارها، رأينا من واجبنا أن نتضرع إلى قداستكم أن تتوقفوا عن منح موارد من هذا النوع، على الأقل لبعض الوقت، وأيضاً في الوقت نفسه نلتمس من قداستكم، أن تقوموا بمواساتكم الأبوية بحماية حقوقنا وامتيازاتنا، التي يمكنكم عدها عائدة لنا بشكل صحيح، وليست مرتبطة بالآخرين، وأن تحفظوهم غير مخروقين وسالمين، وأن لا تسمحوا لهم بالتعرض للأذى في بلاطكم بأية طريقة من الطرق، أو بناء على اقتراحات أية أشخاص، وأنا واثق بأن قداستكم سوف لن تثارون فتغضبون ضدنا، إذا ما كنا قد قمنا في أية نقطة بمعارضة فحوى أوامركم، بما أن صراخ الفئات الشاكية قد حرضتنا على هذا، على أساس اعتقادنا أنه لايجوز لنا أن نخفق في الدفاع عن حقوق أي انسان، بل يتوجب، بموجب فضيلة المنصب الملكي الذي منح إلينا من قبل الرب، علينا أن نؤمّن العدالة الكاملة، في القضايا المدنية».

وبطريقة المحاججة البارعة نفسها، قام الملك الضعيف جداً، والمهمل، من قبل بالتوجه بالرجاء إلى سلفه البابا غريغوري، حتى يتوقف عن ظلم مملكة انكلترا، بمثل هذه الاستخراجات، لكن لا الأول ولا الثاني تنازل ليوقف ميوله في هذه القضية، ونتيجة لذلك، نحن نعتقد بأن الرب، ورسوله بطرس (الذي لم يتبعا خطواته) قد أثير مع سبب صحيح، لأن يغضب ضد الكنيسة الرومانية، فأعدّ، ولوى ذراعيهما.

كيف سعى البابا إلى جلب ويلز إلى طاعته

أعتقد أنه لـن يكون غريباً عـن موضوعنا، أو غير مـرتبط به، أو غير مفيـد لتـاريخ انكلترا، أن نوضح إلى أجيـالنـا المقبلة، كيف سعى البـابا انوسنت الرابع المذكـور، إلى إعفاء داوود أمير شمالي ويلز من ولائـه إلى ملك انكلترا، الذي كـان به مـرتبطاً بطرق مضـاعفـة، وأن يحوله ليكون من رعايـا دولته، بتسلم خمسمائة مـارك منه سنوياً مقـابل استئجار شمالي ويلز ومتعلقـاتها، وكانت الـروابط والأدوات التي كان داوود المذكـور، ونبلاء ويلز مرتبطين بالملك هنري الثالث، هي كما يلي:

الشروط التي ربطت بها سينينا زوجة غريفين نفسها باسم زوجها بملك انكلترا

«جـرى الاتفـاق بين مـولانا الملك هنري الثـالث، الملـك اللامع لانكلترا، من جهـة، وبين سينينا Senena زوجـة غـريفين بن للويلين، الأمير الأخير لشمالي ويلز (وغـريفين المذكـور هو الآن معتقل بالسجن من قبل أخيه داود مع ابنه أوين Owen)، وباسم غريفين المذكـور ونيابة عنه: لقـد تعهدت سينينا المتقـدمـة الذكر، باسم زوجهـا غريفين المتقدم الذكر، بدفع ستمائة مارك إلى مولانا الملك، على شرط أن يتدبر اطلاق سراح غـريفين المتقدم الذكر، وابنه أوين المتقـدم ذكره، من السجن المذكور، وأنه سـوف يلتزم بقرار محكمـة بلاطه، فيما إذا توجب حبسـه بالسجن، وأن مـولانا الملك سـوف يسمح له ولورثتـه فيما بعـد بالمحاكمة في محكمة بلاطه، وفقاً للقانون الويلزي، وذلك حول مايتعلق بحصـة الوراثة لأبيه للويلين الأخير، وهي الحصـة العـائدة إليـه، والتي داود قـائم الآن باستجـازها بـالقـوة ومغتصـب، لها من غـريفين المتقـدم الذكر، وإذا ماحصل غريفين المذكور، أو وررثته، بموجب حكم محكمة بلاط مولانا الملك، على الحصـة التي قالوا بأنها عـائدة إليهم من الميراث المذكور، وقتهـا تتعهد سينينا عن غريفين المذكور وورثتـه، بأن يقوم هو

وورثته المذكورين من قبل بالدفع إلى الملك ثلاثمائة مارك سنوياً، وذلك بشكل دائم، وبالنسبة لدفع هذا المبلغ، فإن ثلثه يجري دفعه نقداً، والثلث الثاني على شكل ثيران وعجول، وأما الثلث الثالث فعلى شكل خيول، وذلك بناء على تقدير محكمين اقطاعيين، ويتم دفع المبلغ المذكور إلى عمدة شروبري، ويجري حمله بيدي العمدة المذكور إلى خزينة الملك، حيث يجري إيداعه هناك، ويكون دفع القسط الأول في يوم عيد القديس ميكائيل، والقسظ الثاني في الفصح، وتعهدت سينينا المذكورة أيضاً باسم زوجها غريفين المذكور وورثته، بأنهم سوف يحافظون على السلام مع أخيهم داود المتقدم ذكره، وذلك فيما يتعلق بحصة الميراث المتقدم ذكره، التي سوف تبقى لداود المذكور، وتعهدت سينينا المذكورة، نيابة عن زوجها، غريفين المتقدم ذكره، الذي هو زوجها، وباسم ورثته، أنه إذا ماقام أي نبيل ويلزي في أي وقت من الأوقات بالثورة ضد مولانا الملك وورثته، فإن غريفين المذكور وورثته، سوف يقوم على حسابه بإرغامه على تقديم الترضية للملك وورثته، وفي سبيل مراعاة جميع الشروط المتقدم ذكرها بإخلاص، سوف تعطى سينينا المذكورة ولديها: داود، وروثر Rother إلى الملك بمثابة رهائن، مع تفاهم أنه في حال اطلاق سراح زوجها غريفين المتقدم ذكره، وابنه أوين المسجون معه، لأسباب انسانية، فإن واحداً من الولدين المذكورين سوف يجرى رده إلى سينينا المذكورة، ويكون ذلك قبل اطلاق سراح غريفين المذكور وابنه، واخراجهما من السجن، ولسوف يبقى الابن الآخر كرهينة، علاوة على ذلك أقسمت سينينا المذكورة على الانجيل المقدس، نيابة عن نفسها، وعن زوجها غريفين وورثته، بأنها سوف تراعي باخلاص جميع هذه الشروط، وتعهدت بأن زوجها غريفين المذكور سوف يؤدي القسم نفسه عندما يطلق سراحه من السجن، وتنفيذاً لكل ماتقدم ذكره، قامت باخضاع نفسها باسم زوجها غريفين المذكور لحكم الأبوين المبجلين: أسقفي هيرفورد وليشفيلد، وبذلك

يمكن للأسقفين المذكورين، أو لواحد منهما، يختاره الملك، أن يقوم بناء على طلب من الملك، بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي ضد أشخاصهم، وعقوبة الحرمان من شراكة المؤمنين على أراضيهم، لإرغامهم على مراعاة جميع الشروط المتقدمة الذكر شرطاً شرطاً، وتعهدت سينينا المذكورة عن طيب خاطر وباخلاص بتنفيذ جميع هذه الشروط التي تقدم ذكرها، وبمتابعة تنفيذهم جميعاً، وأن زوجها غريفين المتقدم ذكره عندما سيطلق سراحه من السجن سوف يقوم مع ورثته بحمل هذه التعهدات وإكمالها، وسوف يعطي إلى الملك تعهداً مكتوباً باسمهم بأنهم سوف يفعلون ذلك، وفق الطريقة والشكل حسبما تقدم ذكره.

ومن أجل ضمانة أكبر حول هذه القضية كُتبت ودُونت بين مولانا الملك وبين سينينا المذكورة، باسم زوجها غريفين،وبالنسبة لنسخة الوثيقة التي تركت عند الملك، أثبت عليها ختم غريفين المذكور بيدي سينينا زوجته المذكورة، وذلك بالإضافة إلى ختم سينينا المذكورة، أما بالنسبة لنسخة الوثيقة التي تركت بحوزة سينينا المتقدمة الذكر، باسم زوجها غريفين المتقدم ذكره، فقد أثبت عليها ختم مولانا الملك، وفي سبيل التنفيذ، والمراعاة المخلصة لجميع الشروط المذكورة أعلاه، أعطت سينينا المتقدمة الذكر باسم زوجها، غريفين المتقدم الذكر، الأشخاص المذكورة أسماؤهم أدناه، بمثابة كفلاء لصالح مولانا الملك، وهم: رالف دي مورتيمير Mortimer, ووولتر دي كلف فورد Clifford, وروجر دي مونتهوت Monthaut, قهرمان أوف شيستر، وميلغون فتز- ميلغون Mailgun, وموردوك Murdoch فتز- روبرت، وغريفين بن مدّوك Maddoc دي برونفيلد Brunfield, وهويل Howal وموردوك أخيه، وغيريفين بن غوين أنوين Gwenunwin, وذلك باسم سينينا المتقدم ذكرها ومن طرفها، وقد تعهدوا بمراقبة تنفيذ الشروط المتقدم ذكرها، وقدموا أيضاً صكوكهم

إلى الملك مـن أجل الشيء نفســــه. أبـرم في شروبري Shrewbury يوم الاثنين التالي لما قبل صعود القديسة مريم العذراء، في السنة الخامسة والعشرين من سني حكم مولانا الملك المذكور».

صك تعهد روجر دي مونتهونت

«إلى كل من تصله هذه الكتـابة، تحيـات من روجـر دي مونتهـونت، قهرمان أوف شيستر:

ليعلم جميع الناس بأنني أعطيت نفسي كفيـلاً لسينينا، زوجة غـريفين ابن للويلين، أمير شمالي ويلز المتـوفى، وارتبطـت لصـالحهـا مع مـولاي هنري، الملك المشهـور لانكلترا، بأنها سوف تنفـذ باخلاص نحـوه جميع الذي وعدت به الملك المذكور، نيابة عن زوجها المذكور، للحصول على اطلاق سراحه مع ابنه أوين، من السجن الذي وضعه فيه أخوه، وأيضاً للحصول على الحصـة العائدة لغريفين المذكـور من ميراث أبيه، للويلين المتقدم ذكره، وهي الحصة التي اغتصبهـا داود المتقدم ذكره منه، وبمثابة شهــــادة، وضعت على هذه المدونـة ختمي. صنع في شروبـري في يوم الاثنين قبل صعـود العـذراء المباركـة، في السنة الخامسـة والعشرين من حكم الملك المذكور».

ووفق الشكل نفسـه لصك التعهـد المتقـدم ذكـره، أعطى البـارونات الانكليـز والويلزيون صكوكهم إلى الملـك، وربطوا أنفسهم بالطريقــة نفسها.

صيغة صكوك تعهد لوردات كيفي في ويلز

«ليعلم جميع الحضور والذين سيأتون، بأنني أنا مردوك فتز— هويل، قد أقسمت على الانجيل المقدس، أنني من هذا التـاريخ فصاعداً، أثناء حيـاتي، بأنني سـوف أكـون خـاضعـاً باخـلاص لمولاي ملك انكلترا، ولسوف أخـدمه باخـلاص وامانة مع جميع قـواتي، وسوف أبذل أقصى

طاقتي، في أي مكان يمكن أن يحتاج فيه إلى خدماتي، وسوف أراعي باخلاص من جانبي الهدنة التي أبرمت بين اللورد رالف دي مورتيمير وبيني، حتى عيد القديس ميكائيل، في السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث، وبمراعاة ولائي إلى مولانا الملك بشكل دائم، وكذلك من أجل المحافظة على الهدنة المتقدمة الذكر، حتى الموعد المذكور أعلاه، وقد وضعت نفسي تحت حكم السيد أسقف هيرفورد، وأسقف كوفنتري، وأسقف للانداف Llandaff, أو واحداً منهم، سوف يتولى الملك اختياره للغرض، وذلك من أجل أنه إذا كان أياً من أعمالي مخالفاً بأي شكل من الأشكال لولائي للملك المذكور، أو سوف يحول دون مراعاة الهدنة المتقدمة الذكر، فوقتها يكون مشروعاً لهم حرماني كنسياً وجميع قومي، وأن يضعوا أرضي تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، حتى أقدم جميع التكفيرات عن الذي اقترفته من ذنب، وإذا حدث عدم إعادة إقامة السلام بيني وبين رالف مورتيمير، المتقدم ذكره، قبل موعد عيد القديس ميكائيل، ومع أنني قد أشن الحرب بعد ذلك العيد ضد رالف مورتيمير المذكور، فإن يميني المتقدم ذكره سوف لن يعيقني عن فعل ذلك، مادمت ملتزماً بشكل مستمر بولائي نحو الملك حسبما تقدم الذكر، وإذا مانشبت الحرب بيننا بعد المدة المتقدم ذكرها، فإن الملك مع ذلك سوف يسمح لي ولأتباعي بأن نستقبل في أراضيه بمثابة رعية مخلصة له، وبالنسبة لمراعاة الشروط المتقدم ذكرها نحو مولاي الملك ونحو ورثته، أربط نفسي باليمين المتقدم ذكره، وبتثبيت ختمي على هذه المدونة من أجل ضمان أبعد للقضية المتقدم ذكرها. أبرم في اليوم التالي لعيد صعود مريم المباركة، في السنة الخامسة والعشرين من حكم الملك هنري الثالث».

وأعطى الكلمات نفسها أيضاً أوين فتز— هويل، وميلغون فتز— ميلغون، ومردوك فتز— مردوك، وهويل ابن كادوول لون Cadwal,

lon وكادوول لون فتز— هويل، في صكوك تعهدهم إلى الملك.

صك تعهد داود بن للويلين أمير شمالي ويلز

«إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح، وإلى جميع الذين سوف يصلهم هذا العرض، تحيات من داود بن للويلين:

اعلموا بأنني قد أعطيت موافقتي إلى مولاي هنري المشهور، ملك انكلترا، ابن الملك جون، بأنني سوف أطلق سراح أخي غريفين، الذي أنا محتجزه بالسجن مع ابنه الأكبر وآخرين، وبسبب أن غريفين المتقدم ذكره محتجز بالسجن من قبلي، فأنا سوف أسلمه إلى مولاي الملك، ولسوف ألتزم بعد ذلك بقرار محكمة بلاطه، وذلك فيما يتعلق بوجوب إبقاء غريفين المذكور محتجزاً بالسجن، وفيما يتعلق أيضاً بالحصة من أراضي والدي المتوفى، للويلين المتقدم ذكره، وتبيان فيما إذا كان أي منها عائد إلى غريفين المذكور، وذلك وفقاً للعادات الويلزية، وذلك في سبيل امكانية تأسيس السلام وحفظه بيني وبين غريفين المتقدم الذكر، وقد أعطيت ضمانات من أجل تمسكي بذلك وفقاً لحكم بلاط الملك المذكور، وأنني أنا، وكذلك غريفين المتقدم الذكر، سوف نستحوذ على الحصص العائدة لنا، من الأرض المتقدم ذكرها، من مولانا الملك بشكل رئيس، وكذلك سوف أعيد إلى روجر دي مونتهوت، قهرمان شيستر أراضيه في مونتهوت مع متعلقاتها، وسوف أعيد إليه وإلى البارونات الآخرين والرعايا المخلصين الملكية المطلقة للأراضي التي جرى احتلالها، منذ ابتداء قيام الحرب بين صاحب الجلالة الملك جون وبين والدي، للويلين المتقدم الذكر، باستثناء حق الملكية، لأي عقد من العقود، والمواثيق، وفيما يتعلق بهذا سوف نلتزم على الجانبين بقرار بلاط الملك المذكور، وسوف أسدد إلى مولاي الملك جميع النفقات التي تحملها هو شخصياً أو أتباعه بسبب تلك الحرب، وسوف أقوم، وفقاً لقرار البلاط المذكور بعمل ترضية له ولأتباعه عن الخسائر وعن

الأضرار التي عانوا منها، أو أنني سوف أتخلى عن جميع الجناة نحو الملك، ولسوف أقدم إلى مولاي الملك جميع أنواع الولاء، التي كان والده الملك جون قد تلقاها، والتي ينبغي أن يتلقاها الملك المذكور، ولاسيما ولاء جميع النبلاء الانكليز، وكذلك سوف لن يطلق الملك المذكور سراح أي من مساجينه من دون أن يتركوا ممتلكاتهم في حوزة الملك ووكلائه، وكذلك إن أراضي انغلمير Englesmere مع متعلقاتها سوف تبقى إلى الأبد ملكاً للملك المذكور ولورثته، وكذلك سوف لن أستقبل منذ الآن فصاعداً خارجين على القانون أو قراصنة ضد مولاي الملك وباروناته من الحدود في أراضي، ولن أسمح لهم بالاستقبال هناك، ومن أجل المراعاة المخلصة الأبدية للشروط كلها المذكورة أعلاه، للملك ولورثته، سوف أقدم ضمانة عن نفسي وعن ورثتي بوساطة الرهائن، أو بوساطة الأيمان، أو بوساطة أية طريقة أخرى يمكن للملك أن يختارها ليمليها، وفي هذه الحالة والحالات الأخرى سوف ألتزم بإرادة الملك وبأوامر مولاي الملك، ولسوف أطيع قرار بلاطه في كل شيء، وكشهادة على هذا العرض، وعلى العمل الحالي المدون كتابة وضعت ختمي. صنع في ألنت Alnet قرب نهر ايلفي Elvey في أسقفية القديس آساف Asaph, في عيد قطع رأس القديس يوحنا المعمدان، في السنة الخامسة والعشرين من حكم مولانا الملك المذكور».

«وكذلك ليكن معلوماً أيضاً أن الذين محبوسين في السجن مع غريفين المتقدم الذكر، سوف يجري تسليمهم إلى مولانا الملك، بالطريقة نفسها، حتى يصدر قرار عن بلاطه حول فيما إذا كان ينبغي اطلاق سراحهم، وكيفية ذلك، وأنا داود المذكور، قد أقسمت على الصليب المقدس، الذي أمرت بجلبه إلى أمامي، أن أقوم باخلاص بمراعاة جميع هذه الشروط، وقد وعد الأب المبجل هويل أيضاً، أسقف القديس

آساف، بناء على طلبي، باسم طائفته المقدسة أن يفي بجميع الشروط المتقدمة الذكر، وسوف يبذل كل طاقاته في سبيل الوفاء بهم، وعمل ايدنفت وانغان Edenevet Wangan أيضاً، وأدى بناء على طلبي اليمين نفسه، على الصليب المتقدم ذكره. عمل، إلخ، كما ورد أعلاه».

«بالاضافة إلى هذا، لقد التزمت أنا عن نفسي وعن ورثتي، أنني إذا ما حاولت أنا أو هم أي شيء مضاد لسلام مولانا الملك، أو ورثته، بشكل معارض للشروط المتقدم ذكرها، سوف تتم مصادرة ميراثنا لصالح الملك وورثته، وفي سبيل تنفيذ جميع الشروط المتقدم ذكرها شرطاً شرطاً، وضعت نفسي وورثتي تحت حكم رئيس أساقفة كانتربري، وأساقفة: لندن، وهيرفورد، وكوفنتري، للوقت الحالي، وبناء عليه يمكنهم جميعاً أو واحداً منهم، يمكن أن يختاره الملك للغاية والغرض، امتلاك اصدار حكم الحرمان الكنسي لنا، ووضع أراضينا تحت الحرمان من شراكة المؤمنين، إذا ما حاولنا صنع أي شيء مضاد للشروط المتقدم ذكرها، ولقد أقنعت كل من أسقفي بانغور Bangor والقديس آساف، بإعطاء صكوك تعهد إلى الملك، تعهدا بها القيام بتنفيذ إصدار قرارات الحرمان الكنسي والحرمان من شراكة المؤمنين، والتفوه بها من قبل رئيس الأساقفة المتقدم ذكره، والأساقفة، أو أي واحد منهم، بناء على تلقي الأوامر من أجل هذه الغاية».

كيف سعى داود إلى رمي النير الانكليزي

ولقد قلت ماتقدم من التفاصيل، في سبيل أن أظهر إلى العالم طبيعة الالتزامات العظيمة والكثيرة التي التزم بها داود المذكور، الذي كان حفيداً للملك، حيث كان خائناً، وقاتلاً لأخيه، وكذلك بالنسبة للنبلاء الآخرين (مع أنهم وضيعي العادات) لويلز، و تعهد وتعهدوا بها بأنفسهم إلى مولاهم الملك، لكن الآن مزقوا جميع روابط القرابة،

وحنثوا بعهـودهم وخرقوا جميع شروط الاتفـاقية، فبـدون حياء ركلوها ضـد سلطة مـولاهم الملك، وشنوا عليـه الحرب وألحقـوا به كثيراً من الأضرار على الحدود.

عـلاوة على ذلـك وفي سبيل أن يحرر داود المتقـدم ذكـره عنقـه من الولاء إلى الملك، انضـوى تحت جناحي البابوية من أجل الحماية، واعـداً بأن يستحوذ على ذلك الجزء من ويلز العائد إليه من البابا نفسه، ونتيجة لذلك آثر البابا قضيته، والذي أعدّه حالة يتوجب أن يندهش المرء كثيراً نحوها، هـو أنه فتح له صدره، وأعطاه الملجأ إليـه، مع أنه كان عـاصياً ضد الملك، مـالم يكن —ربما— قد حـدث وحصل على مساعـدة البابا، بوساطة قمع الحقيقة، وبإفادات زائفة، لأنه مَـن من المسيحيين يمكنه أن ينكر بأن أمير ويلز كان من الاقطاعيين الصغار لملك انكلترا؟.

الملك يمنع بيع صوف السسترشيان

وفي السنة نفسها، منع ملك انكلترا نقل صـوف الرهبان السسترشيان إلى القارة لبيعه من أجل منفعتهم، وقد سعى بهذه الوسائط للعسف بهم وإلحاق الأذى بهم، لأنهم لم يرغبـوا —في الحقيقة كـانوا غير قـادرين— بإعطائه مساعدة مالية، عندما كان في غسكوني.

عمل ميرون مقدس في دير القديس ألبان

وعمل في هذا العام أيضاً ميرون مقـدس في الكنيسة الديرية للقديس ألبان، من قبل المبجل جون أسقف هارتفورد.

شهادة عن معجزات القديس إدموند المعترف

وعمل في هذا العام أيضـاً معجزات من قبل القـديس ادموند، رئيس أساقفـة كانتربري والمعترف، وغدت متـوالية الحدوث في بونتغني، حتى بدا وكأن أيام الرسل قـد تجددت، ولم تحدث هذه المعجـزات في فـرنسـا

فقط، بل في انكلترا أيضاً، خاصة في كيتباي Cateby, وهو المكان الذي كان فيه طيلسان القديس وبعض الصور المرسومة، التي اعتاد أن يحملها، فهناك كانت محفوظة، وأصبحت عدة أماكن أخرى مشهورة، وجرت زيارتها بمباركات معجزات واضحة، وبناء عليه، حتى لايتهم راعي دير بونتغني مع الجماعة الديرية بالجمود، شرع في الثناء عليه، ورغب لسبب جيد، في أن يجري تطويبه، وأن يدرج اسمه ويوضع في لائحة قديسي الكنيسة، ولذلك كتب إلى البابا كما يلي:

«إلى الأب الأعظم قداسة، والمولى انوسنت الرابع، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، يقوم خدمه المخلصون ج ل, المسمى راعياً لدير بونتغني، وجماعة الدير في ذلك المكان، الذين هم من طائفة السسترشيان، بكل اخلاص، وخضوع، وتبجيل، بتقبيل قدميه المباركتين:

إن أعمال الخالق، التي تحمل برهاناً للمجد، وتشريفاً لكهنته، ينبغي أن لاتبقى سراً، وإذا كان من غير الممكن، ويحتاج الأمر إلى وقت طويل القيام بإحصاء الوقائع التي حدثت عند ضريح ادموند، مع هذا يتوجب أن لا —كما لايمكننا— أن نبقى صامتين تماماً، تجاه مايحدث ليس فقط عند ضريح ادموند، صاحب الذكرى الطيبة، الذي كان من قبل رئيساً لأساقفة كانتربري، والذي جسده، تلك الكومة المشهورة من الأرض، والذي هو راقد في كنيستنا، التي اختارها بتقوى عالية جداً لتكون مكان دفنه، أن لانبقى صامتين، لأن ذلك قد انتشر الآن في جميع أرجاء العالم، بوساطة معجزات متميزة وواضحة، لأنه حدث في أماكن متنوعة ونائية، لدى التوجه بالدعاء إلى اسمه، أن عملت معجزات، ليست معجزات من نوع واحد، بل سلاسل من المعجزات واحدة بعد الأخرى، ولسوف نستعرض أخبار هذه المعجزات باختصار وبسرعة، وذلك حسبما شاهدناها بأعيننا وسمعناها بآذاننا، فقد جرى رد البصر إلى أطفال عميان، والذين كانوا عرجاناً منذ ولادتهم، استردوا القدرة

على المشي، وعاد المصابون بالاستسقاء إلى الحجم الطبيعي، والذين كانوا طرشاناً منذ الولادة، قد استردوا السمع، والخرسان منذ الولادة تكلموا بوضوح، واسترد الأشخاص المشلولين قوتهم، والذين كانوا مسكونين من قبل الشياطين تحرروا منهم، وفتحت السجون، وحلّت الأغلال، ونجا من الموت المصابون بالحمى الربعية وبحميات أخرى، وكان هناك بعض الذين يعانون من الصرع، ومن أوجاع أخرى متنوعة، ومصابين بأمراض خفية حادة، كما كان بعضهم محرومين من استخدام أطرافهم، والتي أصبحت من دون حركة، وكأنها قطعة من الخشب، وآخرون كانوا قد أصبحوا فجأة من دون عقل، وكان بعضهم قد أصيب بمرض الناسور، وآخرون أصيبوا بعلل التورم، هؤلاء جميعاً عادوا بفضائله إلى أوضاعهم الصحية السالفة، وتمّ إيقاف نزيف الدم في النساء وشفي أحدهم من اليرقان، وانتهت أوجاع الأسنان عند آخر، وزالت البقع الخبيثة من أحدهم، دون أن تترك أثراً أبداً، وجرى شفاء المصابون بالفتق، والمحدودبة ظهورهم، والمصابون بالحصا، وبالبواسير، أو بأمراض أخرى حادة، وآخرون قد سقطوا في حفر، أو في أنهار وفي مياه عميقة، وآخرون قد قذف بهم من أماكن مرتفعة، ما أن قام هؤلاء بالدعاء إلى اسمه، لم يصابوا بأي أذى جسدي، أو بشيء بسيط جداً وخفيف، وكان بعضهم قد وقع في مصائد الردة المنهكة، وجرح آخرون من قبل الأفاعي، وكاد آخرون أن يصابوا بالاختناق، وكسب آخرون القنوط، وقد حصل هؤلاء جميعاً على النعمة الرائعة لهذا الأسقف، وانتزعوا من موت كان محيقاً بهم، وتحرر آخرون —مجدداً— من ورم الفكين بفضائله وصلواته، وآخرون من ربط الحلقوم، وآخرون من نزيف الدماء، والذين تحطمت نفوسهم في أوقات الأزمات، والذين غرقوا تقريباً في أعماق اليأس، تمت مواجهتهم —لسرورهم— بالمواساة والشفاء، لدى إعادتهم لاسم هذا الأب إلى ذاكرتهم، وكان هناك بعضهم الذين تغلبت عليهم معيقات كثيرة متنوعة، وكانوا في حالات

الخطر، لكن عندما دعوا اسم هذا العابد للرب، والمحبوب من الملائكة، مع أن ذلك مزعج ومكروه من قبل الشياطين، قد تحرروا من جميع شياطينهم، وشعروا بحضور فضائل مولانا يسوع المسيح، وهذه ومعجزات أخرى عملت من قبل الرب فقط، الذي هو مبارك فوق الأشياء كلها دائماً أبداً.

ومن الوقائع المثيرة للدهشة أيضاً، هو أن الحيوانات المتوحشة قد شعرت بالمنافع من خلاله،وبناء عليه، إنه بالتقدير الرائع للرب، الذي أوجد كل شيء بشكل حكيم وصحيح تماماً، حدثت في المكان الذي يرقد فيه جسده، معجزات مجيدة كثيرة، وكانت سمعة أعمال الشفاء عظيمة جداً، وحشود الناس المجتمعين كثيفة جداً، وهم على درجة عالية من التقوى، ولذلك فإن الكنيسة تغني للرب وفق الطريقة نفسها، ومثل ذلك يمكن أن يغنوا عن عبده ويقولون: «الذين ضلوا عنك، سوف يعودون إليك، وسوف يعبدون آثار قدميك»، ذلك أن جميع أعداء هذا الأب المذكور، قد اجتمعوا مع بعضهم وتعبدوا في المكان الذي وقفت فيه قدماه،لابل حتى بعض أتباع الكفر، وأهل العناد، الذين أقدموا على الاستخفاف بفضائل الرحمة اللاهوتية، وكذلك فضائل الأب المذكور قد أصيبوا فجأة بالقناعة، وأرغموا،حتى وهم غير راضين على نشر أخبار هذه الأشياء، وهناك واقعة يعجب الإنسان نحوها أكثر من الوقائع الأخرى، وهي واقعة لم يسمع بمثلها في أي وقت من الأوقات، وقعت في قضية أحد الأطفال، وكان قد ولد من دون قدمين، واستمر هكذا لمدة ثمانية أعوام، عندما فجأة بدأ ينمو له قدمان جديدان، وكان أمراً غير اعتيادي البته إحلال أطراف جديدة حيث لايوجد أطراف، وهذا أصعب من شفاء أطراف مريضة وإعادتها صحيحة وقوية! آه أيها الكاهن صاحب الفضائل العظيمة، آه أيتها الفضائل لمثل هذا الكاهن! من الذي فكر قط بمثل هذه الجوائز، أو

بمثل هذا الامتياز لفضائله، أو مثل هذه الجدارة العظيمة لكاهن، فمثلما أضفى المسيح الحيـاة السرمـدية على الروح التي استعيـدت من الموت الأبدي، مثل هذا فعل الأسقف التقي المحب للمسيح، فبوسـاطة عملية الرحمة اللاهوتية، استرد الحيـاة الآنية إلى الأطفـال الضعفاء، وإلى الذين غـرقـوا، وإلى عـدد كبير آخـر كـانوا بالفعل أمـواتاً في الجسـد، لأن أية معجزة يمكن أن تكون أعظم روعـة من إحلال فائـدة الصحة محل شر الموت؟ وعلى هذا يبدو أن الأمر لم يكن بلا فائدة عندما تعرضت بشكل مختصر لأخبار مثل هذه المعجزات الرائعة.

«لأن المعجزات الحاليـة سوف تؤكـد المعجزات الماضيـة، والمعجزات المتوقعة في المستقبل، حيث أن هذه ستكـون ثابتة ولايمكن قلقلتها، وفي الحقيقة يبدو أن احتشاد الناس في المكان المذكور، جدير بالاعجاب أكثر من المعجـزات نفسهـا، وهذه الحالة نفسهـا هي معجـزة، لأنه مـاالذي يمكن أن يكون أكثـر اعجـازاً، وأكثر إدهـاشاً، من قيـام الناس في عـالم اليوم بعبادة إنسان، كانوا في البارحة يكرهونه؟ أي قيام الذين هربوا منه بالأمس بالفرار إليـه اليوم، وأن يقوم بالصـلاة اليوم إلى الرب من أجل الوقاية الكاملة لنا، رجل تجنبنا بالأمس كل علاقات معـه، إما خوفاً من سلطة أرضيـــة، أو من خـــلال سلطاتنـا الشخصيـة الشريرة، وهذا في الحقيقـة بدا لكثير من الرجال العقـلاء هو الأعظم بين هذه المعجـزات، وبالقـدر نفســه حتى لاتندرس ذكـرى هذا الـرجل العظيم، وتهمل في قبره، وأن لايعهـد بها إلى النسيـان مع ضريحه، ألقينا بأنفسنا عند قـدمي قـداستكم، ونرجـوكم بتـواضـع وباخـلاص، أن تقـومـوا بعـد فحص مناسب وصحيح لهذه المعجـزات، بادراج اسم الأب المذكـور في قائمـة القـديسين، ونحن نعمل في هذه القضية بـأعظم ثقة، بسبب أن تومـاس المبـارك من المعـروف أنه قـد أعطى شهـادة، وأنه كـان متنبئاً مخبراً بهذه الأحداث وواعداً بها، لأن توماس المذكور، بعـدما أقام مدة طويلة أثناء

نفيه في ديرنا، بناء على أمر من البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، أظهرت له العلامات من السماء، بأنه سوف يعود إلى كنيسته، ومن هناك سوف يغادر إلى الرب، مع سعفة الشهادة، وبما أنه لم يمتلك الوسائل ليكافئنا، بوساطة هدايا كريمة، ومنافع، من أجل المعروف الذي أبدي نحوه من قبل سلفنا، وخوفاً منه أن يكون قد أثقلنا، مع أنه لم يفعل ذلك ولابشكل من الأشكال، وعد بأن خليفة له، سوف يأتي من بعده، وسوف يرضينا عوضاً عنه ولصالحه، ونحن نعلم بأن هذا جرى الوفاء به من دون إحباط، ولكي تبقى ذكرى القديس توماس الشهيد محفوظة بالفكر، كان الرجل الأول الذي شفي بفضله في كنيستنا اسمه توماس، وعلمنا من هذه الحقيقة أن علينا أن نؤمن بجميع الأعمال الجيدة المتعلقة به، في سبيل تشريف وتمجيد مولانا يسوع المسيح، الذي، إلخ».

براهين حول قداسة القديس إدموند المعترف

وبشأن مايشبه العباءة التي اعتاد الرجل الأكثر قداسة على ارتدائها، لايصح ولابشكل من الأشكال أن نقف صامتين، لأننا نعتقد بأنها كانت نوعاً لم يجرب من قبل الرجال المقدسين في العصور الماضية، ولم يسمع بمثلها في هذه العصور الحالية، فعباءته لم تكن مصنوعة آنذاك بوساطة فن الحياكة، من خيوط رفيعة، بل كانت معمولة من قبل حبال صغيرة شبكت مع بعضها مثل شبكة كثيفة جداً، فالوصلات الحاوية للعقد، عديدة مثل القصاص، في نظام كثيف، ولكي تكون العقد أكثر ضغطاً على جسد المرتدي، لم تكن العباءة سليمة في الجزء الخلفي منها، بل كانت مفتوحة من الأعلى نحو الأسفل، بفتحات صغيرة هنا وهناك، فبهذه العقد المنسوجة بشدة وإحكام، حارب نفسه،في سبيل أنه بالتعذيب الداخلي، سيتمكن من قهر الجسد، وذلك حتى يصبح شهيداً، ويحصل على النصر على نفسه، ولم يكن هو قانعاً مكتفياً بصلب الجسد بالتعذيب بوساطة العباءة، بل أراد أكثر من ذلك، وكان الذي أوقعه

زيادة على نفسه، قد ضاعف من دهشتنا أكثر من أي شيء آخر، ففي سبيل أن يربط هذه العباءة ويشدها أكثر قرباً على جسده، ولكي يمكن تمزيقه بحدة أكبر، بوساطة الحك والكشط، ربطها على نفسه، بحبل أغلظ، ومرره مرتين حول نفسه من عند الجزء الأعلى من جسده، ومرّ هذا الحبل نازلاً من صدره حتى حقويه بوساطة عدة لفات متداخلة، قد جرى ربطها، والتقت النهايتان مع بعضهما في الأسفل، وبذلك التصق الحبل بالعباءة باستخدامه، وبذلك صار من المادة نفسها.

وبناء عليه حزم نفسه بحبل من شعر، ولم يحزم حقوي جسده حسبما تطلبت الشريعة، بحبل من كتان مجدول، بل عمل مثل ابن الرب، فحزم نفسه بحزام كان عالياً حتى صدره.

وباختصار، نجد أن أجزاء جسده، التي لم يتمكن من تعذيبها بالنهار، أي بيديه، وكذلك الأجزاء العارية من رقبته، قد غطاها بقماش من الشعر أثناء الليل، حتى يتمكن بذلك من جعل جسده كله قربان حرق ذي نكهة طيبة، إلى الرب، فلماذا أنا بحاجة لقول أي شيء عن صومه الذي لم يتعب منه وعن صلواته؟ ومع أنه سمح لطعام قليل جداً بالدخول إلى فمه، كان دوماً يتفوه بالحمد والشكر إلى الرب، وكان دوماً يتلفظ بكلمات مهذبة، وكانت هذه الكلمات كأنها صادرة من نبع صدر مولانا، وكانت خطاباته عميقة ومهذبة حول اللاهوت، الذي كان به متميزاً كثيراً، حيث كان مثل أوغسطين آخر، وكان يلقي خطاباته وسط التنهدات والأنين، مع يديه وعينيه مرفوعتان دوماً —مثل القديس مارتن— نحو السماء، وبذلك أثار تقوى الجميع وجذبهم أثناء كلامه.

الشفاء الرائع لأسقف درم

ووصلت هذه البراهين وبراهين أخرى عن قداسة هذا الرجل المقدس إلى علم نيقولا أسقف درم، الذي كان مصاباً باستسقاء لايمكن

شفائـه، حتى أن لونه تغيّـر بـوساطة يرقـان أصفر، وقد تلاشـى جسده حتى أصبح هيكلاً، وفقد جميع الـرطوبة العائدة لجسـده، وجف جسده بالسعـال والربو، وصـار لونه حالك السـواد، حتى ظهـر بأنه بات على حـافـة الموت، ولم يترك له، كما ظهـر سـوى القبر، وفي هذه الحالة من اليأس والقنوط من أي علاج إنسـاني، وضع ثقة كـاملة بالرجل المقدس المذكور، وبنـاء عليه نذر، أنه إذا مـاعادت إليـه صحته الجسديـة، وصار بإمكانه، سـوف يزور بتقـوى واخلاص ضريح ادمـوند المبـارك، رئيس أساقفـة كانتربري، وعلى هذا جـرى نقله بعربة إلى الأجـزاء الجنوبية من انكلترا، لكي يستفيـد من استنشـاق هواء مـوطنه المحلي، وليكون أيضـاً أقـرب إلى بونتغني، ليفي بنذر حجه، وبعـد إقامتـه هناك لبعض الوقت صـار ضعيفاً إلى حـد بدا فيـه أنه بات صورة أكثـر منه إنسـاناً، ولذلك عمل وصيته، وقال وداعاً إلى جميع أصدقائه، وتلقى قربان الموت كاملاً، والمسح الأقصى، لكن عندما كان متمـدداً وهو في نفسه الأخير، جاء و.

W وكان واحـداً من خدمـه، كان من قبل حـلاق، وبواب القديس ادموند، عنـدما كان رئيسـاً لأساقفـة كانتربري، وكـان متصوراً في ذهنه —لسبب صحيح— أن الرب سـوف يجعل ذلك الأسقف بين قديسيـه، لذلك احتفظ ببعض شعر لحيته، التي كان من واجبه حلاقتها، آملاً بأن هذا الشعـر سـوف يكون مفيـداً للمـرضى، في مستقبل الأيام، وعندمـا اقترب هذا من الأسقف نيقــولا، الذي كـان نصـف ميت، لكن محتفظاً بنشـاط ذاكـرته، أمـر الخادم المذكـور، أن يضع الشعـر في بعض الماء المقـدس، وإعطائـه إياه للشرب، وجـرى عمل ذلك، وبعـدمـا شرب الأسقف ذلك، أعقب ذلك غثيان، ثم خمود تورمـه وآلامه، وانتعش هو كلياً، وعاد في وقت قصير إلى الصحة تماماً.

الإمبراطور يتعهد شخصياً بالحفاظ على السلام مع الكنيسة

وفي الوقت الذي كان فيـه خادع العالم يزعج النفـوس بهذه المقلقات

المزعجة، وقع الامبراطور فردريك تحت تأثير نصيحة حكيمة، ومع أنه تظاهر بالتواضع، وعد بتقديم ترضية إلى الكنيسة وإلى الكنائس الأسقفية، وفقاً للشروط التالية: فيما يتعلق بالضمانات التي يتوجب تقديمها، نقول كما يلي: سيقدم الامبراطور ضمانة قائمة على يمين، ومكتوبة، وبكفالة من قبل الملوك، والأمراء، والنبلاء والايرلات، والكونتات، من مختلف البلدان، وعلاوة على ذلك، إنه فيما يتعلق بالضمانات المتقدمة الذكر، هو سيضع نفسه تحت إملاء صاحب القداسة البابا والوسطاء:

«فردريك الأغسطس الدائم، الذي هو بنعمة الرب امبراطور الرومان، وملك القدس وصقلية:

إننا نعلن بوساطة هذه الأداة الحالية إلى الجميع، بأننا منحنا إلى ر. R, الذي هو الكونت المشهور لطولوز، وقريبنا المحبوب، والذي هو من رعايانا المخلصين، وإلى المعلم بيتر دي فينيا Vinea, وثاديوس Thaddeus دي سيسا Sessa, القاضيين في محكمتنا العليا، واللذين من رعايانا المخلصين، منحناهم سلطة كاملة وخاصة بأن يقسموا بأرواحهم، نيابة عنا ولصالحنا، بأننا سوف نلتزم بأوامر البابا والكنيسة، فيما يتعلق بمسائل الأذى، والخسارة، والاعتداءات، التي تعرضت لها الكنيسة والأشخاص اللاهوتيين، قبل صدور قرار الحرمان الكنسي وبعده، والأسباب التي من أجلها جرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي المذكور ضدنا بشكل رسمي من قبل غريغوري، الحبر الأعظم، والتصديق على، وتأكيد وتثبيت كل الذي سيقرر رعايانا المخلصين المتقدم ذكرهم، أنه ينبغي أن يفعل في هذه القضية، وللتذكير بها وتأكيدها، أمرنا بتنفيذ هذه الكتابة الحالية، وختمناها بختمنا الامبراطوري الذهبي والتوبازيTopaz ».

رسالة الإمبراطور فردريك إلى ملك إنكلترا

«من فردريك، إلخ، إلخ:

فيما يتعلق بمحادثات شروط السلام بيننا وبين الكنيسة، تم وضع الترتيبات الأولية، كما نعتقد من قبل قريبنا المحبوب، وحليفنا المخلص، كونت طولوز، لذلك يتوجب أن يكون رسلك حضوراً، فهذه هي رغبتنا، ونحن نرجو جلالتكم باخلاص، أن ترسل رسلاً خاصين، من أجل توجيه هذه القضية، وأن يكونوا ممن تثق بهم، وأن يكونوا أكفاء في كل من البراعة، والاخلاص الجيد، لترتيب هذه القضية. صدر، إلخ، إلخ».

بنود الإتفاقية التي وعد الإمبراطور بموجبها بتقديم ترضية إلى الحبر الروماني

فيما يخص قضية الأراضي، جرى إعداد شروط أعطت الرضا إلى الطائفتين معاً، وهي، إن جميع الأراضي التي امتلكتها الكنيسة في أيام الحرمان الكنسي، سوف يجري التخلي عنها، وأيضاً فيما يتعلق بالذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، أما فيما يتعلق بازدراء المفاتيح، يتوجب على الامبراطور أن يكتب في جميع أرجاء العالم بشكل عام، أنه باستخفافه بالكنيسة، وبسلطة الكنيسة، هو لم يعامل بازدراء الحكم الذي تفوه به سلف البابا، وبما أن القرار المتقدم الذكر لم يجر التفوه به إليه، هو تابع السير بموجب نصيحة الأساقفة وبقية النبلاء في ألمانيا وإيطاليا، لأنه لم يكن ملزماً بمراعاته، قبل أن يجري التفوه به إليه، ومع ذلك هو يعترف ويقرّ، بأنه أخفق، وتصرف بشكل سيء بالنسبة لهذه القضية، بعدم مراعاته له، لأنه كما هو معروف بشكل جيد، وحسبما يعتقد بشكل ثابت، بأن للحبر الأعظم سلطة كاملة في القضايا الروحية، وكذلك عليه وعلى جميع المسيحيين من ملوك، أو أمراء، أو رجال دين، أو علمانيين، حتى لو كان هو نفسه مذنباً، لاسمح الرب بذلك، وعلى

الرغم من كل ذلك، سوف يقدم الامبراطور المذكور، بسبب خطيئته، كذا وكذا مساعدة، عسكرية ومالية، إلى أي أمير في العالم المسيحي، حسبما يبدو موائماً إلى صاحب القداسة البابا، ولسوف يقدم الصدقات، ويحافظ على الصوم، وفق مايرسم به البابا، ولسوف يلتزم باخلاص وتواضع بقرار الحرمان الكنسي المذكور حتى وقت تحليله، وفيما يتعلق بالأساقفة المعتقلين، في المقام الأول: إن جميع المقتنيات التي جرى الاستيلاء عليها في غلايينهم، والتي وقعت بين يدي الامبراطور، أو التي يمكن العثور عليها بحوزته هو سيعيدها وسيتدبر إعادتها كاملة، وفيما يتعلق بالبقية، إذا كان الذين عانوا من الأذى، يودون وعلى استعداد، هو سوف يقدم ترضية لهم، وذلك وفق مايأمر به البابا، الذي يثق بلطفه، وهو أيضاً تكفيراً عن الذنب المذكور، وفي سبيل تمجيد الرب، سوف يبني مشافي وكنائس،حسبما سوف يقرر البابا، وذلك بالنسبة للعدد والمكان، ووفق الطريقة التي يراها موائمة، ولسوف يمنحهم حسبما سيأمر البابا، وبالنسبة لما تقدم ذكره، وبالنسبة إلى جميع الأضرار والخسائر والاعتداءات التي تسبب بها إلى الكنائس وإلى اللاهوتيين منذ بداية الخصومة، ومنذ صدور القرار، ومن أجل الأضرار التي حرم بسببها كنسياً، هو —الامبراطور— سوف يقسم بدقة على الالتزام بأوامر البابا، شريطة الحفاظ على امتيازاته ومراتبه كما هي تماماً، ومن دون أي انتقاص لامبراطوريته ولممالكه، ومع أننا نعتقد بأن ترضية كافية قد قدمت مقابل الأضرار المتقدم ذكرها، مع ذلك إنه في سبيل تقديم ترضية، وفي سبيل ضمان تنفيذ القضايا المتقدم ذكرها، وأيضاً في سبيل هذه المنافع المذكورة، سوف يلتزم الامبراطور بخطط وبقرارات الوسطاء، الذين هم: ستيفن أسقف أوستيا، والكاردنالين: جايلز، وأوتو، الذين سوف —باستثناء شخص البابا— يقدمون مايرون أنه ضروري أن يقدم، على شرط، أن لايعمل الوسطاء المتقدم ذكرهم أي شيء، من دون نصيحة البابا وأمره، باستثناء أنه بالنسبة للنقاط المتقدم

ذكرها، في قضية الترضية والضمانة، سوف يفعلون كل الذي يقرره البابا المتقدم الذكر، بوساطة نصيحة إخوانه، وكذلك فيما يتعلق بالذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، نحن نقول إنه من هذا التاريخ، جميع الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، بعد بداية الخصام، مهما كانت الجهة التي جاءوا منها، سوف يعفى عنهم فيما يتعلق بجميع الأضرار التي عملت من قبلهم، قبل النزاع وبعده، سواء أكان ذلك لحساب الكنيسة أو لحساب أي جهة أخرى، وسوف يجري إلغاء جميع الحرمانات والقرارات التي صدرت ضدهم، وهو سوف يحررهم من الأعطيات، ومن الاتفاقيات، ومن الروابط، التي عملوها له، بعد صدور القرار، أو بعد وقوفهم إلى جانب الكنيسة، وسيعيد إليهم جميع ممتلكاتهم، وحقوقهم، ومراتبهم كاملة، مع أنها قد تكون قد أعطيت إلى آخرين، وفيما يتعلق بالآخرين، الذين كانوا قبل نشوب الخلاف ثائرين ضد الامبراطور، وكانوا آنذاك في حرب معه، نحن نقول بأن جميع ذنوبهم سوف يجري غفرانها كلها، والتي اقترفوها فيما بعد ضده، وضد الامبراطورية، وبالنسبة للاعتداءات والذنوب التي اقترفت قبل نشوب النزاع، سوف يلتزم الامبراطور بشروط البابا وبمراسيمه مع اخوانه، التي سوف يجري إقرارها، قبل التاريخ الذي سلف وأعده البابا، وهو سوف يمنح سلاماً كاملاً إليهم، منذ ذلك التاريخ، وبالنسبة للضمانات إلى الرومان، الذين ارتبطوا بالكنيسة بعد نشوب الخلاف، وكذلك بالنسبة لنبلاء منطقة تريفيسو Treviso, وإلى مركيز مونتسرات Montserrat, وللنبلاء الآخرين في جميع المناطق، وافق الامبراطور على أنه ينبغي عدم ربط النبلاء المتقدم ذكرهم —مالم يكن بناء على أوامر البابا— بتقديم الخدمة شخصياً إلى الامبراطور،بل بوساطة بدلاء، وأنهم سوف يدعون إلى الالتزام بقرار أتباعهم النبلاء ونظرائهم في المقاطعة نفسها، والذين ارتبطوا بالكنيسة ليسوا مستثنين، أما فيما يتعلق بالذين هم بالاعتقال، بسبب أعمال حقيقية أو شخصية، أو حتى إن كانوا متهمين بإعتداءات

جرمية، خاصة بالنسبة لحالة الرومان، سوف يقوم الامبراطور، من أجل تقديم الضمانة الأعظم إلى الذين ارتبطوا بالكنيسة، بتعيين واحد من مقدمي الأساقفة في إيطاليا، أمامه فقط يمكنهم الترافع بقضاياهم، وذلك في سبيل تقديم الترضية لصاحب القداسة البابا، وكذلك فيما يتعلق بالقضايا المدنية والجرمية، وسيجري اختيار هذا الأسقف بموافقة من البابا، ويبقى للمدة الزمنية التي يمكن أن يختارها، وأماكنهم الخاصة للدفاع، سوف يضعها الامبراطور في عهدة الذين يعتقد أنهم موائمين،، وهو لن يلمس أماكن الدفاع للمتقدم ذكره، أو يؤذيها من دون موافقة الأسقف الذي انتدب لهذه القضايا، وبالنسبة إلى الذين هم عائدين إلى منطقة تريفيسو، سوف يتعاون الامبراطور مع واحد من الرهبان يعتقد أنه موائماً للاختيار لهذا العرض، وتقديم مقدم إليه وحده سوف يرتبط الذين وقفوا إلى جانب الكنيسة، لتقديم تقدير حول أراضي تريفيسو المذكورة، وهو أيضاً سوف يطلق سراح جميع الأسرى الذي اعتقلوا في الغلايين، والذين اطلاق سراحهم الآن هو مطلوب، وكذلك التوسكانيين، والرومان والأسرى الآخرين، الذين اعتقلوا منذ صدور قرار الحرمان الكنسي، وسوف يحررهم من جميع الأيمان، ومن جميع المتوجبات التي ربطوا أنفسهم بها، منذ وقوعهم بالأسر، وكذلك جميع الذين أطلق سراحهم، ومثلهم الذين سوف يطلق سراحهم بعد الآن، ومن أجل هذا سوف يعطي رسائل معتمدة إلى رعاياه المخلصين، بأن جميع الذين هم سجناء، سوف يطلق سراحهم في كل مكان من قبل سجانيهم، وسوف يسمح للذين طردوا من البلاد بسبب الخلاف الأول أو الخلاف الثاني، من رجال دين أو علمانيين، بالعودة إلى مواطنهم، ليمكثوا هناك بأمان، وأن يعيد إليهم ممتلكاتهم وبضائعهم كلها.

وبالنسبة لخلافه مع الرومان، سوف يلتزم الامبراطور بالترتيبات التي سوف يعدها البابا واخوانه، وكذلك فيما يتعلق بعمل تعويضات عن

الخسائر التي عانوا منها على كلا الجانبين في تلك الحرب، وكذلك فيما يتعلق بالمسائل الأخرى، على شرط أن ذلك —على كل حال— سوف يجري ترتيبه حول مايتعلق بالخلاف حول ممتلكاته وتحديدها، باستثناء قلعة أنتكولي Anticoli, التي حولها لايقبل التسوية، وفيما يتعلق بالمضار التي عملت من قبل الامبراطور، أو موظفيه ونوابه، بناء على أمره، إلى كنائس رجال الدين، وكذلك بالنسبة للعلمانيين والكنائس الأخرى، وذلك منذ صدور القرار ضده، سوف يقدم الامبراطور ترضية، حسبما يمكن أن ترى حكمة الكرسي الرسولي ولطفه أنه من المناسب تقريره، وكذلك حيث لايعلم الامبراطور بأن الأذى قد عمل من قبله، أو من قبل جيوشه.

وقد منح إلى غريغوري دي مونت لونغو وإلى أقربائه، سلاماً كاملاً وأماناً، وأرض الكونت وليم التي استحوذ عليها من قبل الكنيسة سوف تعاد، وبالنسبة للأراضي الأخرى، سوف يجري تحكيم حولها بين الامبراطور، وبين الكاردينال أوتو، رئيس أساقفة روان، وهكذا فإنهما هما نفسيهما يمكن أن يقررا الشريعة التي ينبغي أن يقرراها.

وتفوه رسل الامبراطور وأعطوا وعدهم، بأنهم سوف يعملون تسوية حول مايتعلق بالممتلكات والمقتنيات، وفي الوقت نفسه سوف يعترفون، ويحددون، ويقسمون، أنهم سوف يسعون مخلصين تماماً ومن دون خداع، إلى اقناع مولاهم الامبراطور، بأن يسمح للأساقفة المتقدم ذكرهم، بالترافع قضائياً بشكل جماعي أو بشكل فردي حول قضية الممتلكات وحقوق الملكية، ولسوف يطلب الأساقفة الثلاثة من الامبراطور أن يفعلوا ذلك، وتعهدوا بالنسبة لأنفسهم، بأنهم سوف يتصرفون في هذه القضية باخلاص وصلاح نحو الامبراطور، شريطة أن يسمح لهم بالترافع قضائياً، حسبما يعتقدون أنه عمل موائم، في الاستماع لهذه القضية وفي تقريرها، وذلك حول المقتنيات، وحقوق الملكية، جماعياً

أو فــردياً، وأنه إذا لم يستطيعــوا جميعــاً أن يكونوا حــاضرين، وأعيق أحدهم بأي معيق معقول، يمكن لاثنين منهم الترافع بالقضية.

حول معيق تطويب القديس إدموند المعترف

وما ان جرت تسوية هذه القضيــة الصعبة، حتى اعتقد البابا بأنه حلّ جميع القضــايا بسعــادة، فــردد الشكر إلى الرب، وإلى القــديس ادمــوند، الذي طلب عونه في وقت متاعبه، وبناء عليه وعد وقرر، أن يقوم تماشياً مع طلب راعي ديــر ورهبــان بونتغني، بشكل مهيب بتطويــب ادمــوند المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، الذي عــرفه من التقرير العام بأنه أشع بكثير من المعجــزات التي تمت الاشــارة إليهــا أعــلاه، وأرسل أندلم Andelm, رئيس أساقفــة أرماغ مع رجــال آخرين مستقيمين وذوي نفــوذ، للقيــام بفحص مناسب وتقصي حــول هذه المعجــزات، وعندمــا سمع المضطهــدون القــدامى والمتجــذرون للقــديس المذكــور قــالوا بين بعضهم: «إنه إذا مــاجرى تطويب هذا الرجل، وتمت ترقيتــه إلى مرتبــة القــدسية المتميــزة سوف نكون في وضع مــربك مهين»، ولذلك قامــوا مــن أجل خــراب أرواحهم، فعملوا مؤامرة مــع النائب البابــوي أوتــو، لمنــع هذا الــقديس من التطــويب مع أن الــرب قــد أظهــر للنــاس كثيراً مــن معجزاته.

تراجع الإمبراطور عن شروط السلام التي رتبها

وأبعــد الامبراطور وتغــرب بوساطة بعض المزعجــات، والإثارة له، حيث أظهر أولاً شمــوخاً، ثم أسف لوعــوده، وتراجع بشكل محزن عن الشروط التي أقسم بمــراعــاتها، وعن التــواضع، وعن تقــديم الترضيــة المــوعودة، وفي الــوقت نفســه، حتى تزداد أحزاننا، كتب الأساقفة الذين يسكنــون في الأرض المقدســة، إلى الأســاقفــة الــذين يسكنــون على هــذا الجانب من البحر، مايلي:

رسالة مبكية

«إلى الآباء المبجلين في المسيح، وإلى جميع أصدقائنا: رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، والأساقفة الآخرين في انكلترا وفرنسا، وإلى الذين سوف تصلهم هذه الرسائل، يتمنى لكم روبرت، الذي هو بنعمة الرب بطريرك الكنيسة المقدسة في القدس، والنائب للكرسي الرسولي، وهنري رئيس أساقفة الناصرة، وج. J, الأسقف المنتخب لقيسارية، ور. R أسقف عكا، وأسقف صيدا، والراهب وليم أوف روكفورت Rochefort, نائب مقدم بيت فرسان الداوية، ورهبان البيت نفسه، وهـ. H رئيس رهبان ضريح ربنا، وراعي دير القديس صموئيل لطائفة رهبان البريمونستريت Premonstrate, ورعاة الديرة: ب. B راعي دير جبل الزيتون، وج. J راعي دير هيكل ربنا، وب. P راعي دير جبل الطور،و ر. R راعي دير جبل صهيون، الصحة والنجاح وفقاً لرغباتكم:

قدمت حدة الحيوانات الشرسة من مناطق الشرق، ووجهت مسارها نحو منطقة القدس، التي مع أنها اعتادت في أوقات كثيرة أن تتعرض للمضايقات بطرق متنوعة من قبل المسلمين المحيطين بها قد تمتعت بالآونة الأخيرة بشيء من التنفس بحرية، لأن أعداءها القريبين قد أخلدوا إلى الراحة، ومع ذلك فإن ذنوب المسيحيين قد أثارت شعباً غير معروف، حتى يقدم على تدميرهم، وقد جلب السيف المنتقم وسلّطه عليهم، من بعيد، نعم لقد هزّ غضب التتار ورعبهم جميع منطقة الشرق، بوساطة المصائب المضاعفة والمرعبة، فقد اضطهدوا الناس سواء، ولم يميزوا بين مسيحي وغير مسيحي، بل أخذوا أسلابهم من أقصى البقاع، حتى من الذين هم أنفسهم، قد عاشوا على افتراس الشعب المسيحي، فبعدما نهب ودمّر هؤلاء التتار المذكورين جميع بلاد فارس، وشنّوا حرباً بروح فاسدة، واصطادوا أولئك الخوارزمية

المتوحشين، وسحبوهم من جحورهم، طردوهم من مقاطعاتهم، ولم يمتلك هؤلاء الخوارزمية مكاناً يسكنون به، ولم يتمكنوا من الحصول على ملاذ آمن بين أي من المسلمين، بسبب شرورهم، وقد تلقوا العون فقط من سلطان مصر، ذلك المتعقب للإيمان المسيحي، وهو وإن رفض منحهم مكاناً يلتجئون إليه في أراضيه، عرض عليهم، وقدم إليهم، ماهو ملك للآخرين، واستدعاهم ووجّه الدعوة إليهم ذلك المسلم، للسكنى في أرض الميعاد، التي وعد بها الذي هو في عليين، وأعطاها إلى الذين آمنوا به، وبناء عليه، قدموا، وهم معتمدين على عون السلطان المذكور، مع زوجاتهم وأسرهم، وعدة آلاف من الفرسان المسلحين، ودخلوا إلى ميراث الرب، الذي قالوا بأن سلطان مصر قد منحهم إياه، وكان وصولهم مفاجئاً، ولم يكن متوقعاً لا من قبلنا، أو من قبل الناس المجاورين لنا، لذلك لم يتمكنوا من انذارنا للاحتراز ضدهم، وقد دخلوا إلى منطقة القدس من خلال مقاطعتي صفد وطبرية، ومع أننا استخدمنا كل حيطة، ويقظة لابداع وسائل من أجل ارجاع الأرض المقدسة، إلى سالف عهدها من السلام والهدوء، الذي اضطرب بقدوم هؤلاء الأعداء الجدد، مع ذلك لم تكن إمكانات الصليبيين كافية للقيام بواجب طردهم، وإثر هذا استحوذ الخوارزمية الذين تقدم ذكرهم، على المنطقة كلها الممتدة من طور الفرسان على مقربة من القدس، حتى غزة، وقمنا بناء عليه، واعتماداً على نصيحة الجميع ورغبتهم، بالتعاون مع مقدمي بيتي الرهبان، أي فرسان الداوية، وفرسان اسبتارية القديس يوحنا، ومدير فرسان التيوتون للقديسة مريم، ومدير المملكة، فتوجهنا بالدعاء إلى مساعدة جميع الصليبيين، وسلطاني دمشق، وحمص، اللذان كانا آنذاك يربطهما معنا معاهدة سلام، واللذان كانا معاديين ومبغضين للخوارزمية، واللذان كانا ملتزمين، وفقاً لشروط المعاهدة، بالدفاع عن الأراضي التي هي بين أيدي الصليبيين، ضد المسلمين الآخرين، لأننا اعتقدنا أنهم أنذروا بوصول أولئك الخوارزمية المذكورين، وهم وإن

وعـدونا باخلاص وأقسمـوا على أن يقدمـوا العون إلينا، تأخـروا كثيراً بتقـديم أية نجـدة إلينا، وفي الوقت الذي كـان فيه الصليبيـون مترددون حول القتـال ضد هؤلاء الخوارزميـة، لأن أعدادهم كـانت قليلة، جداً، مقارنة بأعدائهـم، غالباً ما هاجم هؤلاء الخوارزمية مـدينة القدس، التي لم تكن محميـة بحواجـز دفـاعيةعلى الاطلاق، وبناء عليـه فإن الصليبيين الذين كـانوا في المدينة، وكـانوا يخافـون من وحشيـة هؤلاء «الكفـار»، احتشـدوا حتى بلغ عـددهم أكثـر من ستـة آلاف رجل، ووثوقـاً منهم بالهدنة التي كانت معمـولة بينهم وبين سلطان الكرك، ومسلمي المناطق الجبلية، تركـوا عدداً قليلاً في المدينة وانطلقوا خـلال هذه المناطق الجبلية مع أسرهم، وجميـع مقتنيـاتهم، للدخـــول إلى أراضي الصليبيين، لكن المسلمين في تلك المناطق انقضـوا عليهم، وهاجموهم، ووضعـوا بعضهم طعمة للسيف من دون رحمة، واعتقلوا آخـرين، وعهدوا بهم إلى أسر لا أمل فيـه، وعـرضـوا الصليبيين من الجنسين حتى الـراهبـات للبيع إلى المسلمين الآخـرين، وتمكن بعضهـم —على كل حـال— من النجـاة بالنزول إلى سهل الـرملة، ووقتهـا انقض الخوارزميـة عليهم، واقترفـوا مـذبحة هائلة بينهم، إلى حـد أن الذين نجوا من ذلك الحشـد الكبير، لم يتجاوز عددهم الثلاثمائة، وكـان هؤلاء بلا حياة تقريباً، ثم دخل أولئك المتوحشون التعسـاء المتقدم ذكرهم إلى مدينة القـدس، وكانت الآن شبه خـالية من الناس، وقتلوا جميع الصليبيين الـذين بقيوا هناك، حتى أمـام ضريح ربنا نفسـه، وفي الكنيسـة التي هربوا إليهـا للالتجـاء، لابل حتى أنهم قطعـوا رؤوس الكهنة الذين كانـوا يؤدون القداسـات عند المذبح، وكـانوا يرددون بين أنفسهم: «دعــونا هنـا نصب دمـاء هؤلاء الناس الصليبيين، وذلك حيث شربوا الخمرة تشريفـاً لربهم، الذي يقولون بأنه علق هنا على الصليب»، وبالاضـافـة إلى هذا نحن نخبركم بما هو أكثـر إيلاماً وحزناً، حيث أنهم وضعـوا أيديهم الملوثة، على ضريح قيامة ربنا، ولوثوه بطرق كثيرة، ولقـد انتـزعـوا تقـريبـاً ألواح الرخـام التي كـانت

موضوعة من حوله، ولطخوا بكل وسيلة من الإهانات كانت بإمكانهم، جبل [أكـرا] الجمجمــة، حيث جـرى صلب المسيـح، والذي فعلوه بالمدينة، هو مـا لستُ بقـادر على التعبير عنه، وانتزعـوا أعمـدة الضريح المقـدس، التي وضعت أمام ضريح ربنا بمثـابة زينة، وتحدياً للمسيحيين أرسلوهم إلى ضريح محمـد (صلى الله عليـه وسلم) بمثابـة علامـة على النصر، ولكي يزيدوا من إهـانة الصليبيين خـرقـوا حـرمـة قبـور الملوك السعداء [للصليبيين] التي كـانت موضوعـة في الكنيسة نفسها، وفـرقوا عظامهم وبعثـروها في كل اتجاه، وبالنسبـة لجبل صهيـون المبجل، فقـد خـرقوا حـرمتـه، ولطخوا بأشيـاء غير معقولـة، وغير مناسبة لذكـرها، هيكل الرب، وكنيســة وادي شعفـاط، حيـث يوجـد ضريح العــذراء المبــاركـة، وفعلوا مثل ذلك بكنيســة بيت لحم، ومــوضع ولادة ربنا، وبذلك فاقوا بشرورهم جميع المسلمين الآخرين، الذين مع أنهم غالباً ما هاجموا الأراضي الصليبيـة، دوماً أبدوا بعض الاحترام إلى هذه الأمـاكن المقـدسة، هذا ولم يكـن هؤلاء الخوارزمية المذكـورين قـانعين بكل هذا، وكـانـوا يستهـدفـون الاستيــلاء على جميع المنطقـة التــابعـة للصليبيين وتدميرها كليــاً، وقــد استثير الصليبيــون بسبب هذه التجــاوزات والأضرار، وباتوا غير قـادرين على تحمل مثل هذه الشرور مـدة أطول، التي هي شرور كـافيـة، لإثارة كل حـزن وأسى في قلب كل تابع غيـور للإيمان الكاثوليكي، لذلك قرروا بموافقة عامة، العمل على توحيد قوى السلطانين المتقدمـي الذكر مع قوات الصليبيين، وبناء عليـه، بدأ الجيش الصليبي في اليوم الرابع من تشرين أول بالزحف ضدهم من ميناء عكا، وسار خلال قيسارية والمناطق الساحلية الأخرى.

وعلم الخوارزميـة وقتهــا باقترابنا، ولذلك تراجعـوا خــلال مناطق متعددة، ونصبوا معسكرهم أخيراً أمـام عكا، وانتظروا هناك النجدات، التي كـان سلطان مصر —الذي هو رأس ومقـدم الدنس— على وشك

إرسالها إليهم، وعندما التحق بهم حشد كبير أرسله السلطان المذكور، وصل إليهم الجيش الصليبي مع السلطانين المتقدمي الذكر، وكان ذلك عشية عيد القديس لوقا، فيومها وجدناهم أمام غزة مع حشد لايحصى، وكانت فرقهم معبأة للقتال، وبناء عليه جرى ترتيب جيشنا من قبل المقدمين وفق النظام الموائم لمهاجمة الأعداء وقتالهم، ثم قام البطاركة والأساقفة الآخرين بتحليلهم من ذنوبهم بموجب سلطان الرب القدير، والكرسي الرسولي، وأعطى الجميع شارات، وأظهروا علامات على ندم مخلص بوساطة تدفق الدموع، فهم عدّوا موت الجسد أمراً لاقيمة له، وكانوا يأملون بنيل الجزاء الأبدي، واعتقدوا جميعاً أن تموت من أجل المسيح هو أن تعيش، لأنه لابد من حدوث مصيبة جسدية لنا بسبب ذنوبنا، يتوجب أن نعتقد أن الذي هو في عليين، الذي يبحث في القلوب، ويعرف جميع الأسرار، سوف يكون مسروراً بالحصول على الأرواح بدلاً من نيل الأجساد.

ثم إننا اشتبكنا بعد ذلك مع العدو، ووقتها لحقت الغلبة بالمسلمين الذين كانوا معنا من قبل العدو، وهربوا جميعاً، وكانت أعداد منهم قد قتلت أو وقعت بالأسر، وهكذا تُرك الصليبيون لوحدهم في ميدان المعركة، ومع أن الخوارزمية والمصريين انقضوا عليهم مع بعضهم، صمد الصليبيون بحكم كونهم أبطال الرب، والمدافعين عن الإيمان الكاثوليكي، والذين جعل منهم الإيمان نفسه والآلام، إخواناً، وأظهروا مقاومة شجاعة لهم، ولكن أخيراً، بما أنهم كانوا قليلاً جداً، بالمقارنة مع أعدائهم، تحول تيار المعركة ضدهم، وانصاعوا —وأنا أكتبُ ذلك بأسف— أمام النصر الذي ناله أعداؤهم، والذين نجوا من بين جميع فرسان الداوية، ومن فرسان اسبتارية القديس يوحنا، ومن فرسان التيوتون للقديسة مريم: فقط ثلاثة وثلاثين من الداوية، وستة وعشرين من الاسبتارية، وثلاثة فقط من رهبان فرسان التيوتون، هؤلاء فقط

الذين نجـوا، أمـا البقيـة فهم إمـا قـد قتلوا، أو جعلوا أسرى، وذلك بالاضافـة إلى مذبحة هائلة ألمت بـرماة القسي العقارة، وكـذلك بالنسبة للجنود الرجالة.

وفيها يتعلق برئيس أساقفة صـور، وأسقف اللد، وراعي دير القديسة مريم في شعفاط، ومقدم الداوية، ومدير التيـوتون للقديسة مريم، وعدد آخـر من الرهبـان والكهنة، بما أنهم لم يظهـروا بيننـا، نحن في شكوك عظيمة حـولهم، لاندري أسقطوا في المعركة، أم أنهم مـازالوا قيد الأسر، فنحن غير قـادرين على تأكيـد الحقيقـة حولهم، أمـا مقـدم الاسبتـارية، والكونت وولتر دي بـريين، فقـد حملا مع عـدد كبير آخـر أسرى إلى القاهـرة، وأما بالنسبـة لي أنا البطريرك، الذي بسبب ذنوبي، وقعت جميع هذه المصـائب، فقـد عُددت من قبل الرب، أنني غير جـدير بالشهـادة، ولذلك نجوتُ، وأنا نصف ميت، وتمكنتُ من اللجوء إلى عسقلان، مع النبـلاء، وقسطلان عكا فيليب دي مونتفـورت، والفرسـان، والعساكـر الرجالة، الذين نجوا من المعركة، ومع أنه ليس هناك راحة بين مثل هذا العدد الكبير من المصائب، والخسـائر التي ألمت بنا، ذلك أننا خسرنا كل شيء في المعركـة المتقدمة الذكر، مـع ذلك إن الذي كان بإمكاننا فعله في حالة الطوارىء الحالية فعلناه، فقد قمنا بارسال رسائل ورسلاً إلى الملك المشهـور لقبرص، وإلى أمير أنطاكيـة، ورجـوناهما بحـرارة وحثثناهما في حـالة الضرورة الملحة هذه، أن يرسـلا فرسـاناً وعساكـر من أجل حماية الأرض المقدسـة، لكننا لانعرف بعـد ماالذي عـازمان على فعله في هذه القضية.

ثم إننا عـدنا إلى عكا، واتخذنا مقامنا في تلك المدينة، التي وجـدناها، وكـذلـك وجـدنا جميع المنطقـة على طول السـاحـل، مليئة بالحزن، والنحيب، وبمختلف أنواع التعـاسـات التي لانهاية لها، ولم يكن هناك بيت أو روح حيـة لم تكـن تبكي واحـداً من الموتى قـريب لها، ومع أن

الحزن من أجل الماضي كان كبيراً وقاسياً، إن الخوف من المستقبل قد استولى على الجميع، لأن جميع المنطقة التي تم نيلها بسيوف الصليبيين، هي الآن خالية من جميع بني البشر، ومن جميع المساعدات الأرضية، والحماية، وقوة المدافعين قد نزلت إلى لاشيء، ودمرت، لأن هناك فقط عدد قليل من الأحياء، ومع أن هؤلاء قد انحدروا إلى حافة الموت، ما من شيء كما يبدو قد بقي، بل يتوجب أن يسقط كل المتبقي في أيدي أعداء الصليب، وفق رغباتهم، ذلك أنهم تقدموا إلى درجة عالية من الصلف والوقاحة، حتى أنهم زحفوا فنصبوا مخيمهم، الذي امتد فوق مساحة ميلين في السهل القريب من مدينة عكا، ثم إنهم الآن يركضون بشكل وحشي، وهم أحرار، حيث ليس هناك من يعترضهم أو يتصدى لهم، في جميع المنطقة بالطول والعرض، وذلك حتى منطقتي الناصرة وصفد، وهم قد استحوذوا على المنطقة، وشرعوا يتقاسمونها فيما بينهم، وكأنها كانت منطقتهم، وقد عيّنوا رسلاً ووكلاء في جميع قرى وبلدات الصليبيين، ويتسلمون الموارد والجزية من رجال المقاطعات ومن بقية السكان، وهو ما كانوا من قبل يدفعونه إلى الصليبيين، وقد أصبح رجال المقاطعات هؤلاء الآن أعداء للصليبيين وعصاة ضدهم، ومرتبطين متحالفين مع الخوارزمية.

وهكذا فإن جميع كنائس القدس، وكذلك جميع الأراضي الصليبية، ليس لديها الآن أراضي تتجاوز بعض الأماكن الحصينة القليلة، التي يجدون مصاعب جمة ومتاعب كبيرة في الدفاع عنها، ولقد قيل أيضاً بأن المصريين الذين هم الآن عند غزة سوف يقدمون قريباً بأعداد كبيرة جداً إلى عكا، للاتحاد مع الخوارزمية في حصار المدينة، وتلقينا أيضاً في الثاني والعشرين من تشرين الثاني رسائل مع رسل من القسطلان مع الاسبتارية الذين يشكلون الحامية في قلعة عسقلان، يعلنون لنا بأن الجيش الاسلامي القادم من مصر قد ألقى الحصار على تلك القلعة،

وأن المسلمين قد طوقوها، ولقد التمسوا منا أن نرسل إليهم مساعدات سريعة ومؤناً، وأن يكون ذلك منا ومن الجماعة الصليبية.

وفي سبيل أن تثيرك تقواك للاشفاق على دمار الأرض المقدسة، لأن هذا العبء يقع على أكتاف الجميع بشكل عام، رأينا من الصواب إخباركم عن أوضاع قضية المسيح، وبتواضع نرجوكم وبالصلوات والتقوى الخالصة نلتمس منكم، أن تطلبوا الرحمة من العلي الأعلى لصالح تلك الأرض، في سبيل أن الذي كرّس تلك الأرض بدمه، في سبيل خلاص جميع الناس، أن يتطلع إلى تلك الأرض برحمته، وأن يمدّ يده لمساعدتها وحمايتها، وقدم أيضاً أيها الأب الأعظم محبة، ما تمتلك من نصيحة ومساعدة في هذه القضية، حتى تحصل من ذلك لنفسك على المكافأة في السماء، وبالنسبة إليكم يمكنكم أن تكونوا متأكدين تماماً، أنه ما لم تقدم مساعدة إلى الأرض المقدسة في العبور المقبل لشهر آذار، من يد العلي الأعلى، وبوساطة نجدات من القوات الصليبية، إن الدمار والتخريب المحيق بها الآن، لايمكن النجاة منه، وبما أننا نحتاج إلى وقت طويل حتى نبين الضروريات الأخرى التي نحتاجها، وأوضاع الأرض المقدسة بشكل عام في رسالة، أرسلنا إليكم الأب المبجل أسقف بيروت، وآرنولف Arnulph, وهو راهب من طائفة رهبان الدومينيكان، وهما سوف يحكيا إلى جماعتكم الحقيقة كلها كاملة وبصدق، ونحن بتواضع نرجوكم جميعاً الإصغاء إلى الرسولين المتقدم ذكرهما، وأن تعاملاهما بكرم، لأنهما عرضا نفسيهما لمخاطر عظيمة، لصالح كنيسة الرب، بقيامهما برحلتهما في الشتاء. صدر في عكا في اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني، من عام ألف ومائتين وأربع وأربعين لتجسيد ربنا».

ووضع على النسخة الأصلية من هذه الرسالة البليغة اثني عشر ختماً.

تأثير الرسالة المتقدمة

وعُــهد بحمل هــذه الرسـالة الحزينة والمبكيــة، التي بعث بها آنذاك أساقفة الأرض المقدسـة ونبلائها، الذين لم يكن بإمكانهم تحمل توقعات الشتـاء المقبل، وتهديدات البحر المضطرب والهائج، عهـد بها إلى وولران Waleran, أسقف بيروت، والراهب آرنولـف الذي هو من طائفـة الدومينيكان، ليحمـلاها بكل سرعـة ممكنة إلى الذين هم على طرفنا من الماء، وليرياها بشكل خـاص إلى ملكي فـرنسا وانكلترا، وقـام الأسقف المتقـدم الذكر مع الـراهب، نظراً لتوفـر الحاجـة القصوى، فتحمـلا، في سبيل غفـران ذنوبهما، القيام بنقل هذه الـرسالة، لصـالح المسيح، وذلك بناء على طلب الأسـاقفة، ولم يهتما بجميع المخـاطر الشخصية، فقـاما في اليوم الأول من ميلاد ربنا بجـرأة بالاقلاع، لكن مع التواضع المطلوب، وكانا يستهدفان استنهاض قلوب المسيحيين، وإعداد طرق الولد الوحيد للرب، الذين تحت وقـايتـه سـوف يستحقـون الخلاص مـن المخـاطرة المحيقـة بهم، ونتيجـة لذنوبهم، لقـد مكثـوا في البحـر لمدة ستـة أشهـر، تعرضوا خلالها لخطر الموت من كل نوع وفي كل سبيل، وكما سمعنا من الأسقف المحترم نفسه، لقد عانى من عـدد كبير جداً من المخاطر، حتى أنه أمر مبكي الإصغاء إلى رواية حولهم، كما أنه متعب روايتهم، وأخيراً —على كل حال— وصـلا بتوجيه من الرب، وبمسـاعدة صلوات جميع الأسـاقفة الـذين تقدم ذكـرهم، الذين كـانوا قـد أوكلوا أنفسهـم إليهما، وصلا إلى ميناء البندقية، وكان ذلك في حوالي عيد صعود ربنا.

بعض الإنذارات المسبقة حول الحساب المستقبلي

إنه لمن المعلوم بشكل جيد أن تهديد الرب، لم يكن نافذاً من قبل مثله الآن حول مدينة القـدس المقدسة، وذلك حين قال: «مـا من حجرة من أحجارك سـوف تبقى فوق أخرى» إلخ، إلخ، ومن المتـوجب أن نعرف أنه قبل عدة سنوات مضت سقط تمثال محمد (صلى الله عليه وسلم) في مكة (كـذا)، وفي سبيل إنزال أعظم انتقـام لهذا الحدث، ومن أجل إيذاء

المسيح، والمسيحيين الذين فرحوا لسقوط هذا التمثال، إزداد الآن غضب هؤلاء الخوارزمية المذكورين، وتعاظم ضد المسيحيين وضد أماكنهم المقدسة، وقالوا بأنهم حصلوا على هذا النصر من خلال رضا الله، وبوساطة شفاعة محمد (صلى الله عليه وسلم).

ومضى صوتهم بعيداً (ومن الممكن القول «سوف يمضي بعد هذا أبعد» واضعاً الماضي من أجل المستقبل) «في جميع أنحاء العالم»، وبناء عليه انتشر تبشير الدومينيكان والفرنسيسكان، وعمّ ليصل إلى جميع أنحاء العالم، وذلك وفقاً لكلمات المخلص: «أنتم سوف تكونون شهودي في اليهودية كلها والسامرة حتى إلى » إلخ، إلخ، وكأنه كان يريد أن يقول: «عندما ترون هذه الأشياء، حكم عام محيق»، ولم تجاوب لا الأرض ولاالبحر، وفقاً لعادتيهما عموماً، على توقعات الناس، بل إن الماء وكذلك الأرض أصيبتا بضرب من ضروب الصمت والتعطيل، وكسفت الشمس مرتان في السنوات الثلاث المنصرمة، وهو حدث لم يتذكر مثيله بأنه وقع قط من قبل، وشوهدت النجوم تتساقط مؤخراً، ونبعت الطوائف نظراً لتقلبات العقيدة، ونشبت خلافات لم يعرف مثيل لها من قبل بين الكنيسة وبين الامبراطور، وسيطرت المجاعة وانتشر الطاعون في جيش الملك الفرنسي، وقبل عدة سنوات مضت لحق الدمار الكلي بمدينة بافوس Paphos وبعدة مدن أخرى تابعة للامبراطورية، وبجزر البحر المتوسط، بوساطة زلازل.

مواظبة البابا العمل على مصالحة أسقف وينكستر مع الملك

وأثناء تقلب العالم هكذا مع أمواج الهموم، وبينما كانت سورية مهزوره بعواصف الحوادث الأخيرة، كانت انكلترا مستثارة من دون توقف بالهموم والقلق، لأن الملك كان قد تلقى دونها مبالاة طلبات متوالية وملحة، ومذكرات من البابا لصالح أسقف وينكستر، الذي مازال منفياً في فرنسا، معتمداً على نصائح كهنة بلاطه، الذين كان همّهم

الوحيد الحصول على المرابح، ولذلك أثاروا اتهامات جادة ضد الأسقف المذكور، وقام البابا —على كل حال— الذي قيل بأن الأسقف قد دفع له ثمانية آلاف مارك، صدوراً عن عاطفته تجاه الأسقف المذكور، وكذلك بسبب مبلغ المال الذي دفع له، بالاستمرار بالاهتمام بالموضوع بنفسه، وكتب إلى ملك انكلترا لصالحه كما يلي:

رسالة البابا إلى ملك إنكلترا لصالح أسقف وينكستر

«من انوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى ولده المحبوب في المسيح، ملك انكلترا، صحة ومباركات رسولية:

بعدما رفع فضل الرب، شخصنا المتواضع إلى المنصب الرفيع للكرسي الرسولي، شعرنا بكثير من الثقة بسموكم، حتى تصورنا أنكم سوف تظهرون أنفسكم مندفعين ويقظين نحو القضايا التي هي مرتبطة بكرامة الكنيسة ورفعتها، وبما أننا كنا قد وافقنا، بناء على نصيحة إخواننا، على انتخاب أخينا المحترم، الذي كان من قبل أسقف نورويك، ليكون أسقفاً لكنيسة وينكستر، أرسلنا التماساً خاصاً إليكم، أن تظهروا أنفسكم بمشاعر طيبة، ولطف في تصرفاتكم نحوه، وذلك صدوراً عن احترامكم للذات اللاهوتية، والاحترام لنا شخصياً، وأن تقوموا بسرعة وبلطف فتعينوا له القلاع والعزب العائدة إلى تلك الكنيسة، ولقد سمعنا، ماأدهشنا وأحزننا، هو أنكم ليس فقط لم تسمحوا بتنفيذ طلبنا، لابل ماهو إثم أعظم، أنكم انفجرتم وتفوهتم بكلام فارغ من كل لطف، ومن الاحترام الأبوي، معلناً أنه لايمكن السماح لأي انتخاب في مملكة انكلترا، أو يمكن أن يكون من قبل الكرسي الرسولي، ضد رغبتكم، أي مثلما نحن نمتلك سلطة في القضايا الروحية، تمتلكون أنتم سلطة في المسائل المدنية، وأنه لايمكن لأي واحد جرى انتخابه الاستحواذ على الممتلكات الدنيوية من دون موافقتكم، وعلاوة على ذلك أضفت بأنك تعد نقل الأسقف المذكور غير فعال،

لأنه تمّ الحصول عليه مننا بالزيف، وبوسائل خفية غير مستقيمة، وهذه الإجراءات ياولدنا المحبوب لاتعزز كرامة الرب، ولا كرامة الكنيسة، أو كرامتكم أنفسكم، وليس لهم طعم العدل، ومذاقهم ليس مذاق الانصاف، لاسيما وأن الاعتقاد التقوي لجميع المسيحيين، أنه بموجب الحكمة الربانية، يتمتع الكرسي الرسولي بسلطة كاملة، وسلطاته نافذة في جميع قضايا الكنيسة، وأن هذه السلطات ليست ملزمة بالخضوع إلى قرار الأمراء، أو طلب الحصول على موافقتهم في مسائل الانتخابات والاعتراضات، ففي هذه المسائل يقوم الكرسي الرسولي بإجراءاته بشكل مدروس وحكيم، حتى لاتتعرض الكرامة إلى المعاناة من أي انحراف، وما من شيء يمكن أن يحدث وفيه إيذاء للعدل، وهكذا أيضاً كانت إجراءات الكرسي الرسولي في نقل الأسقف المذكور، وبالتقدم به، رفعت رجلاً متميزاً تماماً في علمه، وفي أخلاقه، وفي استقامته، وفي حكمته، في الشؤون الروحية والدنيوية سواء، وهو رجل كان من قبل محبوباً من قبلكم، ومحبوباً جداً لديكم، وهو رجل قد سعى بكل قواه لتلبية رغباتكم، وذلك بقدر مايسمح له واجبه نحو الرب، وهو رجل حاول أن يجعلكم تكسبون المزيد من الكرامة والمنافع.

وبناء عليه لاتسمحوا لأنفسكم أن تفرض عليها النصائح الماكرة للمستشارين الخادعين، الذين يسعون لإلحاق الأذى بالناس ذوي الفضائل، في سبيل أشخاص لامبالين، همّهم فقط الحصول على منافع خاصة لأنفسهم، ولتلبية رغباتهم الذاتية، وبناء عليه نحث جلالتكم بكل العواطف الممكنة، ونلتمس منكم باسم مولانا يسوع المسيح، ابعاد آذانكم عن الاصغاء إلى الاقتراحات غير التقية لمثل هؤلاء الناس، وأن تتابعوا باستمرار استهداف رفعة كرامة كنيسة الرب، وامتيازات الحرية الممنوحة لها من عليين، مع السعي للحفاظ على هذه الامتيازات غير مخروقة.

والآن اسمح للأساقفة في مملكتك، ودعهم من الآن فصاعداً، يأخذون بحرية وبسلام الممتلكات مهما كان نوعها، التي هي عائدة إلى كنائسهم، في كل من المسائل الروحية والدنيوية، وبالاضافة إلى هذا تمعن بعمق وتفكر حول حقائق أننا بممارستنا لواجبات منصبنا الرسولي، نحن خاضعين لشرف الاسم اللاهوتي، ولذلك ينبغي أن لايرد بخاطرك، ولا تنزعج من تطبيق أي من الإجراءات التي قمنا باتخاذها، بعد بحث وتداول خاص، بشأن قضية الأسقف المتقدم الذكر، وبما أننا قررنا في قرارة أنفسنا، أن ننظر إليك بنظرة خاصة، فوق جميع أمراء الأرض الآخرين، إنك بالضرورة سوف تتصرف نحوه بشكل مشرف، وعليك أن تضع جانباً جميع المصاعب، وأن تتخلى له بإرادة طيبة وتمنحه جميع القلاع والعزب والانتاج الذي جاء منهم منذ تاريخ نقله، في سبيل أن يتمكن، تحت حظوتك الخاصة، من القيام بواجب العناية بالمنصب الذي أسند إليه، وأن تكون المحصلة من ذلك نتائج طيبة، وغير هذا، بما أننا لانختار انقاص امتيازات الكنيسة في أيامنا، بل نرغب بوجوب زيادتها، إننا لن نستطيع هكذا ظلماً تحمل أية أذية تمارس بحق الأسقف المذكور. صدر في اللاتيران، في هذا اليوم السابع والعشرين من شباط، في السنة الأولى من بابويتنا».

كيف كتب البابا أيضاً إلى ملكة انكلترا وإلى بعض الأساقفة لصالح أسقف وينكستر

وكتب البابا رسالة بليغة، وفق اللهجة نفسها لصالح أسقف وينكستر، إلى ملكة انكلترا، وقد أعلن في بدايتها، بأنها —أي الملكة— كانت من أقربائه، أما كيف كان ذلك، فنحن لاندري على أي أساس، ما لم يكن قد أراد أن يجعلها متماشية أكثر مع أعماله، وأكثر تعاطفاً مع طلباته، ثم إنه طلب منها، وحثها (عالماً بأن المرأة حملت هذا الاسم لأنها تخفض غضب الرجل وتقلل من شروره) على السعي في سبيل تلطيف

حدة غضب الملك زوجها، الذي يشعر به ضد أسقف وينكستر.

كما أنه كتب إلى رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وإلى أسقفي ووركستر، وهيرفورد، وحثهم على الاهتمام شخصياً بكل يقظة بهذه القضية المذكورة، آمراً إياهم في نهاية رسالته أن يرسلوا إليه في رسائلهم الجوابية أسماء المستشارين السيئين الذين تولوا حرف عقل الملك.

رسالة أسقف وينكستر إلى الملك

«**إلى الأعظم سمواً، إلخ، إلخ:** بما أن رغبتنا —بقدر ماهي متوافقة مع احترامنا للرب— بذل جهودنا القصوى لتثمير رغباتكم الصالحة، استقبلنا بكل احترام لائق الراهب هوغ التابع لدير القديس تودور Tudor، الذي أرسل إلينا من قبل جلالتكم، وبعدما عرض علينا بعض الأسئلة باسمكم، أجبنا عليهم واحداً واحداً، متبعين —كما نعتقد— طريق العدل والانصاف، وذلك حسبما سيخبر الراهب هوغ المتقدم الذكر (كما سمعنا منه) جلالتكم بشكل كامل في رسائله، وبما أننا نود من صميم قلبنا أن ننفذ —بقدر مانستطيع مع الاحترام اللائق للرب— رغباتكم بشأن القضايا المذكورة، نرجوكم بكل تواضع، في تقديركم واحترامكم للكرسي الرسولي، أن ترحموا آلام كنيسة وينكستر، وأن تتقبلوني بحظوتكم ونعمتكم، وباحترام للاسم اللاهوتي، أن تستخدموا الرحمة لإلغاء الغضب الذي ربما شعرت به ضدنا، بناء على إثارة بعض النمامين،

اعتراضات الملك على أسقف وينكستر

وطالما تمت الاشارة إلى النقاط التي من أجلها أراد الملك مقاضاة أسقف وينكستر، ينبغي أن يكون معلوماً كيف وبأية حجج أجاب عليهم، ففي المقام الأول: بما أنه تم الحصول قديماً على مرسوم من أجل مايتعلق بامتيازات الملك، وكذلك مايتعلق بحق المملكة وعادتها، أي أن

الذين جـرت تسميتهم وانتخابهم، عليهـم بعد تسميتهم وانتخـابهم من قبل الذين سمـوهم وانتخبوهم، أن يجري تقـديمهم إلى الملك، وعليهم بعد تثبيتهم، وقبل قبولهم للإدارة في الشؤون الروحية أو الدنيوية، تأدية قسم بالولاء إليـه، وهذه قضايا قـد حذفت من قبل شخصيـة الأسقف المذكـور، وقد حـاول الملك وسعى للحصـول على مـرسوم من البـابا، الذي لم يعبأ بأن ماتقدم، أي من أجل المستقبل وفي حالة قضايا مشابهة، يتـوجب بقاء هذه الامتيـازات، والحقوق، والعـادات، نافذة، ويتـوجب أيضاً تأكيدها من قبله، أي من قبل البابا.

ثانياً: يتـوجب على الأسقف المذكور تحليل مـدينة و ينكستر من قرار الحرمان من شراكة المؤمنين الذي أعلن ضدها.

ثالثـــاً: إنه لدى تسلمـــه ضمانـة، أن يقـــوم بتحليل رجـــال الدين والعلمانيين، والآخـــرين، وبشكل خـــاص شعب وينكستر، من قـــرار الحرمـان الكنسي، الذي أعلنه ضـــدهم، بسبب الخلاف الذي نشب بين الملك وبينه شخصياً.

رابعاً: إن عليه عـدم خلع رئيس رهبان وينكستر، الذي وضعه الملك هناك، بل عليه إبقاءه في حظوته.

خامسـاً: عليه التصديق على جميع المنافع اللاهوتية في التماس عـرضه، التي هي موجودة في أسقفيـة وينكستر، أو في أي مكان آخر، التي جرى منحهـا من قبـل الملك منذ بداية الخلاف، وأن يسمـح للمستحـوذين عليهم التمتع بتملكهم بسلام.

سادساً: عليه عدم القيـام بأية إجراءات قضائية ضد المعلم هنري دي سـوسـا، أو أي رجل دين آخـر أو راهـب جـرت تسميتـه، بسبب هذا الخلاف، بل عليـــه العفـو عن جميـع الذنوب والأضرار، وأن يتخلى عن جميع مشاعر الغضب والحقد.

سابعاً: إذا توفر أي إدعاء أو سبب للعمل لديه، فيما يتعلق بنتاج وينكستر، في الزمن المنصرم، عليه التخلي عنهم له، أي للملك، صدوراً عن احترامه له، وأخذاً بمشاعر الكرم.

ثامناً: على الأسقف المذكور التخلي عن جميع مشاعر الغضب ضد الذين جرى نقلهم من قبل الملك، أو بناء على أوامره، أو نقلوا إليه من قبل أسقفي ووركستر وهيرفورد، ورئيس شمامسة كانتربري، وأن يتقبلهم برضاه الكامل، وبذلك يبقون محفوظين دون التعرض إلى أي أذى، وذلك فيما يتعلق بصلاح أسمائهم، ومنافعهم، وأحوالهم.

جواب أسقف وينكستر

ورد أسقف وينكستر على بند المطلب الأول الذي عمله الملك، بأن الذين تولوا تسميته، بعدما طلبوا الإذن من الملك، قدموه إلى الملك، وفقاً لعادة المملكة، وأنه عندما تمّ السماح بالتسمية، وجرى تثبيتها من قبل البابا، تدبر الأسقف المذكور، أمر رسائل البابا الموجهة إلى الملك حول هذه المسألة، بأن يجري تسليمها إليه، بوساطة كل من الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان، وكذلك بوساطة بعض رجال الدين، والفرسان، الذين قاموا بناء على أوامره، بالتقدم بالرجاء الحار إلى الملك، حتى يسمح له —أي الأسقف المذكور— بأن يقدم نفسه إليه، ليقوم بعمل الذي تتطلبه عادات المملكة وتأمر به، ولكن بما أنهم لم يتمكنوا من الحصول على هذا باستخدام جميع وسائل التوسل الملحة، ما من شيء يمكن أن يعدّ قد أهمل من قبله، أي من جانب الأسقف، وليس عائداً إليه عدم تنفيذ كل شيء، ورد وتمّ طلبه في بند طلب الملك.

وعلى البندين الثاني والثالث، أجاب الأسقف، بأنه إذا ما حصل على حظوة الملك (وهو مايرغب به من كل قلبه)، وأمكنه بسلام الحصول على ممتلكات أسقفيته، هو سيقوم صدوراً عن اللطف بسحب قرارات

الحرمـان الكنسي، والحرمان من شراكـة المؤمنين بشكلٍ قـانوني، غير أنه لايمكنه، بحكم تبجيله للرب كما هـو لائق، واحتراماً منه للعـدالة، أن يربط نفسـه بهذا بأي رباط اتفـاقيـة، ولكن بتجـاوب لطيف مع طلب الملك، لقـد نوى أن يمنح جميـع التحليـلات من الحرمـان الكنسي، التي يمكنه منحها من دون تعارض مع واجبه نحو الرب.

وبالنسبة للبنود الأربعـة التاليـة، أجاب، بما أنهم قـد أشاروا فقط إلى القضايا الروحيـة، أو إلى الأشياء المتعلقة بهم، والتـي بالتالي لاتسمح له بعمل عهد واتفاق، هو لايمكنه تنفيذ هذه البنود، وفق الطريقة المطلوبة من الملك، ومع ذلـك فإنه عندمـا سيجـري استقبـاله بـالحظوة من قبل الملك، ويحصل على تملك سلمي لممتلكات أسقفيتـه، هو سـوف يعمل، مع مسـاعـدة نصيحة الملك، ومستشـاريه المخلصين، ويتصرف بتسـامح كبير، ولسـوف يكون نفسه راغباً بتنفيـذ طلب الملك بقدر مـا يستطيع، وذلك بما يتوافق مع واجبه نحو الرب.

وبالنسبة للانتـاج المتقدم للأسقفية، أجـاب بأنه عندما سيحصل على حظوة الملك، وعلى تملك سلمي لأسقفيتـه، وعندما سيكون راضيـاً تجاه هذه الإجراءات، سوف يطيع رغبـة الملك، حتى ينال فضيلة التوصية به من قبله.

خديعة المعلم هنري دي سوسا

وعمل الملـك منذ ذلك الحين بلطـف أكبر نحـــو أسقف وينكستر، بسبب كل من التـوسـلات الملحـة للبـابا، ونظراً للتـذلل، وللجـواب اللطيف للأسقف، ولكن عندما ظهر السلام أنه على وشك الدخول إلى عتبـة البــاب، بدأ المعلم هنري دي سـوسـا، الـذي كـان السبب والمثير للخلاف نفسـه، والذي إليه منح الملك منفعـة غنية، هي المسـؤولية عن مشفى الصليب المقدس، خارج مـدينة وينكستر، بدأ وقد انزعج بضمير

مـذنب، يتفكر، ويقدر في قـرارة نفسه، أنه إذا مـا أعيد تأسيس السـلام بشكلٍ كامل ومعلن، بين الأطراف المعنيـة، سوف يعدّ الأسقف صـديقاً خاصاً للملك، هو الأول، وليس الثاني لأحد، ولسوف يجري إطراءه في مجالس الملك، على أنه رجل مستقيم، وحـذر، ولسوف يسبب لسبب مـا الإزعـاج، ويضعـه —أي هنري المذكــور— في أحـوال مضطربة، وأن الملك سـوف يرفض نصـائحه، بالسهـولة نفسهـا، كما كـان قد اتبعهـا، ولدى تقديرة لجميـع هذه المسائل، اتخذ بوساطـة المال الذي حصل عليه من الملـك، ولم يكن مبلغـاً صغيراً، بعـض الأصـدقـاء الجشعين غير المستقيمين، واشترى لنفسـه (وليتـه لم يفعل ذلك) أسقفيـة في منطقتـه الذاتية، وأصبح كـرسول لذاته، مثل الغـراب الذي خدع صـاحبه نوح، وبانحطاط ترك نائبـاً غير بارع، ليحمل العبء، الذي كـان قـد تعهـد بحمله على كتفيه، واختفى من المملكة، وهو مليء بالأشيـاء الجيدة منها، ولم يظهر نفسه ثانية فيها.

كيف هرب البابا بشكل سري

بينما كان مـدار السنة يسير هكذا متقلباً وسط التغييرات العـالمية، بدأ الامبراطور فردريك وقد أثاره محرض الكرامـة، يندم لقيامه —كما تقدم الذكر أعلاه— بإذلال نفسه وربطها بالخضوع إلى الكنيسة، ونصب الآن شركـاً لقـدمي البـابا، وخطط لخيـانة سرية، غـدت فيها بعـد مكشـوفـة واضحة بما فيـه الكفاية، وتم من جهة أخـرى انذار البابا بشكل مسبق، فحاول أن يتجنب بقدر الإمكان التعـرجات الثعلبية للامبراطور، وبقي متيقظاً ضـدهم، كما أنـه لم يضع أية ثقـة به، أو بأصـدقـائـه، لأنه كـان يعرفهم بشكل جيد، وفكر بالمستقبل مقارنة بالماضي.

ورغب البابا، في يوم الثالوث المقدس، أن يقوي حزبه، لأنه كان لديه في جهـوده عـدد قليل من الأصحاب، والمشـاركين له في قلقـه، فعيّـن عشرة كرادلة هم: المعلم جون الطليطلي، وكان رجلاً انكليزياً من حيث

المولد، وبعض الآخرين من أسر متميزة وأصحاب أخلاق معروفة، وذهب في اليوم الثامن قبل عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان، مع جميع الكرادلة إلى مدينة كاستيلانا Castellana, ومنها إلى مكان يبعد ثمانية عشر ميلاً عنها، من أجل أن يكون قريباً من الامبراطور، لتسوية قضية السلام، التي غدت الآن قضية مشكوكاً بها، لابل في الحقيقة قضية لاأمل فيها، ووصل عشية يوم الرسولين بطرس وبولص إلى مدينة سوتري Sutri, وتحرك الامبراطور ضده، وأرسل رسالة إليه، بأنه لن يفعل شيئاً بشأن القضايا المتفق عليها، مالم يتسلم أولاً رسائل تحليل، وبما أن البابا قد رفض فعل هذا، وردّ بأن هذا مناقض للمنطق، نشب خلاف بينهما، وبناء عليه، تصور البابا مسبقاً ورأى نتائج غضبه، ولذلك قرر القيام بقرار مفاجىء وخفي، ومن دون أن يعرف أحد بخططه السرية، خشية أن يكتشفهم الامبراطور، ويلقي معيقات في طريق تراجعه، وهناك —على كل حال— بعض من يؤكد بأنه فعل هذا، صدوراً عن حبه للهدايا، التي كان الناس، من هذا الجانب من الألب، على وشك إحضارها له، لكنهم كانوا لايتجرأون على العبور خلال أراضي الامبراطور، وأنه هرب لاخوفاً، وإنما بقصد مقابلتهم واستقبالهم في صدره المفتوح دائماً، وليس خشية من أي واحد يقوم بمطاردته، وهو لهذا عمل حجة أو أخرى، ووجّه خطاه بيقظة نحو جنوى، التي كانت منطقة متحالفة معه، وذلك كما سوف تبين الرواية التالية:

وبناء عليه، في ذلك اليوم، أي عشية يوم عيد الرسولين، وصل خبر سري إلى البابا (وهذا ما أكده هو فيما بعد) بأن هناك ثلاثمائة فارس توسكاني قادمين في تلك الليلة لاعتقاله، ولدى وصول هذه الأخبار إليه دهش، وظهرت عليه آثار الخوف العظيم، ومع الهزيع الأول من الليل، تخلى عن مظاهر الزينة البابوية، وعاد ثانية ليكون سينبولد

ولبس درعاً خفيفاً، وامتطى فرساً سريعاً، وحمل Senebald,
حافظة نقود مليئة، وقام تقريباً دون معرفة خدمه، بشكل مفاجىء،
بعملية مغادرته، ولم يوفر جوانب حصانه، قبل الساعة الأولى من النهار،
وقد سافر لمسافة أربعة وثلاثين ميلاً، دون أن يرافقه أحد، لأنه ما من
أحد كان قادراً على اللحاق به، وارتفع في منتصف الليل صوت نادى
لقد غادر البابا، ذلك أنه ما من أحد كان على معرفة بمغادرته، إلاّ
بعضهم، وكان عدد هؤلاء قليلاً، من الكرادلة، وقد تبعه في سفره هذا
فقط بطرس أوف كابوا Capua, وكان معه خادم واحد، وقد
لحقه بمغامرة كبيرة، ووجده في اليوم نفسه في قلعة عند الساحل اسمها
سيفيتا فكشيا Civita Vecchia, وتقابل البابا في ذلك المكان مع
ثلاثة وعشرين غليوناً وست عشرة بارجة، وكان في كل واحد من
المراكب المذكورة ستين رجلاً مسلحين بشكل جيد، ومائة وأربعة
مجذفين، وذلك إلى جانب البحارة، ولهذا ذهب بعض المتشككين من
الناس إلى القول بأن البابا كان قبل وقت متوقعاً وصولهم وراغباً به،
وكانت جميع المراكب مشحونة برجال مسلحين، وكانوا تحت إمرة حاكم
جنوى، الذي يدعونه الأدميرال، ومعه أعيان أهل المدينة، الذين
تفاخروا جميعاً بأنهم ارتبطوا بقرابة ما، أو بالدم، مع البابا، وكذلك في
سبيل الحصول على مكافأة، وصعد البابا الآن في وقت متأخر من
النهار، على ظهر واحد من تلك الغلايين، وكان برفقة سبعة كرادلة،
وعدد قليل من الخدم، وأقلعوا نحو وسط البحر، وما كادوا يصبحون
في البحر المكشوف، حتى هوجموا من قبل عاصفة ثقيلة من الريح، ومع
ذلك لم تكن ضدهم، وقاموا بأشرعة مفتوحة —إنما ليس من دون
خوف، ومن دون خطر عظيم— بالابحار وقد حملتهم قوى العاصفة
مسافة مائة ميل، على المسار نفسه الذي كان الأساقفة قد أبحروا عليه،
حيث جرى اعتقالهم من قبل الامبراطور، ووصلوا يوم الجمعة التالي إلى
مرسى في جزيرة عائدة إلى البيازنة، حيث أمضوا الليل، وفي اليوم التالي،

تم تحليلهم من ذنوبهم، واستمعوا إلى قداس مريم العذراء، ذلك أنهم كانوا خائفين خوفاً عظيماً من البيازنة، ثم إنهم أقلعوا فوصلوا إلى جزيرة للجنويين، بعدما قطعوا مسافة مائة وأربعة أميال في ذلك اليوم، وقد نجوا من مخاطر البحر، مع كثير من المصاعب، وذلك نتيجة للعاصفة، وأخذوا طريقهم إلى ميناء فينوس Venus, وأقاموا هناك يومي الأحد والاثنين، وفي يوم الأربعاء، وصلوا وهم مسرورين، إلى جنوى، وصار البابا على مسافة سفر خمسة عشر يوماً عن المدينة، وفي هذه المدينة التي كان قد ولد فيها، استقبل من قبل أبناء بلدته، وآله وأقربائه، والأجراس تقرع، مع الأغاني وعزف الآلات الموسيقية، وهي جميعاً تصرخ بصوت مرتفع «مبارك الذي جاء باسم الرب»، وعليه ردوا ثانية: «روحنا مثل عصفور نجا من المتاعب» إلخ، إلخ، إلخ.

غضب الإمبراطور من فرار البابا

وعندما أصبحت حقيقة فرار البابا معروفة لدى الامبراطور، عضّ على أسنانه مثل ساطير (إله اسطوري) وقال: «لقد كتب: يهرب الشرير عندما لايطارده أحداً»، واستولت عليه الدهشة والحزن، واتهم حراس الموانيء والسكان بالإهمال والكسل، لأنهم سمحوا لعدوه بالنجاة هكذا بسهولة من بينهم، ثم إنه أمر بإقامة حراسة دقيقة ومشددة على جميع الطرق من حول جنوى، خاصة نحو فرنسا، في سبيل عدم حمل أية أموال إلى البابا، وأعلن الامبراطور الآن عن نفسه عدواً مكشوفاً للبابا، وقام البابا أيضاً بدوره الآن بعدم عدّ جنوى ملجأ أميناً لنفسه، لأنه كان عارفاً تماماً بقوة الامبراطور، ومتذكراً كلمات الشاعر:

ألا تعلم بأن أيدي الملوك

قادرة على الوصول إلى كل شيء؟

الإمبراطور يربح صداقة عدد من الأمراء والنبلاء

وفي حوالي الوقت نفسه، بينما كان البابا مقيماً في جنوى، تآمر الميلانيون والليغوريون وكذلك بعض الايطاليين والرومان، وكثير من نبلاء ألمانيا، مع بعضهم، بناء على تحريض من البابا، وواحد من أعظم المقدمين قوة في بلاد ألمانيا، الذين يطلقون عليه اسم «اللاندغريف»، الذي تشجع ليدعي لنفسه المقام الامبراطوري، حتى يجري انتخابه بشكل نظامي، وقد اعتمدوا على المساعدات الكثيرة من الأساقفة والنبلاء، لشن الحرب ضد الطاغية فردريك، بحكم أنه المضطهد العام والمعلن للكنيسة، وقد أظلم اسمه إلى درجة عالية وتمّ التأكيد بأنه لايسير بخطا ثابتة في شريعة الرب، ولأنه كان متحالفاً مع المسلمين، فهو يحتفظ بعاهرات وخليلات مسلمات، ويفعل أشياء أخرى غير لائقة، وكثيرة جداً حتى يمكن ذكرها.

غير أنه عندما كان اللاندغريف المذكور على وشك القيام بمحاولته، وكان يتداول مع أتباعه من النبلاء وأصحابه، الذين اجتمعوا لهذه الغاية، ويتذاكرون حول الذي ينبغي أن يعملوه، أخبره أصدقاؤه أنه من الطيش محاولة فعل ذلك، وأن يعهد بنفسه إلى تقلبات الحظ، في الوقت الذي ينعم فيه بالهدوء والسلام، مع عدم الاعتماد على أي شيء وعده به حزب البابا، وبينما كانت آراؤهم معلقة هكذا في ميزان الشكوك، قام الامبراطور برحلة سريعة،وظهر فجأة فيما بينهم، مع عدد قليل من الأتباع، الذين عرفوا بهذه الوقائع، وتمكن بمناقشاته من تحويل عقل اللاندغريف المخنث المذكور، عن نواياه، وقبل أن يفترقا، أصبح هو واللاندغريف أصدقاء حميمين ومتحالفين، وقاما بتبادل الهدايا، وبعد الفراغ من هذه القضية غادر الامبراطور سراً وبشكل مفاجيء مثلما جاء.

وأثناء وقوع هذه الأشياء، قام الامبراطور في سبيل تقوية حزبه، الذي اعتقد أعداؤه أنه قد ضعف كثيراً في هذه الآونة، فأعطى ابنته بالزواج إلى واحد من أعظم مقدمي الاغريق قوة، وكان اسمه بتّاكيوس

Battacius, وكان انساناً مكروهـاً من الكنيسة وغير مطيع لها، ومنشقاً عنهـا، ولدى سماع أعـداء الامبراطور بهذا حـاروا واضطربوا ولم يعـودوا يعرفون مايقولون.

عصيان الويلزيين وخيانتهم الدنيئة

وفي حـوالي هذا الوقـت من السنة، قـام الويلـزيون الأجـلاف، وهم لايعـرفـون كيف، لأنهم كـانوا غير راغبين باخضـاع رقـابهم للشرائع غير المعـروفـة لمملكة انكلترا، قـامـوا فعينـوا داود بن للويلين وبعض الأمـراء الآخرين لويلز، قـادة لهم، وشنوا حرباً هي الأكثر دمـوية ضد ملك انكلترا وأعوانه، ناسين صكوك تعهداتهم، وأيمانهم، وجرت مقاومتهم —على كل حـال— بشجـاعـة، بناء على أوامـر الملك، من قبـل ايرل كلير، وايرل هيرفـورد، وتومـاس أوف مـونماوث Monmouth, وروجـــر دي ميكوت Michaut مع بعض القـادة الأقـوياء الآخـرين والمشهـورين، وذلك في سبيـل الحفـاظ على أراضيهم، مـع أنهم نالوا أثناء بـداية الصراع الحظ الأسـوأ من القتـال، لكن أخيراً، كما هـي الحالة المعتـادة للحـرب، حصلوا على نصر على أعدائهم، وسقط في هذه المعركـة مائة رجل أو أكثر، من على الجانبين.

وصول شائعات متنوعة إلى الملك وهو في سينت ألبان

كـان الملك أيام عيـد القـديس برنابا في سينت ألبـان، حيث مكث مـدة ثلاثة أيام، وأثناء وجـوده هناك، وصلـت شـائعـات عن صلف الويلزيين، وصارت متوالية إلى بعض المعـايير، وقد وصل إليه بعض الرسل مع بعض الأخبـار التي أزعجته كثيراً وأحـزنتـه، وقالـت هذه الأخبار بأن انتخـاب كـاهنـه روبرت باسلو Passlow, الذي جـرى انتخـابه إلى أسقفيـــة شيستر، قـد ألغي، وأن شخصـاً آخر، اسمـه رتشـارد دي ويك Wiche, قد جرى بشكل مفاجىء تعيينه في محله، لأن المعلم مارتن، الذي كان كاهناً

بارزاً لدى البابا، قد كـان هناك ليلقي بأصابعه الناشلة على الموارد من أجل استخدامات البـابا ومنافعه، وبالإضافة إلى التقارير المتقـدمة، سمع تقارير أخرى، ذكرت بـأن ملك سكوتلندا قد أرسل إليه بوقاحـة رسالة بأنه ليس متملكـاً لأي شيء من مملكـة سكـوتلندا منـه، أي مـن ملك انكلترا، وأنـه ينبغي ألا يفعل ذلك، ولن يفعله، وقد تناقصت صداقة هذين الملكين كثيراً جداً، منذ أن أقام ملك سكوتلندا تحالفـاً زواجياً مع ابنة انغلرام دي كوسي Engelram De Coucy، الذي كـان مثل جميع الفرنسيين، مشهـوراً بأنه واحداً مـن مقدمي —إن لم يكن مقدم— أعـداء ملك انكلترا، ولذلك قرر ملك انكلترا وعزم على الانتقام للأضرار التي ألحقت به، فقام بتشجيع الذين كانوا يتـولون الحرب ضد الويلزيين، ومساعدتهم، ووعـدهم بمزيد من المسـاعـدة الفعـالة، بالعسـاكر والمال، وبعـدمـا رتب الأعمال المتعلقـة بشـؤون الأحوال في سكوتلندا، استـولى على أسقفية شيستر ووضعهـا بين يديه، ولم يسمح للأسقف المنتخب حـديثاً بممارسة أيـة سلطة، كما أنه شعر بغضب شـديد ضد الذين تسببـوا بحدوث هذه القضيـة، ووافقوا عليهـا، وكـان غضبه هو الأشـد ضد رئيس الأساقفـة المنتخب لكانتربري، الذي اتهمه بكل مرارة بالعقـوق، وأنه كان متآمراً بشكل خيـاني منذ بداية ترقيته، ولكي لايبدو متراخياً في جوابه على رسـالة ملك سكوتلندا، وعلى وقاحته، بعث برسـالة مكتومة إلى كـونت فلاندرز (بحكـم كونه حليفاً مخلصـاً له، ومرتبطاً به بكثير من الواجبات) ليقدم إليه مع قوة من الجند، لمساعدته ضد ملك سكوتلندا، وهو طلب استجاب له الكونت على الفور.

استدعاء أسقف وينكستر وتصالحه مع ملك إنكلترا

وعقد الملك في الوقت نفسـه مجلساً استشارياً حكيماً، فـاستدعى أسقـف وينكستر بطريقة تصالحيـة، وجاء الاستدعاء له من القـارة، بناء على مبادرة من البابا ومن بعض نبـلائه الخاصين، الذين التمسوا باخـلاص رضاه عن الأسقف، وقـد وعده برضـاه، وأن يعيـد إليه الممتلكات التي أخـذت منه،

وعندها قام الأسقف وفق تصرف لائـق متوقع منه، فحصل على إذن الملك الفـرنسي، وقدم الشكر إليـه على المنافع التي أضفيت عليـه من قبل الملك، لإستقباله له، وتقديم الحماية له عندما كـان منفياً في مملكته، وعاد من ثم إلى انكلترا، حيث نزل في دوفـر بعد رحلة مـريحة، وكـان ذلك في الخامس من نيسـان، ولدى وصـوله، قـدم له جميـع الانكليـز —باستثناء أولئك الكهنة ورجـــال بلاط الملـك الذين بـذروا بذور الخلاف، والذيـن جـــرحـــوا بضمائرهم— تهانيهم، قائلين: «مبـارك الذي قدم باسم الرب»، لأن الآمال كانت راسخة بأنه سوف يقوي بحكمتـه الوافرة، وبمشاعره الطيبة، الملك، ويمتن المملكة، ويجلب أسقفيتـه إلى أفضـل الأحـوال، ومثل بنفســه، وهو مسرور تمام السرور، أمام الملك، وقـد استقبله وهو يبتسم، وبنظرة راضية، وكأنه قـد كـان دوماً متحـرراً من جميع الذنوب ضـد الملك، وقـد ازدادت عـواطفهما وسرورهما بطريقـة غير اعتيـادية، وذلك من يوم إلى يوم، وفقـاً لكلمات الشاعر:

عندما تختفي غيوم الخلاف

تصبح شمس العواطف أكثر وضوحاً

وبدأ في هذه الآونة ب. B, الأسقف المنتخب لكانتربري، على عكس توقعـات جميع الذين أوجـدوه، بالعسف برهبـان كانتربري، بحـدة كبيرة، وبطريقة كانت غير متوقعة منه، متصرفاً بكل شيء بالدرجة الأولى لبهجته، دون أن يقيم أي تقدير لأي منطق.

الموت التعيس لإنغلرام دي كوسي

وفي الوقت نفسه، ومع اقتراب شهر آب، واجه إنغلرام دي كوسي، والد ملكة سكوتلندا منيته بطريقة مدهشة، وبناء عليه أرسل ولده جون قوة من الجند بوساطـة البحر، لمساعـدة ملك سكوتلندا، غير أن ملك انكلترا طرد بالقوة، وأبعد جميع الذين أرسلهم، ولقد قلت بأن انغلرام المذكور الذي هو

مضطهد قديم للكنيسة، وخاصة كنيسة كليرفو، التي أوجدها أجداده بشكل فخم، وبنوها فوق اقطاعيته، قد مات بطريقة مدهشة، ذلك أنه مات —كما حدث فعلاً— بطريقة مزدوجة، وعندما كان حياً كان معمارياً متحمساً بالمواد المادية، لكنه كان بالمواد الروحية مبدداً سيئاً، وفي أحد الأيام، عندما كان مسافراً، توجب عليه عبور إحدى المخاضات، وعندما وضع حصانه حافريه ليعبر، انزلق بسبب إحدى المعيقات، وسقط على ظهره في الماء العميق، حيث جرى —لسوء الحظ— جرّه بوساطة ركاباته، ولدى سقوطه على رأسه، خرج سيفه من غمده، وخرق جسده، وهكذا غرق وطعن بسيفه، ففارق هذه الحياة، ليجني ثمار طرقه.

وكما ذكرنا من قبل، أعطى ابنه جون، ووريثه لكل ممتلكاته، صدوراً عن عواطفه لأخته، ملكة سكوتلندا، نصيحته ومساعدته، إلى زوجها الملك، وقام هذا الملك بتحصين القلاع على حدود انكلترا، وتوسل طالباً المساعدة من النبلاء من أقربائه، ومن جيرانه، ضد ملك انكلترا، الذي كان يتآمر ضده، ومنحت المساعدة، التي طلبها هكذا في وقت الحاجة، برغبة قلبية من قبل بعض النبلاء، أما القوات الموعودة فقد أرسلت إليه بأعداد كبيرة.

الملك يطلب مساعدة مالية

وجرى في العام نفسه عقد اجتماع، بناء على استدعاء من الملك، ضم نبلاء المملكة كلها، وحوى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان، والايرلات، والبارونات، فقد اجتمع هؤلاء كلهم في لندن، في حجرة الطعام في ويستمنستر، وطلب الملك، بحضور النبلاء، بفمه مساعدات مالية، وقد عبر بصمت ولم يذكر خطته بشن الحرب على ملك سكوتلندا، وكان السبب المكشوف الذي أعطاه إليهم من أجل مطلبه، هو أنه قد ذهب في السنة الماضية إلى غسكوني، بناء على نصيحتهم —كما قال— حيث صار مديوناً بمبلغ كبير من المال، وأنه لن يتمكن من تحرير نفسه من ذلك الدين، مالم يتم بشكل فعال جداً مساعدته من قبلهم،

وعلى هذا أجابه النبلاء، بأنهم سوف يتشاورون حول هذه القضية، وعندما غادر النبلاء حجرة الطعام، اجتمع رؤساء الأساقفة، والأساقفة، ورعاة الديرة، ورؤساء الرهبان مع بعضهم في مكان خاص منفردين بأنفسهم، للتداول حول القضية، وبعد طويل وقت سألوا الايرلات والبارونات، عما إذا كانوا سيوافقون على نصيحتهم، في تقديم الجواب، وفي إعطاء حل لهذه القضية، وعلى هذا أجاب هؤلاء النبلاء بأنهم لن يفعلوا شيئاً، من دون موافقة عامة للجماعة كلها، وبناء عليه جرى باتفاق من الجميع اختيار ممثلين لفئة رجال الدين هم: رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، وأساقفة: وينكستر، ولنكولن، ووروكستر، وجرى اختيار ممثلين لفئة العلمانيين هم: الايرل رتشارد —أخو الملك— وايرل بيغود، سيمون دي مونتفورت، وايرل ليستر، وايرل و W مارشال، وعن فئة البارونات: رتشارد دي مونتفكيت Montficet, وجون بالأويل Baliol مع راعيي ديري القديس ادموند، ورامسي Ramsey,وتقرر أن جميع الذي سيقرره هؤلاء الاثنا عشر، سوف يجري نشره إلى الجميع بشكل عام، وبناء عليه ما من بند سوف يجري تقديمه إلى الملك إلاّ بموافقة الجميع، وبما أن صك وثيقة الامتيازات التي كان الملك قد منحها من قبل، والتي من أجل تنفيذها، قدم ادموند، رئيس أساقفة كانتربري يمينه، فغدت مضمونة، ووعد صادقاً بأن الملك سوف ينفذها ويرعاها، هي لم توضع بعد قيد التنفيذ، وبما أن المساعدات التي غالباً ما أعطوها إلى الملك، لم تكن منتجة أية منافع له أو إلى المملكة، وبسبب أنه من خلال الحاجة إلى مستشار، فإن المذكرات غالباً ما أعطيت مضادة للعدالة، وعندما سألوا بأن يأتي تعيين المسؤول عن العدالة والمستشار، بناء على انتخابهم، حيث به يمكن للمملكة أن تتدعم، حسبما كانت هي العادة، قام الملك، حتى لايظهر أنه مقبل على تبني أية خطة جديدة للإجراءات القضائية بالقوة، فرفض الموافقة على التماسهم، غير أنه وعد بأنه سوف يصلح الأشياء التي جرت الشكاية منها من جهتهم، ولذلك أمروا بالاجتماع ثانية عند نهاية ثلاثة

أسابيع بعد عيد طهارة العـذراء المباركة، وقد أعلنوا —النبلاء— الآن، أنه إذا مـا سيقـوم الملك بإرادته وحـريتـه، بانتخـاب مثل هؤلاء المستشـارين، وسوف هكذا يدير قوانين المملكة، سـوف يكونوا راضين، وسوف يعطونه بالوقت المذكور جواباً، وسوف يزودونه بالمساعدة، على شرط هو أنه، مهما كـانت الأموال التي سـوف تمنح له، فإنها سـوف تنفق من قبل الاثني عشر نبيلاً المذكورين أعـلاه لصالح الملك، وبعدما وضعهم الملك جـانباً لبضعة أيام، سعى إلى إنهاكهم حتى يعطوه مسـاعـدتهم من دون تأجيل ذلك حتى وقت مستقبلي، واستـدعـاهم للاجتماع به مـراراً، غير أنه لم يستطع غلبتهم واقناعهم، لأن النبـلاء وزنوا المسألة بعقـولهم بشكل حكيم، فبقيـوا ثابتين على قـرارهـم لايمكن تحريكهم، وبـات الملك أخيراً ميـالاً لاستمالة رجـال الدين على الأقل للمـوافقة على رغباته، لذلك وجّـه الدعوة إلى الأسـاقفة، وعرض عليهم جهاراً رسائل من البابا، استهدفت مايلي:

رسالة البابا إلى أساقفة إنكلترا

«من انوسنت، أسقف، إلخ، إلخ، إلى رؤساء الأساقفة، والأساقفة، و إلى أبنائـه المحبـوبين رعـاة الديرة، ورؤسـاء الرهبـان، ورؤسـاء الشمامسـة، والأسـاقفـة الآخـرين للكنائس، والكهنة في انكلترا، صحـة، ومبـاركـات رسولية:

على أمنا الكنيسـة أن تسمـح بإعطاء امتيـازات إلى الذين رفعـوا فـوق أتبـاعهم بالمراتب الملكيـة، وعليهـا التـوجـه لربط الأهميـة بهم، بقـدر مـا سلطتهم متحمسة دوماً في إخلاصها لها، أي الكنيسة، وبقدر ما هي ساهرة على خـدمتهـا، وبناء عليـه، وقيـاسـاً على ذلـك، إنه بالنسبـة لجميع أمـراء الأرض، نضم بين ذراعينا، ولدنا المحبـوب جداً في المسيح، الملك المشهـور لانكلترا، ونمنحـه عـاطفـة خـاصـة، لأنه واحـداً —بحكم كـونه أمير كاثوليكي مخلص— قد أظهر دوماً احتراماً إلى الكنيسة الرومانية، التي هي أمـه، وذلك بوسـاطة خضـوعـه الابنـوي، وأدائـه لواجبـه، بطريقـة أنه لم

ينحرف قط جانباً عن عمل مايرضيها، لابل، أكثر من هذا، قام دوماً بعناية فائقة، ففعل الأشياء التي عرف بأنها ترضينا، وموافقة لنا، وبناء عليه إنها ليست قضية عجيبة، لابل إنها أصبحت مسألة عادية بالنسبة لنا، لذلك سوف نستجيب بسهولة أكبر لإلتهاساته، وسوف ننشد مجده، وزيادة كرامته وأحواله، وذلك عندما ستوافقون بكرمكم مع الذين يرغب به شخصياً، وبما أن الملك المذكور قد شرح لنا من جانبه، بأنه تحمل عبء بعض النفقات الثقيلة، بسبب بعض مصاعب القضايا الكبيرة والصعبة، التي ضغطت عليه، وهو مايزال تحت حاجة تحمل المزيد من النفقات، ولذلك هو بحاجة إلى مساعدتكم، ولذلك نحن نرجوكم، ونحذركم، ونلتمس باخلاص من جماعتكم، ونأمركم بوساطة هذه الكتابات الرسولية، وذلك بقدر ماتستطيعون وبقدر ما هو موائم لكم، أن تدعموا الملك المذكور في جهوده، وأن تخففوا حمله، وأن تمنحوه مساعدة مشرفة وكريمة، من مواردكم، وذلك حتى يتمكن من دون أي ضرر لكرامتكم، وأوضاعكم، ومن دون أية خسارة، أو إرباك إلى أي منكم، من تجنب العسف به بحمل عبء ثقيل جداً، وأنه بتقديم المساعدة له بأيديكم اليمنى، يمكنه بسهولة أكبر تحمل عبء نفقاته، وأنكم بفعلكم ذلك، يمكنكم أن تكونوا قادرين في مستقبل الأيام المطالبة بحظوة وشكر الملك المذكور (وهو الذي، أنتم بلاشك بحاجة إليه) في أموره الصالحة، التي أنتم شركاء بها، وفي كرامته ومجده أيضاً، سوف تكونون كذلك، لستم من دون حصة ونصيب، ولكي نمتلك نحن الذين نرغب من هذا الوقت في أن نظهر أنفسنا ميالين أكثر لزيادة منافعكم ومنافع كنائسكم، سبباً صالحاً للاعتماد على ثبات اخلاصكم. صدر في جنوى في التاسع والعشرين من تموز، في السنة الثانية من بابويتنا».

وكتب أيضاً بالأسلوب نفسه إلى كل واحد من الأساقفة على انفراد، وكان ذلك —على كل حال— ليس من دون انفاق مبلغ كبير من المال،

كان قد أُرسل إليه من أجل متاعب الكتابة.

وتقـرر —على كل حال— بشكل جماعي، قـراراً لن ينزاح عنه النبـلاء، بأن الإجابة على رسالة التماس البـابا، لصالح الملك، تؤجل حتى قبيل المدة المحـددة من قبل، وبناء عليـه عندمـا كـانوا مغـادرين في اليـوم الأخير من المؤتمر، الذي استمـر ستـة أيام، وكل يوم حتى الليـل منه، توجـه الملك بالرجاء إلى جميـع الأساقفة، بالاجتماع ثانيـة في اليوم التـالي، واجتمعوا بناء على طلبـه في حجـرة مصح بيعـة القـديس يوحنا الإنجيلي، ووقتهـا أرسل الملك سيمون، ايرل ليستر، وب .P ايرل أوف سـافوي، ورالف فتـز— نيقولا، ووليم كانتيلوب Cantelupe, وجون فتز—غ .G, وقام هؤلاء نيـابة عن الملك، فشرحـوا رغباته إليهم، ورجـوهم بإلحاح بإطاعـة إرادته، على أسـاس طلب قـداسة البـابا، حتى وإن لم يأخـذوا طلبَ الملك بالتقـدير، كما أنهم شرحـوا لهم مـدى الحاجـة الكبرى للملك، والمخـاطر المحيقـة به وبالمملكة، وهي أن الحرب تفجـرت في غسكوني، وأنه لابدّ من قمع وقاحة الويلزيين، وعند ذلك طلب الأساقفـة نسخة عن رسالة البابا، حتى يتمكنوا من التـداول حولها، وأثناء قيام هذه المناقشـات، وصل الملك مسرعـاً، وظهـر بينهم، واحتج بيمينه المعتـاد، بأن كـرامتهم سـوف تكون عزيزة عليه مثل كرامته، وبالمقابل ينبغيْ أن يكون هو عزيزاً عليهم بالدرجة نفسها، وكـدس الالتماس فوق الالتماس في مجال القضيـة المذكورة أعـلاه، ولكن بما أنهم أصروا على جوابهم، من أنهم سـوف يقدرون القضيـة، غادر وهو في حالة اضطراب.

وبعـد مـداولات طويلة، رغبت بعـض الفئات بأن يعطي الأسـاقفـة والعلمانيين جـوابـاً لطيفـاً إلى الملك، وردّ عليهـم أسقف وينكستر بهذه الكلمات القائمـة على أساس لاهوتي بقـوله: «دعونا أن لانبعـد أنفسنا عن الرغبة العامة، لأنه قد كتب: إننا إذا ما انقسمنا، فسوف نموت على الفور»، وبناء عليه جرى تأجيل كافة الترتيبات، حتى الموعد الذي تقدمت تسميته،

وذلك فيما يتعلق بطلب البابا لصالح الملك، وكذلك بالنسبة للملك نفسه،

وبناء عليه عندما وجد أنه لن يستطيع اضعاف تصميمهم عندما يكونوا متحدين مع بعضهم، لجأ إلى خطة دهاء الرومان، وقرر —مثلما فعل في حالة أخرى— أن يحاول معهم واحداً واحداً بشكل إفرادي، وأن يفرض عليهم حججاً زائفة، من أجل إخضاعهم لإرادته، ولذلك عاد وسألهم الانتظار يوماً آخر، غير أن بعض الأساقفة رأوا خديعة هذا الانتظار، فرغبوا أن لايقعوا بالشراك، فغادروا في الصباح الباكر، وهكذا نجوا بشكل حكيم من المصائد التي وقعوا بها من قبل، وعلى هذا ارفض المؤتمر، مع كثير من عدم الرضا للملك.

الشروط التي عملها النبلاء مع موافقة الملك

«إنه فيما يتعلق بالامتيازات التي تمّ الحصول عليها، والتي منحت، وتثبتت بصك من الملك في وقت متقدم، إنهم من الآن فصاعداً، سوف تجري مراعاتهم، ومن أجل ضمانة لهم، سوف يجري عمل صك جديد، فيه سيكون هناك ذكر خاص لهذه المسائل، ولسوف يجري حرمان جميع الأشخاص كنسياً من قبل جميع الأساقفة، الذين يعرفون، ومع ذلك يقدمون عن عمد على خرق الامتيازات التي جرى منحها من قبل جلالة الملك، أو يعملون على منع مراعاتهم، ولسوف يجري اصلاح وضع الذين، عانوا منذ الإعطاء الأخير، من أي أذى لحق امتيازاتهم، وبما أن الوعد الذي قطع في ذلك الحين، ولم يتم تنفيذه من قبل الملك، الذي بذلك لم يعط أي اهتمام أو تقدير إلى فضيلة اليمين الذي أقسمه، ولم يظهر أي خوف من القرار الذي تفوه به الرجل المقدس ادموند، ولكي لايقع خطر من هذا النوع في المستقبل، وبذلك تقوم مخاطر جديدة أسوأ من المخاطر القديمة، تمّ الاتفاق، على وجوب اختيار أربعة أشخاص من أعلى الناس استقامة، ومرتبة، ومقدرة، بموافقة عامة، ليكونوا مستشاري الملك، وسوف يقسمون مخلصين بالعمل على تقرير جميع القضايا المتعلقة بالملك وبالمملكة،

وأن يظهروا العدالة إلى الجميع، دون تقدير للأشخاص، وسوف يبقى هؤلاء مع الملك، وإذا لم يكونوا جميعاً، على الأقل سوف يبقى اثنان دائماً حاضرين لسماع شكاوى كل واحد من الناس لابل جميع الناس، وأن يقدموا، بأقصى سرعة ممكنة التفريج إلى الذين يعانون من الأذى، وبأعمال تفتيشهم وبناء على بيناتهم، سوف تتم إدارة خزينة الملك، والأموال التي منحت إليه من قبل المجتمع بشكل عام، وسوف يجري صرفها لصالح الملك والمملكة، وفقاً لما سيرونه أكثر مواءمة ونفعاً، وهم سوف يكونوا الحافظين للامتيازات المذكورة، وبحكم أنه جرى انتخابهم بموافقة عامة من الجميع، لذلك ما من واحد منهم سوف يجري نقله أو حرمانه من وظيفته من دون موافقة عامة، وإذا ما انتزع واحد من بينهم بوساطة الموت، وقتها سوف يحل رجل آخر محله بوساطة انتخاب وموافقة الثلاثة الآخرين، خلال مدة شهرين، وسوف لن تجتمع الجماعة كلها ثانية من دون هؤلاء الأربعة المذكورين، مالم تستدعي الضرورة، أو بناء على طلبهم، والمذكرات التي جرى الحصول عليها معارضة للملك، وضد عادة المملكة، سوف تزال وتلغى، ويتوجب أيضاً عمل إشارة إلى الحكم الذي سوف يصدر ضد المخالفين، وكذلك وجوب أداء يمين بين الفئات، وكذلك فيما يتعلق بحلقة العدالة، سوف يجرى انتخاب مسؤول عن العدالة ومستشار من قبل الجميع،وبما أنهم سوف يكونون دوماً مع الملك، سوف يكونون أيضاً بين عدد المحافظين على الامتيازات، وإذا ما حدث في أية مناسبة، سوف ينتزع الملك فيها ختمه من المستشار، إن كل ماسوف يجري ختمه خلال المدة الفاصلة، سوف يعدّ لاغياً وفارغاً، وبعد ذلك سوف يعاد الختم إلى المستشار، وما من مستشار أو مسؤول عدالة سوف يجري تعيينه في مكان آخر، مالم يكن من خلال مؤتمر خاص وعام، وبالموافقة الحرة للجميع، ولسوف يجري انتخاب اثنين من مسؤولي العدالة لمنصة الحكم، وسوف يجري تعيين بارونين في الخزينة، وسوف يجري تعيين واحد على الأقل ليكون مسؤولاً عن العدالة لليهود، وفي هذه المناسبة

ســوف يجري إعـداد جميع الموظفين الرسميين المقـدم ذكـرهم وتعيينهم بمـوجب انتخاب الجميع الحر والعـام، وبناء عليـه بما أنهم سوف يتـولون تسـوية قضـايا الجميع، لذلك مـوافقة كل واحـد سـوف تكون مطلوبة في انتخابهم، وفيما بعـد، وعندما يكون ضرورياً لأي واحد آخـر استبداله، أو تعيينه في محل أي واحد مـن الموظفين الرسميين المتقدم ذكرهـم، إن التبديل أو التعيين ســوف يجرى من قبل، أو بمـوجب سلطة هؤلاء المستشـارين الأربعـة الذين تقـدم ذكـرهم، والذيـن توفـرت حـولهم شكوك، أو الذين ليست إليهم حاجة، سوف يجري عزلهم من جانب الملك.

البابا يرسل المعلم مارتن إلى إنكلترا مزوداً بسلطات جديدة غير اعتيادية

وفي الوقت الذي كـان فيـه النبلاء مشغـولين بشكل متـواصل لمدة ثلاثة أسـابيع في ترتيب هذه المسائل في سبيل تقـدم الصالح العـام، أعاق العـدو القـديم، ذاك العدو المسبب الاضطراب للسـلام، والمؤصل للانشقاقـات، أي الشيطان، أعـاق جميع القضـايا التي تقـدم ذكـرها، بوسـاطة نهم البـابا وشرهه، لأن الحبر الأعظم اعتقـد بأن الانكليـز المرنين، ســوف —وفقـاً لعادتهم الجارية— يخضعـون رقابهم، ويستجيبـون للاسهام بناء على إلحاح الملك، وكذلك على أساس طلبـه المستعجل، فأرسل رجل دين من المقربين إليـه، اسمـه المعلـم مـارتن، الذي جـرى تزويـده بسلطات جـديدة وغير اعتيادية، أعظم مما منح إلى أي نائـب بابوي نتذكره قـد وجد من قبل، لأنه مدّ يـديه لفرض المكوس، ولفـرض الأتاوات لأسباب غير معروفـة، فقط تبعـاً لما يهواه عقله، من دون أي تقدير للمنطـق، ولأنه كان مسلحـاً بسلطة متـوحشـة من قبل البابـا، الذي منه أظهر كل يـوم صكوكاً جـديدة، وفقـاً لرغبـاته، أو لتبني أية قضيـة مفاجئة، من القضـايا الاضطرارية، استخـرج بالقـوة الموارد، حتى يجري منحهـا إلى أقرباء البـابا، ولهذا قـال كثيرون بأنه كـان لديه كثيراً من أوراق الرق غير المكتـوبة، والمختومـة بالختم البـابوي،

بحيث كـــان بإمكانه أن يكتـب في هذه الأوراق الذي رغب بـه، لاسمح الرب بذلك.

وجـرى ارسال هذا النائب البـابوي المخادع، في المقـام الأول إلى الملك، فقد ابتـدأ به ليرد المعروف إلى البابا، وليستخـدم جهوده القـو ية بمثابرة في سبيل اقناع أساقفة انكلترا، ليقدموا موافقـة عامة بأن يمنحوا هذا الإسهام إلى البـابا، أو الوعد على الأقل بدفعـة سريعـة مقدارها عشرة آلاف مـارك، وعلى هذا الطلب رد الملك بأن نبلاءه، والأساقفـة، ورجال الدين، وكذلك الايرلات، والبـارونات والفرسـان، غـالبـاً مـاانتـزعت منهم مقتنيـاتهم، بمختلـف الطرق المخترعـــــة، حتـى أنهم بـاتوا الآن ولم يترك لهم شيئـاً لأنفسهم، وقال أيضاً:

«إنهم الآن ســوف لـن يدفعــوا شيئاً، ولا يمكنهـم دفع أي شيء لي أنا ملكهم، ولا كذلك إلى البابا، وقد قمت على كل حال بالتذلل إليهم بنفسي، وتماشيت مع رغبـاتهم، فأجابوني بلطف أكبر، ووعـدوني بمساعـدة، وفقاً لإمكاناتهم»، وعنـدمـا سمع المعلـم مـارتـن هذا، غـادر وذهـب مع نظرة سلبيـة، ليس في ذهنه توقع أية مسـاعـدة مـن الملك، ومع ذلك قـام بجمع الأساقفة، وأراهم الرسائل الرسولية، وفق الشكل الوارد في الفصل المقبل، وهي موجهـة أولاً إلى رؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفة، وبعـد ذلك إلى رعاة الديرة، سواء المعفيين منهم وغير المعفيين.

رسالة البابا إلى أساقفة إنكلترا مطالباً بالإسهام

«من أنوسنت، الأسقف، وعبـد عبيد الرب، إلخ، إلخ، إلى رعـاة الديرة المعفيين منهم وغير المعفيين وإلى إخـوانهم الرهبـان في أسقفيـة كـانتربري، صحة ومباركات رسولية:

لنا آمال كبيرة في عواطفكم الصادقـة، ونشعر بثقة كبيرة، أنه عندما تحيق أحوال الحاجـة بالكرسي الرسولي، أي بأمكم الكنيسـة، يمكننا بكل ثقة أن

نلجأ إليكم، بحكم أنكم أولادها المحبوبين والمخلصين، الذين هم دوماً متلهفين ومستعدين لتخليصها من أحمالها، وبما أن الكرسي الرسولي المتقدم ذكره غير قادر حتى الآن على تخليص نفسه من وطئة تلك الديون التي تعاقد عليها من أجل الدفاع عن الإيمان الكاثوليكي، وعن حرية الكنيسة، وعن ميراثها الذاتي، باستخدامه للمبالغ التي جمعت ومنحت لمساعدتها في انكلترا وفي الممالك المسيحية الأخرى، بموجب سلطات سلفنا البابا غريغوري صاحب الذكرى الطيبة، لذلك نحن الآن مضطرين بسبب الحاجة إلى اللجوء بثقة إلى عواطفكم الخالصة، ونقوم بموجب نصيحة إخواننا بسؤالكم وانذاركم، وبموجب هذه الرسائل الرسولية نأمر جماعتكم، أن تقوموا بموجب مشاعركم البنوية بالتقدير، كما هو مؤمل منكم، والنظر إلى الحاجة الملحة، وإلى ثقل العبء الذي عسف بشدة بالكنيسة الرومانية، التي هي أمكم الروحية، فهي مقهورة، وتقريباً مغلوبة، لذلك قدموا إليها الرحمة المستحقة في هذه القضية، وفي سبيل دفع الديون التي تقدم ذكرها، ولتقديم العون لنا وللكرسي المذكور بمبلغ من المال فيه كفاية، ووفقاً للطريقة التي يراها صحيحة ابننا المحبوب المعلم مارتن، كاهن حجرتنا، الحامل لهذه المطالب، وكل الذي يعبّر عنه ويعلنه هو باسمنا ولصالحنا.

ونحن نأمركم أيضاً بإعطاء المال الذي أسهمتم به إلى المعلم مارتن المذكور، أو إلى رسله، خلال المدة التي سوف يحددها لكم لفعل ذلك، وعليكم هكذا تنفيذ أوامرنا، حتى لانمتلك سبباً صالحاً لنأمر تقواكم، ولكي لانكون مرغمين على اللجوء إلى وسائل أخرى في هذه القضية. صدر في اللاتيران، في اليوم السابع من كانون الثاني، في السنة الأولى من حبريتنا».

وعندما جرى نشر هذا في لندن، وبات مفهوماً بشكل جيد من قبل جميع الأساقفة ورعاة الديرة بشكل خاص، رفض رعاة الديرة إعطاء جواب من

قبل أنفسهم وحدهم، وآثروا أن يفعلوا ذلك مع آخرين، لأن رسالة قد كتبت إليهم وفق الأسلوب نفسه، ولذلك عقدوا مداولات دقيقة حول القضية، وأعطوا منفذاً لشكاياتهم بين أنفسهم وقالوا:

«لقد وضعنا في موقف صعب، فملكنا وحامينا الذي أسس وجدّد كثيراً من كنائسنا، غير قادر على فعل شيء، وقد طلب المساعدة منا من أجل الدفاع عن مملكته وفي سبيل حمايتها، أي في سبيل الصالح العام، وقد طلب البابا الشيء نفسه لصالح الملك، فهذه شكاية مزدوجة، وهي قائمة بشكل متوازن وفعال من على الجهتين، وجاءنا الآن طلب آخر غير متوقع من جانب البابا، والطلب الأول، بما أنه مؤيد بشكل مضاعف، فهو مرجح أكثر، وهو جدير أكثر بالموافقة عليه، فمن كرم الملك يمكن أن نتوقع بعض المكافأة، أما من البابا فلا شيء، فلقد هوجمنا وتضررنا من على الجانبين، فمن الجانب الأول عسف بنا، ومن الجانب الثاني غللنا وتأذينا، وكأننا بين المطرقة والسندان، ولقد سحقنا بين حجري الرحا».

رسل من الإمبراطور يمنعون الإنكليز إعطاء أية مساهمات إلى البابا

عندما كانت مثل هذه الأحداث قيد الوقوع، ليس من دون تسبيب قلق حاد في قلوب كثيرين الملطخة بالدم، وصلت أخبار إلى علم جميع النبلاء، وقد انتشرت بين الناس، ووقتها لم يعرفوا الذي سيفعلونه، ولذلك لجأوا إلى الأساقفة، في سبيل أن يتبنوا الخطة نفسها في جميع الأشياء، وذلك بالنسبة لهذه المسألة المتعلقة بالصالح العام للمملكة، وحدث —على كل حال— فجأة أن وصل إلى لندن المعلم وولتر دي أوكرا Ocra, وبعض الآخرين، كرسل خاصين من الامبراطور، وذهبوا فور وصولهم إلى المستشارين، وقدموا رسالة من مولاهم، جرت قراءتها بشكل علني بحضرة الملك وجميع المستشارين، على الرغم من اعتراض المعلم مارتن وانزعاجه، وفي هذه الرسالة برأ الامبراطور نفسه من تهمة العصيان، التي

شوه بها البابا سمعته وأخلاقه، وأعلن بأنه سوف يطيع العدالة بكل تواضع، وسوف يلتزم بأوامر الكنيسة، ويقدم الترضيات إليها، ولتأكيد مصداقية هذا، قدم كل من امبراطور القسطنطينية، وكونت طولوز شهادتيهما بوساطة رسالتين ممهورتين بختميهما، وقد نشرتا هناك على الناس، وفي تسويغ لنفسه أيضاً، أعلن الامبراطور فردريك، في كل من هاتين الرسالتين، وبفهم رسله الذين رددوا الشيء نفسه، من أن البابا قد طلب بشكل مهيب أن يكون متملكاً لبعض المدن، والقلاع والأراضي، وفيما يتعلق بهم ليس واضحاً بعد، فيما إذا كانوا عائدين بملكيتهم إلى الامبراطورية، أو إلى الكنيسة، كما طالب أيضاً بإطلاق سراح بعض الأشخاص، الموضوعين في سجن الامبراطور، بحكم أنهم خونة له شخصياً، وطالب بهذا أيضاً حتى قبل أن يكون هو شخصياً، قد جرى تحليله من الحرمان الكنسي، وبناء عليه، إنه خشية منه —كما قال— من أن يقع في أحابيل البابا، أخضع نفسه إلى رأي وقرار، ملكي فرنسا وانكلترا، وبارونات المملكتين، لأنه أفاد بأن تواضعه الأصيل لم تتم رعايته كما ينبغي، أو تقديره بشكل لائق من قبل البابا، ومن أجل هذا اشتكى بمرارة إلى الجميع، وأضاف الامبراطور في نهاية المكتوب رسالة مع شيء مما يشبه التهديد، من أن جميع المال المرسل إلى البابا لمساعدته، سوف يضاف إلى الخزينة الامبراطورية، ولذلك ترجى بكل وسيلة توفرت لديه بأن لايسهم الانكليز بأي شيء إلى خصمه البابا، للإضرار به، وأضاف أيضاً، بأنه إذا مارغب ملك انكلترا الالتزام بنصائحه، يتوجب بالقوة والعدالة تحرير انكلترا من الضرائب التي فرضها البابا انوسنت الثالث، وكذلك عليه أن ينقذها من الأعباء الأخرى، التي كانت تعسف بها يومياً من قبل البابا، وبهذا استرد الامبراطور عواطف الكثيرين، لأنه أقحم في الرسالة المذكورة، بأن الملك إذا لم يقم بإطاعة أوامره —أي الامبراطور— هو سوف ينزل انتقاماً ثقيلاً، بأي واحد من رعاياه سوف يتم العثور عليه في ممتلكاته الامبراطورية.

كيف وافق نبلاء إنكلترا على إعطاء مساعدة مالية

عقد نبلاء انكلترا وأساقفتها مؤتمراً في لندن، في اليوم المحدد، أي بعد ثلاثة أسابيع من يوم عيد طهارة القديسة مريم، وعقدوا مداولات دقيقة، حول القضايا التي تقدم ذكرها أعلاه، وكان موجوداً هناك نواب الأساقفة الغياب، وهم عن رئيسي أساقفة كانتربري ويورك وثلاثة أسقفيات شاغرة، وممثلين عن هيئة كهنة كوفنتري، وشيستر، ونورويك، وجرى آنذاك تجديد طلب الملك لمساعدة مالية، وفيما يتعلق بهذه المسألة، استدعاهم الملك من يوم إلى آخر، وذلك بوساطة دعوات منه شخصياً، وكذلك بوساطة رسل خاصين، تقدم من خلالهم بالوعد بأنه سوف يحافظ، تحت سلطانهم الكامل، على الامتيازات، التي كان قد أقسم على منحها عند تتويجه، ومن أجلها منح صكاً، وفي سبيل الحفاظ على هذه الامتيازات، طالب بأن يقوم كل واحد من الأساقفة في أسقفيته، بإصدار قرار بالحرمان الكنسي ضده، وضد جميع الأشخاص الذين سوف يقفون ضد أية نقطة من نقاط الامتيازات المذكورة، وأخيراً لما أنه لم يعد ممكناً انحناءهم إلى أي شرط آخر، وافقوا على منح الملك، من أجل تزويج كبيرة بناته، منحة مقدارها عشرين شلناً من إقطاعية كل واحد من الفرسان، الذي بحوذته ممتلكات من الملك بشكل رئيسي، وكانت الحصة الأولى سوف يجري دفعها في عيد الفصح، والأخرى في عيد القديس ميكائيل.

وعندما طلب من الملك أن يتذكر هذه الأشياء، وكذلك الوقائع الماضية، تذكّر كَمْ هي كثيرة التي عمل بها بقسوة استخراجات مماثلة من رعاياه المخلصين، الذين كان واجبه نحوهم هو أن يرعاهم، وليس افقارهم، وجاء ذلك من دون الوفاء بأي وعد من الوعود قطعه لهم، فبعد الاستيلاء على بدفورد، جرى منحه على الفور ضريبة عن أرض كل محراث من انكلترا كلها، وكان ذلك شلنين لكل محراث، وفي السنة التالية جرى منحه جزءاً من خمسة عشر جزئاً من الممتلكات المتحركة، ومجدداً عندما كان على

وشك الذهاب إلى بريتاني تلقى مبلغاً كبيراً من الأساقفة، ومن الرهبان، ومن البورجوازية واليهود، ولدى عودته من بريتاني، أخذ منحة مقدارها ثلاثة ماركات عن كل فدان، وأعطي بعد هذا جزءاً من أربعين جزئاً من جميع الممتلكات المتحركة، ثم من جديد بعد ذلك جزئاً من ثلاثين جزئاً، وثانية عندما أعطى أخته لتكون زوجة للامبراطور، تسلم بمثابة حصة زواج لها، منحة مقدارها ماركين عن كل محراث، وعند ولادة ابنه، قام، مع عار كبير لحق به، ومن دون خجل، فاستخرج بالقوة كثيراً من الهدايا، التي عملت مع بعضها مبلغاً كبيراً من المال، ومجدداً عندما كان ذاهباً إلى غسكوني، استلم مبلغاً كبيراً من المال، لابالحقيقة مبالغ لانهاية لها تقريباً، من الأساقفة، ومن رجال الدين، والبورجوازية، واليهود، ومن كل واحد كان بامكانه أن يكشط منه، وعندما عاد من غسكوني بشكل باهت، وكان رجلاً مخدوعاً، أمر الأساقفة والنبلاء باستقباله عند شاطيء البحر، وبعد انتظاره هناك عبثاً لوقت طويل، استقبلوه عندما وصل، بهدايا كبيرة لاتقدر بثمن، وعمل الشيء نفسه من قبل سكان لندن، وآخرين، وكل من تم العثور عليه وعرف بأنه لم يقدم هدية لها قيمتها، اتهم بحجة أو بأخرى، وعوقب، فكيف يمكن للملك أن يقوم بالوفاء بجميع وعوده وباتفاقاته، مقابل الإسهامات الحالية، ومن أجل الإسهامات الأخرى، وحده يعرف الذي هو ليس بجاهل بأي شيء.

جواب الأساقفة على مطالب المعلم مارتن

عندما علم المعلم مارتن، الذي كان رسول البابا، بأن نبلاء انكلترا قد أعطوا موافقة عامة بمنح الملك، أصبح متلهفاً أكثر لإنجاز المهمة التي من أجلها قد أرسل، والتي كانت ماتزال في حالة من عدم التأكد، أي الحصول على المساعدة للبابا، وبناء عليه دعا إلى الاجتماع جميعهم مع بعضهم وعندما تحقق له ذلك قال لهم:

«أيها الناس، أيها الرهبان، ويا أيها السادة، المحبوبين تماماً من الكنيسة

الرومانية، التي في صدرها ترقد جميع الآمال البابوية، ما هو الجواب الذي أعطيتموه إلى أبيكم الروحي بالنسبة لقضايا الكنيسة الرومانية، التي هي أمكم،والمعسوف بها حسبما جاءكم العلم بوساطة الرسالة البابوية؟ لقد أقدمتم طائعين على الاستجابة لأبيكم الدنيوي، أي مولاكم الملك، فلاسمح الرب أن لاتقدموا على مدّ يد المساعدة إلى أبيكم الروحي، أي البابا، الذي يضع ثقته بكم، ذلك أنه يقاتل لصالح الكنيسة المسكونية ضد أولاده العصاة»، وقدّر الأساقفة بحكمة بأن كلامه، وإن كان حلواً وناعماً فهو بسبب المناسبة، ولذلك هو أحلى من قرص العسل وأنعم من الزيت، ولكنه كان في النهاية أمرّ من الصبر،وأحدّ من السهم الخارق، ولهذا لم يتزحزحوا عن مواقفهم، وبعد مداولات كافية، عيّنوا عميد كنيسة القديس بولص في لندن، وكان رجلاً مستقيماً وفصيحاً، لإعطاء الجواب الذي وافقوا عليه بالإجماع، ومن خلاله أعادوا الجواب التالي إلى المعلم مارتن المتقدم ذكره قائلين:

«ياصاحب النعمة، إن جماعة الأساقفة الانكليز يرجون التقدم إليكم بالجواب حول كل من قضية تقديم المساعدة المالية إلى البابا، وأيضاً حول الموارد التي يطلبها صاحب القداسة من خلالكم، من كل كنيسة من الكنائس، وإن القضايا التي عرضتها علينا، فيما يتعلق بمولانا ملك انكلترا بشكل خاص، والمتعلقة بجميع أولياء نعمة الكنائس بشكل عام، وهم أيضاً يتعلقون برؤساء الأساقفة ونوابهم من الأساقفة، وكذلك جميع أساقفة انكلترا، وبناء عليه، بما أن الملك قد اضطر إلى الغياب بسبب المرض، وكذلك بما أن رؤساء الأساقفة والأساقفة، والأساقفة الآخرين للكنائس، هم أيضاً غياب، يتوجب علينا عدم إعطاء جواب، حيث لايمكننا فعل ذلك، لأننا إذا ما أقدمنا على فعل ذلك، فيكون هذا مضراً بالنسبة للأساقفة الذين هم غياب»، وبعدما قالوا هذا، ذهب جون مارشال وبقية رسل الملك، إلى الأساقفة الذين بأيديهم بارونيات من الملك

بشكل رئيسي، ومنعوهم بكل دقة من رهن إقطاعياتهم المدنية عند الكنيسة الرومـانية، لأنه —أي الملك— سـوف يكون محروماً بذلك من الخدمـات المتوجبة إليـه، وعندما سمع المعلم مارتن هذا، عيّـن يـوماً في وسط الصوم الكبير للذين كانوا آنذاك حضوراً، للاجتماع به، وهو في الوقت نفسه سوف يحصل على حضور الملك وعلى حضـور الأساقفـة الغياب، وذلك في سبيل إنهاء هذه القضيـة والوصـــول بها إلى نهاية، غير أنهم رفضـوا الموافقـة على الموعد المقرر، وذلك دون الحصول على موافقـة الملك، والأساقفة الآخرين الذين كـانوا غياباً، وعـادوا جميعاً إلى مـواطنهم» ومجدداً قام المعلم مـارتن، اعتماداً على سلطات رسـائل جـديدة، التي كـان لديه كميـات وافـرة منهـا يستخـدمهـا حسب رغبـاته، فدعـا إلى الاجتماع بعض الأسـاقفـة، لكنهم رفضوا الموافقة على الإسهام وزادوا بأنهم عارضوا بشدة أكثر من ذي قبل، وقدموا الجواب نفسه، كما تقدم من قبل قائلين:

«إنه في المقام الأول، بسبب فقر ملـك انكلترا، المحدقة به مخاطر الحرب، لايسمح ذلك لنا بالموافقـة على هذا الاستخراج لأن المخـاطر تهدد المملكة كلهـا، وبسبب هذا الفقــر، أثقلت عـدة كنائس، وبشكل خـــاص الديرة، بديون كبيرة مـرهقـة، ومجدداً عندمـا تم الاسهـام مـؤخـراً بناء على طلب الكاردينال الذي كـان النائب البابوي، بسبب أعبـاء الكنيسة الرومـانية كما قيل آنذاك، لقـــد فـــرض وقتهـــا علينـا عبئاً ثقيـــلاً، ومع ذلـك فإن تلك الاسهـامـات لم تكـن لمنفعـة الكنيسـة،والآن عندمـا عمـل رسـول بسيط المطلب، هناك سبب أكثر قوة للخوف من أن نتيجة مماثلة، إن لم تكن أسوأ، سوف تحصل بهذه المناسبـة أيضاً، إذا ماتم الاسهـام الآن من جديد، كما أن هناك أسساً قـوية للخوف من أن يصبح ذلك عـادة، وذلك بناء على أساس أن الشيء إذا ما تكرر، يغـدو قاعـدة، ومجدداً، إنه حسبما نعتقد، أو في جميع الأحوال حسبما روي، بأن البـابا مقبل خلال وقـت قصير، على عقد مجمع، فيه سـوف —بدون شكل— يجري إثقال الأساقفـة، جميعاً وبدون استثناء،

بأعباء النفقات، ومثل ذلك بالرحلة الطويلة وكذلك بنفقاتها ومتاعبها، وأيضاً بالقيام بزيارات فيها تقدمات إلى البابا، سواء أكانت موافقة أم غير موافقة، أو بزيارات إلى بعض الآخرين، الذين لم نجدهم قط يرفضون أية هدايا، ويمكن أن يحدث، أنه نتيجة للاضطرابات التي تكدست فوق الاضطرابات، سوف يكون هناك قلة فقط، يمكن لهم تحمل ثقل هذه الأعباء التي لايمكن تحملها، ومجدداً، بما أن أمنا الكنيسة المقدسة لروما مثقلة بالديون، سيكون عدلاً ومشرفاً، بما أنها غير قادرة على تحمل هذا العبء، أن تقدم المساعدة إليها من قبل أولادها المخلصين بشكل عام، الذين سوف —كما نعتقد— يلتقون في مجمع خلال وقت قصير، والذي يهم الجميع بشكل رئيسي، ينبغي أن تتم الموافقة عليه من قبل الجميع، في سبيل أنه بذلك يمكن تحرير الكنيسة بشكل أحسن، وبذلك كل واحد منا يكون أقل إثقالاً»، وعندما سمع المعلم مارتن هذه الحجج المؤثرة، ضد استخراج أية معونات مالية من الكنائس ومن رجال الدين بمثل هذا الإصرار المعلن، يقال بأنه انفجر بتهديدات عنيفة ضدهم، وتحمل الأساقفة —على كل حال— هذا بصبر، وارفض الاجتماع، فتفرقوا مبتعدين، وقد أضافوا في عروضهم، أنهم إذا ما أسهموا، فإنهم سوف يخشون تهديدات الامبراطور أكثر.

وعند ذلك ألقى مارتن الخائن بيديه الجشعتين بشكل سري على موارد الكنائس الفارغة، وقام بين أشياء كثيرة فتدبر إعطاء خزينة كنيسة سالسبري إلى حفيد البابا، واستولى أيضاً على عدد من الكنائس الأخرى، غير أن أعمال الأخذ والرد هذه، من الأفضل أن نظل صامتين حولها، وعدم حكايتها، وذلك صدوراً عن الاحترام للكنيسة الرومانية، وبقصد عدم إثارة فضيحة.

العثور على جثة ولد ميت في لندن

في الأول من شهر آب من هذا العام، تمّ العثور في مقبرة القديس

بندكت، في مدينة لندن، على جسد طفل غير مدفون، قد كتب على ساقيه، وعلى ذراعيه، وتحت صدره بخط عبري منظم واجتمع كثيرون، وهم يتساءلون حول هذا المشهد، غير قادرين على قراءة الكتابة، لكنهم عرفوا بأن الكتابة والأحرف عبرية، فبعثوا خلف بعض المتحولين اليهود، الذين كانوا يسكنون في البيت الذي أقامه الملك في لندن، وأمروهم، صدوراً عن تقديرهم لحياتهم ولأطرافهم، وتقديراً لشرفهم، وعواطفهم، وخوفهم من الملك، أن يبيحوا معنى الكتابات، من دون أي تحوير، لأنه كان موجوداً هناك بعض وكلاء الملك، الذين كانوا يتولون الحفاظ على السلام، وقد اعتقدوا —لسبب صحيح— أن اليهود الذين تولوا تعذيب يسوع المسيح وأهانوه، إما قد قاموا بصلب هذا الطفل (وهذه واقعة تكرر ذكر وقوعها)، أو أنهم عذبوه بطرق مختلفة قبل قيامهم بصلبه، ولأنه مات تحت التعذيب، اعتقدوا أنه غير جدير بالصلب، ومن ثم ألقوا بجسده حيث تمّ العثور عليه، وبالاضافة إلى هذا ظهرت هناك علامات باقية على جسد الطفل، وأن التعذيب تمّ بوساطة العصي، وقد ظهرت هنا وهناك علامات وآثار بعض أنواع أعمال التعذيب الأخرى، وبعدما جرى جلب المتحولين، من أجل قراءة الكتابات، قاموا بفحصها، وسعوا إلى قراءتها وبذلوا جهودهم لبعض الوقت من دون محصلة، لأنه بسبب تمدد الجلد، وتغير الجسد، انتشرت الأحرف فوق الجسد هنا وهناك، وتغير شكلها كثيراً وتشوهت، وبات بعضها غير مفهوم، وتمكنوا أخيراً، بعد طول معاناة من اكتشاف اسم والد الطفل وأمه مكتوبين، لكن من دون الكنية، وكانت هناك كلمة قد أفادت بأنه قد بيع إلى اليهود، لكن من قبل من، ولأي غاية؟ هذا ما لم يستطيعوا كشفه، وجرى اكتشاف أن بعض اليهود من لندن، الذين كانوا موضع ريبة، ومشكوك بهم في هذه القضية، قد هربوا آنذاك بشكل سري ولم يعودوا، وأكد بعضهم أيضاً، بأن الرب قد عمل معجزات لصالح الصبي، وجرى اكتشاف بأن اليهود قد اقترفوا في بعض الأحيان مثل هذه الجرائم، وأن الأجساد المقدسة، عندما صلبت قد استقبلت في كنائسها،

وأصبحت أيضاً مشهورة بالمعجزات، وبناء عليه، وعلى الرغم من أن العلامات كانت خمسة جروح، على الطرف، واليدين، والقدمين، وهي لم تكن مرئية على جسد الطفل المذكور، قام كهنة القديس بولص مسرعين بأخذ الجسد والفرار به، ودفنه، وسط طقوس مناسبة، وكان دفنه قرب المذبح الكبير في كنيستهم.

ظهور قديسين جدد في انكلترا

في تلك الآونة نفسها، قيل بأن معجزات أظهرت أنفسها، وأن منفعة الصحة قد أعيدت إلى المرضى، في سبيل مدح المسيح، وكان ذلك عند ضريح روجر، أسقف لندن، صاحب الذكرى التقية، وضريح المعلم جون فوكستون Foxtone, الوصي على كنيسة تلك المدينة، وكذلك عند قبري: المعلم روبرت، الذي كان أخاً لإدموند رئيس أساقفة كانتربري، والقديس روبرت أوف كاريبراغ Karrebrag (ربما: Carisbrake).

وصول كونت فلاندرز لمساعدة ملك إنكلترا

ونزل في حوالي الوقت نفسه، كونت فلاندرز في دوفر، حيث قدم لمساعدة ملك انكلترا في نيته شن الحرب على سكوتلندا، وقد أثار وصوله غضباً عظيماً وأنفة في قلوب النبلاء الانكليز، لأنهم قالوا بأن انكلترا قادرة على اجتثاث سكوتلندا، اجتثاثاً كاملاً من دونه، وجلب الكونت المذكور معه ستيناً من الفرسان، ومائة من الأتباع، جميعهم مسلحين بشكل جيد، وكل واحد منهم متشوق إلى السعي وراء نيل أموال الملك.

وسار الكونت مع أخيه رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري إلى القديس ألبان حيث التقوا بالمعلم وولتر دي سفيلد Suffield, الأسقف المنتخب لنورويك، وقد جرى تثبيته على الفور في ذلك الكرسي، من قبل رئيس الأساقفة المنتخب المذكور.

وفي هذا العام نفسه تدبرت السيدة بلانشي، تكريس الكنيسة التي

أسستها في بونتوي Pontoise.

وفي تلك الآونة نفسهـا، جــرى انتخـاب المعلم وليم دي بيرغ Burg, أسقفاً لـ: للانداف Llandaff, وكان رجلاً محبـاً للخير، وغير عدواني، وسمعته غير ملطخة.

حول الاستخراجات غير العادية للمعلم مارتن

مورست في هـذه الآونة استخراجات غير عـادية للمال والموارد من قبل المعلم مارتن، الذي كـان مقيماً في الهيكل الجديد في لندن، عاداً نفســه بمثابة نائب بابوي (مع أنه لم تخلع عليـه ألبسة النائب البابوي، وكـانت هذه بدعة ماكرة للحفاظ على امتيازات الملك)، وقد أرسل رسالة في جميع الاتجاهات إلى كذا وكـذا راعي دير، وإلى كذا وكذا رئيس رهبـان، يأمرهم بأن يرسلوا إليه هدايا ثمينة، من بعض الخيول الرشيقــة، واللحوم، والأشربة، والثياب المطرزة، وعندمـا فعلوا ذلك، أعـاد المعلم مـارتن إليهم الذي بعثـوه إليـه، معلناً بأنهم كانوا غير كافين، وأمرهم بإرسال هدايا أعظم قيمة، تحت طائلة عقـــوبة التعليـق والتكفير، كما أنه علق الجميع وأوقفهـم عن منح منـافع تسـاوي ثلاثين مـاركـاً، فما فوق، حتى يشبعـون نهمـه، وبناء عليـه عـانى الانكليز التعساء أسوأ مما عاناه بنو اسرائيل القدماء، وحزنوا لأنهم أرغموا على تحمل العبودية المصرية في بريطانيا.

الخلاف بين ملكي إنكلترا وسكوتلندا

وأثناء العام نفســه، أصدر الملك إعـلاناً عاماً، وبوسـاطة استدعـاء عام تدبر أن يعـرف الجميع في جميع أرجـاء انكلترا، بأن على كل بارون اقطاعي مقطع بشكل رئيسي من الملك، أن يجعل قـواته العسكرية جاهزة لإرسـالها للخدمـة تحت لواء الملك، وأن هذا متوجب على الأساقفـة، ورعاة الديرة، وعلى البارونات العلمانيين أيضاً، ثم إنه انطلق على رأس جيش كبير تعداده نحو نيـوكاسل على التين، معلنـاً بـأن محرضه الرئيسي مااقترفـه وولتر كمنغ

وكـان بارونـاً مشهـوراً وقـوياً جـداً في سكوتلندا، Cumming, وبعض الآخـرين من تلك المملكة، الذين تولوا تحصين قلعتين مـريبتين في غـالوي Galway, ولوثيـان Lothian, في سبيل إيذاء ملك انكلترا، وعلى عكس تصرفـات أجدادهم، بالإضـافـة إلى ذلك، دخل النبلاء المذكـورين أعلاه في تحالف مع الفرنسيين، واستقبلوا بعض الرجال المنفيين واللاجئين من أعدائه —ملك انكلترا— من ذلك على سبيل المثـال غيوفري مارش في هذه الأيام، وبعض الآخرين من قبل، وكـانوا بذلك —كما هو معروف— يسعون لسحب ولائهم من هذا الملك، مع أن ذلك حق له وحـده، وبعدما حشد الملك جميع جماعة النبلاء في انكلترا قرب القلعة المتقدمة الذكر، جرى عقـد اجتماع في حـوالي أيام عيـد صعـود مـريم المبـاركـة، وكـانت هناك مداولات متقنة قـد دخلوا فيها حول القضيـة، وفي هذا المؤتمر، تم التوصل إلى بنود مصـالحة بين الملكين، وكـان ذلك بتـدبير من الايرل رتشـارد وبوسـاطة حكيمـة قام بها بعض النبـلاء الآخـرين من الجانبين، لأن ملك سكوتلندا، كـان رجـلاً مستقيماً، وتقيـاً، وصـاحب عقل متحـرر، ولذلك حظي بحب جميع الانكليـز، وبحب شعبه أيضـاً، وكـان لديه أيضاً جيشـاً كبيراً جداً، وقـوياً، مؤلفاً من ألف فـارس مسلحين مع أن مطاياهم لم تكن اسبانية، أو ايطالية، أو من خيول أخرى ثمينة وثمنها مرتفع، وكانت محمية بشكل جيد بدروع من الفولاذ أو من الكتان، ومع هؤلاء حوالي المائة ألف من الجنود الرجّـالة، كلهم كانوا على رأي واحـد، وكانوا جميعـاً قد عملوا الاعتراف وجـرى تشجيعهم، وتثبيتهم بكلمات مـن وعـاظهم، من أنهم كانوا سيقـاتلون في سبيل قضية عادلة لصـالح بلادهم، ولذلك كان لديهم القليل من الخوف، وفي سبيل منـع سفك دمـاء مثل هذا العـدد الكبير من المسيحيين، والدعـاء إلى الرب بالانتقـام، ومن ثم الاسـاءة إليـه، الذي بين يديه من المرعب وقـوع الانتقـام، أعيـد تأسيس السـلام بسعـادة، وجـرى تدوين ذلك في الصك التالي الشاهد على ذلك.

وفي هذه الآونة، أي في اليوم الذي جاء عقب عيد القديس لورانس، مات البارون المشهور رتشارد دي ستوتفيل Stuteville.

صك ملك سكوتلندا

«من الاسكندر، الذي هو بنعمة الرب، ملك سكوتلندا، إلى جميع الأتباع المخلصين للمسيح الذين سوف يرون أو يسمعون محتويات هذه الأداة، تحيات:

بودنا أن تعلموا، أننا من جانبنا، وباسمنا، وباسم ورثتنا، قد وافقنا، وأعطينا وعدنا، إلى مولانا الاقطاعي المحبوب منا كثيراً، هنري الثالث، الذي هو بنعمة الرب، الملك المشهور لانكلترا، وسيد ايرلندا، ودوق نورماندي وأكوتين، وكونت أنجو، وإلى ورثته، بأننا سوف نحافظ بشكل أبدي على الاخلاص الصالح معه، وسوف نتملك مشاعر طيبة نحوه، وإننا أيضاً سوف لن ندخل مطلقاً، بأنفسنا، أو بوساطة أشخاص آخرين من طرفنا، في أي تحالف مع أعداء مولانا المذكور، ملك انكلترا، أو ورثته، سواء بتسبيب نشوب حرب، أو شنّها، بحيث يمكن أن تحدث مضار بوساطة ذلك، أو يمكن أن تحدث لهم أو لمملكتهم، مملكة انكلترا وايرلندا، أو أية مناطق تابعة لهم، وذلك مالم يقوموا بإيذائنا، ولسوف تظل الاتفاقيات السالفة قائمة تماماً بيننا وبين مولانا المذكور، ملك انكلترا، وهي الاتفاقيات التي دخلنا بها مؤخراً في يورك، بحضور أوتو، الكاردينال الشماس للقديس نيقولا، في سجن توليان، والذي كان آنذاك نائب الكرسي الرسولي، مع الحفاظ أيضاً على ميثاق الزواج الذي عقد بين ابننا وبين ابنة مولانا المذكور، ملك انكلترا، وفي سبيل تمتين موافقتنا هذه، ووعودنا باسمنا وباسم ورثتنا، وتثبيتها، أمرنا حاجبنا ألان Alan, وهنري بيلأويل Baliol, وديفد لندسي Lindsay, ووليم غيفارد Giffard, أن يقسموا بروحنا، بأننا سوف نلتزم باخلاص بالشروط المتقدم ذكرها، ونطبقها تماماً، وتدبرنا أيضاً اداء يمين مشابه، من قبل الآباء المحلين:

ديفد، ووليم، وغيوفري، وكليمنت، الذين هم أساقفة سينت أندروز، وغلاسكو، ودنكالد Dunkald, ودمبلين Dumblane, كما تدبرنا أداء يمين من قبل النبلاء التالين، وهم من رعايانا المخلصين: باتريك ايرل أوف دنبر Dunbar ومالكولم ايرل أوف فيف Fife, وماليس Mal-ise ايرل أوف ستراثيرن Strathearn, وولتر كـومن Comyn أوف مونتإيث Monteith, ووليم ايرل مار Mar, والاسكندر ايرل أوف بوشان Buchan, وديفد هيستنغ Hastings إيرل أوف أثول Athol, وروبرت بروس Bruce, وآلان حاجبنا، وهنري بيلأويل، وروجر دي ماوبري Mowbray, ولورانس دي أبرنثيا Abrinthia, ورتشارد كومين Comyn, وديفد لندسي Lindsay, ورتشارد سيوورد Seward, ووليم لندسي، وولتر أوف موري Moray, ووليم غيفارد Giffard, ونيقولا دي سلّي، ووليم أولد بردج Oldbridge, ووليم بيفير Bevire, وأليوم Aleome دي ميسوك Mesuc, وديفد غراهام Graham, ورتشارد سمنغهام Smingham, فهؤلاء جميعاً أدوا اليمين للغاية التالية وهي: إذا ما قمنا نحن أو ورثتنا بالعمل بشكل مضاد للاتفاقية المتقدم ذكرها وللوعد —لاسمح الرب بذلك— سوف لن يقدموا لا هم ولا ورثتهم لا النصيحة أو المساعدة إلينا ولا إلى ورثتنا بشكل مضاد للموافقة المتقدم ذكرها وللوعد، وبقدر مايمكنهم منعها، وعدم السماح بتقديمها لنا من قبل الآخرين، بل الذي سوف يفعلونه هم وورثتهم —بالنسبة لنا ولورثتنا— ويجعلونه شغلهم الشاغل، هو رؤية أن الشروط التي تقدم ذكرها قد جرى تطبيقها بكل دقة واخلاص، ومراعاتها من قبلنا ومن قبل ورثتنا، وأيضاً من قبلهم ومن قبل ورثتهم، وشهادة على ماتقدم قمنا نحن وكذلك الايرلات، والأساقفة، والبارونات، بتثبيت هذه المدونة بوضع أختامنا عليها. وشهد: الأساقفة، والايرلات، والبارونات الذين تقدم ذكرهم أعلاه، في سنة حكمنا، إلخ، إلخ».

وعلى هذه الوثيقة جرى على الفور وضع أختام: الاسكندر ملك اسكوتلندا، ووليم دي بيفري Bevire, ووليم أولد بردج Oldbridge, ووليم لندسي، وستيفن سمنغهام، وبعد ذلك ختمت بأختام الآخرين، وقد جرى إرسال هذه الوثيقة إلى ملك انكلترا في عيد الميلاد التالي، وحملها إليه بيديه رئيس رهبان التينماوث Tynemouth, الذي حرص على بذل أفضل مساعيه، للوصول إلى هذه الاتفاقية لصالح كرامة الفئتين.

وأرسلت هذه المدونة، مع الآخرين المذكورين أدناه إلى البابا، في سبيل أن تكون ثابتة بشكل دائم بشكل أفضل إلى الأبد، في الرسالة التالية:

التثبيت البابوي لما تقدم أعلاه

«إلى الأب الأعظم قداسة في المسيح، انوسنت، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، إننا الاسكندر الذي هو بالنعمة نفسها، ملك سكوتلندا، وايرل باتريك، وإيرل أوف ستراثيرن Strathearnوإيرل ليفناث Levenath, وإيرل أوف أنيغريا Anegria, وإيرل أوف ميرا Mera, وإيرل أثول Athol, وإيرل أوف روس Ross,وإيرل أوف كيثنس Cathness, وإيرل أوف بوت Bute, وروجر دي ماوبري Mowbrayولورانس أوف ألبيرينث Alberinth, وبطرس دي ماوفير Mouvere, ورتشارد كومين Comyn, ووليم أولد بردج، وروبرت بروس Bruce,وروجر أفنل Avenel, ونيقولا سللنغ Sulling, ووليم مورري Murray, و.... أوف دنفلد Dunfeld, ووليم موريف Muref, و.... أوف بيتين Petene, وجون بيست Bissett الأصغر، ووليم لندسي، وجون دي فوكس Vaux, وديفد لندسي، ووليم غيفارد Giffard, ودنكان دي ايرغاتيلا Ergatila, وجون دي ماترفيل Matervalle, وإيلنر Aylnne وابنه روجر إيرل أوف وينكستر، وهـ .H ايرل أوف أكسفورد، و و

.W دي فسي Vescy, ورتشارد سيوورد Seward, ووليم دي روس Roos, وروجر دي كلير Clare, وهنري ابن كونت دي بريتر Britter, ويوستاس دي ستوتفيل Stuteville, ومالكولم ايرل أوف فيف Fife, وإيرل أوف مينيثشاير Menethshire, وولتر فتز— ألان، وولتر أوليفارد Oliphard, وبرنارد فريسر Fraser, وهنري بالأويل، وديفد كومين Comyn, وديفد مارشال، وديفد فتز— رالف، ووليم دي فورثير Forthere, وجون بالأويل، وروبرت دي روس Roos, الصحة، ونقدم جميع الاحترام المستحق والتشريف:

إننا نرجو أن نخبر قداستكم، بأننا أدينا يميناً، أقسمناه بأرواحنا وأجسادنا، أمام الأب المحترم أوتو، الذي هو الكاردينال الشماس للقديس نيقولا في سجن توليان، والنائب في الوقت الحاضر، للكرسي الرسولي في انكلترا، وسكوتلندا، وايرلندا، وعملنا أيضاً صكاً، بدايته كانت كما يلي:

ليعلم كل من يصل إليه، أنه جرى الاتفاق بحضور صاحب النعمة أوتو، إلخ، إلخ، وقد شهدنا على هذا الصك ووثقناه بأيدينا، وتركناه في حوزة صاحب الجلالة ملك انكلترا، وهناك صك آخر، بدايته:

نحن بودنا أن تعلموا جميعاً، إلخ، إلخ، وبناء على الشروط المتوجبة علينا المتقدمة الذكر، والتي نحن مرتبطون بها، قد أخضعنا أنفسنا لسلطان إدارتكم، بسبب أنكم تمتلكون السلطة على ضبطنا وضبط ورثتنا بوساطة الروادع الكنسية، إذا ما حاولنا في أي وقت من الأوقات العمل ضد شروط السلام المتقدم ذكرها، وإذا ما حدث في أي وقت من الأوقات أن حاول بعض رعايانا، أو أي واحد منهم، ونوى باستخفاف العمل ضدهم، أو أية محاولة من هذا النوع، أو فكر أن يفعل مثل ذلك، الأمر الذي سينجم عنه قيام مخاطر ضد أنفسنا وأنفس ورثتنا، وسوف يكون من جراء ذلك حصولنا على أضرار جسيمة لنا شخصياً ولممتلكاتنا، ولذلك نرجوكم، أيها الأب المقدس، اصدار أوامر إلى واحد من الأساقفة المساعدين لرئيس

أساقفة كانتربري، أن يتولى ارغامنا على مراعاة شروط السلام المتقدم ذكرها، بشكل كامل حسبما جاء في أدوات التنفيذ المتعلقة بهذه القضية، وأيضاً القيام بضبط المتقولين والمتذمرين ضد شروط السلام المذكورة، وفقاً للأحكام الشرعية، إلخ، وفي سبيل الوفاء بالتماسنا وضعنا أختامنا على المدونة الحالية».

وبعد الفراغ من هذه الترتيبات، أصبح ملك انكلترا صديقاً لملك سكوتلندا،وكان الأمل أن تكون هذه الصداقة صداقة لايمكن فصمها، وذلك من دون أي تظاهر، أو خطابات مراوغة ومشاكسة، وعند ذلك ترك الملك هنري ملك سكوتلندا، وذهب إلى المناطق الجنوبية من انكلترا، وهناك على الفور جرى التفكير بأن يزحف هذا الجيش ضد الويلزيين، وكان ملك سكوتلندا قد حمل نفسه إلى المناطق الداخلية من بلاده، ولدى مغادرة ملك انكلترا لنيو— كاسل على التين، جرى تقدير تعداد جيشه، بأنه تألف من حوالي خمسة آلاف فارس مسلحين بشكل جيد، وذلك بالاضافة إلى كتلة كبيرة العدد كثيراً والقوة، من الجنود الرجالة.

غارات الويلزيين

وخلال هذا الوقت كله، كان الويلزيون يخرجون من مخابئهم، وينتشرون مثل النحل، وكانوا ينشرون النار والقتل، ولم يتوقفوا عن نهب المناطق المجاورة لبلدانهم، وكان الملك مسرعاً على طريق عودته إلى لندن، ولم يرغب بمتابعة سيره نحوهم، مع أنه سمع بتجاوزاتهم، وكان عليه أن يقود جيشه نحوهم، حيث كان جاهزاً ومستعداً تماماً، وآثر أن يتبع الخطة النسائية، فبادر مسرعاً إلى ويستمنستر، أي إلى ملاذ متعته المعتادة، وأرسل ثلاثمائة فارس، تحت قيادة هيوبرت فتز— متى، مع الأموال المحتاجة، والمؤن من أجل الطريق، ليتولى ضبط الاعتداءات الويلزية، وحدث على كل حال، أنه قبل أن يصل إلى لندن، تجرأ الويلزيون، لأن الملك سرّح جيشه، ولأنه انخرط في الاستراحة، ولن يقدم —حسبما كانوا خائفين—

على الاتحاد مع الجيش السكوتلندي، ولن يقوم الجيشان بالهجوم عليهم، وقاموا بجرأة بالهجوم على جيش النبلاء الانكليز، على الحدود، أي على حدود الأراضي التي كانت عائدة إلى ايرل هيرفورد، الذي كان سبب الكراهية ومصدر الخلاف، لأنه رفض أن يعطي إلى أخته الثالثة، التي تزوجت من داود، حصتها الثالثة، وهاجموا أيضاً الجيش العائد إلى رالف ومورتيمير Mortimer, وبعدما مزقوا فارسين اثنين شجاعين، وفارس نبيل إلى قطع، قطعوا رأس الثالث، وقتلوا حوالي المائة من الجنود الرجالة، ووضعوا الجيش الانكليزي كله في حالة من الاضطراب العظيمة، تراجعوا ثانية إلى مواضع اختبائهم، وهم مسرورين بانتصارهم، ولدى سماع روبرت المذكور بهذا زحف في اليوم التالي ضدهم، وكان برفقته ثلاثمائة فارس، كان يدفع لهم، وكان متخيلاً أنه سوف يطوق الويلزيين، ويحاربهم وهم في هذا الوضع، لكنه فوجىء من قبل العدو، ولذلك هزم، وتراجع نحو بلداته، لكن ليس من دون المعاناة من خسارة كبيرة بالرجالة والخيول، وحتى في بلداته لم يكن سالماً تماماً من أعدائه.

كيف لحقت الهزيمة ببطرس رئيس أساقفة روسيا من قبل التتار

وفي الوقت الذي كان الموت فيه يحيط بمشاكل الدنيا، حدث لواحد اسمه بطرس، كان رئيس أساقفة روسيا، وكان رجلاً مستقيماً، وتقياً، وموثوقاً، وذلك بقدر مايمكن الحكم عليه، أن هزم من أراضيه، ومن رئاسة أسقفيته، من قبل التتار، وقدم إلى مقاطعات شيسالباين Ci-salpine للحصول على النصيحة والمساعدة، والمواساة في وضعه المضطرب، وذلك إذا أمكن بعون الرب الحصول على ذلك من الكنيسة الرومانية، وأن ينال معروف أمراء تلك المناطق الذين يمكنهم مساعدته.

ولدى سؤاله عن سلوك التتار وتصرفاتهم حسبما خبرها، أعطى الرد التالي:

«إنني أعتقد أنهم بقايا المدينيين، الذين هربوا من أمام جدعون، إلى أقصى مناطق الشرق والشمال، والتجأوا إلى ذلك المكان المرعب وتلك الفيافي الشاسعة، التي اسمها ايترين Etren, ولديهم اثني عشر قائداً، يدعى رئيسهم باسم خان التتار، ومنه صدر اسم التتار، مع أن بعضهم يقول بأنهم عرفوا هكذا من تارّاكونتا Tarrachonta, الذي منه انحدر كيارثان Chiarthan, الذي كان لديه ثلاثة أولاد، كان اسم الأسن منهم جنكيز Thesir خان، والثاني غوري Churi خان، والثالث باثاتار Bathatar خان، ولدوا، ونشأوا بين أعلى الجبال، التي لايمكن خرقها، فكانوا متوحشين، وبلا قانون، وغير انسانيين، وقد تربوا في الكهوف والمغائر، وذلك بعد أن طردوا الأسود والثعابين منها، هؤلاء على الرغم من هذا كله ارتقوا إلى أكثر أماكن العالم إغراءً، وبناء عليه قدم الأب والأبناء، وانطلقوا من أماكنهم المنعزلة، وهم مسلحين وفق طرائقهم، وكان برفقتهم حشود لاتحصى عدداً من المقاتلين، وألقوا الحصار على مدينة اسمها إرناك Ernac, واستولوا عليها، واعتقلوا حاكم المدينة، الذي قتلوه على الفور، وطاردوا حفيده قطز Cutzeusa الذي هرب، خلال عدة مناطق، وقد نهبوا جميع الأراضي التي آوته، وكان من بين البلدان التي عاثوا فيها ونهبوها قبل ستة وعشرين عاماً شطراً كبيراً من روسيا، حيث صاروا لوقت طويل رعاة للقطعان التي سلبوها، وبعدما قهروا الرعاة المجاورين لهم، تولوا قتلهم، أو جعلوهم رعاة خاضعين لهم أنفسهم، وبذلك زاد عددهم، وأصبحوا أكثر قوة، وعينوا قادة فيما بينهم، وتطلعوا نحو الأشياء الأكثر علواً واستولوا على مدن وأخضعوها لأنفسهم، وذلك بعدما تغلبوا على السكان، وزحف جنكيز خان ضد البابليين، وغوري خان ضد الأتراك، وبقي باثاتار خان في إرناك، وأرسل قادته ضد روسيا، وبولندا، وهنغاريا، وضد عدة ممالك أخرى، ويقوم الآن ثلاثة مع جيوشهم الكبيرة بتهديد البلدان المجاورة لسورية، وقد مضت الآن خمسة وعشرين عاماً على انطلاقهم أولاً من صحراء ايترين».

ولدى سؤال رئيس الأساقفة عن شكل عقيدتهم، أجاب بأنهم يعتقدون بأن هناك حاكم واحد للعالم، وعندما بعثوا رسولاً إلى سكان موسكو، بدأوا رسالتهم بهذه الكلمات: «الرب وابنه في السماء وجنكيز خان في الأرض»، وبالنسبة لطرائق حياتهم قال:

«إنهم يأكلون لحوم الخيول، والكلاب، وأية لحوم دنسة أخرى، ويأكلون في أوقات الحاجة لحوم البشر، ليست من دون طبخ، بل مطبوخة، ويشربون الدم، والماء، والحليب،ويعاقبون الجرائم بقسوة ويعاقبون كذلك الزنا، والسرقة، والكذب، والقتل، بالإعدام، وهم لايمقتون تعدد الزوجات، وكل واحد منهم لديه زوجة، أو أكثر من واحدة من الزوجات، وهم لايقبلون أناساً من شعوب أخرى للزواج من بينهم، أو لإقامة علاقات وطيدة معهم، أو للبحث في قضايا الأعمال، أو الاطلاع على اجتماعاتهم السرية، وهم ينصبون معسكرهم منعزلين بأنفسهم، وإذا ما تجرأ أجنبي على القدوم، هم يقتلونه على الفور».

وفيما يتعلق بطقوسهم، وغيبياتهم قال:

«إنهم يرفعون في كل صباح أيديهم نحو السماء يتعبدون خالقهم، وعندما يتناولون أطعمتهم يلقون بأول لقمة في الهواء، وعندما يكونون على وشك الشرب، يصبون بعضاً من السائل على الأرض، في تعبد للخالق، وهم يقولون أيضاً بأنهم يتخذون من يوحنا المعمدان قائداً لهم، وهم يفرحون، ويقومون بطقوس مهيبة في أيام القمر الجديد، وهم أقوى وأكثر رشاقة مما نحن عليه، وهم أفضل قدرة في تحمل المصاعب، ومثل ذلك خيولهم، وقطعانهم ومواشيهم، والنساء مقاتلات، وفوق كل شيء بارعات جداً في استخدام القوس والنشاب، وهم يرتدون دروعاً مصنوعة من الجلود، من أجل حمايتهم، وهي دروع من النادر خرقها، وهم يستخدمون أسلحة مسممة في هجماتهم، ولديهم أنواع كثيرة جداً من الآلات الحربية، التي تقذف الرمايات بقوة شديدة، وبشكل

مباشـــر نحـو الهدف، وهم يأخـذون راحتهم في الهواء الطلق، ولا يعبأون مطلقـاً بالأنواء العـاصفـة، وقـد أغـروا عـدداً مـن الشعـوب والفـرق للالتحـاق بهم، وهم عازمـون على اخضـاع العالم كلـه، ولقـد قـالوا بأنهم أوحي إليهم من السماء بأنهم سـوف ينهبـون العـالم كله لمدة تسعـة وثلاثين عـامـاً، مـؤكدين بـأن الانتقام الربـاني قد طهّـر العـالم بوسـاطة الطوفـان، ولسوف يتطهـر الآن بوساطة اخلاء عـام له من السكان، وبدمار كلي، هم أنفسهم سـوف يتولـون تنفيذه، وهم يعتقـدون، لا بل إنهم يقـولون، بأنهم سيكون لهم صراع حـاد مع الرومـــان، وهم يدعـون جميـع اللاتين باسم رومـان، وهم يخافـون من صنع معجـــزات من قبل الكنيســـة، وأن من الممكن أن يصـدر ضدهم قـرار بالإدانة في المستقبل، وهم يعلنون، أنهم إذا ما تمكنوا من غلبتهم، فلسوف يصبحـون على الفور سادة العالم كله، وهم يقدمون احترامـاً صحيحاً للمعاهـدات، في حالة الـذين قـدموا أنفسـهم عن طواعيـــة لهـم، وتولـــوا خدمتهـم، باختيـارهم أفضـل الجنـود من بينهم، الذين عندمـا يقـاتلـون، يضعوهم دومـاً أمامهم، وبالطريقـة نفسها يبقـون فيما بينهم مختلف أنواع الحرفيين، وهم لا يظهـرون رحمة نحـو الذين يثـورون ضـدهم، ويرفضـون نير حكمهم، أو يقفـون ضـــدهم في أرض المعـــركـــــة، وهم يستقبلـــون الرســــل بلـــطف، ويسهلون أعمالهم، ويرسلونهم عائدين».

وأخيراً سئل رئيس الأسـاقفـة المذكـور عن طرائقهـــم في عبـــور البحـــار والأنهار، وعلى ذلك أجـــاب بأنهم يعبرون الأنهار على ظهـــور الخيـــول، أو على جلود صنعـت لهذه الغـــاية، وأنهـم بنوا سفنـاً في ثلاثة أمـاكن على شـاطىء البحـر، وقـال أيضـاً بأن واحـداً مـن أولئك التتـار المذكـورين، وكـان اسمـه جـلال الدين Kalaladin, وكـان صهـــــراً لجنكيـز خـان، قـد اكتشف بأنه تحدث كـذباً، وقـد نفـوه إلى روسيـــا، ووفـرت حيـاته من قبل مقدمي التتار، مراعاة ولطفاً نحو زوجته.

رسالة مرعبة من التتار

وفي العام نفسه، ومع نهاية الصيف، أرسل الملك الرئيسي للتتار، مرتين رسائل إلى أمير أنطاكية، بوساطة رسل متنوعين، حيث أمره بإطاعة رغباته، في ثلاثة أشياء، وإلاّ فإن سيفاً دموياً سوف ينزل به انتقامه منه، وكان الأمر الأول، هو وجوب قيامه بتدمير أسوار جميع مدنه وقلاعه، وكان الثاني أن يرسل إليه جميع الموارد الناتجة من إمارته بالذهب والفضة، وكان الثالث هو أن يرسل إليه ثلاثة آلاف عذراء، وعندما سمع الأمير بهذه الرسالة استولى عليه الأسى وقال:

«مادام الرب موجوداً، ومادام قديسيه موجودين، أنا لن أستجيب لأي من هذه المطالب الثلاثة، وأفضل بالحري أن نتحارب من أجل حياتنا، وأن يتقرر هذا الخصام فيما بيننا أمام الرب»، وبعد هذا، عندما وجد الرسل منفذاً للتهديد عادوا إلى ملكهم، وجرى حمل رسالة مشابهة، من قبل الرسل التتار المتقدم ذكرهم، إلى ملك أرمينيا، وإلى بعض السلاطين المسلمين الأقوياء، غير أننا لانعرف أية رسائل أرسلت جواباً على مطالبهم.

المصالحة بين كنيسة وينكستر وبين أسقفها

وفي هذه الآونة، استأذن أسقف وينكستر الملك الفرنسي، والذين فتحوا له صدر الرحمة أثناء عيشه في المنفى، وبعد تقديمه الشكر لهم، ولكونه كان متأكداً من حظوة ملك انكلترا، بادر مسرعاً إلى وينكستر، ليكرس نفسه إلى الأعمال الأسقفية العائدة لكنيسته البائسة، وليصلح أوضاعها الفوضوية، ولدى سماع رئيس الرهبان في ذلك المكان باقترابه، عمل الضروريات اللائقة المحتاجة، مع أن ذلك جاء متأخراً، وتواضع بنفسه أمامه لدى وصوله، وبالطريقة نفسها تصرف الآخرون، سواء من العلمانيين والرهبان، والذين كانوا واثقين كثيراً جداً بحماية الملك، أي الذين كانوا

المثيريـن للفتن، والمتسببين بـالخلاف، عملوا الآن تكفيرات، وحـــولـوا عـواطفهـم نحـو أسقفهم، ومـا لبث بعـد ذلك، في يوم عيـد قطع رأس القديس يوحنا المعمـدان، أن جرى سحب القـرار الذي تفوه به الأسقف، والذي قضى بحرمان مدينـة وينكستر وكنيستها، والذي كانوا واقعين تحته منذ وقت طويل، وجـرى بذلك تحليل السكان بشكل حـر بوساطة صيغـة الشريعة.

ومع أن رئيس الرهبـان المتقـدم الذكـر جـون دي كـوز Cauz, قد جرى تحليله مع رفاقه بالطريقة نفسها، قد جرى خلعه مع آخرين معه، كان رئيس الرهبـان المذكـور قـد تجرأ على تعيينهم مـوظفين لديه، ووكـلاء علمانيين، وخضع عمــدة المدينة، الذي اقترف الذنـب الأعظم، إلى تكفير أثقل، وعقوبات أشد.

وفي السـابع من تشرين الثـاني، مـات آدم أسقف كـونور Connor, وحدثت وفاته في ويردون Waredon, حيث كان لبعض الوقت راعياً للدير، وفي ثمانيـة عيد القديس مـارتن أبحر أسقف لنكولن مـن أجل عقد محادثات سرية دقيقة مع البابا، من أجل تقرير مسألة العلاقة الضرورية بينه وبين رهبانه، ومالبث بعد ذلك أن قـام عميد تلك الكنيسة، وبرفقته بعض الرهبان، بالابحار، في سبيل الدفاع عن قضيته ضد الأسقف.

تكريس روجر إلى كرسي باث

في الحادي عشر من أيلول، في هذا العـام، جرى تكريس المعلم روجـر، رئيس جوقة المغنين في كنيسة سالسبري، والذي كان رجلاً صاحب أخلاق أدبية، ومتمتعاً بمعرفـة كبيرة في مواضيع اللاهوت، جرى تكريسه في ردنغ لكرسي باث، وعندمـا كان هذا الكرسي شـاغراً، اعتمد على مـوارده المعلم مـارتن، فبـاعتماده على سلطات قـداسـة البابـا، ألقى هذا باسم البـابا يديه الجشعتين، من أجل منحهم لواحد من أقرباء البابا المذكور.

وصول ملك فرنسا إلى الهيئة الكهنوتية للسسترشيان

ومع اقتراب عيد القديس ميكائيل، اجتمع رعاة طائفة ديرة السسترشيان، من مختلف البلدان والمناطق، لعقد اجتماع الهيئة الكهنوتية العامة لديهم، حسب عادتهم، وذهب الملك الفرنسي بشكل تقوي إلى هناك، ليسأل مساعدة صلوات جميع الرهبان، الذين اجتمعوا هناك، وكان برفقته النبيلة السيدة بلانشي أمه، التي كانت قد حصلت من البابا على امتياز السماح لها بالدخول إلى البيوت الدينية لطائفة الرهبان السسترشيان، وكان برفقتها اثنتي عشرة امرأة، لتقدم صلواتها، وكان هناك أيضاً مع الملك المذكور، وأمه، ومن أجل الغاية نفسها، أخوي الملك، كونتي أرتو وبواتو، ودوق بيرغندي، وذلك بالاضافة إلى ستة كونتات فرنسيين آخرين، ولدى وصولهم إلى شيستر، ترجلوا عن خيولهم، احتراماً للكنيسة، وساروا بشكل منتظم، وكانوا يصلون بتقى، وذلك من تلك البقعة إلى الكنيسة، وهي مسافة تعادل رمية قوس زيار، ولدى وصولهم إلى الكنيسة، خرج جميع رعاة الديرة، مع أعضاء ديرتهم، الذين بلغ تعدادهم حوالي الخمسمائة، وجاءوا بمسيرة لاستقبالهم، صدوراً عن الاحترام للملك الفرنسي، لأنها كانت المرة الأولى والوحيدة التي قدم فيها إلى ديرهم، وكان البابا على معرفة مسبقة بقدومه، فأرسل رسالة إلى الهيئة الرهبانية، التمس فيها بكل حرارة من الرعاة ومن الرهبان، أنه عندما سيكون الملك بينهم، لطلب صلواتهم، أن يتقدموا بالرجاء له، وهم جاثين على ركبهم مع أيد متشابكة، حتى يقدم مساعدته القوية وحمايته، حسب القاعدة الفرنسية القديمة، إلى أبيه، أي الراعي الأعظم، والحاكم الرئيسي للكنيسة، يعني الحبر الأعظم، ضد الإهانات التي كان يسعى لتجنبها، والمقدمة له من الامبراطور فردريك، الذي سماه برسالته بابن الشيطان، وإذا ما تطلبت الحاجة، أن يفتح صدر رعايته، وأن يستقبله بلطف في مملكته، مثلما كان قد فعل من قبل إلى البابا الاسكندر، صاحب الذكرى الطيبة، عندما كان في المنفى، هارباً من اضطهاد الامبراطور فردريك المذكور، ومثلما فعل، كما هو

معروف، أيضاً إلى توماس المبارك، رئيس أساقفة كانتربري، الذي هو الآن شهيد مجيد، حين قدم له المواساة، ومكانا للالتجاء، عندما نجا من غضب هنري، ملك انكلترا.

وعندما، بناء عليه، وصل الملك المذكور، تتقدمه أمه، وأخذ مقعده في قاعة هيئة الرهبان، في وسط النبلاء والرعاة، قام الرعاة مع رهبان الديرة، وهم جاثين على ركبهم مع أيد متشابكة، ودموع متدفقة، فتقدموا بتواضع بالطلب المذكور أعلاه إليه، ثم إن الملك، لدى رؤيته لهم على هذه الحالة، ولدى سماعه بطلبهم، جثا هو على ركبته نحوهم، ومنحهم المعروف المطلوب، وأعلن أنه بقدر مايسمح الشرف، سوف يصد عن الكنيسة الإيذاء المقدم إليها من الامبراطور فردريك، وإذا ما كان رأي نبلائه موافقاً، الأمر الذي لايمكن لملك فرنسا أن يرفضه، هو على استعداد لاستقبال البابا شخصياً، إذا ما أرغم على نفي نفسه.

وعند ذلك رد الرعاة بالشكر على معروفه هذا، ومنحوا الملك حصة خاصة في جهود أعمالهم الصالحة، هذا وكان للامبراطور أيضاً رسلاً خاصين هناك للحيلولة دون حصول مطالب البابا على أية نتيجة جيدة.

تكريس فولك باسيت أسقفاً للندن

وفي يوم عيد القديس دايونيسيوس Dionysius جرى تكريس فولك باسيت Bassett، عمدة يورك، أسقفاً للندن، وكان مشهور الأصل، ومشهوراً أيضاً بنقاوة أخلاقه، وتم التكريس في كنيسة الثالوث المقدس، في تلك المدينة.

ذهاب أوتو وبعض الكرادلة الآخرين بشكل سري إلى البابا في جنوى

وفي حوالي الوقت نفسه، تلقى أوتو أسقف بورتو، وبعض الكرادلة

الآخـريـن، على الرغم الشـديد مـن حـراس الامبراطور فـردريك، ومع التسبيب لهم باضطراب عظيم، وهم الحراس الذين مـركـزهم الامبراطور لحراسة الطرقات، تلقوا أماناً من الميلانيين، ومن دول أخرى كانت مساندة للبـابا، ومن مـركيـز مـونتسرّات Montserrat وشخصيـات تسـانـد الكنيسة، وذهبوا دون أن يصابوا بالأذى، أو التعرض للخسائر إلى البابا في جنوى، وذلك على الـرغم من الحرس الذين وضعهـم الامبراطور لمراقبـة الطرقات، ولدى وصولهم فرح البـابا كثيراً وابتهج، وشعر بآمال بالتحسن في أوضـاعه التي كـانت مضطربة آنذاك، ومنذ ذلك الحين تدفق عليـه، من جميع منطقة جنوى، أعـداد كبيرة من أقربائه، وآله، وأصدقـائه، وكل الذين كانت لهم أية عـلاقة به، ومع أنه كان بالمنفى، فقد تطلب الأمـر، إما بسبب القـرابة أو الصداقـة منحهم موارد، لإستخـدامات أولادهم وأحفـادهم، وبشكل خاص أن تكون هذه الموارد، من مملكة انكلترا.

وصول حملة الصليب إلى إنكلترا

في يوم الاثنين، قبل عيـد جميع القـديسين، وصل إلى مجمع الأسـاقفـة لروكستر، بعض الأشخـاص، مظهرين نـوعاً جـديداً من الرهبـانية، وقـد عـرفـوا باسم رهبـان حملة الصليب، من حملهم صلبـاناً على عصي، وطلب هؤلاء الرجـال من النبلاء مكاناً للإقـامـة، مظهرين امتيـازاً لم يسمع به من قبل، منح إليهم من البابا، من أنه لايجوز أن يسمح لأحد بنقد طائفتهم، أو إهانتها، أو توجيه الأوامر إليهم، وقـد منحوا سلطة التفوه بأحكام الحرمان الكنسي ضـد الأشخاص الذين يفعلون مثل هذا الشيء، وعجب الرجـال الحكماء والمستقيمون كثيراً، وأصيبوا بالدهشة من ظهور مثل هذه الطوائف الجديدة يومياً، وتكاثرها ونمـوها من دون نهاية، وبناء عليه حدث أن كثيراً من الرجـال المتعلمين، قد تخلوا عن نظـام بندكت الأعظم مباركـة، والذي تمثلت فيه روح جميع القـديسين، وعن نظام أوغسطين النبيل، وعملوا ضد مبادىء ومقـررات المجمع العام الذي عقـد في أيام البابا إنوسنـت الثالث،

صاحب الذكرى المجيدة، وهربوا فجأة إلى هذه الطوائف التي لم يسمع بها من قبل، والمخترعة حديثاً، ففي ذلك المجمع كان قد تأكد بشكل ثابت، وتقرر أنه بعد القبول، ومنح الشرعية لكل من الدومينيكان والفرنسيسكان، وجوب عدم قبول أية طوائف جديدة من ذلك الوقت فصاعداً، أو إذا جرى قبولها، عدم منحها الشرعية، حتى لاتتضرر الطوائف المقبولة والشرعية، وتصبح أقل تقديراً، ويتم التخلي عنها، وعلى هذا المرسوم أعطى جميع الكرادلة، وكل جماعة المؤتمر موافقتهم.

كيف حمل البابا نفسه إلى مدينة أستي

وفي حوالي الوقت نفسه، ذهب البابا إلى مدينة أستي Asti, بناء على مبادرة أقربائه في جنوى، الذين كانوا عطاشى يسعون متشوقين وراء المال، والذين أقنعوه بالذهاب على الفور، واستقبال الانكليز والفرنسيين، وجيرانهم، الذين كانوا جالبين الهدايا إليه، وأن لايغلق يده ويرفض الهدية المقدمة إليه من قبل أي انسان، وأن يدعو أيضاً في الوقت نفسه إلى مجمع عام، لإعلان قرار ضد الامبراطور فردريك، الذي كرهوه، ولكي يشبعوا رغباتهم بالانتقام، وكذلك في سبيل نيل الثروة، وبناء عليه انطلق البابا، يحيط به حشد من الجنويين المسلحين، وركب الطريق بشكل مفاجىء وسري إلى المناطق الأكثر قرباً من الأراضي الفرنسية، وحيث قامت الآن مدينتا أستي، وأليساندريا Alessandria,وعدة مدن أخرى. فانسحبوا من كل ولاء وطاعة إلى الامبراطور فردريك، وتحولوا إلى البابا، وبذلك نفذوا قول الشاعر:

يتقلب العامة دوماً مع أميرهم

البابا يسير إلى ليون

وبعد إقامة قصيرة في أستي، قام البابا الذي شعر بالاستراحة وجدّد نشاط نفسه، فغرر بحرس الامبراطور الذين كانوا متمركزين باتجاهات

مختلفـة، لإعـاقـة رحلتـه، ومع بـداية نهاية الصيف، حمل نفسـه إلى ليـون، ليمضي هناك الشتـاء، حيث ارتحل مسرعـاً، مع محطات مفـاجئة في كل من الليل والنهار، لكن ليس من دون مخاطرة كبيرة.

رفض منح ملك إنكلترا مساعدات مالية

في اليوم التـالي لعيد جميع الأرواح، اجتمع نبـلاء انكلترا، ووقتها طالب الملك بإلحاح شديد، إن لم نقل من دون حياء، مجدداً بالمسـاعدة المالية منهم، ولكن بما أن الضرر قد لحق بهم مراراً وخدعوا قاموا بالاجماع، وأعلنوا بفم واحد، رفض طلبـه في وجهه، وكـان الملك مصمماً آنذاك على إرسال جيش كبير العدد ضد الويلزيين، وبالإضافـة إلى ذلك كان مداناً ديناً كبيراً إلى تجّار القـارة، وإلى تجّار الخمـور وسـواهم، من أجل الجعـة وحـاجيـات أخـرى للحيـاة، حتـى أنه كـان نادراً مـايري نفسـه بين الناس، بسبـب الطلبـات الصاخبة للأشخاص الذين كانوا يطالبون بما هو حق لهم، ومن ذلك الحين بات واضحاً أنه هوجم بشكل مهين ووقع في المصائـد المخادعة للأجانب: الذين كانوا ينشدون فقط مرابحهم.

كيف جرى استخراج المال من سكان لندن

وبناء عليـه بات الملك يسعى لاهثـاً وراء المال، ولذلك قـام من دون استشارة جماعـة المملكة بشكل عام، أو على الأقل من دون مشورة نبـلائه، من دون حيـاء، فاستخـرج بالقـوة ألفـاً وخمسمائة مـاركـاً من سكان لندن، مقدمـاً تعليلاً منطقياً، أو جعلهم يفهمون ذلك من قبله ومن قبل وكـلائه، ذلك أن فـريق الملك قـد أكـد، بأن اللندنيين قـد استقبلوا منذ عشرين سنة خلت واحـداً من أبناء مدينتهـم واسمه وولتر دي بوكـريل Buckerell, الذي نفي بشكـل عـادل من المدينة، ومكث وقتـاً طويـلاً في المنفى، لكن سكان لندن نقضـوا هذا، وأعلنوا بأنه قـد عمل من الرعيـة بشكل شرعي، بوسـاطة الالتماسات، والهدايا التي قـدمت من قبل أخيـه أندرو إلى الملك،

وبناء عليـه عفي عنه بموافقـة الملك وأمـره، وصار بذلك واحـداً من أهل المدينة، ويشهد على ذلك ملفات الملك، وعلى هذا رد المعترضون على الفور بتفاهـة باسم الملك، بأن الملك كان في ذلك الوقت صغيراً، وضعيفـاً، ومن السهل قيادته والتغرير به، ولذلك فإن الذي وافق عليه بات فارغاً ولاقيمة قانونية له، ولاشك أن هذا جاء لصـالح إهانة الأوصياء عليه، لأن القرار لم يكن مـؤيداً بـالمنطق، بل بالإرادة فقـط، والذي حـدث أخيراً أن السكان أرغموا على دفع المبلغ المالي المذكور، ليرمى به للأجانب.

حول النصر الذي ناله نيقولا دي مولي قهرمان غسكوني

وحـوالي هذا الـوقت من العـام، حـدث أن نيقـولادي مـولي Molis, قهرمـان غسكوني، الذي كان الملك قـد تركه في تلك البلاد، وعيّـنه حاكماً على تلك المقـاطعة، والذي كـان مشغولاً بحرب ضـارية ضد ملك نـافار، حدث أن واتاه الحظ في إحدى المعارك، ونال نصراً عليه.

موت مرغريت أخت ملك سكوتلندا

وفي يوم عيـد القـديس هوغ، مـاتت مـرغـريت أخت ملك سكوتلندا، وأرملة غيلبرت ايرل مـارشال في لندن، ودفنت بطقـوس موائمـة واحترام بين رهبان الدومينيكان.

موت وليم أسقف وينكستر

وبعد ذلك بوقت قصير، دفـع دين الطبيعة وليم دي برويير Bruyere, أسقف وينكستر، وكـان رجـلاً مـايزال في أول حيـاته، ومن أسرة جيـدة، ومتميزاً بأخلاقه وعلومه.

كيف استرد ملك فرنسا صحته بطريقة رائعة وحمل شارة الصليب

في هذا العام، ومع ميـلاد مولانا، وقع الملك لويس، ملك فـرنسا،الذي

كان مـايزال يعاني من بقـايا المرض الذي أصيب به، عندما كـان منشغلاً في بواتو، وقع في حـالة سبات تشبـه الموت، وتمدد لعـدة أيام وكأنه كان ميتـاً، ووفقـاً لما ذكره عـدد من الذين جلسوا من حـوله، كان قـد حرم تمامـاً من التنفس، وأعتقـدت أمه مع أخيـه وبعض الآخرين من أصـدقائـه المقربين، الذين وقفوا هناك، بأن الملك صار متيبساً بسبب الموت، وتفوهت أمه التي كانت متـأثرة بالحزن أكثر من الآخـرين، تفوهت والآهات تقطع كـلامها، بالكلمات التالية:

«ليس لنا يارب، يارب ليس لنا، بل أعط لإسمك المجد، واحفظ في هذا اليـوم مملكة فـرنسـا، كما فعلت دومـاً حتى الآن بشكل مشرف»، ثم إنها وضعت على جسد ولدها الصليب المقـدس، وتاج المسيح، والرمح، وهي الأشياء التي جرى تملكها في أيامه، وعملت تعهداً باسمه، أنه إذا ما تلطف المسيح بزيارته، وقام بحفظه، ورده إلى الصحة سوف يحمل —أي الملك— الصليب، وسوف يزور ضريحه المقدس، الذي كان قد كرّسه بدمه، وبعدما قامت أمـه، وجميع الآخرين الذين كـانوا حضوراً، بمتابعـة الصلاة لبعض الوقت من أجله، بكل اخـلاص للقلب، قام الملك، الذي اعتقـدوا أنه كان ميتـاً بالتنهد فجأة، ومـدّ ذراعيه وسـاقيـه، مع صوت عميق، كأنه صـوت واحد قد قام من القبر، وقال:

«لقد قام الذي نبع من عليين —بنعمـة الرب— بزيارتي، واستعادني من الموت»، ومـا لبث بعـد ذلك أن استرد صحتـه، وحمل بشكل مهيب شـارة الصليب على كتفيـه، مقـدمـاً نفسـه، بشكل تطوعي قـربان محرقـة للرب، وعمل نذراً، أنه إذا مـا سمح له مجلس المملكة، الذي كـان قد تولى شـؤون الحكومة، وسمح له، سوف يزور بشخصه الأرض المقدسة.

مساعي داود أمير شمالي ويلز لتحرير نفسه من النير الإنكليزي

وفي هذه الآونة، أرسل داود أمير شمالي ويلـز، وابن أخت ملك انكلترا،

وكان خائفاً كثيراً من غضب الملك المذكور، الذي أثير ضده بشكل عادل، أرسل رسلاً خاصين إلى البابا، مخبراً إياه بوساطتهم، بأنه قد عهد بنفسه وبجميع أراضيه إلى كنيسة روما، لكي يحمى من قبلها ضد إدعاء ملك انكلترا، وليعد نفسه، أي داود وورثته، اقطاعياً مستأجراً منها مقابل خمسمائة مارك سنوياً، وبعدما ترافع بطلب العدالة، حصل على رسائل حول هذه القضية، لكن ليس من دون انفاق كبير للمال، و كانت صيغة ما حصل عليه كما يلي:

الكتابات التي حصل عليها الأمير المذكور ضد ملك إنكلترا

«إلى هنري اللامع، الذي هو بنعمة الرب ملك انكلترا، وإلى راعيي ديري أبركونوي Aberconway وكمير Kemere من طائفة السسترشيان، المفتشان المعينان من قبل قداسة البابا، صحة في الرب: لقد تسلمنا وصاية من البابا، فيما يلي نصها»:

«من أنوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى ولديه المحبوبين كثيراً، راعيي ديري أبيركونوي وكمير من طائفة السسترشيان، المقيمين في أسقفية بانغور Bangor, صحة ومباركات رسولية:

'لقد عرض علينا، باسم النبيل داود، أمير شمالي ويلز ولصالحه، أنه بما أن الحروب، قد دامت قائمة بينه —أي داود المذكور— الذي كان والداه قد قدماه ولد رعاية إلى كنيسة روما، وبين ولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، الملك المشهور لانكلترا، وأن ذلك قد استمر حتى بعد الوصول إلى تسوية، بوساطة رجال صالحين، حيث عملت من قبل أخينا المبجل أسقف القديس أساف مع رفاقه، من أن كلا الفريقين سوف يلتزم بقرارهم في جميع قضايا الشكايات، لابل إن يميناً جرت تأديته من قبل الفريقين لهذا الغرض، لكن الملك المذكور لم يقم تقديراً لذلك، وقد خرق قرارهم، حيث لم يكن قانونياً بالنسبة له فعل أي شيء في القضية، وقام بشكل غير متوقع

فعمل حرباً ضـد الأمير المتقدم الذكـر، وبوساطة القوة وبوساطة الرعب، الذي يستولي في بعض الأحيان، على أشجع الرجال، تمّ إرغامه على التخلي عما كان قد أقسم عليه، ومثل فعل الملك مع آخرين من رعيته بشأن القضايا المذكورة أعلاه، التي من أجلها عملت التسوية، وبناء عليه، بما أن الأشياء التي عملت من خلال الخوف، أو بوسـاطة القوة، ينبغي أن تعد فـارغة من التأثير، إننا بوسـاطة هذه الوثائق الرسوليـة، نأمركما، بنـاء على إخلاصكما، أن تقـومـا بـالتقصي في هذه القضيـة بكل يقظة، بحثـاً عن الحق في هذه المشكلة، وإذا ما وجدتما القضية، حسبما تقدم الـذكر أعلاه، حررا بموجب سلطاتنا الأمير المتقدم ذكره، من أية مراعاة أو تقيد باليمين، الذي استخرج هكذا منه، وكذلك قـوما من دون أية صعـوبات بتحليله، لأن ذلك عدل، بموجب صيغ الكنيسـة، أي تحليله من أي حكم صدف وصـدر ضده، من قبل أي واحد، فيما يتعلق بهذه المسألة، سواء ضـد شخصه أو ضد أراضيه. شهد، إلخ، صدر في جنوى في اليـوم السادس والعشرين من تموز، في السنة الثانية من بابويتنا». «وإننا بناء على قوة هذه السلطة، نأمركم بالظهور أمامنا في كيروس Keyrus في كنيسة غستفند Gustefend, في عشية عيد القـديسة العـذراء أغنس Agnes,للإجـابة هناك عن الأمير المذكـــور، حول القضايا الواردة في الوثيقة المذكورة، حسبما ترياه مناسباً».

وعندما وصلت هذه الوثيقة إلى علم الملك وعلم نبلائه، وبعدما طارت بعـد ذلك على أجنحـة الشهرة إلى بقيـة المقـدمين، غضبوا غضبـاً شـديداً، وأقنعـوا الملك بعـدم الإنصيـاع إلى أية أوامـــر من هذا النوع، وحثـوه على الحرب، ومهاجمة داود المذكور من دون أي تأخير، وعندما سمع البابا بهذا، تغاضى عما حـدث، وأخفاه كلياً، لكنه على كل حـال لم يُعد إلى داود الهدايا التي كان قد تسلمها منه.

حول رعد سمع في الشتاء

في شهـر تشرين الثاني من هذا العـام، والحوادث الحزينة تقوم بالعبـور،

جرى سماع رعـود بشكل واضح، ورؤية بروق، استمـرت لمدة خمسة عشر يوماً متوالية، وتبع ذلك حالة من الأنواء مزعجة.

حول التفتيش الذي جرى بشأن احتلال الغابة الملكية

وفي هذه الآونة، نصح روبرت باسلو Passlow, وكان كـاهناً لدى الملك، بأن يتبنى سلوكاً قـاسياً، يكون في الوقت نفسه مفيـداً له، وكان هذا بأن يقـوم بتفتيش دقيق حـول احتـلال الغـابات الملكيـة، أو الأراضي التي ليست بغـابات، التي هي بين النـاس القـاطنين على مقـربة منهـا، في سبيل تحميل الذين أقدموا على مثل هذه الاحتلالات، عقوبات قاسية، وقام هو، بناء على أمر الملك، بجمـع كل رفاقه من أجل هذه الغـاية، وهم: لورانس، الكاهن في كنيسة القديس ألبان، وغيوفري دي لانغلي Langley, وكان فارسـاً، وذهب روبرت المذكور إلى دوائر مختلف الكونتيـات، وفرض على كثيرين، بوساطة حجج مضاعفة، وقام في سبيل إغناء الملك، بإفقار الجميع بشكل لايمكن الخلاص منـه، وكـان الذيـن أفقـرهـم: رهبـان، ورجـال علمانيين، ونبلاء، وعاديين، وجـاء افقارهم إلى درجة أن كثيرين منهم باتوا من دون بيـوت، ومتجولين، وقد أرغمـوا على التسول، وألقى بآخـرين في السجن، أو جـردهم من ممتلكاتهم كلهـا، فعاشـوا حـالة مـزرية طويلة من الحاجـة والشقاء، وكـان من بين هؤلاء: جـون دي نيفيل Nevill, الذي كان مسـؤولاً أعلى عن الغابات، وكـان أبوه هوغ قد شغل الوظيفـة نفسها قبله، والذي لم يكن الأقل بين نبلاء انكلترا، وقـد جرم وأهين بشكل عميق إلى حـد أنه ألقي به في السجن، وكـان مـن المتـوقع حـرمـانه من ميراثه، أو إرغامـه على دفع فدية مـذلة، أو المعاناة من عقوبة أخـرى قاسيـة، ما لم تقم الرحمة الملكيـة بالتخفيـف من قسـوة العقـوبة، بناء على وسـاطة قـوية، أو وسـاطة بعض النبـلاء الآخـرين، وهـوعلى كل حـال لم يستحق الرحمة من أناس رحماء، لأنه عندمـا كـان مزدهراً، لم يعـرف كيف يرحم الذين كـانوا خاضعين له، في مثل هذه المصيبة.

انتخاب روبرت باسلو إلى كرسي شيستر وهو الانتخاب الذي ألغي بعد ذلك على الفور

وبإضافة هذا المذكور روبرت باسلو، بضعة آلاف من الماركات إلى الخزينة الملكية، حصل على حظوة الملك إلى درجة مدهشة، ولدى رؤية كهنة شيستر هذا، اعتقدوا أنه شخص مناسب، ومفيد كثيراً، ليتولى حكم كنيستهم، بحكم كونه عاقلاً، ورجلاً بارعاً، وقد أملوا بذلك إرضاء الرب وإرضاء الملك والحصول بالوقت نفسه على حظوة الملك وحمايته، وتقدم كنيستهم بذلك، ولذلك انتخبوا روبرت باسلو المذكور أسقفاً لهم، لكن غضب من ذلك غضباً شديداً الرئيس المنتخب لأساقفة كانتربري مع عدد كبير من الأساقفة، وجاء ذلك عندما عرفوا به، واكتشفوا ذلك، وألقى جانباً كل خوف من الملك ومن تعاطفه، وتولى فحص روبرت المذكور، ببعض الأسئلة الصعبة جداً، وجاء ذلك من خلال أسقف لنكولن، ورفض أخيراً انتخاب الأسقف، وألغى انتخابه على الفور، ومن دون أن يطلب موافقة الملك، وعيّن المعلم رتشارد دي ويتز Witz, واشتعل غضب الملك لهذا، وكان ذلك ضد الأسقف المنتخب، وضد الأساقفة الآخرين، وأعطيت موارد المعلم رتشارد المذكور، حتى بعد انتخابه، إلى أشخاص موائمين ويستحقون، لأن المعلم مارتن، كاهن البابا، والذي كان حاضراً وجاهزاً، وكان قد عيّن من قبل البابا لهذه الغاية، غاية السعي بلهفة وراء الموارد الشاغرة، وعندما سمع الملك بهذه الإجراءات، غضب غضباً شديداً، ومنع الأسقف المنتخب حديثاً، والذي جرى اختياره من دون أخذ رأيه، مما سبب إساءة كبيرة له شخصياً وللمملكة، منعه ولم يسمح له بالقبول في أية بارونية تابعة لكنيسته، أو إلى أية ملكية علمانية، وهذا قد جرى ذكره من قبل.

منح الملك لبعض الهدايا الثمينة في كنيسة القديس ألبان

في يوم عيد القديس توما الرسول، ذهب الملك إلى كنيسة القديس ألبان، ليقيم هناك، وعندما ذهب صاعداً —حسبما جرت العادة— إلى المذبح الكبير، ليقدم هناك صلواته، قدم رداء ثميناً، وثلاثة أطواق ذهبية، ليجري تعليقها في المعبد، بمثابة ذكرى له، وتشريفاً للشهيد، مع أنه كان قد قدم سبعة من قبل.

وأقام الملك لمدة ثلاثة أيام في ذلك المكان، وعندما كان هناك، وصله تقرير بأن كونتسة فلاندرز، قد دفعت دين الطبيعة، وبناء على هذه الأخبار، أمر —حسبما جرت العادة مع الملوك المسيحيين— بتقديم صدقات كبيرة إلى الفقراء، لصالح روحها، وبإقامة جناز مهيب، يعمل بشكل تقي في سدة جوقة القديس ألبان.

عرض مختصر لأحداث هذا العام

وهكذا انتهى هذا العام، الذي كان خلاله كله وافراً بانتاج الفواكه والقمح، وكان ذلك بالفعل كثيراً جداً، إلى حد أن سعر مقياس القمح نزل إلى شلنين، وكانت حوادثه ضارية جداً بالنسبة إلى الأرض المقدسة، وقد تميز بالاضطراب في انكلترا، وكان مشحوناً بالرعب بالنسبة للمملكة الفرنسية، وقد أثار الشكوك في الكنيسة، والشغب بين الايطاليين.

احتفال الملك بعيد الميلاد في لندن ومنحه شرف الفروسية لجون دي غيتدن

سنة ١٢٤٥، التي هي السنة التاسعة والعشرين لحكم الملك هنري الثالث، فيها أمضى عيد الميلاد في لندن، واحتفل بمهابة بذلك العيد، برفقة كثير من نبلائه، وفي ذلك المكان، منح في يوم الميلاد شرف الفروسية لجون دي غيتدن Gatesden, الذي كان كاهناً قد تمتع بكثير من المنافع

الغنية، لكنه قام الآن، كما ينبغي، بالتخلي عنها كلها، وكان جون هذا رجلاً حكيماً، ومواظباً، قد قام بوساطة صناعته بإغناء نفسه بكثير من الممتلكات العلمانية، ولدى زواجه من ابنة سيدة نبيلة، اسمها روشيا Roisia دي بروس، تخلى عن المعالجة الخطيرة للأرواح، وتقدم ليصل إلى مكانة أعلى النبالة، ونتيجة لذلك، فإن كثيراً من الذين كانوا نبلاء من حيث المولد، مع أنهم كانوا وضعاء من حيث العقل، أصبحوا حاسدين له، وأقاموا المصائد لإيذائه، لكن جون المذكور، الذي كان حكيماً نجا من محاولاتهم، لكن ذلك لم يكن من دون مصاعب.

كيف قام رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري مع أسقفي ووركستر وهيرفورد بالعبور إلى القارة

بينما كانت هذه الحوادث في سياق الوقوع، قام بونيفيس رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري مع أسقفي هيرفورد ووووركستر، الذين كانوا من بين جميع أساقفة انكلترا الأصدقاء المقربين جداً من البابا، وكانوا المشكوكين بهم الأكثر من قبل الانكليز، قاموا فجأة بالإبحار للذهاب إلى البابا، في سبيل القيام ببعض الأعمال السرية (التي لم تكن معروفة لدى الجماعة بشكل عام)، وكانت جميع القضايا قد جرى توزيعها في دير كانتربري، أو كل ماتعلق بالتجمع الديري، وحسبما هو معتاد في بلاطه، كانت الوظائف مع الموظفين تحت تصرفه، أكثر من أي واحد من سلفه قد سمح له أن يفعل، وكان بونيفيس، بعدما قام أيضاً بفحص دقيق، قد أعلن بأن كنيسة كانتربري، كانت مكبلة بديون لايمكن جبرها، وذلك لصالح رئاسة الأسقفية، وقد بلغت الديون إلى مبلغ خمسة عشر ألف مارك، وبناء عليه عندما كان على وشك المغادرة والاقلاع من دوفر، أمر بجميع الأشجار الحراجية العائدة إلى رئاسة الأساقفة، بأن تقطع وتباع، وأن تجري جباية ثقيلة وفرض ضرائب أيضاً بين رجال الدين، وكذلك بين الناس، وقال بعض الناس، بأن هذه الجبايات قد عملت بقصد القيام بحرب ضد واحد

من فرسان بروفانس، الذي كان عندما سمع بمحتويات وصية ريموند، كونت بروفانس، أبدع خطة للتآمر، يخطف بموجبها الابنة الصغرى للكونت، لأن الكونت عندما وجد نفسه على حافة الموت، وعلى وشك توزيع ممتلكاته، وعمل وصيته، دعا إليه ابنته الصغرى، وخاطبها بهذه الكلمات:

«ابنتي العزيزة، المحبوبة لدي أكثر من جميع أخواتك، أنا مدرك أنه بقدر من الرب، تمتعت بناتي كلهن، باستثنائك وحدك، بزواج مغبوط إلى أعلى الدرجات، وكان ذلك موضع اعجاب جميع المسيحيين، وإليك بناء عليه سوف أعطيك وأهبك عند زواجك —بإرادتي ووصيتي— جميع أراضي، مع أموالي، وقلاعي، وجميع ممتلكاتي الأخرى، لأن أخواتك لسن بحاجة إلى تقسيم الميراث، في سبيل إعطاء حصة لكل واحدة منهن»، ونتيجة لذلك، وكما ذكرنا من قبل، فإن أحد الفرسان الذي كان صاحب ملكية صغيرة، لكن كان جريئاً وشجاعاً في الحرب، انجذب بجمال السيدة، وكذلك بالميراث الغني العائد إليها، فقام باختطافها بشكل سري، ووضعها في مكان آمن، في قلعة قريبة، كانت عائدة إليه، عاداً ما عمله ذنباً مغفوراً تماماً، تبعاً لقول الشاعر:

المرأة جائزة مفرحة

وغضب جميع أقرباء الكونت وأصدقاؤه من هذا العمل المتهور لهذا الفارس، وشنوا الحرب ضده، وكان الفارس —على كل حال— واثقاً من كونه كان متملكاً للجائزة، ومعتمداً على حقه، زاد يومياً من تعداد أصدقائه، ودافع عن نفسه بشجاعة، وعن هذا، صدر لذلك، في تلك المناطق صراع كبير، وكانت هناك اضطرابات مؤذية بين الفئتين، بسبب هذه السيدة، ثم إن الملك الفرنسي، بحكم وجود الابنة الكبرى، التي كان متزوجاً منها، ادعى بجرأة وطالب بالحق العائد إليه بشكل خاص، وبهذا ازداد الصراع عنفاً يومياً، لأن البروفانسيين كانوا يشعرون بكراهية عظيمة

ضد الفـرنسيين، وأعار بونيفيس، الرئيـس المنتخب لأساقفة كـانتربري مع أخيه فيليب بال Bal اهتمامهما لهذه الحرب، لأنهما كـانا خالا الفتـــاة، مما سبب نفقـات كبيرة وأذى عظيماً للكنيســة الانكليـزية، ففي سبيـل تقـوية الحرب، اخترعـا كثيراً من الأعـذار من أجل جمع المال، وكدسـا معـاً الكنز فـوق الكنز، ووزعـا هذه الأمـوال بين الفرسـان المدفـوع إليهم مع رجـال آخـرين من أقـربائهما، وأكـدا —في سبيل إعطاء لون مـا لشرورهما— أنهما بحاجة كبيرة لهذا المال في سبيل تحرير كنيسة كانتربري، التي قالا: (كثيراً في سبيل إيذاء أسلافهما، الذين كانوا على رأس تلك الكنيسة، وحكموها دوماً من دون ملامة) بأن رؤساء الأساقفة المتقدمين، قد أثقلا الكنيسة بأعباء من الديون قد يكون من غير الممكن الوفاء بها وسدادها، وحصل بونيفيس من البابا على امتيـاز غير اعتيادي، لم نسمع قط، ولانذكر بـأنه قد منح مثله من قبل إلى أي إنسـان، وحصل أخـوه فيليب أيضـاً —الذي كـرس نفسـه إلى السلاح في هذه القضيـة— على امتياز من البـلاط الروماني، مقـابل نفقات عـاليـة، حيـث أعطي إذناً بالاحتفـاظ بالموارد، التي قـد حصل عليهـا في انكلترا، وكـذلك انتـاج أسقفيـة بلنسيـة، وكـذلك بعض الموارد الأخـرى الكبيرة، التي كانت مستفيدة آنذاك، وحول هذا سوف تحكي الرواية التالية التفاصيل وتوضحها.

ولادة ملكة إنكلترا لصبي

في يوم عيد القـديس مرسيلوس Marcellus, ولدت الملكة إليانور صبياً، منح —بناء على أمر الملك— اسم إدموند.

موت كونتسة أكسفورد

في يوم عيـد طهارة القـديسـة مريم، غـادرت كـونتسة أكسفـورد، التي عرفت رسمياً باسم ايزابيلا دي بيلبك Belbec, هذه الحياة، وقد دفنت في كنيسة الرهبان الدومينيكان، في اكسفورد، التي كانت هي المؤسسة لها.

موت بلدوين إيرل أوف ديفون

في اليوم التـالي لعيد القـديس فالنتـاين، مات بلدوين ايـرل أوف ديفون Devon، وكان في مطلع شبابه، وكان يعرف بشكل عام بـ «دي لى آيل» L'Isle وكان مـوته مناسبة للبكاء، حتى مـن قبل أعدائه، إن كـان له أياً منهم.

حرمان الإمبراطور كنسياً ثانية في فرنسا

ومع بداية الصـوم الكبير، أمر البابا بأن يحرم الامبراطـور كنسياً في جميع أرجاء فرنسا، وذلك بسبب بعض الأذى الجديد الذي اقترف من قبله، ضد أقربائه —أي البابا— وضد بعض اللاهوتيين، ولدى ارسال هذا الأمر من قبل واحد من موظفيه إلى واحد من الكهنة كان يعيش في باريس، شعر هذا الكاهن بحزن عظيم، لأنه غدا من نصيبه القيام بحرمان الامبراطور كنسياً، ونحن لانعرف لماذا كـان لديه تقديراً له، ولقد لعن البـلاط الروماني، الذي كانت له تجربتـه معه، وبناء عليـه قال في يوم العيـد، بشكل علني إلى أعيان الباريسيين الذين كانوا حضوراً بأعداد كبيرة:

«أصغوا إليّ أنتم جميعـاً، لقد تسلمت أوامر، بأن أقـوم والشمـوع مشتعلة والأجراس تقـرع، بإصدار قرار مهيب بالحرمـان الكنسي ضد الامبراطور فـردريك، وأنا جـاهـل بسبب هذا، لكنني لست جـاهلاً بالصراع الجاد، والكراهيـة التي لايمكن اخمادها، والتي نشأت بينه وبين البـابا، وأنا على دراية بأن أحـدهما اقترف أذى ضد الآخـر، لكن من الذي هو المذنب ضـد الآخـر، أنا لاأعـرفـه، وإنه بالنسبـة لسلطاتي، على كل حـال، التي تشمل الحرمـان الكنسي، فـإنني أعلن أنه محروم كنسيـاً الذي اقترف أذى بحق الآخـر، وليكن أي واحد من الاثنين، وإنني أحلل الذي عـانى من الأذى، الأمر الذي هو مضر بالنسبة لقضية المسيحية».

وقـد تفـوه بهذه الكلمات الخفيفـة، على شكل مـزاح، وفـق طرائق

الفرنسيين، وقد صارت على الفور في أفواه الكثيرين، وقد انتشرت بالطول وبالعرض، حتى وصلوا مؤخراً إلى علم الامبراطور، الذي قام بعدما قدر معانيهم ومراميهم، فأبدى سروره من الكاهن المذكور، وأرسل إليه بعض الهدايا اللطيفة، لكن البابا اتهمه بالاستخفاف، وبالكلام الطائش، وعاقبه.

الاستيلاء على ثلاثمائة ويلزي

وأثناء الصوم الكبير نفسه، جرى مقتل ثلاثمائة ويلزي، وأكثر في مونتغومري Montgomery, وجاء مقتلهم على أيدي الانكليز تحت قيادة قسطلان قلعة ذلك المكان، الذي وضع ببراعة كميناً خلفهم، ثم إنه أظهر مايشبه الذعر، فتراجع أمام الويلزيين، وعندها هاجمهم الانكليز الذين كانوا متخفين من الخلف، وجعلوهم جميعاً طعمة للسيف.

اعتقال مونثونت من قبل الويلزيين

ورغب في الأسبوع نفسه داود بأن يعوض خسائره، فناوش الانكليز وضايقهم بوساطة غارات ليلية مستمرة، وشغل نفسه من دون توقف بالقتل والنهب والاغتصاب، لكن عندما قدم بعض الفرسان الانكليز الشجعان من الحدود للتصدي للويلزيين مع الحدوديين الخاضعين لهم، وقام الويلزيون، حسب عادتهم بالفرار إلى الأماكن الوعرة، والتي لايمكن الوصول إليها في الجبال لنصب الكمائن لأعدائهم العابرين، قذفوا من رؤوس الجبال بالحجارة والأسلحة، حيث جرحوا عدداً كبيراً من الانكليز، كان من بينهم نبيل انكليزي اسمه هيربرت فتز— متى، الذي قهر بوساطة كتلة من الصخر، حطمت رقبته، وسحقته حتى الموت، وإلى هيربرت هذا نفسه، حدث له حادث مدهش، يستحق الرواية، وتدوينه كتابه، فبعدما كان قد تمّ الاتفاق، وتقرر من قبل الانكليز في اليوم المتقدم، بأنهم ينبغي الزحف في اليوم التالي على تعبئة ضد داود وعساكره الويلزية، انزعج هيربرت المذكور في منامه بوساطة حلم، أو بالحري بوساطة رؤيا،

حتى أنه أفاق وهو في حالة خوف عظيم وهو يرتجف، وبقي غير قادر على الاستراحة وعلى النوم طوال بقية الليلة، وأرسل في الصباح الباكر خلف كاهن، وعمل له اعترافاً كاملاً، وحصن نفسه بأخذه أيضاً قرباناً صحيحاً، وعندما سئل عن السبب لفعله هذا، خاطب رفاقه وهو يتنهد، وكأنه يتحدث بوساطة روح منذرة سلفاً، وحدثهم عن غرائب حلمه المرعب، وقال بالوقت نفسه:

«مراراً كثيرة انشغلتُ أنا كثيراً في استخدام السلاح، وعرضتُ نفسي لمخاطر الحرب، لكن اليوم أنا أعتقد باخلاص أن براعتي المتوالية باستخدام السلاح، سوف تصل إلى خاتمة نهائية»، ولدى سماع رفاقه بالسلاح لهذه الكلمات، والذين كانوا يقدمون تأويلاً صالحاً لكل شيء، أعلنوا أنه يتوجب وضع ثقة قليلة بالأحلام، وأخذوه بعيداً معهم، في سبيل أنه، وهو الذي غالباً ما هزم أعداءه، ينبغي عدم اتهامه بالخوف، ولكن في اليوم نفسه، عندما كانوا يعبرون خلال مكان ضيق، يدعى بشكل عام باسم الممر، حدثت المأساة التي تقدم ذكرها، وسقط مقهوراً بكتلة من الصخر، وحزن الانكليز كثيراً لوقوع هذا الحادث، وتوقف جميع الجنود، ودفنوا جسده، بمراسيم مهيبة، وحدثت وفاته في اليوم التالي لعيد طهارة القديسة مريم.

الموت المأساوي لهيربرت فتز— متى

وذكر أشخاص آخرون بأن هيربرت فتز— متى، سقط من على حصانه، وعندما كان ما يزال حياً، جاء ويلزي، وتصارع الرجلان مع بعضهما بعضاً، حول من سيكون الآسر للآخر، من أجل الحصول على الفدية، وأراد أحدهما أن يضع نهاية للصراع، فطعن هيربرت بطعنة مرت من الخلف خلال جسده قائلاً: «الآن يمكن أن يختار أن يأخذه»، وجرى العثور عليه في اليوم التالي، ويده موضوعة على جرحه، وكان عارياً، وأمكن فقط التعرف عليه بين الموتى من خلال خاتم زمرد، وتشجع

الويلزيون كثيراً بهذه الحادثة، وانشغلوا بجرأة أعظم مما هو معتاد في تدمير أعدائهم، وكثيراً ما حققوا النصر في غاراتهم، وحدث على كل حال، بوساطة حادثة غير متوقعة، أن جرى مقتل ثلاثمائة من الويلزيين في مونتغومري، نتيجة لكمين وضع في ساقتهم، لكن داود، وبعض مرافقيه نجوا، وألقى الحصار على قلعة مونتهوت، التي استولى عليها في وقت قصير، وكان ذلك بعدما قتل جميع الذين وجدهم هناك، أو جلبهم إلى جانبه، وقد تمتع بنصره حسبما رغب، لكن صاحب القلعة،وهو روجر دي مونتهوت، لم يعثروا عليه هناك، لأنه كان قد حمل نفسه إلى مكان آمن، وغدت الحرب منذ ذلك الحين حرباً هي الأكثر دموية، ولم تظهر أية فئة أي احترام للجنس، أو العمر، أو المرتبة، بل تورطوا مثل بعضهم في دمار عام.

عقد مؤتمر خياني من قبل بعض الكرادلة

وفي تلك الآونة، وبمبادرة من البابا، إنما بشكل سري، قام بعض الكرادلة، الذين أحبوا المال فقط، مع مايشبه صداقة كبيرة، فأرسلوا رسالة إلى الملك، كان محتواها ومقصدها هو مايلي:

«نحن نرجوك، بطريقة صديقة، بأن نوصي لك بخطة، سوف تكون مفيدة ومشرفة لك شخصياً، ومجيدة وذات منافع كبيرة للمملكة، وذلك بأن تقوم بوساطة رسل خاصين، أنت تتولى ارسالهم بطلب إلى البابا بأن يتطلف، ويشرف بحضوره مملكة انكلترا، التي كما هو معروف له فيها حق خاص، ونحن من جانبنا سوف نبذل كل ما لدينا من قدرة لدعم التماساتك. بجعله متعاطفاً مع طلبك، لأننا راغبين في زيادة فوائد مملكتك، لأنه سوف يكون تشريف عظيم جداً وتمييز لك، ولمجدك الأزلي، أن يظهر البابا، الذي هو أبو الآباء، شخصياً، في أيامك، في الأراضي الانكليزية وهي واقعة، ليس من المتذكر أنها وقعت في أي وقت مضى، ونحن نتذكر بأننا سمعناه يقول بأنه سوف يكون مسروراً، بأن يرى بهجة ويستمنستر، وثراء لندن»، وعندما علم الملك بهذا، بات مسروراً جداً، وكان على

استعداد للاستجابة لهذه الخطة الخيانية، لو لم يكن تلقى التشجيع لمعارضتها ولعدم الموافقة عليها، بوساطة نصيحة مستشارين عقلاء، الذين قالوا بأن طهارة انكلترا كانت كافية، وأنها تلوثت كثيراً بربا القرصان، وبالسرقات وبالسيمونية الممارسة من قبل الرومان والايطاليين، مع أنه شخصياً لم يبدد ممتلكات الكنيسة، ولم يسع لالتهام الأشياء الجيدة العائدة للمملكة، وهو في الوقت نفسه لم يسمح له بالدخول إلى مملكتي فرنسا وأرغون، وهو ما بعث يطلبه بوساطة رسل خاصين، لأن الاسم الشرير للبلاط البابوي، والرائحة النتنة له التي وصلت بدخانها الملوث القذر حتى السحب، تستحق الوصول إلى مثل هذه المحصلة.

البابا يدعو إلى عقد مجمع عام في ليون

وفي حوالي منتصف الصوم الكبير من العام نفسه، وصل رسل البابا إلى انكلترا، بقصد الدعوة إلى عقد مجمع عام، وكانوا يحملون الرسالة التالية من البابا:

«من انوسنت، الأسقف، وعبد عبيد الرب، إلى أولاده المحبوبين كثيراً رعاة الديرة ورؤساء الرهبان في جميع أرجاء انكلترا، صحة ومباركات رسولية:

إن فضيلة الرب وحكمته التي هي خاضعة لجلالتها —التي لايمكن وصفها— جميع الأشياء، وهي من بداية الدنيا قد ميزت كنيسته بالعظيم من أعماله الصالحة، وهذا الامتياز المنفرد من السلطة، قد جعلها هكذا متميزة، حيث من خلالها يمكن تحقيق العدالة، ومن الممكن إطفاء لهيب الحرب، وتحقيق الهدوء في جميع أرجاء العالم، وفي الوقت الذي جرى فيه تعييننا —مع أننا لانستحق— بوساطة الحكمة الربانية لنتولى الرئاسة على حكومة الكنيسة بشكل عام، ولذلك سوف ندفع كل الاحترام المستحق إلى عظمة ومجد ذلك المنصب، ومع ذلك صرنا قلقين في قلوبنا من أن شدة العاصفة التي اضطربت منها الكنيسة، واهتزت الديانة المسيحية إلى

أسسها، ولكي يمكن برضا السماء وعطفها تجنب ذلك بمساعدة ترتيباتنا، وبناء عليه قررنا دعوة ملوك الأرض، وأساقفة الكنيسة، والأعيان الآخرين للعالم بشكل عام، في سبيل أن تتلقى الكنيسة نفسها المشورة الصحيحة، والعون المفيد لجميع المسيحيين الحقيقيين، ولكي تتلقى جميع التشريف الذي تستحقه، ومن أجل توفير المساعدة المستعجلة للأرض المقدسة، في وضعها المأساوي المفزع، ولمعالجة بلوى الامبراطورية الرومانية، ولكي نحصل على وسيلة للتخلص من التتار وضدهم، ومن خصوم الإيمان الآخرين والمضطهدين للشعب المسيحي، وكذلك كي يجري تقدير قضايا الخلاف بين الكنيسة وبين الامبراطور، ونحن أيضاً نرجوكم، ونحثكم في تقواكم، وبوساطة هذه الرسائل الرسولية نأمركم، بأن تضعوا جانباً كل الحجج والمعاذير، حتى تظهروا شخصياً في حضرتنا في العيد المقبل للقديس يوحنا المعمدان، في سبيل أن تشعر الكنيسة ببهجة روحية، بتشريفها بزيارتكم، وبمشوركم النافعة في أعمالنا، وعلينا أن نخبركم أيضاً، أننا في موعظتنا قد دعونا الامبراطور المتقدم الذكر، للظهور شخصياً، أو بوساطة رسالة، في المجمع الذي سوف يجري عقده، وليكون هناك حتى يجيبنا ويجيب الآخرين، الذين من الممكن أن يتقدموا بأية شكوى ضده، وليقدم ترضية مناسبة حول المسائل المعروضة، وبالنسبة للعدد المتواضع من المرافقين، ومن أجل التسهيل عليك عندما تأتي إلى هاهنا، مارس ماينبغي من حكمة، في سبيل الحيلولة دون تحمل كنائسكم الكثير من الأعباء مع النفقات. صدر في ليون، في هذا اليوم الثالث عشر من كانون الثاني، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف أرسل ملك إنكلترا وكيلاً إلى البلاط الروماني

وعاني الملك في هذه الآونة مما بدا له ولأصدقائه، أذى عظيماً، بما أن عدداً كبيراً من الأساقفة جرى تعيينهم من دون موافقته، وقام بناء عليه، في سبيل الشكاية من هذا، و لكي ينجح دعواه ومطلبه الذي حصل عليه،

والذي تقرر في الأيام الخالية، أرسل المعلم لورانس من كنيسة القديس مارتن، وكان كاهنه، ورجلاً قديراً، وبارعاً في القانون، أرسله ليكون وكيلاً له في بلاط روما، من أجل تلك الغاية، وفي الوقت نفسه لمعالجة بعض القضايا الأخرى الصعبة، المتعلقة بالملك وبالمملكة، وكان عمله الرئيسي مرتبطاً على كل حال بأعمال روبرت باسلو، الأسقف المنتخب لشيستر، الذي كان انتخابه من دون استشارة الملك حول المسألة، والذي ألغي فجأة في بيت كهنة شيستر، في وسط المملكة بالذات، وخلع روبرت المذكور من قبل بونيفيس، رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، الذي كان الملك قد استدعاه مؤخراً إلى مملكته، ورقاه إلى تلك المرتبة العالية، ليس من دون شكايات وعدم رضا توفر بين عدد كبير من الناس.

وكان الملك جديراً بأن لاينال، ولاأدنى حظوة حول هذا الجانب من القضية، ولكن لأنه غالباً ما استخدم محاججات بارعة، ومعاذير متنوعة متقلبة، قد تمكن من رفض عدد من الرجال الموائمين، خاصة من الرهبان، الذين كان مرتبطاً نحوهم بترقيتهم وبحمايتهم، مثلما فعل الملوك المقدسين للعصور الخالية، وتم الحصول على علاج للخلاص من مثل هذا الشر العظيم، تسبب من دون أن يعرف هو الذي صممه بشرور عظيمة، أو أنه حتى لو عارضه، كان يتوجب تقديم ما تحتاجه الكنائس المترملة، التي كانت بحاجة لأن يعيّن فيها بالسرعة الممكنة أشخاصاً مناسبين وموائمين، وذلك في سبيل أن لاتستمر رعية الرب عرضة للأذى، وهو أمر يبدو أنه منسجم مع المنطق، وحزن النبلاء تجاه هذه الاضطرابات، وتجاه دمار المملكة، أكثر من انزعاجهم تجاه اضطرابات الملك.

أعذار عملت من قبل الملك من أجل بعض الأساقفة الذين كانوا غير ذاهبين إلى المجمع

وعندما وصلت الدعوة العامة للحضور والمشاركة في المجمع إلى مسامع الأساقفة، عمل عدد منهم الاستعدادات للسفر، وآخرون كانوا

مرتبطين بأعمال الملك، أو كانوا مرضى أو مسنين، تقدموا باعتذاراتهم عن المشاركة والحضور، إما من خلال الملك، أو بإرسال نواب أساقفة أكفاء، وبالنسبة للملك، الذي التمس بكل تواضع الحصول على إذن لغياب بعضهم من البابا، ردّ عليه قداسته بالايجاب كما يلي:

رسالة البابا

من انوسنت، الأسقف، إلخ، إلخ، إلى ابنه المحبوب في المسيح، الملك اللامع لانكلترا، صحة، ومباركات رسولية:

نحن نشعر تجاه شخصكم، بحكم كونكم ولداً مخلصاً للكرسي الرسولي، بتقدير أبوي خاص، وبالنسبة إلى التماساتكم، نحن نمنحها أذناً صاغية، بقدر ما يتماشى ذلك مع احترامنا للرب، ولذلك نحن نمنحكم موافقة راضية، وبما أنكم رجوتمونا بتواضع بوساطة رسولكم المعين، المعلم لورانس، المحبوب لدينا كثيراً، وكذلك بوساطة رسائلكم، بأن نيتكم في الصيف المقبل الزحف مع جيش لمعاقبة وقاحة بعض المتمردين من رعيتكم، فإننا سوف نعدّ ذلك اعتذاراً عن حضور المجمع، الذي سوف نعقده —بإذن الرب— في العيد المقبل لميلاد القديس يوحنا المعمدان، وفيما يتعلق بأخينا المبجل أسقف أوف كارآيل، وابننا المحبوب راعي دير ويستمنستر، اللذين بحكمة عينتهما، ليتوليا المسؤولية عن مملكتك أثناء غيابك في تلك الحملة، وكذلك بالنسبة لأخينا المبجل أسقف للانداف، الذي حرم من جميع ثروة أسقفيته بوساطة أعداء جلالتك، وكذلك بالنسبة لولدينا المحبوبين: راعي دير القديس ادموند، الذي يعاني من النقرس، وراعي دير والتهام الذي عجز وأقعد بسبب السن، إننا في رغبتنا المخلصة في زيادة تقدم مملكتكم، وفي سبيل ترسيخ السلام فيها، على استعداد لإظهار جميع الحظوة والنعمة لكم ولصالحكم، لرفاقكم، وذلك بقدر ما نستطيع فعل ذلك تماشياً مع واجبنا إلى الرب، وبناء عليه إننا بوساطة هذه المعروض، نمنح طلبك، ونلتمس بحرارة، في الوقت نفسه، من جلالتكم

عدم الغضب تجاه رؤيتنا أنه من غير المناسب، الاستجابة لكم بقبول العذر لصالح أخينا المبجل، رئيس أساقفة يورك، وذلك حسبما أشير إليه في رسائلكم المتقدم ذكرها، وكذلك حسبما حثنا على ذلك المعلم المتقدم ذكره باسمكم، لأنه، بحكم كونه عضو شريف في كنيسة الرب، نحن نعدّ حضوره ضرورياً بالنسبة للمجمع المتقدم ذكره. صدر في ليون، في هذا اليوم العشرين من أيار، في السنة الثانية من حبريتنا».

كيف بقي بعض الأساقفة الإنكليز معذورين وكيف جرى اتهام راعي دير بيتربورا الذي أرغم على الذهاب إلى البلاط الروماني وأسيئت معاملته

وفي الطريقة نفسها جرى أيضاً منع بعض رجال الكنيسة الانكليز، والأساقفة وكذلك رعاة الديرة (وكان من بين هؤلاء أسقف إيلاي وراعي دير القديس ألبان) من حضور المجمع بوساطة أسباب كثيرة جرى التعبير عنها، وأرسلوا اعتذارات معقولة، إما أنهم كانوا غير أصحاء، أو مسنين، أو ضعفاء، وكان ذلك من خلال وكلائهم، الذين أرسلوا بوساطتهم تحياتهم إلى البابا والكرادلة، وكذلك بعض الهدايا الجميلة، وبحصولهم منهم على قبول الشكاوى بهذه الوسائط، سمح لهم بالبقاء في الوطن، وكان راعي دير بيتربورا —على كل حال— رجلاً غير مؤذ، وكان قد تلقى من البابا أمراً خاصاً، أكثر من سواه حول هذه القضية، فذهب إلى البلاط الروماني، ولدى وصوله إلى هناك تلقى اتهاماً ثقيلاً، وقد وجّه هذا الاتهام ضده من قبل المعلم مارتن، كاهن البابا، الذي كان مقيماً في انكلترا، بأنه قد رفض أن يتخلى عنه (وهذا بالفعل ماتوجب عليه أن يفعله) —أي إلى المعلم مارتن— من أجل استخدامات واحد من أقرباء البابا، عن احدى الكنائس، التي كان راعي الدير قد أعطاها إلى شخص صاحب كفاءة وكان موائماً، وعلى هذا عندما ظهر راعي الدير في البلاط الروماني، قام البابا، أو أصدقاء البابا، من خلاله، بإهانته وتوبيخه، وأمروه في سبيل الحط من شأنه

وعـدم احترامه، بالتخلي عن قصره، ونتيجـة لذلك هو لم يعرف بعـد ذلك الهناء، بل وقع، من خـلال الحزن، بمـرض لايمكن الشفاء منه، وغـادر في العام نفســه طريق الجسد، مما شكل خسـارة عظيمة لكنيسته، التي سـاسها بحكمة عظيمة وبعقلانية.

موت غيلبرت دي هنفرنفيل

وفي الوقت نفسـه، أي في أسبوع آلام ربنا، مات غيلبرت دي هنفـرنفيل Hunfrunville وكـان بارونـاً مشهـوراً، وحـاكماً وزهرة للمقـاطعـات الشمـاليـة من انكلترا، تاركـاً ولداً طفـلاً بمثـابـة وريث لممتلكاته، ومنحت حكومتـه على الفـور إلى سيمـون، إيرل أوف ليستر، مما أغضب كثيراً ايرل رتشارد، الذي كان متطلعاً إلى الوظيفة نفسها.

موت كاردينال دي تيرن

ومـات في العـام نفســه أيضـاً الكاردينال غيـوفـري دي تيرن Turne, وكان خصيصـاً بالبابا وصديقـاً نافعاً له، ولم يكن هناك من هو أكثـر شهرة منه لعلمه وأخلاقه.

كيف أرسل الإيرل رتشارد والملك الفرنسي وبعض آخر نجدات إلى الأرض المقدسة

وفي الوقت نفسه وردت تقارير متواليـة من الأرض المقدسة، كانت غير مـواتية كثيراً، إلى حـد أنه خيف من أن البـلاد كلها بـاتت عرضـة للخطر، وبناء عليـه أرسل الايرل رتشارد مع بعـض الأصدقـاء المقربين إليـه، ألف باوند إلى هناك، على سبيل المساعدة للبـلاد، من خلال الاسبتارية، وكذلك في سبيل تجفيف الدموع من على وجنتي أمنا الكنيسة، التي كانت تبكي على أولادها الذين قتلوا مؤخراً، أرسـل الملك الفرنسي، والداوية والاسبتارية، إلى هناك بكل سرعة، عشرين فارساً جديداً، وكتلة من الجنود مع مبلغ كبير من المال من أجل عون ومساعدة الذين كانوا يسكنون هناك، والذين كانوا

يتحملون هجمات يومية من الخوارزمية ومن المسلمين الآخرين، وحصل الملك الفرنسي أيضاً، واستفاد من حضور نائب بابوي لسن، وواعظ مستقيم، في فرنسا، ليتولى التبشير بحملة صليبية هناك.

مثابرة المعلم مارتن على جمع الموارد

وكان في الوقت نفسه المعلم مارتن، الذي وردت الإشارة إليه مراراً، والذي هو كاهن البابا، مثابراً جداً، وشاغلاً من دون توقف، نفسه، في جمع الموارد، بأية طريقة رغب بها، من أجل استخدام البابا، وفي منحهم إلى أقرباء البابا، وبشأن جرأته، وشرهه المؤذي، أنا أعتقد أنه أشرف وآمن —صدوراً عن الاحترام لكنيسة روما المقدسة— أن أكون صامتاً، فذلك أفضل من أن أؤذي مسامع جمهوري، ومن ازعاج عقول المسيحيين بالقيام بحكاية مثل هذه الأشياء، فلقد جرى الاستيلاء على خزينة سالسبري مع خزائن كثيرة أخرى، وحسبما ذكرنا من قبل أعلاه، جرى الاستيلاء عليهم بالقوة، وأخذوا بشكل خاص من الرهبان، وجرى طلب ارسال الأموال والهدايا إليه على الفور، والذين رفضوا الاستجابة جرت معاقبتهم بشدة، وآثر الملك قضيته أيضاً، وحماها ضد جميع الفئات ربما صدوراً عن أمل التعويض، وهكذا صارت أحوال المملكة الأكثر تعاسة.

كيف جرى وضع الحرس على المرافىء لمنع رسل البابا من دخول المملكة

في هذه الحالة الحرجة جداً التي عاشتها مملكة انكلترا، صدرت أوامر من بعض النبلاء، الذين بكوا، وتأثروا كثيراً من المظالم الكثيرة والتي لم تتوقف، ومن نهب المملكة، بوجوب مراقبة جميع الموانىء البحرية للمملكة بيقظة وعن قرب، في سبيل أن رسائل البابا، التي كانت تجلب يومياً إلى انكلترا، لاستخراج المال، يتم القبض عليها، وحدث في هذا الوقت، وصول واحد من رسل البابا، وقد نزل في دوفر، وهو محمل

بالرسائل من أجل هذه الغاية، وكلها مختومة بالخاتم البابوي، وقام حاكم ذلك الميناء ووالي البلدة، باعتقاله على الفور، حسبما كانوا قد أمروا، وبعدما أخذوا منه جميع الرسائل المختومة، والرسائل الأخرى، التي كانت تحتوي على كثير من الأمور البغيضة، على شكل حجج متنوعة من أجل استخراج المال، سجنوا الرسول نفسه، في قلعة دوفر، وعندما سمع المعلم مارتن بهذا، ذهب إلى عند الملك، ليتقدم بشكوى إليه حول هذا الإجراء، وأنكر الملك على الفور بأنه كان المحرض على ذلك، وقام في سبيل إيذاء المملكة، والحط من كرامته، فأمر باطلاق سراح الرسول، وبانتزاع الرسائل بالقوة من عمدة دوفر، وبتقديمها إلى المعلم مارتن، الذي فرح كثيراً من خلال تأثير تقديم بعضهم.

حريق حجرة البابا

في أسبوع الابتهالات (الأيام الثلاثة قبل عيد الصعود) حدث حادث محزن، فقد تعرضت حجرة البابا في بيته في ليون للحريق، وكانت حجرته الخاصة، أي خزانة ملابسه، فقد احترق كل شيء كان فيها، وأعلن بعض من المسؤولين الأشرار للأشياء، بأنها أحرقت عن عمد، في سبيل أن يمتلك البابا الحجة من أجل طلب المال واستخراجه من الأساقفة، الذين كانوا قادمين إلى المجمع، وقد استعرت النار —على كل حال— بشدة أكبر مما هو متوقع، وأحرقت بعض الأشياء التي نظر إليها نظرة تقدير خاصة، وانتشرت أخبار بين كثير من الناس، بأن الصك الممقوت، فيما يتعلق بالضريبة الانكليزية، وهو الذي عمل في أيام الملك جون —صاحب الذكرى الحزينة— قد تحول إلى رماد، بوساطة النار نفسها.

كيف جرت معارضة البابا من قبل كهنة ليون في مسعاه لغزو بعض الأوقاف الشاغرة

وفي حوالي الوقت نفسه، رغب البابا، من دون التشاور مع الهيئة

الكهنوتيـة، في تعيين بعض الأجانب، أو الأقـرباء، أو بعض أصـدقائـه في بعض الأوقاف الكنسية الشاغرة في ليـون، وقد عارضه كهنة تلك الكنيسة مجابهة، وهـددوا معلنين ومقسمين، أنه إذا مـاظهـر أي مـن مثل هـؤلاء الأشخـاص في ليـون، فإنه لارئيس الأسـاقفة، ولا الكهنة سـوف يكونـوا قادريـن على حمايتهم، من إلقائهم في نهر الـرون، ولذلك فإن الذين كـانـوا على وشك قبول المنافع، لم يظهروا هناك مطلقاً.

وفي حـوالي الوقت نفسـه، تصرف واحـد من بوابي البـابا بشكل أشـد خشـونة ووقـاحة مما ينبغي، فـرفض السماح بالدخـول لواحـد من سكـان ليـون، الذي طلب السماح له بتواضع وأدب، ونتيجـة لذلك صار الليـوني غـاضبـاً، وحانقـاً، فبتر يد البـواب بشكل كـامل، وتقـدم الرجل الجريـح بشكوى جـادة أمـام البـابا، وأراه في الوقت نفسـه ذراعـه المبتـور، وبناء عليـه طالب صـاحب القداسة بالانتقام، وفقاً لقـانون المدينة، الأمر الذي تدبـره بطـرس الوصي على سـلام الكنيسـة، بطريقـة أو أخـرى، أمكن بوساطتهـا الحفاظ على شرفه، وعلى الأقل ظاهرياً رممت كرامته.

وفي حوالي هذا الوقت، أيضاً، مات المعلـم إيليا أوف درم، وكان كاهـن سالسبري، وقام المعلم مـارتن بوضع يديه الجشعتين على الفور على موارده الشاغرة، من أجل استخدام البابا.

كيف منح الملك مرتبة الفروسية إلى رتشارد دي كلير في لندن

في أحـد الشعانين، أقـام الملك احتفـال هذا العيـد بأبهة كبيرة في لنـدن، حيـث منـح مرتبـة الفـروسية إلى رتشـارد دي كلير Clare, الذي كـان الآن يحمل مـرتبة ايرل، وحـدث ذلك بحضور حـوالي الأربعين نبيلاً شـابـاً، وبناء عليـه احتفل الفـارس الجديد، وأكمل تنصيبـه بسرور عظيم وسـط أتباعـه الفرسـان، وأقام الملك في الوقت نفسـه بحثاً دقيقـاً في جميع الكونتيـات، لمعرفـة كمية الموارد التي تسلمهـا الرومان، وكـذلك لمعرفـة

عـدد الايطاليين الذين أغناهم البلاط الروماني بالخداع وبالقوة في انكلترا، وقـد تبين أن هذه الموارد تصل سنوياً إلى مبلغ ستين ألف مارك، وهو مبـلغ أكـبر من المورد السنـوي لانكلترا كلهـا، ولذلـك ثارت دهشـة الملك —وإن جاء ذلك متأخراً— وأثير —ليس من دون سبب جيد— غضبه.

وفي حـوالي الـوقت نفسـه، منح راعي ديـر كلوني البـابا، ثـلاثين مهـراً جيـديـن ورشيقـين، حسبـوا بشكل مناسـب مع العـدد نفسـه من حيـوانات التحميـل الذين ندعوهـم باسـم «خيـول التحميـل»، وجرى تجهيـز هـؤلاء ليكونوا منهم.

كيف جرى إرسال رسل من قبل جماعة إنكلترا إلى المجمع

ثم إن الملك شرع —وإن كان ذلك قد جاء متأخراً— يتأمل وهو يشعـر بالتقزز تجاه الجشع اللامحدود للبلاط الروماني، وحول الاستيـلاء المـؤذي، والسرقـات اللاقـانونيـة، التي عـانت منهـا الكنيسـة، لابل في الحقيقـة المملكة كلهـا، وبنـاء عليـه جـرى إعـداد رسـالة مـؤثرة من قبل جماعة المملكة بشكل عـام، في محتوياتها جـرى تقـديم عـرض —حسبما سـوف تظهـر الرواية التـالية— حول الاستخـراجات اللامحـدودة للبـابا وحـول المكوس المتنـوعة والمضاعفـة التي فرضهـا نوابـه، وبعض الكهنـة الذيـن جرى تزويدهم بسلطات لم يسمع بمثلهـا، ومع هذه الرسـالة، جرى آنذاك ارسـال بعض النبـلاء والرجال الأكـفاء، إلى المجمع، ليتقدمـوا بشـكوى ثقيـلة حول هـذه القضايا، وخاصـة حول فرض المكـوس، التي لم تـوافـق الجمـاعة الانكليزيـة عليها مطلقـاً، وليلتمسـوا انقـاذاً لمملكة انكـلترا من مثـل هذه الأعبـاء التي لايمكن تحملهـا، ومـن أجـل هذه الغـاية جـرى الاختيـار باسـم الجماعـة في مملكـة انكلـترا كلهـا، وإرسـال التـالين إلى مجمـع ليـون: الايـرل روجـر بيغـود، وجـون فتز— غيوفـري، ووليـم دي كينتلـوب Cantelupe, وفيليب باسيـت، ورالـف فتـز— نيقولا، والمعـلم وليـم دي باوريـك Poweric, وكان كاهناً.

مغادرة المعلم مارتن لإنكلترا خائفاً

وفي هذه الآونة كان الملك قد منع عقد بعض المبارزات من قبل بعض الأشخاص كانوا قد اجتمعوا في ليوتون Luton, وفي دنستيبل Dunstable, لأنه نية هؤلاء كانت شريرة، بسبب —كما قال— خطرهم، وقد جرى ارسال فولك فتز— وارن، باسم جماعة المملكة بشكل عام، في اليوم التالي لعيد الرسولين بطرس وبولص، إلى المعلم مارتن، كاهن البابا، الذي تردد ذكره مراراً، ولدى مثوله في حضرته، نظر فولك المذكور إلى الكاهن بحاجبين مقطبين، وخاطبه كما يلي: «غادر، واترك انكلترا على الفور»، فسأله المعلم مارتن: «من الذي أمرك لتفعل هذا؟ هل تفعل هذا بناء على سلطتك الخاصة؟» وعلى هذا رد فولك: «لقد أُمرت أن تفعل ذلك، بوساطتي، باسم جماعة الفرسان المسلحة، التي اجتمعت مؤخراً في ليوتون ودنستيبل، وإذا ما أصغيت إلى مشورة حكيمة، عليك عدم البقاء هنا حتى اليوم الثالث من هذا الموعد، خشية أن يجري تمزيقك وجميع رفاقك الذين معك إلى قطع»، ولدى مغادرة فولك المذكور مغضباً، وبعدما كدس التهديد فوق التهديد، مع أيمان مرعبة، ذهب المعلم مارتن على الفور إلى الملك، وهو منقطع الأنفاس رعباً، وقال للملك: «مولاي لقد سمعت كذا وكذا من أشياء، هل تم فعل ذلك بناء على تفويضك، أوأن ذلك بناء على وقاحة رعيتك»؟، وعلى هذا أجاب الملك: «إنني أعلن أنني لستُ الفاعل لهذا الإجراء، لكن من الصعوبة بمكان، أن يتمكن باروناتي من ضبط أنفسهم ومنعها من الثورة ضدي، لأنني قمت حتى الآن بالتساهل تجاه الانتهاكات والأذى، الذي اقترف من قبلك في هذه المملكة، ومارسته ضدهم، والذي تجاوز جميع حدود العدالة، وبصعوبة تمكنتُ حتى الآن من منعهم وهم في حالة غضبهم، من مهاجمتك، وتمزيق أطرافك طرفاً عن طرف»، وعند ذلك قال المعلم مارتن، وهو يرتجف وبصوت منخفض: «إنني بناء على هذا، أسأل جلالتك، صدوراً عن

حبــك للرب، واحترامك للبـابا، أن تمنحني خـروجـاً حـراً، وأن تأذن لي بالمغــادرة ســالماً تحت ضمانتـك»، وعلى هذا أجـابه الملك، وهـو شــديد الانفعال، ومستشـار إلى حد الغضب قائـلاً: «ليأخذك الشيطان، وليحملك إلى جهنم، وخلالها»، وعندما قام النبلاء الذين كانوا جالسين هناك، بتهدئة غضب الملك، أمر روبرت نورس Norris, قهرمـان القصر الملكي بأن يرافق المعلم مـارتن بـأمـان إلى شـاطىء البحـر، وبناء عليـه، انطلق المعلم مارتن برحلتـه، وأدام الالتصاق بجانـب دليله روبرت، وكان كلما رأى أية أشخاص راكبين، . أو مارين بهما، كان يستولي عليه خوف شديد، ويرتجف، حتى أنه كـان يتمنى لـو أن الأرض انفتحت لأخفى نفسـه، تحت غطائهـا، ولدى متـابعتهما سفـرهما على طريقهما، وصـلا إلى حـدود أحـراش، كـان رئيس الأساقفة المنتخب لكانتربري، قـد عرضها للبيع، وحيث كان بعض رجـال الريف قد تجمعـوا لاختيار الأشجـار، التي رغبوا بشرائهـا، ولدى رؤيتهم، قــال المعلم مـارتن وهو مــرعـوب لروبرت دليلـه: «واأسفـاه، واأسفـاه، إن الذي قد خفت منه، هو على وشك الوقـوع، إنظر إليهم، إنهم مقبلون على مهـاجمتنا، يامولاي وصـديقي روبرت، هل لديك أي ولد، أو حفيد، أو قريب، أو صـديق، أنت ترغب بأن ينتفع بمورد لاهوتي؟ أنا على استعـداد لمنحك أي طلب، يمكن أن تعملـه، إنظر إنهم جـالسين ينتظرون أخـذ حيـاتي، احميني في ظل جناحيك»، فـأجـابه روبرت: «الرب يمنع أي واحد من أقـربائي، أن يتم قبوله هكذا من خلال وسـائطي، لنيل أية منفعة لاهوتيـة: أنا لاأعــرف من هؤلاء، أنت تريث هنا وانتظـرني، وأنا سـوف أذهب سريعاً إليهم، حتى إذا عـرفت أنهم أشخاص يريدون اقتراف الشر، أنـا ســـوف أضبط تهورهـم، وأوقفهـم، بجعلهـم يرون التفــــويـض الملكي»،وعندما —بناء عليه— وصل إلى عندهم، وعلم الحقيقة، عاد على الفور إلى المعلم مارتن، لكن حتى يضغط عليه ويؤثر به قال:

«لقد تمكنت بصعـوبة من ضبط غضبهم، ومنعتهم من تمزيقك إلى قطع،

ودعنـا الآن نسير خلسـة وبحـذر، خشية أن يحـدث أي شيء مكـروه لك، وعنـدما تقلـع مسـافـراً، عليـك —إذا مـا كنت عـاقـلاً— ألا تعـود قط، خشيـة أن تقع في أيدي الـذين يطلبون حياتك»، ومن ذلك الـوقت لم يوفر المعلم مارتن جنبي فـرسه، بل عمل كل سرعـة ممكنة حتى يصل إلى ساحل البحـر، مـوجهاً النقـد لدليله لتأخـره، ولدى وصـوله إلى دوفـر، أقلع على الفـور، وبمغـادرته أبهج قلـوب الكثيرين، غير أن تأثير قـوة ذلك الوباء المعـدي، لم يتـوقف تمامـاً، ذلك أنه أعطى السلطة إلى واحـد، اسمـه المعلم فيليب، ليبقى كي يمارس جميع السلطات التي منحت إليه شخصياً في أعمال استخراج الموارد، وبذلك ترك آثاره الملوثة خلفه، وهكذا قلت كثيراً، حتى يعرف كل واحـد كم هؤلاء الساعين وراء المال هـم جبناء، عندمـا تتعرض ضمائرهم للأذى.

ومالبثت هذه الأشياء أن وصلت إلى مسامع عدد من الايطاليين، الذيـن كـانوا يسمنون على ثروات الموارد في انكلترا، وبناء على ذلك اختفـوا على الفـور، وبحثـوا عن مخابىء بعيـداً عن الأمـاكن المطروقـة، وقـام كثير من القراصنة أيضاً، الذين كانوا حتى الآن ينشرون سمومهم القاتلة، بوسـاطة الربا الذي كانوا يمارسونه بين المقاطعـات الغربيـة، والذين كانوا جاهـلين بهذه الإجراءات، قاموا الآن بالمغادرة بشكل سري.

كيف مات غيوفري مارش في المنفى والفقر كرجل منفي

وحدث في هذه الآونة، أن غيوفري مارش، الذي كان من قبل نبيلاً، هو ليس الأدنى بين أعيـان ايرلاندا، والذي نال وصمـة لايمكن زوالها بالقتل الخيـاني للايرل رتشـارد مـارشـال، والذي كـان الآن منفيـاً، ورجـلاً تعيسـاً، ومحرومـاً، حيث قد جرى نفيـه من سكوتلندا، وطرده من انكلترا، وقـد حرم مـن ميراثه في ايرلاندا، بعـد الموت الشائن لابنه، وبعـد فقـدانه لجميع أصدقائه، حدث أنه هو نفسه أخذ من بيننا، وبذلك أنهى أخيراً كثيراً من الميتات، بموته هو.

شكوى المعلم مارتن إلى البابا

وقدم في الوقت نفسه المعلم مارتن إلى البـابا، وقدّم إليه رواية كاملة عن الأحداث التي جـرى وصفها أعلاه، ولدى سماع البـابا ذلك صرّ بأسنانه، وانفجر بغضب شـديد، وأعاد إلى الذاكـرة بأن ملكي فرنسا وأراغـون، قد رفضـا منحه مـدخلاً إلى أراضيهما، وأن ملك انكلترا، سـوف لن يسمح له بالذهاب إلى انكلترا، وما هو أسوأ إنه لعن رسوله، وطرده بشكل مهين من انكلترا، ثم قال بصوت متهدج فيه علامات الغضب، وكان مقطباً، وشامخاً بأنفه:

«إنه من الموائم بـالنسبـة لنا أن نعقــد شروط صلح مع أميرك، في سبيل سحق هؤلاء الأمراء الصغار الذين يتحركون ضدنا، لأنه عندما يتم سحق التنين أو تهدئتـه، من السهل وضع الأفـاعي الصغيرة تحت الأقـدام»، ومـا لبث هذا القول أن انتشر في الخارج، وسبب غضباً في قلوب كثيرين.

استعدادات ملك إنكلترا لحملة إلى ويلز

قبل بداية شهـر تموز، استـدعى الملك في رسـائله الملكيـة، وحشـد جميع الايرلات، والبـارونات، والفرسـان، والنبـلاء الآخـرين لانكلترا، الذين يدينون له بـالخدمـة العسكرية، للحــاق به إلى ويلز، إلى حيث كــان ناوياً الانطلاق، حيث أنه لم يعد قـادراً، ولم يعد راغبـاً أن يصبر أية مدة أطول في تحمل الهجمات المفاجئـة والغارات التي كان يقـوم بها الويلزيون، وعمل في الوقت نفســه استعداداته الشخصيـة للالتحاق بالحملة، ولغـزو أراضيهم، تحيط به كتلة كبيرة من الفرسان، وبناء عليـه قدم إلى كنيسة القديس بولص في لندن، ليقـوم بوداع أهل لندن، الذين كان من الممكن أن يجتمعـوا كلهـم هناك.

كيف تخلى وليم الأسقف المنتخب لكوفنتري عن إدعائه

في هذه الأيام، عندما كـانت ثورة الوقت تجر معها ثورة الأحـداث، قام

وليم دي مونتبلر Montpellier, وكان راهباً ورئيساً لجوقة المنشدين في كوفنتري، وكان رجلاً بلا خطيئة أو مطمح، الذي انتخب إلى كرسي كوفنتري، وكان المعلم وليم أوف دروهيدالي Drouhedale الذي كان محاميه الغيور في انكلترا، الآن يموت، وكان الملك على غير استعداد لقبول تعيينه، والمعلم لورانس الذي كنا قد تحدثنا عنه من قبل، معارضاً له باستمرار، ومداوماً على اتهامه، وكان كهنة ليشفيلد Lichfield قد اتخذوا أيضاً موقفاً مضاداً له، وقد شعر هو شخصياً بأن دير كوفنتري كان يعاني بسبب انتخابه، وكان يشعر بانزعاج شديد بسبب انتخابه، وقد ذهب وهو في هذه الضائقة، إلى البابا، ومزج كلماته بالآهات وقال:

«إنني أيها الأب المقدس، قد هوجمت من جميع الجهات، وأنا مزعوج تماماً، فقد قام ملك انكلترا مع مستشاريه بتلطيخ براءتي إلى درجة عالية، والرب يعرف أنني لم أستحق مطلقاً هذا الاضطهاد، وإنني إذا كنت سأحتفظ بالمنصب الرفيع الذي انتخبتُ إليه بشكل صحيح، فإنني لن أتمتع بالسلام قط في انكلترا، ولذلك إنني أتخلى عن كل شيء وأضعه بين يديك، وليمنع الرب أن أبقى أية مدة أطول مصدراً للخسارة، أو للاضطراب لكنيستي، ولابد لعنايتك الأبوية أن ترعى شؤون تلك الكنيسة، في الوقت الذي هي فيه محرومة من أسقفها»، ووافق البابا على هذا، وقام الأسقف المنتخب بالمغادرة، وكأنه قد تحرر من حمل ثقيل، وحزن الذين رغبوا بإخلاص في انقاذ روح ملك انكلترا، لرؤية هذا، وخافوا كثيراً، من أن رعباً عظيماً سوف يحيق بهم قريباً، بهم أنفسهم، وكذلك بالمملكة، بسبب هذه القضية، وقضايا أخرى مماثلة، ولأنه اتخذ موقفاً متحزباً شديداً في هذه القضية.

انتخاب روبرت دي ويزهام عميد لنكولن لكرسي شيستر

وعندما أصبح هذا معروفاً جرى انتخاب المعلم روبرت دي ويزهام، عمدة لنكولن، والذي كان رجلاً متميزاً لأخلاقه ولعلمه،

وذلك بشكل رئيسي بناء على مبادرة أسقف أوف لنكـولن، انتخابه وتعيينه أسقفاً لشيستر أوكوفنتري، عوضاً عن وليم مونتبلر المذكور، (الذي —كما تقـدم الذكـر— تخلى متطوعـاً عن إدعـائـه)، وتمّ فعل هذا من دون طلب مـوافقـة الملك، من أجل أن لايقـوم بوسـاطة حجج سخيفـة أو تعليـلات —حسبما كانت عادته— بالطعن بهذا الانتخاب أو بإعاقته، في سبيل إيذاء روحه والإساءة إلى اسمه الصالح.

ثم إن أسقف لنكولن رغب في الحصول على انجاز لرغباته فيما يلي، وهو الفصل الكلي والإبعـاد التـام لكنيسـة آيلسبري Aylesbury —الأمر الذي رغب أن يفعله منذ زمن طويل— عن عمادة لنكولن (لأنه اعتقـد بأن العميـد سـوف يقـوم، بسبب الحالة الغنيـة لتلك الكنيسـة، بتملك الجرأة، ويعمل ضـده، أي ضـد الأسقف)، وأعطاها على الفـور إلى المعلم روبرت مـارش —ليس من دون ضرر عظيـم وأذى لكنيستـه— حسبما هو واضح لكثيرين، لأن من المعروف اتحادها بعمادة لنكولن منذ زمن أزلي.

التكريس في ليون لبونيفيس البروفانسي لرئاسة أساقفة كانتربري

ور. R دي ويتـز إلى أسقفيـة شيكستر ور. R دي ويزهام إلى أسقفية شيستر

وأثناء هذا العام جرى تكريس بونيفيس الذي كان من أصل بروفانسي، رئيسـاً لأسـاقفـة كـانتربري، وكـان ذلك من قبل البـابا، في ليـون، وكـان بونيفيس هذا رجلاً متميزاً بأسرته أكثـر من تميزه بعمله، وكان انساناً يخشى منه في الأمور الدنيوية أكثر من الأمـور الروحية، وقد جرت ترقيته إلى هذه المرتبة (لو أنها كانت ترقية سعيـدة) بوساطة نفوذ ملك انكلترا، وبنفوذ ابنة أخيـه الملكة، وفي الوقت نفسـه جـرت تـرقيـة أخيـه فيليب بال، الأسقف المنتخب لبلنسيـة، لأن يتملك رئـاسـة أسـاقفـة ليـون، وقـد أذعن رئيس الرهبان إلى هذا لأسبـاب سوف نذكرها، ولقـد حصل على هذه الحصة من

البابا حسب الشروط التالية: التي هي:

إنه سوف يحتفظ بسلطات رئاسة الأساقفة هذه مع كل فوائدها، وسوف يتسلم البابا موارد أسقفية بلنسية، وكذلك أيضاً بعض الأسقفيات الأخرى الغنية، التي كانت بحوزته في انكلترا، وفلاندرز (وكان هذا واضحاً، بأنه قد عمل في سبيل أسباب دنيوية أكثر منها أسباباً روحية) وأنه يتوجب أن يحولهم بحرية إلى استخداماته الخاصة، وأنه ينبغي أيضاً أن يستحوذ على الأسقفية في بروغس Bruges, وكان هذا الرجل، ذي المظهر الرشيق، كان بارعاً جداً في استخدام السلاح، وقد سمن على موارد وافرة، وقد كان موجوداً في المجمع الذي عقد في ليون، وقد عمل منه بالفعل، مقدماً للفرسان البابويين، وحارساً قوياً للسلام، وكان السبب الرئيسي لهذا، أنه كان متميزاً بأصله النبيل.

وكان هناك أسقفين آخرين جرى تكريسهما من قبل البابا في ليون، وهما: المعلم رتشارد دي ويتز لكرسي شيكستر، والمعلم روبرت دي ويزهام، عميد لنكولن إلى كرسي شيستر، وكانا كلاهما رجلان متعلمان، وأصحاب أخلاق جيدة، وما من شيء حذف من طريق الترافع بوساطة وكيل الملك، الذي أبدى دهشته واعتراضه ضد هذا الإجراء، لأن موافقة الملك لم تطلب في قضية ترقياتهم، ولقد أخبر —على كل حال في وجهه— أنه بما أن الملك أساء استخدام المنصب الرفيع الذي منح له وكذلك الامتياز، جعل نفسه غير جدير بالتمتع بهذا الشرف، وهكذا فإنه بسبب ذنوب الملك، فإن كرامته وكذلك كرامة المملكة كانت تتداعى، لكن عندما وصلت هذه الأشياء إلى علمه، أمر بمصادرة الممتلكات العائدة إلى كل من أسقفيتي شيكستر وشيستر.

حول الإضافات إلى خزانة الملك بوساطة التفتيش في الغابات

وفي الوقت نفسه، كان كاهن الملك روبرت باسلو مع رفاقه شاغلاً نفسه من دون توقف من أجل تعويض الملك، منتزعاً الأرزاق القليلة للفقير، وزائداً أموال الملك، ساحباً الموارد القليلة لدى المحتاجين بوساطة آلة سحبه الشرهة، من أجل أنه بوساطة نقاط الذين هم محتاجين، يمكن أن يزيد بحار الذين يعيشون بوفرة، ومن دون توقف ذهب إلى دوائر مختلف مقاطعات انكلترا، منفذاً واجباته بإقامة العدالة، خاصة حيث الغابات كثيرة جداً، وحيث سكن الناس على حدودهم، وبتيقظ ودقة قام بفحص أعمال الإسكان الجديدة التي عملت في الغابات، وأي واحد وجده مقترفاً لذلك، أثقله بغرامة مالية كبيرة، وبذلك طرد كثيرين من بيوتهم، وحولهم إلى قوم بلا سكن ومتسولين، وكان من بين هؤلاء —كما ذكرنا من قبل— جون دي نيفيل، الذي كان خاضعاً لكثير من المخالفات، وقد أدين بشكل مهين، فتحول من الغنى إلى الفقر، وهو على كل حال لم يتلق لا العطف ولا الرحمة من أي واحد، لأنه عندما عاد من الأرض المقدسة قبل عدة سنوات مضت، قام بوساطة طرائق بارعة وحجج واهية، فحرم جميع الذين كانوا خاضعين له من أرزاقهم وممتلكاتهم، وهكذا وقع الآن مستحقاً في المصائد نفسها، وبنود المصادرات سوف تكون مكتوبة على شكل ملحق يضاف إلى هذا الكتاب.

كيف أمر الملك بتوسعة كنيسة ويستمنستر على حسابه

وفي العام نفسه، قام الملك، وقد شعر بالتقوى نحو القديس ادوارد، فأمر بتوسعة كنيسة القديس بطرس في ويستمنستر، وبناء على ذلك تدبر هدم الأسوار القديمة مع البرج على الجهة الشرقية، وجرت إشادة أسوار وبرج أكثر رشاقة، وتمت أعمال البناء الجديدة من قبل مهندسين بارعين على حسابه، وأمر بتغيير باقي البناء على الجانب الغربي بما يتناسب مع البناء الآخر.

البابا يتلقى هدايا ثمينة من عدد من الأساقفة

وتابع البابا الآن التشكي بمرارة إلى أصدقائه، بأن الكنيسة الرومانية معسوف بها إلى حد يكاد يصعب فيه نجاتها، ومرهقة بالدين، وعلى الفور انتشرت هذه الشكاوى بالخارج بوسائطهم، وجعل في هذه المناسبة من المفهوم، أنه في أقصى حالات الحاجة إلى مساعدة مالية، وكانت هناك أعداد من الأساقفة الذين لديهم وفرة من الأشياء الجيدة لهذا العالم، وكانوا متلهفين ساعين وراء المزيد من المقتنيات، وهؤلاء قد جاءوا إليه طالبين حظوته، بمثابة أب، وقد أبدوا أسفهم لما عاناه ولمخاوفه، وبما أنه الآن قد نجا من متاعب الامبراطور، قد وصل إلى بين أولاده المخلصين، فإنهم قد قدموا مسرعين لتهنئته، وقدموا إليه أكثر الهدايا قيمة على شكل: خيول، وآنية، وملابس، وذهب وفضة، وجميع أنواع الأثاث المفيد، وكان من بين هؤلاء، راعي دير كلوني، الذي لم يرغب بأن يعدّ متخلفاً، حتى لاينظر إليه أنه كان خاملاً، فقام بافقار كنيسته، وتجريد رؤساء الرهبان لديه، فقدم إلى البابا مبلغاً كبيراً من المال، مما أثار بحجمه الدهشة، والاستغراب المستحق، بين جميع الذين سمعوا به، ولهذا كوفىء بترقيته إلى مرتبة أسقف لـ: لانغري Langres, وفي الحقيقة علمت من رواية رئيس رهبان ويستأكري Westacre, الذي كان من قبل واحداً من رهبان كلوني، بأن راعي الدير المذكور، قد أعطى إلى البابا ثمانين مهراً رشيقاً، كانوا الأجمل والأبدع تجهيزاً، وأعطى إلى كل واحد من الكرادلة، الذين كان موجوداً منهم هناك حوالي الاثني عشر كاردينالاً، مهراً، وفرس حمولة من النخبة، وآثر البابا أن يكون راعي الدير هذا المتولي لاسطبله، بدلاً من أي انسان آخر، فأمره أن يتولى العناية —من أجل استخدامه— بالخيول التي كان قد أعطاها له، وأعطى راعي الدير المذكور إلى البابا كميات كبيرة من الثروات، على شكل أموال جاهزة وآنية ثمينة، ولقد قيل أيضاً بأن راعي دير سيتو Citeaux, قلد مثاله واتبعه، وكان محرضاً باخلاص الابن، وبالرغبة أن لايعدّ ثانياً إلى

أي واحـد، فقـدم هذه الهدايا حتى تكون ليست أقل قيمـة إلى أبيـه المتضرر والمحتاج، أي البـابا، ورغب رئيس أساقفـة روان أيضاً في إرضاء قـداسته، ولكي لايتهم بأنه الأكثر تخلفـاً، ورط نفسه وكـذلك كنيستـه في بعض من الديون الثقيلة، لهذه الغـاية، وزاد الخزانة البـابوية بمبلـغ من المال لم يكن صغيراً، ولدى سماع راعي دير القديس دينس بهذه الإجراءات، وهو الذي كان متشوقاً، بالعمل بشكل مفيد، ليصل إلى منصب رئيس أساقفة، وذلك من خـلال الاستخراجـات، وبوساطة خـداع كنيسته، جمع آلافـاً كثيرة من البـاوندات منحهـا على شكل صـدقـات إلى البـابا، فكـان أن نال مكافأته برتقيته إلى كـرسي رئاسة الأساقفـة في روان، وكان ذلك من خلال الفـائدة المؤثرة لسلفــه، الـذي هو الآن كـاردينالاً، ولـدى سماع الملك الفـرنسي —الذي كان المدير الخاص والحامي لكنيسة القديس دنس— بالإجراءات التي قـام بها راعـي الدير المذكـور، أرغمــه على أن يستجـدي هذا المال في منطقـــة أخـــرى، وهكـذا فإن هذيـن الشخصين: راعي الديـر، ورئيس الأساقفـة، قد تركا أثراً قـذراً خلفهما، ليطير إلى محطات أعلى، وذلك بإفقار الكنائس التي توليا الحكم فيها، مما أصل فضائح في أرجاء كثير من الممالك، وبعد وقت قصير من هذا، قام رئيس أساقفة ليون، وكان رجلاً بلا عيوب، لكنه الآن بات متقدماً بالسن، وضعيفاً، فتخلى عن جميع مناصبه، ووضعها بين يدي البابا.

وتدفق الآن يومـاً إثر يوم، أساقفـة آخرون على البلاط الـروماني، حيث تنافس أحدهم مع الآخر في تقديم الهدايـا الأكثر قيمة إلى البابا، وهي هدايا أثارت بحق دهشـــة جميـع الذين رأوهم، وهكـذا بات واضحـاً لكثيرين، وأمراً مؤكـداً لديهم، بأن البابا جاء إلى ليون عن رغبـة، وليس بقصد الفرار من أي واحـد، وإلى جميع هذه الهدايا فتح البـابا صـدره المتسلم، حتى أنه لم يُظهر أية عـلامـة على الرفض، أو الإباء لديه، وقـد أعلن بأنه بحـاجـة إلى كميـة كبيرة أخرى من المال، واستمـر في تقديم أسبـاباً جيدة لحاجتـه، لأنه

وفقـاً لتأكيـداته (التي لانـدري فيها إذا كـانت صحيحـة) كـانت الكنيسـة الرومانيـة المقدسـة مدانة بمبلغ يزيد على مـائة وخمسين ألفـاً من الباوندات الاستيرلينيـة، وذلك إلى جـانب الفـائـدة التي تصـل إلى قـرابة مبلغ الدين الأساسي.

وفي سنة النعمـــة ألف ومـــائتين وخمس عشرة، في أيام البـــابـا انوسنت الثالث، جـرى عقد مجمع عام، فيه رسم، وأودع كتـابة، بأن المجمع العام، يتوجب حقاً أن يعقـد مرة كل خمسين سنة، التي هي حقبة يوبيل، ففي سنة اليوبيل، أو خـلال إطارها، يتوجب عقـد مجمع عام، فيـه يتم إصلاح جميع المخالفات، وأن يجري إعادة كل شيء وتثبيته في نظام جيد.

بداية إجراءات المؤتمر في ليون

عندما سارت الشمس في مـدارها، ووصلت إلى أقصى ارتفاعها، أي في حـوالي منتصف الصيف اجتمع في ليـون —من أجل عقـد هذا المجمع— جميع الأسـاقفة المحترمين تقـريبـاً من جميع أرجاء العـالم المسيحي، أو جميع نوابهم الكفـاة، وكـذلك نواب الامبراطور، وعدد كبير آخـر من الأمـراء، الآخرين، وقد اجتمعوا بناء على ولاية خـاصة من البابا، وأعطى كثير من الأسـاقفـة الذين لم يحضروا، أسبـاباً شرعيـة لتسـويغ أنفسهم، من خـلال وكلائهم الذين أرسلوهم محلهم، وكـان بعضهم —على سبيل المثال— من مملكة انكلترا، كما ذكـرنا بشكل مفصل أعـــلاه، وكـان من بينهم راعي دير القديس ألبان، الذي كان رجلاً بديناً، وقد تقدمت به السن، ولذلك أرسل عـذراً معقولاً عـن غيابه بوسـاطة راهب من ديره اسمـه جـون دي بولوم Bulum, والمعلم روجر هولدن Holden, وكان كاهناً، وفي الحقيقة بالنسبة لهذه القضيـة، أعطى المعلم مارتن، الذي كـان لبعض الوقت ساكناً في انكلترا، هذه الشهادة، وبناء عليه بقي غير عرضة للنقد وبسلام، مرسلاً رسالة لطيفة إلى البـابا، بوساطة رسوليه المذكـورين، أما من مملكة هنغاريا، التي تعـرضت لدمـار كبير من قبل التتـار، لم يقدم أحـداً، ومن ألمانيـا التي

كـانت مضطربة بالحرب مع الامبراطور، جاء عـدد قليل من الأساقفـة إلى الاجتماع، ومن الأرض المقدسة، التي كـانت عرضة لخطر عظيم، لم يستطع أحداً القدوم إلى المجمع، كما أنه لم توجه إليهم الدعوة.

وبالصدفة، قدم إلى هاهنا، من الأرض المقدسة، واحد فقط، هو أسقف بيروت، وكان الرسـول العام لكل سـورية، وللتجمع المسيحي في الأرض المقـدسة، وقـد جلب معـه تقريراً مبكيـاً، حـول الدمار الذي أحـاق بتلك البلاد، بإذن من الرب.

كيف أعطى البابا في اليوم الأول تعليمات إلى المجمع

عندما رأى البابا أن عدداً كبيراً من الأسـاقفة —مع أنهم ليسوا جميعاً— قد اجتمعوا، قام في يوم الاثنين، بعد عيـد ميلاد يوحنا المعمدان، بالدخول إلى غرفـة طعام رهبـان القديس جست Just في ليون، يحيط بـــه إخوانه الكرادلة، والبطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأسـاقفة، والقساوسة الآخرين الذين وجهت إليهم الدعـوة إلى المؤتمر، وكـذلك نواب الأسـاقفة الغيـاب والأمراء، وكان هناك حـاضراً إلى جانب الكرادلة، اثنان من البطاركة، هما: بطريرك القسطنطينيـة، الذي هو بالوقت نفسه بطريرك أنطاكيـة، وبطريرك أقـويليـا Aquileia، الذي كـان أيضـاً بطـريرك البندقيـــة، وامبراطور القسطنطينية وكـونت طولوز، والنواب من انكلترا، وايرل بيغود مع بعض من أتباعه النبلاء، ومائة وأربعين رئيس أساقفة، وأسقف.

ثم عـــرض بطريرك القسطنطينيـة الشروط والحاجيـات الضرورية لكنيسته، وأعلن بأنه كـان لديه من قبل أكثر من ثلاثين أسقفـاً تحت إمرته، وقد بقي منهم الآن ثـلاثة فقط، وعلاوة على ذلك أضاف بـأن الإغريق مع أعداء آخرين للكنيسة الرومانية، قد استولوا بالقوة على جميع الامبراطورية البيـزنطية (رومـانيـا) حتى أبواب القسطنطينيـة تقـريباً، وأنهم لايطيعـون الكنيسة الرومـانية في شيء، لكن بتخليهم عنها، يعارضـونها بكل الوسائل

العدوانية التي بقدرتهم، وأنه بسبب الأسى والفوضى المحيقة بجميع المسيحية، فإن كنيسته المذكورة كانت الكنيسة ذات الامتياز الأول، وتستحق التكريم أكثر من الكنائس الأخرى، لأنه في المقام الأول، حسبما هو معروف حقيقة، بأن القديس بطرس، قد قام في الأيام الخالية، بالسكنى في أنطاكية (وهي المدينة التي كانت خاضعة للإغريق) وسبب الاضطراب، والفرار من هناك لسمعان ماغوس ولآخرين من الهراطقة، وعند سماع هذا حافظ البابا على الصمت.

وفيما بعد تمّ الوعظ بقداس، جدير بالقبول كله، فيما يتعلق بتطويب القديس ادموند، الذي كان من قبل رئيس أساقفة كانتربري، الذي جعله الرب مشهوراً بإظهار أعظم المعجزات، وفي الحقيقة المؤكدة أن ثمانية رؤساء أساقفة، وحوالي العشرين أسقفاً، قدموا براهين، وتوسلوا باخلاص بوجوب أن يجري تطويبه بوقار عظيم في هذا المجمع، وعلى هذا كان البابا معارضاً، ليس بميوله الشخصية، بل جرى تحريضه هناك بوساطة روح الحسد لدى الآخرين، وأجاب:

«هناك بعض القضايا الصعبة المتعلقة بالكنيسة تضغط علينا الآن، وهي لاتسمح بالتأخير، لذلك ينبغي أن تبقى هذه المسألة معلقة لبعض الوقت، وعلى كل حال، إننا ما دمنا أحياء لن ندع قضيته تعاني من الإهمال، ونحن مسرورين بالرب، ونقدم شكراً وافراً له، من أن الرب، والعالم أجمع يقدمون الشهادة على قداسته وفضائله».

وكان هناك أيضاً موجوداً في المؤتمر، نائباً عن الامبراطور فردريك، هو ثاديوس دي سيسا Thaddeus de Sessa, وكان رجلاً صاحب حكمة، ووحيداً بفصاحته، وفارساً، ودكتوراً في القانون، وقاضياً للقصر الامبراطوري، وقد قدم ليجيب بجرأة وكذلك بحذر، ودقة، عن مولاه، وليقيم سلاماً مع البابا، وليعيد تأسيس صداقتهما الماضية، وبثقة عرض استرداد جميع رومانيا —أي امبراطورية الإغريق— وإرجاعها للاتحاد

مـع الكنيسـة الرومانية، وأن يتصدى بشخصـه، كجندي مخلص للمسيـح إلى التتـار، والخوارزميـة، والمسلميـن والأعـداء الآخـرين وخصـوم الكنيسـة، وسـوف يقـوم كـذلك بقـدر مـاباستطاعتـه، بـإعـادة تأسيس الأوضاع في الأرض المقـدسة، التي هـي الآن عرضـة لمخاطر عظيمـة جداً وقريبة، وأن يعيـد بالوقت نفسه إلى الكنيسة الرومانيـة الممتلكات التي كان قـد أخـذها منهـا،وأن يعطيهـا ترضيـة كـاملة، وفي جـواب على جميع هذه العروض قال البـابا متسائلاً: «آه، كم هي وعود عظيمـة وكثيرة، ما من أي واحد منها جرى تنفيذه بأي شكل من الأشكال، أو سوف يجري الوفاء به، ومن الواضح الآن أن هذه الوعـود قـد قطعـت بغـاية أنه بالخداع وبالخرق يمكن إلغاء المؤتمر وتشتيته، ذلك أن الفأس قد وضع الآن على الجذر، ومن الممكن وضعـه جـانباً بـوساطة التـأخير، المتوجب عليـه هو مـراعـاة بنود السلام، التي أقسم عليهـا مؤخراً بروحه، وذلك وفقـاً للمقصد الذي أدى من أجله اليمين، ووقتها أنا سوف أوافق على عرضه، لكن إذا ما أقدمت أنا الآن على الموافقـة على طلبـه، ومن ثم اختـار هـو التراجع عن اتفـاقـه، من الذي سيكون ضامناً له لإرغامه، إذا ما نأى عن تنفيذ عقده؟»، ولدى وعد ثاديوس بأن يكون كل من ملكي فرنسا وانكلترا، الكفيلين في هذه القضية، أجاب البابا: «نحن لانختار قبولهما، لأنه إذا ما أراد في أي وقت في المستقبل أن يعدل الصفقة، أو أراد أن يلغيها كلية، (ونحن لانتوقع أية نتيجة أخرى، مما فعله مـراراً)، إننا سوف نرغـم على الدخول في مـواجهة معهما، ووقتهـا سـوف يكون للكنيسـة ثلاثة أعـداء، مـا من أحـد أقـوى منهم، لابل في الحقيقة، ليس هناك من يوازيهم في القـوة العلمانية»، وبما أن حجج ثاديوس لم تكن كـافيـة لـلاجـابة على هـذا، وبما أنه لم يكن هناك وقت كـاف، لزم الصمت وهو كئيب.

حول الأخبار السيئة من الأرض المقدسة التي نشرت في المؤتمر

وقـام وولران Walleran, أسقف بيروت، الذي تحمل مصـاعب

الرحلة لمدة ستة أشهر وسط مخاطر البحار، وشهراً على البر، في سبيل —كما ذكرنا أعلاه— أن يجلب رسالة حول مصائب الأرض المقدسة، وليطلب المشورة والمساعدة، قام بتوجيه الأمر إلى الراهب الدومينيكاني آرنولف Arnulph, أن يقرأ بشكل علني الرسائل التي كان النبلاء الذين بقيوا في الأرض المقدسة قد أرسلوها إلى جميع مسيحي الغرب، وقد أقحمت هذه الرسائل في جزء متقدم من هذا العمل، وأثارت الآن محتوياتهم المبكية جميع الذين سمعوهم، وجعلتهم يبكون، ولم يكن ذلك من دون سبب حسن.

إجراءات اليوم الرابع من الأسبوع

وفي يوم الأربعاء التالي، دخل البابا، وكان مرتدياً لثيابه الحبرية، إلى كنيسة القديس يوحنا، وهو محاط بجميع الأساقفة الآخرين الذين تقدم ذكرهم أعلاه، وهم يرتدون أيضاً ثياباً إحتفالية، كل حسب ماهو عائد إليه، وبعد التوجه بالدعوة إلى الروح القدس، حيث أعقب ذلك ابتهال، وصلوات أخرى قرئت بشكل موائم، وعظ البابا بقداس مهّد له بالنص التالي: «آه، أنتم الذين تمرون بالطريق، قفوا وتمعنوا هل ترون حزناً مثل حزني»، ثم إنه تابع بتلاوة قداس فصيح، فيه عقد مقارنة بين أحزانه الخمسة الرئيسية وبين الجروح الخمسة للمصلوب، وكان أول هذه الأحزان وحشية التتار اللاانسانية، الذين كانوا يعيثون فساداً في البلدان المسيحية، وكان الآخر هو انشقاق كنيسة رومانيا، أي الكنيسة الإغريقية، التي انفصلت قبل عدة سنين خلت —في أيامنا هذه— عن صدر أمها، التي غدت وكأنها زوجة أبيها، والأمر المحزن الآخر كان تسلل هرطقات جديدة، التي هي هرطقات البيترينيين، والبوغاريين، والجوفينيين، ومنشقين آخرين، وعدد لايحصى من الفرق، التي لوثت إلى درجات عالية كثيراً من مدن المسيحية، ولاسيما مدن لومبارديا، وكان الأمر المحزن الآخر متأصلاً مع الأرض المقدسة، حيث قام الخوارزمية المقوتين بتسوية بيوت

الداوية والاسبتارية بالأرض، بعد تدميرها كلياً، وتدمير مدينة القدس، ومدناً مسيحية أخرى، وسببت سفكاً عظيماً للدماء المسيحية، لابل اقترفت مذبحة عامة، وأمر محزن آخر تسبب به أمير، يعني الامبراطور، الذي كان من المفترض ارتباطه في أن يكون المدير الرئيسي للشؤون الدنيوية، والحامي للكنيسة، قد أصبح الآن العدو الفعّال والقوي لكنيسة المسيح، لابل في الحقيقة العدو الرئيسي، والظالم المعلن لرجال الدين فيها.

ثم إن البابا تابع التعامل مع هذه المواضيع، بقدر ما بدا موائماً، وتمكن تماماً من ملامسة جميع سامعيه والتأثير عليهم بالحزن، لأن عيونهم سالت بدموع وافرة، وتقاطعت تنهداتهم مع خطابه، وفي نهاية قداسه، عرض عدوانيات الامبراطور فردريك، بالهرطقة، والدنس، وذكر من بين ذنوبه، أنه عمّر مدينة واسعة وقوية، في الديار المسيحية، وأسكنها بالمسلمين، مستخدماً، أو بالحري مسيئاً استخدام عاداتهم، وأوهامهم، مع الرفض لجميع الآراء المسيحية والديانة المسيحية، وأنه قد عقد —كما أكد قداسته— صداقة حميمة مع سلطان مصر، ومع بعض الأمراء المسلمين الآخرين، وأنه انحرف بعيداً، وضل بصلات زنا وفحش، وبلا حياء لطخ بالعلاقة مع نساء مسلمات، أو بالحري مع عاهرات، من دون تمييز، وعزا إليه كثيراً من أعمال الحنث باليمين، وكان ذلك من دون أي اهتمام بالصدق، مع أنه لم يحافظ قط على اتفاقاته، كما أنه لم ينفذ وعوده ولم يحافظ بأي شكل من الأشكال على عهوده، وفيما يتعلق بهذه التهم، ولكي يكون أكثر اقناعاً لسامعيه، أراهم كثيراً من الرسائل كلها تحت ختمه الذهبي الامبراطوري، وبرهن بذلك بوضوح أنه مجرم بالحنث باليمين، ثم ان ثاديوس نهض غير هياب أمام المجمع كله، واعترض على كلام البابا هذا، وعرض رسائل كثيرة جوابية مختومة بختم البابا، ظهر فيها ما يناقض بوضوح ما عرضه البابا قبل قليل، وعلى كل حال إنه لدى الفحص الدقيق لمحتويات هذه الرسائل من على الجانبين، الذي سوف يكون متعباً القيام

بشرحهم وعرضهم كاملين في هذا الفصل، سوف لايظهر بشكل ايجابي وجود تعارض أو تناقض بين أحدهم والآخر، فقد كانت رسائل البابا رسائل شرطية، وكانت رسائل الامبراطور رسائل ايجابية، وظهر أن خرق الصدق هو من جانب الامبراطور، الذي مع أنه قد وعد ايجابياً بكل شيء، هو مع ذلك لم يف بأي شيء وفقاً لوعوده، وعلى هذا سعى ثاديوس بكل قوة إلى الرد بحجج متنوعة، بدت على الأقل قائمة على أسس قوية، في سبيل أن يبرىء مولاه الامبراطور من التهم، وعرض رسائل أخرى من البابا، كانت جوابية، معلناً أنه ورد في محتوياتهن، ما لم تجر رعايته، وبناء عليه لم يكن الامبراطور ملزماً بالارتباط بوعوده، أما بالنسبة لتهمة الهرطقة، الصادرة ضد الامبراطور، أجاب كما يلي، بعدما نظر من حوله إلى جميع الحضور، وكأنه كان سيخاطبهم جميعاً:

«سادتي، إنه بالنسبة لقضية التهمة هذه، التي هي التهمة الأكثر جدية، ما من أحد يمكن أن يكون مقنعاً تماماً، ما لم يكن الامبراطور حاضراً، حتى يمكن للذي هو مغلق عليه في قرارة نفسه بشكل سري، يمكن استخراجه وسماعه من فمه، ولكن كونه غير هرطقي، من الممكن البرهنة عليه وضرب أمثلة عليه، فهو لم يسمح لأي مرابي بالسكنى في امبراطوريته أو ممالكه»، وبذلك ألقى بالتهمة بين أسنان البلاط الروماني، الذي كان من الواضح معسوفاً به بهذا الشر، وجواباً على التهمة التي عملت ضد الامبراطور، من أنه كانت له علاقة مريبة وحميمة مع سلطان مصر، ومع بعض المسلمين الآخرين، الذين سمح لهم بالسكنى في أراضيه، فقد أوضح بأن «هذا قد عمل بشكل تطوعي، وبدوافع من الحكمة، لضبط بعض أعمال العصيان والتمرد لبعض الخاضعين بموجب الحق إليه، ولقمع أعمال الشقاق، وفي استخدامه لهم في حملاته، هو يعتقد أن أية مصيبة سوف تقع لهم، لن يكون محزوناً عليها من قبل أي مسيحي، وبعمله هكذا وفرّ سفك الدم المسيحي من دون فائدة، وهو لم يتورط بعلاقة مع عاهرات،

ومن يمكنه أن يبرهـن ذلك، لكنه كـان يسلي نفسـه ببعض الحركـات، وببعض الأداءات لبعـض النسـاء، اللائي قـد صرفهن الآن، وهـن لن يرجعن، لأنهن غـدون مصـدراً للشكوك»،وعندما أنهى ثاديـوس كلامـه، ترجى بأن يمنح مهلة قصيرة من الوقت، حتى يكون قادراً على بعث رسالة إلى الامبراطور، وأن يستخدم وسائل مؤثرة لإقناعه بالقـدوم شخصياً إلى المجمع، الأمر المتوقع منه، أو أن يمنحـه المزيد من الصلاحيات، وعلى هذا أجاب البابا:

«لاسمح الرب بهذا، إنني أخشى من المصـائـد التي وجـدت بعض الصعوبات حتى نجوت منها، وإنه إذا ما جاء، أنا سأغادر، لأنني لاأرغب بالدم، ولاأشعر أنني شخصياً موائماً للشهادة، أو مستعداً لها، أو للسجن».

وحـدث في اليوم التـالي، أنه بناءعلى مبـادرة نواب الملكين الفـرنسي والانكليـزي، الذين تضـايقـوا كثيراً من خطر توجيـه الاهانة إلى مثل ذلك الأمير العظيم، وتضـايق بشكل خـاص نواب الملك الانكليـزي بسبب العلاقـة والتحالف المعقود بين مـولاهم وبين الامبراطور، جرى منح مهلة أربعة عشر يوماً إلى ثاديوس، وكـان ذلك مؤذ لكثيرين ممن كانوا مقيمين في ليون، وعندمـا جرى إخبـار هذه الأشياء إلى الامبراطور، قيل بأنه قـد قال وهو مضطرب نفسياً كثيراً:

«إنني أرى بوضوح مثل الضوء، بأن البـابا قاصداً بجميع جهوده للحط من شأني، وهو مثار برغبـة وبشعور بالانتقام لنفسـه، لأنني تدبرت اعتقال أقـربائـه في البحـر، وهم القـرصـان الجنويين، الأعـداء القـدمـاء المعلنين للامبراطورية، وسجنهم مع الأسـاقفـة، الذين كانوا قـادتهم وحماتهم، لأنه من الواضح أنه دعـا إلى عقـد هذا المجمع، لغـاية واحـدة لاغير، ومن غير الممكن للامبراطورية المقـدسـة أن تلتـزم بقـرار مجمع، هو مجمع معـاد لها بشكل خـاص»، وعندمـا وصل إلى علم البـابا، والجماعـة المجتمعـة بأن الامبراطور قـد قـال هكذا، وأنـه رفض الحضـور، أو الالتـزام بقـرارهم،

سحب كثيرون تعاطفهم معه، وهم الذين كانوا حتى الآن متفقين فيما بينهم على تأييده، ووجّه اللوم بشكل كبير إلى الانكليز، لانحيازهم له، وبناء عليه جرى اتهام الامبراطور فردريك بقسوة متناهية وبحدة شديدة، في مجمع عام، وصدرت ملامته عن سكان أربعة أطراف الدنيا، على أنه متمرد وعاص ضد الكنيسة كلها، وقام واحد من رؤساء الأساقفة، ووجّه اللوم إليه بحرارة أكثر من البقية، واتهمه بجريمة الخيانة العظمى، في قضية اعتقال الأساقفة الذين تقدم ذكرهم، وبتهم أخرى ثقيلة.

وعلى هذا كله، وقف ثاديوس تقريباً لوحده، ورد لصالح الامبراطور، ونظر إلى متهمه وقال:

«ما من ثقة يمكن أن توضع بك، ومع ذلك لايجوز لكلامك أن يمر وأن يقابل بالصمت، لأنك ابن خائن، قد جرت ادانته بشكل قانوني في محكمة مولاي الامبراطور، وقد جرى شنقه، وأنت تتبع خطواته، وتسعى لأن تسير خلف أبيك في كل شيء»، وعند هذا كان المتهم صامتاً، ولم يتجرأ على التفوه بأية كلمة أخرى، كما أنه لم يسمح له بذلك، وبالطريقة نفسها أيضاً، قام المعلم ثاديوس بعقلانية، لكن بجرأة، بالرد على اتهامات بعض الآخرين ونقضها، وتجددت المناقشات مع روح جديدة بوساطة عدد كبير من أقرباء وأصدقاء الذين ألقيوا بالسجن أو غرقوا، وقد وجهوا الملامة إلى الامبراطور، من أجل عملية الاعتقال التي تقدم ذكرها، وجاء ذلك بحدة أكثر، وبجرأة أعظم، حيث أنهم رأوا نقصان التعاطف معه، وعليهم رد ثاديوس قائلاً:

«إن مولاي بالحقيقة آسف لتلك الواقعة التي حدثت صدفة، وعلى عكس رغباته، ولم يكن باستطاعته، كما هو معروف بشكل جيد، أثناء معركة مفاجئة وقتال عنيف في البحر، أن يفرق بين هؤلاء الأساقفة وبين أعدائه، حتى يحول دون عدم تمييزهم واشراكهم مع أعدائه، لكن لو كان مولاي الامبراطور هناك، لبذل أقصى جهوده في سبيل الحفاظ عليهم»،

وعلى هذا رد البابا قـائلاً: «بعد إلقـاء القبض عليهم، لماذا لم يسمح للأبرياء —مع أنهم عسف بهم وتعـرضـوا لجراحات مضـاعفـة— بالمغـادرة وهـم أحـــرار، واحتفظ بالآخــــرين فقط؟»، وعلى هذا رد ثاديـوس: «لابد من التذكر أن صيغة الدعوة إلى الاجتماع قـد تغيرت، وكذلك اجتماع الأساقفة الذين دعيوا إلى المؤتمر الذي عقد في أيام البابا غريغوري، وجاء هذا التغيير من أجل الأسوأ، وعـدم تغيير الامبراطور لمشاعره، كان أمـراً مسوغاً، لأن البـابا مع أنه توجب عليه أن يجمع فقـط الذين وجهت إليهم الدعوة، دعـا معهـم الذين هـم أعـداء معلنين لـلامبراطورية، من علمانيين، ومشعـوذين، مؤيدين بعصـابات مسلحة، وكان بينهم كونت بروفـانس وآخرين، حسبما جاء واضحاً في الرسائل إلى ملك انكلترا، التي قدمت أعلاه، ومن الواضح أنهم دعيوا ليس بسبب حكمتهم، أو من أجـل الترتيب لسلام، بل بالحري لزيادة الشقاق، ولهذا السبب أرسل مولاي الامبراطور رسائل إلى انكلترا، وكذلك إلى مناطق أخرى، راجيـاً الأساقفة بطريقة صديقـه، بأن لايقدموا إلى مثل هذا المجمع الخياني، وأنذرهم مسبقـاً، أنهم إذا ما قدموا مع أعـدائه شخصيـاً، وأعـــداء الامبراطورية، فـإنهم ســـوف يهاجمون، كما أنه رفض منحهم جواز مرور آمن خلال ممالكه، وبشكل مهذب أنذرهم من المخاطر التي تحيق بهم، ولذلك فإن الرب أرسل بهم بشكل عـادل إلى بين يديه، بين يديه هو الذين استخفـوا به، ومع ذلك فإنه وإن كان مغضبـاً، تذكر الرحمة، ولان بوسـاطة نصائح مستشـاريه المخلصين، وقـد رغب في اطلاق سراح هؤلاء الأساقفة، والأناس غير المحاربين بشكل سلمي، عندما حدث فجأة أن أسقف برنستي وآخرين من الأساقفـة الوقحين، قاموا بتكديس التهديد فـوق التهديد، ومع أنهم كـانوا مسجـونين لم يترددوا بحرمـان الامبراطور كنسيـاً في وجهـه، دون رعايـة لذلك الرأي الصحيح الذي قـال: «تواضع بنفسك أمام يد القـوة، وهكذا بعدما كانوا عصـاة، أصبحوا بلا أذى، لابل معتـوهين، ومن كـونهم أصدقـاء أصبحـوا أعداء، وقـد استحقـوا الايداع بالسجن»، وقـد أجاب البـابا قـائلاً: «ينبغي أن يكون مـولاك الامبراطور

مقتنعاً، مالم يكن غير واثق بقضيته، ذلك أن مثل ذلك الجمع الواسع لمثل أولئك الرجال الصالحين، كان بالحري سوف يحرره بدلاً من أن يكبله، لو أنه استحق أن يتحرر، لكن من سلوكه كان من الواضح بأن ضميره كان يضايقه، وأن الإثم الذي اقترفه، وصار مجرماً به، قد جرحه»، وعلى هذا رد ثاديوس قائلاً: «كيف كان لمولاي أن يتوقع، في مؤتمر يرأسه البابا غريغوري، الذي هو عدوه الرئيسي، أن يجد الذين يؤثرونه، وهم الذين تحالفوا مع أعدائه، وذلك عندما رآهم يتحركون ضده، ويهددونه وهم سجناء؟»، وعلى هذا أجاب البابا: «صحيح أن واحداً بنقده له، قد فقد حظوته، لماذا جرى توريط الأبرياء الآخرين في المصيبة العامة؟، إنه من مخالفاته المضاعفة، لابد أن إهانته وطرده الكامل أن يكون قريباً»، وعندما سمع الانكليز هذا صرخوا لصالح أولاده، وأبدوا اعتراضهم على أن يتعرض الابن للمعاناة بسبب مخالفات الأب، وأن يتم ازدراء النهر كله بسبب نبعه.

وفي الجلسة الثالثة للمجمع ظهر ثاديوس أمامه للاجابة، وللتقدم بالتماس لصالح الامبراطور لأنه كان حزيناً وشاعراً بالخطر، خاصة بسبب أن ابنة دوق النمسا إما قد تزوجت، أو على وشك الزواج من الامبراطور، وكان خطر الخلع بالاضافة إلى الحرمان الكنسي محيقاً به، فهي سوف تبتعد عن عناق واحد ممقوت، هذا وعندما بدأ بتقديم الالتماس بوساطة أعذار كثيرة لصالح الامبراطور، ولكن لم يصغ إليه، تقدم بالتماس لعقد المجمع العام التالي، لأنه لاجميع الأساقفة ولا نوابهم، ولانواب الأمراء، قد ظهروا في هذا المؤتمر، وعلى هذا الالتماس، رد البابا قائلاً: «إن المجمع العام لكثير من البطارقة، ورؤساء الأساقفة، والأساقفة، والنبلاء الآخرين من مختلف بقاع العالم، كانوا جميعاً ينتظرون مولاك الامبراطور أن يتواضع بنفسه، وبذلك كان سيكون راضياً تماماً، وبالنسبة للذين هم غياب، إن الذي منعهم من الحضور والمشاركة، هو أنهم بالشراك الت نصبها مولاك، لذلك

إنه من غير الموائم لقرار الخلع، الذي سيصدر بحقه، أن يجري تأجيله أية مدة أخرى، خشية أن يستفيد من مكره، لأن المخادع ينبغي أن لايستفيد من أي واحد».

الشكوى التي عملها وكلاء جماعة إنكلترا في مؤتمر ليون

عندما أخذ وكلاء الجماعة الانكليزية، الذين تقدم ذكرهم، مقاعدهم في المؤتمر، نهض المعلم وليم دي باوريك، المتحدث باسمهم، وعمل باسم الجماعة الانكليزية كلها شكوى جادة، حول الظلم الذي كان يمارس في تلك المملكة، عارضاً ذلك بخطبة فصيحة، وبيّن أنه في أيام الحرب استخرجت ضريبة مؤذية من قبل البلاط الروماني، عليها لم يوافق قط أسلاف نبلاء المملكة، كما أنهم لايوافقون عليها اليوم، كما أنهم لن يوافقوا عليها بالنسبة للمستقبل، ولهذا هم يطلبون العدالة وأن يقدم إليهم الخلاص، وعلى هذا الطلب لم يجب البابا ولابكلمة واحدة، كما أنه لم يرفع عينيه، وبعد صمت قصير أعطى وليم المذكور تفصيلاً بالاستخراجات المضاعفة للموارد التي مورست في انكلترا من قبل البلاط الروماني، وأراهم بالوقت نفسه الرسالة التالية:

رسالة من جماعة إنكلترا حول استخراجات البلاط الروماني

«إلى الأب المبجل في المسيح، انوسنت، الذي هو بنعمة الرب الحبر الأعظم، يبعث إليه نبلاء انكلترا والجماعة بشكل عام، بإطرائهم، ويقبلون قدميه المباركتين:

إننا نحب أمنا الكنيسة الرومانية ونقدرها من كل قلوبنا، كما ينبغي أن نفعل، ونهدف بكل عواطفنا الممكنة لزيادة كرامتها وتقدمها، ومعها ينبغي أن نمتلك ملاذاً في الأوقات المناسبة، في سبيل إزالة أسف الابن المظلوم ورفعه بمواساة الأم، وهذه المواساة على الأم تقديمها إلى الابن بمزيد من اللطف والسهولة، وفي مقابل تغذيتها له بلطف الأم، إنها تطلب من الابن الامتنان والاخلاص، والأم، بالفعل، لايمكن أن تكون جاهلة بالامتنان

الذي أظهرته لسنوات كثيرة، مملكة انكلترا نحوها، فقد منحتها ثماراً وافرة من التمجيد وفي سبيل أمنها الأعظم، في سبيل أنه بهذه الوسائط، من الممكن تأسيس تحالف من التعاطف يكون أكثر ثباتاً بين الكنيسة والمملكة المذكورة، وهذا المورد قد عرف مع مرور الأيام، باسم «بنس بطرس»، ولم تكن الكنيسة على كل حال مكتفية بمعونة من هذا النوع، وفي الأوقات المتأخرة طالبت بالمساعدات بوساطة النواب البابويين، وبرسل آخرين متكررين، وجاء ذلك بطرق مختلفة، اتبعت في المملكة المتقدم ذكرها، وهذه المساعدات جرى تقديمها من قبل أولادها المخلصين بكرم، وكأنهم كانوا يحتضنون أمهم بأذرعة عواطف مختلفة، ونحن نعتقد أيضاً، أن قداستكم غير جاهلين بأن أجدادنا بحكم أنهم كانوا كاثوليكاً حقيقيين، كانوا جميعاً يحبون الرب ويخافونه، ويرغبون بضمان خلاص أرواحهم وأرواح أجدادهم، وكذلك أرواح أولادهم، وأنهم قد أسسوا ديرة، وأغنوها من ممتلكاتهم بكل من الممتلكات الأرضية والرعاية من قبل الكنائس في سبيل أن يتمكن الرهبان من تأدية واجباتهم الدينية بشكل جدير بالثناء في تلك الديرة، وأن يخدموا العلي الأعلى بيقظة، ولكي يتمكنوا من التمتع بالسلام والأمان، ولمواجهة ما يحتاجونه في خدمة الدين، تسلموا الوسائل الضرورية للعيش، وذلك بما يتواءم مع واجباتهم الدينية، من أصحاب الممتلكات المذكورة، ولكي يتمكن كهنتهم من وضع كنائسهم تحت حمايتهم، ولكي يؤدوا الأعمال في الخارج، ويلتزموا بالفرع الثاني للدين، وليتمكنوا من حمايتهم من غارات الآخرين، وبناء عليه، لن يمر الأمر من دون اغضاب شديد لنا، وأنه سيكون أذى شديداً لنا لايمكن تحمله، عندما يحدث ويجري تضليل الرهبان المذكورين وابعادهم عن امتيازات حماتهم، وعن الارتباط بكنائسهم، لكن الآن، حدث من قبلكم، ومن قبل أسلافكم، الذين ليس لديهم تقدير، فبالاضافة إلى الموارد المتقدم ذكرها، استغنى الايطاليون الآن (الذين يوجد منهم أعداد بلا نهاية تقريباً) على حساب الكنائس العائدة إلى حماة هؤلاء الرهبان أنفسهم، وهم الذين

يدعون باسم قساوسة الكنائس، وهكذا تركوا هؤلاء الذين توجب عليهم الدفاع عنهم، وقد اجتثوا تماماً، ولم يعودوا يعطون الاهتمام لأرواح الناس، بل تركوا هؤلاء الذئاب الأكثر جشعاً ليتولوا تمزيق القطيع، ولاختطاف الشياه، وعلى هذا يمكنهم القول صادقين، بأن هؤلاء الأشخاص ليسوا رعاة جيدين، لأنهم لايعرفون شياههم، كما أن الشياه لاتعرف شيئاً عن الرعاة، فهم لايمارسون أعمال الضيافة، أو تقديم الصدقات المتوجبة على الكنيسة، بل إنهم يتسلمون الثمار فقط لحملها إلى خارج المملكة، مفقرينها إلى درجة كبيرة، باستحواذهم أنفسهم على مواردها، وبذلك فإن إخواننا، وأحفادنا وأقربائنا الآخرين، الذين هم أشخاص جديرون بالعناية من قبل المملكة المذكورة، ينبغي أن ينتفعوا، لكنهم لايستطيعون، ولايمكنهم برحمة وتقوى أن يكونوا قادرين على ممارسة أعمال الاحسان المذكورة وأعمالاً أخرى، وهم يرغبون شخصياً أن يخدموا الكنائس المذكورة، وذلك وفقاً لكلمات بطرس، بأن الذين يخدمون المذبح، يمكنهم العيش مع المذبح، غير أنهم اضطروا الآن بحكم الضرورات لأن يصبحوا رجالاً علمانيين ومنفيين، وفي سبيل أن تكون الحقيقة معروفة لديكم، فإن هؤلاء الايطاليين يتسلمون ستين ألف مارك، لابل أكثر سنوياً من انكلترا، وذلك بالاضافة إلى جبايات أخرى متنوعة، وهم ينقلون منها ربحاً صافياً على شكل موارد من المملكة أكثر من الملك نفسه، الذي هو حامي الكنيسة، والممسك بمقاليد السلطة في تلك المملكة، علاوة على هذا لقد أملنا بعد تنصيبكم (ومازلنا نأمل بالشيء نفسه، لأننا واضعين ثقتنا بكم) أنه بتدخل من عاطفتكم الأبوية، سوف ننال البهجة، ونعيد في أيامكم تأسيس إعطاء الصدقات المتقدم ذكرها إلى وضعها السالف الصحيح.

ونحن —على كل حال— لايمكننا أن نمر صامتين بمظالمنا، لأننا نحن لم نتضرر فقط، بل عسف بنا إلى أبعد الحدود، ففي المقام الأول، قام المعلم مارتن، الذي دخل مؤخراً إلى المملكة، من دون إذن الملك، وهو مفوض

بسلطات أكبر من أي سلطات نذكر أنها منحت إلى أي نائب بابوي، وطلبت من الملك من قبل (ومع أنه لم يمتلك شارة النيابة البابوية، مارس الواجبات المتنوعة لمنصبه)، فقد كان يمارس يومياً، ويعرض سلطات جديدة، لم يسمع بها من قبل، وخلال ممارسته للسلطة كان يقوم باستمرار بتجاوزات وخروقات، فقد منح بعض المنافع الشاغرة بمبلغ ثلاثين ماركاً أو أكثر سنوياً، إلى بعض الايطاليين، وعندما يموتون سوف يتولى آخرون ويتعينون مكانهم، من دون معرفة الحماة، وهكذا نجد أن هؤلاء الحماة قد تعرضوا للغش في امتياز عطيتهم، لابل أكثر من هذا، لقد حاول المعلم مارتن المذكور أن يعين منافع مشابهة، عندما صدف وكانوا شاغرين، إلى أشخاص متنوعين، واحتفظ للكرسي المقدس بحق منح بعض المنافع، وعلاوة على ذلك استخرج جبايات قاسية جداً من الرهبان، وكان يتفوه بأحكام الحرمان الكنسي، والتعليق مع الحرمان من شراكة المؤمنين، في جميع الإتجاهات ضد المتقولين، المتململين، وكان المعارضون عرضة لخطر عظيم، وللرعب على أرواحهم، وبناء عليه، إنه بالنسبة للمعلم مارتن المذكور، وبالنسبة للاضطراب العظيم الذي عانت منه المملكة كلها، فقد مارس المذكور أعمالاً قضائية، نحن لايمكننا أن نصدق أنها صدرت عن علمكم، لأنه مارس واجبات عالية، كانت بالحقيقة أعلى مما نتذكر قط أنه قد مورس من قبل، من قبل أي نائب بابوي، حيث انحرف كثيراً عن الامتياز، الذي جرى منحه من قبل إلى صاحب الجلالة الملك، من قبل الكرسي الرسولي، الذي رسم من قبله، أن ما من واحد سوف يملأ منصب النائب البابوي في انكلترا، ما لم يكن جرى طلبه بشكل خاص من قبل الملك، وبناء عليه، إننا مع كل التذلل الممكن والاخلاص، نرجو قداستكم، وبالندر نفسه نلتمس العاطفة الأبوية لأن تمدّ يد الرحمة لإنقاذ الأولاد المظلومين، بوساطة مساعدة مؤثرة ومعقولة، من المضار التي تقدم ذكرها أعلاه، ومن المظالم، لأ[illegible] مع أن ملكنا، الذي هو كاثوليكي صحيح، وغيور على تأدية واجباته الدين[illegible]، دون الاهتمام بتبديد جسده، هو ير[illegible]

تأديته لواجبه نحو يسوع المسيح، وفي احترامه للكرسي الرسولي، ويود أن يرفع من شأن الكنيسة الرومانية، ويزيد من كرامتها ومنافعها، وذلك كما ينبغي على ولد محب كثيراً أن يفعل، بيد أنه في الوقت نفسه أن يكون ذلك مع الحفاظ على الامتيازات الملكية، وعلى الكرامات، ومع ذلك إننا نحن الذين نتحمل متاعب وحرارة اليوم في خدمته، والذي واجبه يقتضي ذلك، مع الملك المذكور، حتى نرى الحفاظ على المملكة، نحن لايمكننا أن نتحمل بصبر هذه المظالم المذكورة، والتي هي ممقوتة للرب وللانسان مع مثل هذه الأعباء التي لايمكن تحملها، وبحق نعمة الرب لن نتحملهم أية مدة أطول، من خلال تدخل مساعدتكم الفعالة التي نأمل ونثق بأن نتلقاها سريعاً، وأثناء المناسبة، ولعله بناء عليه، يرضي قداستكم إعطاء إذن مصغية متعاطفة إلى التماساتنا، حتى تنال باستحقاق شكراً خاصاً من نبلاء انكلترا، ومن الجمع العام للجماعة في انكلترا، وذلك بحكم كونهم أكثر الأبناء حباً في المسيح».

البابا يؤجل إعطاء جواب للرسل من إنكلترا

ومع أن الرسالة قرئت، ونشرت بشكل مكشوف، وسط صمت عام، لم يقدم البابا جواباً، لأنه أكد أن مثل هذه القضية الصعبة تتطلب مداولات طويلة، ولهذا أخّر إعطاء جوابه لبعض الوقت، ومع أن النبلاء المتقدم ذكرهم، والرسل الخاصين شددوا على حثه على إعطاء الجواب على الفور، هو لم يقبل، بل وعد أنه سيفعل ذلك بعد مدة ليست طويلة، وبالاضافة إلى الشكاوي التي تقدم ذكرها، أضاف الرسل المذكورون أيضاً شكوى أخرى ثقيلة، وكانت حول المظالم الخبيثة، والأذى الذي لايمكن تحمله، والمكوس اللاأخلاقية التي مورست، بسبب تلك الإضافة المقيتة للفقرة التي غالباً ما أقحمت في الرسائل البابوية، وهي «دون تقدير» إلخ، إلخ.

غير أن البابا كان منصرفاً نحو قضايا أعظم أهمية، ومع أن المعلم ثاديوس، وكيل الامبراطور ترافع ضدها بفصاحة، قام البابا الآن من دون

أي تردد، أو خداع، أوتأخير، فتفوه مزمجراً بقرار الحرمان الكنسي ضد الامبراطور فردريك، أمام المجمع كله، مما أدهش جميع الذين سمعوه وأرعبهم.

كيف حرم البابا كنسياً الإمبراطور فردريك في مجمع ليون

«أنوسنت، الأسقف، عبد عبيد الرب، إلخ:

بحضور المجمع المقدس، وفي تذكر دائم للحادثة، وفي تمجيد للكرسي الرسولي، قمنا نحن الذين —وإن كنا لانستحق— جرت ترقيتنا إلى المنصب البابوي بتقدير من الجلالة اللاهوتية، والذي علينا أن نعطي عنايتنا المتواصلة واليقظة إلى جميع المسيحيين، فمنحنا عين التقدير العميق، لنميز الأعمال والأقوال لكل واحد من الناس، ولكي نزنهم بميزان التقدير الحكيم، في سبيل أن نتمكن من مكافأة الذين يستحقون المكافأة، الذين بعد فحص دقيق تبرهن أنهم جديرين بذلك، ولنوقع العقوبة المستحقة على الذين نجدهم مجرمين أو ملومين بأي طريق من الطرق، وذلك وفقاً لطبيعة ذنوبهم، ولسوف نزن دوماً فضائلهم وجوائزهم في ميزان متعادل، معاودين الدفع إلى كل واحد كمية الجائزة أو العقوبة، وفقاً لطبيعة أعماله، سواء أكانت جيدة أم سيئة.

وبالنسبة للحروب المستعرة المديدة، التي أزعجت منذ وقت طويل بعض المقاطعات والمناطق التي تؤمن بالمسيحية، رغبنا من قلبنا كله بإعادة الهدوء والسلام إلى كنيسة الرب المقدسة، وإلى جميع المسيحيين بشكل عام، وقدرنا أنه مفيد لنا القيام بإرسال رسل خاصين إلى الأمير الرئيسي العلماني، الذي كان هو المقترف لهذه التمزقات والاضطرابات، والذي كان لتجاوزاته محروماً كنسياً من قبل سلفنا، البابا غريغوري، صاحب الذكرى السعيدة، لقد قمنا بناء عليه، بإرسال رجال رفيعين بالمسؤولية ممثلين لنا ولصالحنا، وهم: أخينا المبجل ب. P راعي دير ألبانو في ذلك الوقت،

ورئيس أساقفة روان الآن، وو. W أسقف سابينا الآن، ومن قبل أسقف مودينا Modena,وابننا المحبوب كثيراً وليم، الكاهن الكاردينال لكنيسة الاثني عشر رسولاً، والذي كان في ذلك الحين راعي دير القديس فاكندوس Facundus, وكلهم كان مشحوناً بالرغبة لخلاص ذلك الأمير المذكور.

وأوضحنا من خلالهم بأننا مع إخواننا، نسعى، بقدر ما نمتلك من قوة، لأن نكون في سلام معه في كل جانب، وذلك حسبما كنا جاهزين لأن نكون مع جميع الناس، ونحن نرغب في أن نمنح له السلام والهدوء وإلى جميع العالم، أما مايتعلق بإعادة الأساقفة، والكهنة وجميع الآخرين الذين في حبسه سجناء، وكذلك بالنسبة لجميع الكهنة، وكذلك العلمانيين، الذين أسرهم في الغلايين، إن ذلك سوف يكون مساعداً على صنع السلام والمصالحة، وسألناه بوساطة الرسل أنفسهم وطلبنا منه، أن يعيدهم إلى الحرية، (وذلك حسبما كان هو وكذلك رسله قد وعدوا سلفنا المذكور، وذلك قبل دعوتنا إلى المنصب الرسولي)، وأعلنا علاوة على ذلك، بأن الرسل المذكورين، كانوا مستعدين، باسمنا لإستماع مقترحاته من أجل، وفي سبيل ترتيب بنود للسلام، وللإصغاء إلى أية تقديمات واقتراحات للترضية، يمكنه —أي الأمير المذكور— أن يختار عرضها في المسألة المتعلقة بكل قضية حرمانه الكنسي، وبالاضافة إلى هذا، إذا كانت الكنيسة قد آذته بطريقة غير صحيحة (التي لاتعتقد بأنها فعلت ذلك) هي على استعداد للقيام بالإصلاحات، ولأن تعيده إلى وضعه الطبيعي، وإنه إذا ما قال بأن الكنيسة أو نحن شخصياً قد ألحقنا به الضرر في أية طريقة من الطرق مضادة للعدالة، إننا على استعداد لأن ندعو الملوك، والأساقفة، والمقدمين، ورجال اللاهوت، وكذلك العلمانيين، إلى الاجتماع إما شخصياً، أو من قبل رسلهم الخاصين، في مكان ما آمن، وإن الكنيسة مستعدة، وفقاً لقرار المؤتمر، لأن تقدم إليه الترضية، إذا ما كانت قد آذته بأية طريقة من الطرق، وأن تلغي أي قرار بالحرمان الكنسي، كانت قد أصدرته ضده بشكل غير

عـادل، وأن تعـاملـه بكل لطف ومـرحمة، بقـدر مـا يمكنهـا أن تمنح، مع احترامهـا للرب، ولكـرامتهـا الذاتيـة، وأن تتسلم ترضيـة منه عن الأذى والمضار التي اقترفت ضد الكنيسة المذكـورة من قبله، أو من قبل أتباعه من خلالـه، وإن الكنيسة ترغب أيضـاً في السماح إلى جميع أصدقـائه والمرتبطين به، أن يكونـوا في سـلام، وأن يتمتعـوا بأمن كـامل، وبـذلك لايمكن في المستقبل بشكل مطلق، تعرضهم للخطر أو للرعب حول هذا الشأن.

ولكن مع أننا سعينا بوساطة عتابنا الأبوي، وبوساطة الالتماسات العامة أن نحـرضه على السـلام، قلّد الأمير المذكور بعناده فـرعون، وأغلق أذنيـه مثل ثعبـان، في ذروة عنـاده، وتبنى حـالة العجـرفـة والتشـامخ، وازدرى ورفض التماساتنا وتحذيراتنا حـول هذه القضية، ومع أنه حـدث من خلال مرور الوقت، في السنة التـالية، في يوم عيد العشاء لربنا، والذي كـان العيد الأخير، بحضـور إخـواننـا الكرادلة، وكـذلك ولدنا المحبـوب كثيراً في المسيح، امبراطور القسطنطينية المشهور، وحشد كبير من الأساقفة وشيوخ وحكماء شعب رومـا ومجلس شيـوخهـا، وجمع كبير مـن الآخـرين، الذين كـانوا قـد اجتمعوا لـدى الكرسي الرسولي في ذلـك اليوم، بسبب مهـابتـه ومكانتـه، من جميع أرجاء الدنيـا، أن قـام الأمير المذكور من خـلال النبيل كونت طولوز، والمعلم بطرس دي فينيا، وثاديوس دي سيسا، القاضيان في بلاطه، ووكلائه، في ظل أوامر منه حـول هذه القضية، فأعطى يمينا مهيبا، بأنه سوف يلتـزم بأوامرنا وبأوامر الكنيسـة، ومع ذلك هو لم يف بعد ذلك بالذي أقسم عليه، وفي الحقيقة، إنه من المعتقد بشكل صحيح، ومن الممكن استخراج الأمـر واستنتاجـه من الإجراءات التي عملهـا فيما بعد، أنه أدى ذلك اليمين لغـاية الخداع وليس لغاية طـاعة الكنيسـة، لأنه على الرغم من مضي سنة حتى الآن، هو لم يقم بالعودة إلى صـدر الكنيسة، كما أنه لم يكلف نفسه ولم يزعجها بتقديم ترضية حول الأذى والخسائر التي عانت منها من قبله، مع أنـه طلب منه مـراراً أن يفعل ذلك، وبناء عليـه، بما أننا لم نعـد

راغبين، ولسنا قادرين —دون أن نذنب ذنباً عظيماً بحق يسوع المسيح— أن نتساهل تجاه عدوانيته وذنوبه، ولقد أرغمنا بضميرنا على اتخاذ إجراءات ضده.

وإذا ما التزمنا بالصمت الآن حول جرائمه الأخرى ومظالمه، لقد اقترف أربعة آثام ثقيلة جداً، لايمكن تسويغها بأية وسيلة تلطيف، ذلك أنه غالباً ما أقسم يميناً تعهد به بمراعاة السلام الذي أعيد تثبيته رسمياً بين الكنيسة والامبرطورية، ثم قام بطيش بخرقه، كما أنه اقترف إثماً كبيراً بتسببه باعتقال كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، وكهنة الكنائس الأخرى، والرهبان، والعلمانيين، الذين كانوا قادمين إلى المجمع الذي رأى سلفنا المذكور أنه من المناسب الدعوة إليه، وهو أيضاً متهم بالهرطقة ليس على أسس مشكوك بها أو أرضية ضعيفة، بل على أساس بينات مبرهن عليها، وأنه اقترف كثيراً من أعمال الحنث باليمين واضحة بها فيه الكفاية، لأنه عندما كان فيما مضى مقيماً في صقلية، قبل انتخابه للمقام الامبراطوري، قام بحضور غ. G الكادرينال الشماس للقديس ثيودور، وصاحب الذكرى الطيبة نائب الكرسي الرسولي، فقدم يمين الولاء إلى سلفنا البابا انوسنت، صاحب الذكرى الطيبة، وإلى خلفائه من بعده، وكذلك إلى كنيسة روما، مقابل تقدير التنازل عن مملكة صقلية له من قبل الكنيسة المذكورة، وحسبما روي، إنه بعد انتخابه لذلك المقام المذكور، وبعد وصوله إلى المدينة جدد ذلك اليمين أمام انوسنت المذكور، وإخوته الكرادلة، وبحضور عدد كبير آخر، وقدم ولاءً قانونياً إلى البابا المذكور مع يدين مرفوعتين.

وبعد هذا، عندما كان بألمانيا، عمل يميناً بحضور الأمراء والنبلاء العائدين للامبراطورية، قضى بالحفاظ على البابا انوسنت المذكور، ولدى وفاته، على البابا هونوريوس سلفنا، وعلى خلفائه، وأن يحمي بإيمان صالح، وبقدر ماهو متوفر في قدرته، شرف، وحقوق، وممتلكات الكنيسة

الرومانيـة، وأن كل ماسـوف يأتي إلى بين يديه، سوف يعيـده إليها من دون أية معـارضـة، وقد ورد ذكـر الممتلكات المذكـورة بوضـوح في بنود يمينه، الذي أكده فيما بعـد، فور حصوله على تـاج الامبراطورية، لكن بالنسبة إلى هذه الأيمان الثلاثة، لقد برهن عن نفسه، أنه غير ملتزم جريء، وخـارق لها، وبهذا نال وصمـة الخيـانة وتهمـة الخيـانة، لأنه أرسل إلى الإخـوة الكرادلة رسـائل تهديد ضد سلفنـا غريغـوري، وضد إخـوانه المذكـورين، وكما هو ظاهر من الرسائل التي أرسلت من قبله، أقدم على تشويه سمعة غريغوري المذكور بين إخـوانه المذكوريـن، وحسبما ورد في رسائل لها المحتـوي نفسه للتشهير بطرائق مضـاعفة في جميع أرجـاء العالم، كما أنه أمـر أيضاً باعتقـال شخصي لأخـــــوينـا المحترمين: أوتو، أسقـف بـورتو، في ذلـك الحين، وكـاردينال شماس للقـديس نيقـولا، في سجن توليـان، وج. L أسقف برينستي، صاحب الذكرى الطيبـة، والنائب البابوي للكرسي الرسولي، مع أعضاء بارزين من الكنيسة الرومانية، وانتزع من آخرين مقتنياتهم، وحملهم بشكل مهين عدة مـرات وطاف بهم حول وخلال أمـاكن متنوعة، ثم ألقى بهم في السجن، وعـلاوة على ذلك، سعى بكل مـا أوتيه مـن قوة لانقـاص امتيازات الكنيسـة، أوبالحري، لانتزاع هذه الامتيازات كلهـا، التي منحها مولانا يسوع المسيح إلى القديس بطرس وخلفائه، والتي تمثلت بقوله:

«إن كل الذي سـوف تربطـه على الأرض، سـوف يربط في السماء، وكل شيء سـوف تحله على الأرض، ســوف يجري أيضـاً حله في السماء»، (ففي هذا الامتياز ترسو قـوة وسلطة الكنيسة الرومانية)، ولقـد كتب رسالة بأنه لايقيم تقديراً لقرار الحرمان الكنسي الذي صـدر ضده من قبل سلفنا البابا غريغوري، وبذلك استخف بمفاتيح الكنيسـة، بعدم رعايتها بشخصه، ولم يكتف بهذا بنفسه، بل أيضـاً بوساطة وسـائل موظفيه، فـأرغم آخرين على عـدم مراعـاة قرار الحكم هذا، أو قـرارات الحرمان الكنسي الأخـرى، مع قرارات الحرمـان من شراكة المؤمنين، فهذا كله لم يعبأ به، أما بالنسبـة أيضاً

لممتلكات الكنيسة الرومانية، وهي تخوم ودوقية بينيفنتو، (التي أمر بتدمير أسوارها وأبراجها) وممتلكات أخرى كانت بحوذتها في أجزاء من توسكانيا ولومبارديا، وفي بعض الأماكن الأخرى، مع بعض من الاستثناءات القليلة، فقد تجرأ على الاستحواذ عليهم، وكأن هذا لم يكن فيه كفاية، وذلك حين أقدم على هذا العمل، لقد قام بشكل واضح ومكشوف بخرق الأيمان المتقدم ذكرها، وأقدم شخصياً أو بوساطة موظفيه على إرغام السكان في هذه الممتلكات، على إقسام يمين، حللهم فيه —مع أنه لايمتلك السلطة بموجب الامتيازات أن يفعل ذلك— من يمين الولاء الذي كانوا مرتبطين به بموجب الأمر الواقع، إلى الكنيسة، وبعدما أرغمهم على الحنث بيمين الولاء المذكور، أرغمهم على أداء أيمان ولاء له شخصياً.

وكونه قد برهن عن نفسه، أنه خارق للسلام، فهذا واضح تماماً، لأنه من قبل، أثناء السلام، الذي أعيد تأسيسه بين الكنيسة وبينه، أدى يميناً أمام جون دي أبيفيل، صاحب الذكرى الطيبة، أسقف سالسبري، والمعلم نوماسيوس، الذي كان آنذاك كاردينال —كاهن للقديس سابينا— وبحضور عدد كبير من الأساقفة، والأمراء، والبارونات، بأنه سوف يلتزم تماماً ومن دون شروط بأوامر الكنيسة، وسوف يكون مطيعاً لها في القضايا التي من أجلها جرى حرمانه كنسياً، ذلك أن أسباب ذلك الحرمان قد جرى شرحها له تماماً، كما أنه قام في الوقت نفسه، من خلال كونت أسيرا Acerra, فأدى يميناً بروحه، بأنه سوف يعفو عن جميع الجرائم ويلغي كل العقوبات، بالنسبة لسكان ألمانيا، ومملكة صقلية، وجميع الآخرين، مهما كانت أحوالهم أو مراتبهم، من الذين كانوا واقفين إلى جانب الكنيسة، وأنه سوف لن يؤذيهم في أي وقت من الأوقات، أو أن يتسبب لهم بأي أذى، بسبب وقوفهم إلى جانب الكنيسة، ومع ذلك فإنه فيما بعد لم يشعر بأي حياء بسبب تورطه بحنث كبير، وذلك أنه أخفق في رعاية هذا السلام

وأيمانه هذه، لأن هؤلاء الناس أنفسهم الذين تقدم ذكرهم من نبلاء ومن آخرين، أمر بهم، فيما بعد، فجرى اعتقالهم وسجنهم، وبعدما أفسد جميع مقتنياتهم، قام أيضاً بسجن زوجاتهم وأولادهم، وبالاضافة إلى هذا، وعلى عكس الوعود التي أعطاها إلى ج. ل أسقف سابينا، والكاردينال توماسيوس، قام بدون وقار فغزا أراضي الكنيسة، مع أن الأسقفين المتقدم ذكرهما، قد أعلنا بحضوره عن قرار الحرمان الكنسي ضده، إذا ما أقدم في مستقبل الأيام على نقض الشروط المتقدمة والبنود، وقام الأسقفان نفساهما بموجب السلطات التي كانت ممنوحة لهما من الكرسي الرسولي، فحرما عليه أن يقدم شخصياً، أو بوسائل أي واحد آخر، بمنع التسميات، والانتخابات، والتثبيتات في الكنائس والديرة، وأن يحول دون عملها حرة، في المملكة المتقدمة الذكر بالنسبة للمستقبل، تماشياً مع مرسوم صدر عن مجمع عام، كما أمرا أنه ما من واحد، يحق له من ذلك الحين فرض ضرائب أو اسهامات على اللاهوتيين في تلك المملكة، أو على بضائعهم ومقتنياتهم، وأنه ما من كاهن أو لاهوتي في تلك المملكة يجوز أن يستدعى من الآن فصاعداً، للمثول أمام قاض مدني، في أية قضية مدنية أو سبب جرمي، ما لم تكن قضية الخلاف قضية مدنية تتعلق بالايجارات، وقد فرض عليه أيضاً، أن يقدم ترضية مناسبة إلى الداوية والاسبتارية، وإلى اللاهوتيين الآخرين عن الأضرار، والخسائر التي لحقت بهم، ومع ذلك قد رفض تنفيذ جميع هذه الأوامر.

ومن الواضح أيضاً، أن هناك إحدى عشر رئاسة أساقفة، مع عدد كبير جداً من الكراسي الأسقفية، وكذلك من رعويات الديرة، وكنائس أخرى، هي في الوقت الحاضر شاغرة في المملكة المتقدمة الذكر، وأنهم من خلال وسائله —كما هو واضح تماماً— قد حرموا، منذ وقت طويل، من إدارة الأساقفة، مما يسبب ضرراً عظيماً للكنائس نفسها، ورعب لكثير من الأرواح، مع أنه، ربما قد جرت في بعض الكنائس، في تلك المملكة

انتخابات بوساطة هيئات الكهنة، إنه بسبب الكهنة الذين جرى انتخاب أصدقائهم، من الممكن أن نستخلص، أنهم لم يمتلكوا وسائل القيام بانتخابات حرة، وهو لم يتسبب فقط بالاستيلاء على أساسيات ومقتنيات كنائس المملكة المذكورة، ومن ثم الاستحواذ عليها لتكون تحت تصرفه، بل إنه نهب الصلبان، وكؤوس القربان، والشمعدانات، وبقية الكنوز المقدسة الأخرى، والأقمشة الحريرية العائدة إليهن، وكأن ذلك جاء ازدراءً للعبادات المقدسة، وإنه على كل حال، قد ذكر بأن بعضهم قد أعيد جزئياً إلى الكنائس المذكورة، لكن هناك كمية قد جرت المطالبة لها من قبل، وعسف بالكهنة بطرق مضاعفة كثيرة، بالجبايات وبالمكوس، وهم لم يجرجروا فقط ليقفوا أمام محكمين مدنيين، لا بل —كما روي— قد أرغموا على المعاناة من محنة المبارزة الفردية، وقد سجنوا، وقتلوا، وعذبوا على المشانق، مما شكل ازعاجاً وإهانة إلى النظام الكهنوتي كله، ولم تتوفر هناك أعمال تعويض إلى الداوية والاسبتارية، وللأشخاص اللاهوتيين الآخرين مقابل الخسائر والأضرار التي أنزلت بهم.

وأما أن يكون مجرماً بتدنيس الأمور المقدسة، فهذا أمر مؤكد، لأنه عندما كان أسقفا بورتوا، وبرنيستي مع آخرين من الأساقفة، وكهنة الكنائس، وكذلك الرهبان والعلمانيين قادمين عبر الماء إلى الكرسي الرسولي، من أجل غاية حضور المجمع، (الذي طلب هو، أي الامبراطور، بأن يعقد) كانت جميع الطرق في أراضيه مغلقة بناء على أوامره، وكان قد أرسل ابنه هنري مع عدد من الغلايين، حيث كمن بانتظارهم قرب شاطيء البحر، مع بعض الآخرين الذين كان قد استأجرهم في توسكانيا، من أجل القيام بانقضاض عليهم بكامل القوات، وبغضب شديد، وقد تجرأ أن يضع يديه المدنستين عليهم، وقد جرى إغراق بعض الأساقفة مع أشخاص آخرين، وقت الاستيلاء، وبعضهم جرى قتله، وأرغم آخرون على الفرار، وقد طوردوا من قبل أعدائهم، وجرى تجريد البقية من جميع

مقتنياتهم، وحملوا بشكل مهين من مكان إلى آخـر في مملكة صقلية، ثم عهد بهم بعد ذلك إلى السجن هناك، حيث تلاشى بعضهم بالأمراض، وعسف بهم بالحاجة، وآل بهم المآل إلى أوضاع تعيسة.

وعلاوة على ذلك، هناك سبب جيد، لاتهامه بالهرطقة، وهو ناشيء عنه، فبعـدمـا نال حكم الحرمان الكنسي، الذي أصـدره ضـده ج. L المتقدم الذكـر، أسقف سابينا، والكاردينال تومـاسيوس، وقيـام البابا غـريغوري المتقدم ذكـره بإصدار حكـم التكفير، ضده، وبعد اعتقـال الكرادلة الرومان والأساقفة، وكهنة الكنائس، عندما كـانوا مسافرين من مختلف الأرجاء إلى الكرسي الرسولي، ازدرى ومـازال يزدري مفاتيح الكنيسـة، وتسبب، بقدر ما هو قادر على التأثير عليها، بممارسة الطقوس الدينية، أو بالحري بتدنيس الطقوس الدينيـة أمامـه، مؤكـداً بجرأة، كما ذكرنا أعـلاه، بأنه لايخاف من قرار الحرمان الكنسي، الذي تفوه به ضده، البـابا غريغوري، وبالاضافة إلى ذلك، لقـد تحالف بحلف مقيت مع المسلمين، فهـو غالبـاً مـاأرسل الرسل والهدايا إليهم، وفي المقـابل تلقى بعض الهدايا منهم مع الاحترام والبهجـة، وقـد تبنى عـاداتهم، محتفظاً بهم بشكل معلن في خـدماته اليـوميـة، وبدون حياء، عيّـن حرساً على زوجاته، اللاتي تسلمهن من المنحدرات من أصول ملكية، بعض الخصيان، بشكل خـاص أولئك الذين تدبر مؤخراً خصيهم، والذي هو إثم أعظم، أنه عندمـا كان من قبل في بلاد مـاوراء البحر، عمل نوعـاً من الترتيبـات، أو بالحري من التحـالف مع السلطان، وسمح لاسم محمد (صلى الله عليـه وسلم) أن يجري إعلانه بشكل عـام في هيكل الرب، نهاراً وليلاً، وقـام مؤخـراً، بالنسبة لقضية سلطان مصر، الـذي صنع بيديه ومن خـلال وكـلائـه أضراراً وأذى لايمكـن التخلص منه، إلى الأرض المقدسـة، وإلى سكانها المسيحيين، وجعل سفراء ذلك السلطـان، في تقدير منه لسيدهم، أن يجري —كما قيل— استقبالهم بشكل مشرف، وأن يعاملوا بشكل كريم، في مملكته في صقلية.

كما أنه في معارضة للمسيحيين أساء باستخدام الطقوس الخبيثة والمرعبة للكفار الآخرين، وذلك في تحالف صداقة مع الـذين يدفعون بشكل شرير قليلاً من الاحترام إلى الكرسي الرسولي، لابل هـم يزدرونه، وانفصم عن الوحـدة مع الكنيسة، وألقى جانباً بكل احترام للديانة المسيحيـة، وتسبب —كما هو مؤكد تماماً— بمقتل دوق بافاريا، صاحب الذكرى اللامعة، على أيدي الحشيشية، كما أنه أيضاً أعطى ابنته بالزواج إلى بتاكيوس، الذي هو عدو للرب وللكنيسة، وهو الذي قد طرد مع معاونيه ومستشاريه، ومحرضيه، بشكل مطلق من الجماعة المسيحية، بوساطة قرار بالحرمان الكنسي، ولقد رفض إجراءات وعادات الأمراء الكاثوليك، وأهمل مسألة خلاصه الذاتي، وطهارة سمعته، ذلك أنه لايستخدم نفسه ولايشغلها في أعمال التقوى، والذي هو أكثر (إذا ما سكتنا عن ممارساته الشريرة والمقيتة) هو أنه وإن كان قد تعلم ممارسة الظلم إلى درجة عالية جداً، هو لم يتعب نفسه، ولم يكلفها بالتفريج عن المظلومين بالأذى، بمدّ يده —كما ينبغي أن يفعل كأمير مسيحي— لتقديم الصدقات، علماً بأنه قصد بتشوق أن يدمر الكنائس، وقد سحق الرهبان، والأشخاص اللاهوتيين الآخرين، بالأعباء، وباضطهاد نيره، ولم يكتشف بأنه قد بنى قط، أو أسس، لاكنائس، ولاديرة، ولامشافي، أو أية أماكن تقوية أخرى، وهؤلاء على هذا ليسوا أرضيات خفيفة، بل مقنعة، للتشكك والاقتناع برميه بالهرطقة، وبما أن القانون المدني يرى بأن هؤلاء موجودين في لائحة الهرطقات، وينبغي خضوعهم للأحكام الصادرة ضدهم، أي ضد الذين انحرفوا ولو بدرجات خفيفة، عن قضاء وحكم الديانة الكاثوليكية.

وبالاضافة إلى هذا، إن جزيرة صقلية، التي هي النصير الروحي للقديس بطرس، والتي هي بين يدي الأمير المذكور، بمثابة إيجار من الكرسي الرسولي، هذه الكنيسة، قد تدنت من قبله إلى حالة من الفراغ والعبودية، أما ما يتعلق بكل من الكهنة والعلمانيين، فإنهم قد طردوا من

بيـوتهم وأخرجـوا من البلاد مع الإهانات،وذلك بعـدما جـردوا من جميع ممتلكاتهم، والذين قد بقيـوا هناك، قد أرغموا على العيش في حـالة عبودية، حسبما هو الحال، وأن يهينوا، ويهاجموا الكنيسـة الرومانيـة بكثير من الطرق المضاعفة، وهم الذين بالفعل رعاياها وأتباعها في الجزء الأكبر.

وهو ينبغي أيضـاً لسبب جيـد أن يلام، لأنه أوقف لمدة تسعـة أعـوام وأكثر، دفع الجعالة السنوية، التي مقدارهـا ألف قطعة، التي مرتبط بدفعها إلى الكنيسـة الرومـانيـة، مقـابل ايجار المملكة المذكـورة، ونحن بناء عليـه، بعدمـا تداولنا بنضج وبدقة مـع إخواننا الكرادلة، والمجمع المقـدس حول الأفاعيل التي تقدمت تسميتها أعلاه، وأفاعيل أخرى شائنة اقترفها، ورأينا —مع أننا لانستحـق— أننا على الأرض نمتلك سلطات مـولانا يسـوع المسيح، الذي قال إلينـا بشخص القديس بطرس: (إن كل مـا سوف تربطه على الأرض، سوف يكون مربوطاً في السماء، و، إلخ)، ولذلك نحن نعلن، أن الأمير الذي تقـدمت تسميته أعـلاه، والذي حول نفسـه لأن يكون غير جدير، بمراتب السلطة، وأنه بالنظر لجرائمه، قد جرى خلعه من عرشه من قبل الرب، وليكون مربوطاً بذنوبه، وملقى به منبوذاً من قبل الرب، ومجرداً من جميع مراتبه الشرفية، ونحن هنا نحكـم عليه ونجرده، ومعه جميع الذين هم مـرتبطون به بأية طريقـة من الطرق، بيمين الولاء، ونحن نحلل هؤلاء بشكل دائم، ونلغي التـزامهم بذلك اليمين، ونمنع بكل دقـة، بمـوجب السلطات الرسـوليـة، أي واحـد من إطاعتـه، أو أن يحاول بأية طريقـة من الطرق اطاعتـه كـامبراطور أو ملك، ونحن نرسم، بأن أي واحـد، سـوف يقدم إليـه، من الآن فصاعـداً، مساعـدة أو نصيحة، أو أن يظهـر نحوه أي تعـاطف، كامبراطـور أو ملك، سوف يكون بحكم الأمـر الواقع، محرومـاً كنسيـاً، ويمكن للذيـن في الامبراطورية، الذيـن إليهم آل شأن انتخـاب امبراطور، أن ينتخبوا بحرية خلفـاً يحل محله، أما فيما يتعلق بمملكة صقلية المتقدمة الذكـر، سوف نقوم، مع نصيحة إخـواننا الكرادلة، بتقديم حل لها

حسبما يكون مناسباً لنا. صدر في ليون، في السادس عشر من تموز، في السنة الثالثة من حبريتنا».

مغادرة وكلاء الإمبراطور في حالة اضطراب

وعندما جرى نشر هذه الرسالة في المؤتمر المعلن، أصابت بالرعب جميع الذين سمعوها، وكأنها كانت تنشر بريقاً، أما المعلم ثاديوس دي سوسا، وولتر دي أوكرا Ocra, ومعه الوكلاء الآخرين للامبراطور، وخدمهم، فقد تلقوا ذلك بدهشة وأسف، حيث كانوا يضربون أطرافهم وصدورهم، ولم يتمكنوا من حبس أنفسهم عن البكاء وذرف الدموع، وقال المعلم ثاديوس صارخاً وقد علته الدهشة: «آه، إنه يوم مخيف، إنه يوم غضب، يوم مصيبة، وشقاء»، وفي تلك الأثناء، كان البابا وقد جلس من حوله الأساقفة في المجمع، قد تفوهوا مزمجرين، والشموع مشتعلة، بقرارات الحرمان الكنسي ضد الامبراطور فردريك، ووقتها قام وكلاؤه بالانسحاب وهم في حالة اضطراب.

مراسيم من أجل التفريج عن الأرض المقدسة وحول شؤون الصليب

وكان البابا مليئاً بالقلق من أجل التفريج عن الأرض المقدسة، وحول مايتعلق بشؤون الصليب، ولذلك عمل الخطابات التالية، حول هاتين القضيتين: «مطعونين في القلب، ذلك أننا نعاني من رعب محزن حول الأرض المقدسة، وبشكل خاص حول ماحدث مؤخراً إلى المسيحيين الذين يعيشون هناك، ونحن نمتلك الرغبة من قلبنا كله، لأن نفرج عنها، ولقد قررنا بالتداول مع المجمع المقدس، أن نقوم بوساطة الدومينيكان ورسلنا الخاصين، بدعوة جميع المسيحيين الحقيقيين، الذين عملوا ترتيبات لعبور البحر، في أن يستعدوا لحمل الصليب، وأن يجتمعوا في وقت موائم من أجل هذه الغاية، وأن يكون ذلك في مكان مناسب، منه يمكنهم السير

إلى مساعدة الأرض المقدسة، محاطين بالمباركة اللاهوتية، وكذلك بمباركة الكرسي المقدس، ويتوجب على الكهنة، وعلى رجال الدين الآخرين، الذين من الممكن أن يكونوا مع الجيش الصليبي، سواء أكانوا من المراتب الدنيا، أم كانوا أساقفة، أن يشغلوا أنفسهم، بإثارة الناس وتحريضهم بشكل متواصل، وبالصلاة وبالتعليم لهم، بالكلمة وبالفعل، وأن يضعوا دوماً أمام أعينهم الخوف من الرب، وحبه، وأن لايقولوا أي شيء، أو يفعلوه، يمكن أن يغضب جلالة الملك السرمدي، وإذا ما حدث في أي وقت من الأوقات وسقطوا في الذنب، عليهم أن ينهضوا سريعاً من جديد، مع توبة صحيحة، وأن يقودوا أنفسهم بكل تواضع، في كل من القلب والجسد، وأن يتمسكوا بالاعتدال بطعامهم وكذلك بلباسهم، وأن يتجنبوا تماماً الخلافات والمنازعات، وأن يزيلوا من أنفسهم كل حقد وكل حسد، وبذلك فإنهم عندما سيكونون محميين بالأسلحة الروحية وكذلك الأسلحة الدنيوية، يمكنهم القتال بأمان أكثر ضد أعداء الإيمان، غير معتمدين —على كل حال— على قوتهم أنفسهم، بل يثقون بالفضيلة اللاهوتية، و يتوجب على نبلاء الجيش ومقدميه، وعلى كل الذين يمتلكون وفرة من الأموال والثروات، أن يجري تحريضهم بوساطة التحذيرات ومحرضات الأساقفة، أن يتمنعوا —احتراماً منهم للمسيح، الذي من أجله حملوا شارة الصليب— عن جميع النفقات الفارغة والتي هي بلا فائدة، وبشكل خاص عن الذين يقومون بكثير من الاحتفالات، ويكثرون من الانفاق على الطعام الباهظ الثمن، وأن يحولوا أموالهم لاستخدامات أولئك الأشخاص الذين يمكن لشؤون الرب، أن تتقدم بوساطتهم، وإلى هؤلاء، بناء على هذا، سوف يجري منحهم عفواً عن ذنوبهم، وفقاً لحسن تصرف الأساقفة المذكورين، وإلى الكهنة المتقدم ذكرهم قد منحنا مهلة الاحتفاظ بمنافعهم لمدة ثلاثة أعوام، وذلك بأن تكون كاملة، وكأنهم مقيمون في الكنائس، وإذا كان ضرورياً يمكنهم وضعهم تحت الوصاية خلال تلك الآونة، وفي سبيل —بناء عليه— أن لايتراجع هذا التصميم

المقـدس، أو أن يعـاق بأي شكل من الأشكال، نحـن نأمـر بكل دقـة جميع الأساقفة، كل جماعة منهم في أمـاكنهم، أن يقوموا بكل نشاط بانذار واقناع الذين وضعـوا الصليب جـانبـاً، بأن يعيـدوا حمله، وأن يرسمـوهم هم مع الآخـرين بتلك الاشـارة المقدسـة، وأن يقـوم الذين مـازالوا يرتدون تلك الشارة، بالوفاء بنذورهم إلى الرب، وإذا كان من الضروري، بإرغامهم على فعل ذلك، بوسـاطة قـرارات الحرمـان الكنسي، والحرمـان مـن شراكـة المؤمنين، واضعين جانباً كل الأعذار.

وبالنسبـة إلى هذا المقصد، مـن غير الممكن حذف أي احتمال في شـؤون مولانا يسـوع المسيح، وإنها ارادتنا وأوامرنـا، بأن يقوم البطاركـة، ورؤساء الأسـاقفة، والأسـاقفـة، ورعاة الـديرة، والآخرين الذيـن يتولون معـالجة الأرواح، بالتبشير بحماس بكلمـة الصليب، إلى الشعـب الذي عهـد به إلى عنايتهـم، وباسم الأب، والابن، والـروح القــدس، وهم الـرب الحقيقي الواحــد، والواحـد فقط، وأن يلتمســوا بحـرارة من الملـوك، والأمـراء، والدوقات، والمركيزات، والايرلات، والبارونات، والنبلاء الآخرين، ومن الفئات التي تكونـت في المدن، والبلدات، والقـرى، ومن الذين لم يـذهبـوا بأشخـاصهم إلى الأرض المقـدسة، لتقـديم عـدد كاف مـن العساكـر، مع النفقــات الضـرورية، لمدة ثلاثة أعــوام، وفقـاً لإمكـاناتهم، من أجل محي ذنوبهم، حسبما جرى التعبير عنه في الرسائل العـامة، التي أرسلناها مؤخراً إلى جميع أنحــاء العــالم، والتي —من أجل ضمان أعظم— سـوف يجري التعبير عنها أدناه».

ملاحظة تتعلق بالرسالة

«وهذه الأشيـاء كلهـا قـد كتبت في سنـة النعمـة ألف واحـدة ومـائتين وثلاث وأربعين، قبل أي قداس بليغ»، انظر بعد موت رتشارد مارشال.

«وفي محي الذنوب هـذا، نحن نرغب بأن نكـون شركـاء ليس فقط مع

الذين يقدمون سفنهم، بل مع الذين يشغلون أنفسهم في بناء سفن من أجل المناسبة، إنما بالنسبة للذين يرفضون إنه إذا ما صدف وكان هناك عدم عرفان إلى مولانا الرب، عليهم أن يحتجوا لصالح الكرسي المقدس، حتى يمكن أن يعرفوا أنه في يوم الحساب الأخير الدقيق، عليهم أن يجيبونا عن هذا أمام قاض مرعب، وقبل ذلك —على كل حال— طلب منهم أن يقدروا بأي ضمير، أو بأي أمل بالسلامة سوف يكونوا قادرين على الظهور أمام الابن المنجب الوحيد للرب، الذي أودع الرب بين يديه جميع الأشياء، فإذا ما رفضوا في هذه القضية —بشكل شاذ جداً لذاتهم— أن يخدموه، وهو الذي كان قد صلب من أجل ذنوبهم، والذي بعطيته هم يعيشون، وأنهم بلطفه هم مدعومون، وأنهم بدمه قد جرى انقاذهم.

وبموافقة المجمع كله بشكل عام، نحن نرسم، أنه يتوجب على جميع الكهنة، سواء من المراتب الدنيا، وكذلك من الأساقفة، أن يسهموا بجزء من عشرين من جميع موارد الكنيسة، من أجل مساعدة الأرض المقدسة، لمدة ثلاثة أعوام كاملة، بأيدي أشخاص، سوف يكونوا متسمين بحكمة الكرسي المقدس من أجل هذه الغاية، متوقعين —على كل حال— أن يكون هناك بعض الرهبان، الذي يمكن أن يكونوا معفيين من مثل هذا الاسهام، على أرضية صحيحة، وكذلك أولئك الذين حملوا الصليب، أو أنهم على وشك حمل الصليب، وهم سوف يسيرون إلى الأرض المقدسة، شخصياً، أما نحن مع إخواننا كرادلة الكنيسة الرومانية المقدسة، فلسوف ندفع عشراً كاملاً، ونحن نود أن يعلم جميع الناس، أن عليهم فعل هذا، تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، وبناء عليه فإن الذين سيعرفون بممارسة الغش في هذه القضية، سوف ينالون عقوبة الحرمان الكنسي.

وإنه بموجب التقدير العادل، حقيق بالذين يعملون بخدمة الحكم الرباني، أن يتمتعوا بجزاء خاص، فالذين سوف يحملون الصليب سوف يعفون من الاسهام ومن الضرائب، ومن التكاليف الأخرى، وبعد حملهم

للصليب سوف نتسلم أشخاصهم وممتلكاتهم تحت حماية القديس بطرس، وحمايتنا، وقد رسمنا أيضاً، بأن تظل ممتلكاتهم تحت حماية رؤساء الأساقفة، والأساقفة وقساوسة كنيسة الرب، ومع هذا فلسوف يجري تعيين حماة موائمين لهذا الغرض الخاص من قبل أنفسنا، وبذلك يمكن لممتلكاتنا أن تبقى دون إزعاج وكاملة، حتى يمكن الحصول على خبر مؤكد حول عودتهم، أو موتهم، وإذا ما أقدم إنسان على أن يعمل عكس هذا، سوف يجري ضبطه بوساطة الروادع الكنسية.

وإذا ما كان أي واحد من هؤلاء الذين سوف ينطلقون بهذه الحملة، مرتبطاً بيمين بأن يدفع فائدة، نحن نأمر الذين هم مقرضين لهم، تحت طائلة العقوبة المتقدمة ذكرها، أن يقوموا باعفائهم من اليمين الذي عملوه، وأن يتوقفوا عن مطالبتهم بالفائدة، وإذا ما حاول أي واحد من مقرضيهم ارغامهم على دفع الفائدة، نحن نأمر بارغامهم على إعادة المبلغ نفسه، تحت طائلة عقوبة الحكم نفسه، ونحن نأمر، بأن يجري إرغام اليهود بوساطة السلطات العلمانية على إلغاء الفائدة، وإلى أن يقوموا بإلغائها، سوف يكونوا ممنوعين من الاتصال مع المسيحيين، بوساطة استخدام حكم الحرمان الكنسي، أما فيما يتعلق بالذين لايمكنهم في الوقت الحاضر أن يدفعوا ديونهم إلى اليهود، على رجال السلطات العلمانية، أن يقوموا بوساطة تأخير مفيد، عمل ترتيبات تقضي، أنه من الوقت الذي سوف ينطلقون به بالحملة، حتى يمكن الحصول على خبر، إما عن عودتهم، أو عن موتهم، وإلى ذلك الوقت لن يتعرضوا لمضايقات دفع فائدة، وبالنسبة لليهود المرغمين —إنهم بعد حذفهم جميع النفقات الضرورية— سوف يحسبون عائدات المال المتعهد به، التي تسلموها في الوقت ذاته كجزء من الدين، لأن فائدة من هذا النوع لايبدو أنها تسبب خسارة كبيرة بالالتزام بها، ثم إنه بتأخير الدفع، لايعني ذلك إلغاء الدين، وبالإضافة إلى هذا، فإن أساقفة الكنائس الذين سوف يظهرون أنفسهم مهملين في تقديم العدالة

إلى الذين حملوا الصليب، أو إلى أسرهم، عليهم أن يكونوا متأكدين بأنهم سوف ينالون عقوبات قاسية.

ومجدداً إنه بالنسبة للقراصنة ولصوص البحر، الذين يعيقونا كثيراً عن إرسال المؤن والإمدادات إلى الأرض المقدسة، بالاستيلاء على الذاهبين إلى تلك البلاد والآيبين منها، ونهبهم، إننا نحرمهم كنسياً، ونحرم معهم مساعديهم الرئيسيين ومحرضيهم، ونمنع كل واحد إذا كان مدركاً لها، تحت طائلة عقوبة التكفير، من القيام بالاتصال بهم، في أية قضية من البيع أو الشراء، ونحن نفرض على حكام المدن والأماكن الأخرى، بأن يوقفوا وأن يحبسوا القراصنة المذكورين، ومنعهم عن ممارسة هذه الآثام، ومن جهة أخرى، بما أن رفض ازعاج الأشرار، ليس أقل من رعايتهم، فكل من يتمنع عن معارضة الجريمة الظاهرة، ليس معفياً من الشك فيه أن له تنسيق سري مع المقترفين للجريمة، وبناء عليه، إن إرادتنا وأمرنا، يقضيان باتخاذ إجراءات لاهوتية قاسية ضدهم، ووضع ذلك قيد الممارسة من قبل أساقفة الكنائس.

ونحن علاوة على ماتقدم نحرم كنسياً ونكفر المسيحيين الزائفين والأشرار، الذين في معاداة منهم للمسيح، ولشعب المسيح، يحملون السلاح إلى المسلمين، والحديد، والخشب من أجل غلايينهم، والذين يبيعونهم غلايين أو سفناً، وكذلك الذين يشغلون مناصب قباطنة في السفن الاسلامية، وكذلك الذين يقدمون إليهم أية نصيحة أو مساعدة في آلاتهم الحربية، أو في أية قضية أخرى، تؤدي إلى الاضرار بالأرض المقدسة، ونحن نرسم بأن مثل هؤلاء سوف يغرمون بمصادرة جميع ممتلكاتهم، وسوف يكونون خدماً للذين سوف يلقون القبض عليهم، ونحن نأمر أن يعاد نشر مثل هذا القرار ضدهم، في كل يوم أحد، وكل يوم عيد، خلال جميع المدن على شاطىء البحر، وأن صدر الكنيسة سوف لن يكون مفتوحاً لمثل هؤلاء الأشخاص، ما لم يقوموا بتحويل كل ما تلقوه

من هذه التجارة الملعونة، ومثل ذلك أرباح ممتلكاتهم، إلى مساعدة الأرض المقـدسة، وبذلك يمكن أن يعـاقبوا بقضـاء غير منحاز، وفقـاً لأخطائهم، ولكن إذا صـدف أنهم لم يستطيعـوا دفع هـذا، إن كل من هو مجرم باقتراف مثل هذه الأعمال، سوف يعاقب بطريقـة أخرى ما، في سبيل منع أي واحد آخر عن الإقدام على اقتراف مثل الإجراءات الآثمة.

وعـــلاوة على ذلك إننـا نمنع جميع المسيحيين، ونـوقفهم تحت طـائلة التكفير، عن نقـل سفنهم إلى أراضي المسلمين الـذين يسكنـون في الشرق، خلال مدة مقدارها أربع سنوات، لأنه بهذه الوسـائط سوف تتوفر كميات عظيمـة من السفن، مـن الممكن الحصـول عليهـا لصـالح الـذين يرغبـون بالذهاب إلى مساعدة الأرض المقدسـة، وإنه بذلك يمكن حرمان المسلمين من المساعدة، والتي كانوا بهذه الوسائط يحصلون على فوائد كبيرة.

ومع أنه في كثير من المجامع العـامة جـرى تحريم المبارزات، تحت طائلة عقـوبة محددة، وبما أن الحملة الصليبيـة الآن معـاقـة كثيراً بهذه المبـارزات، نحن نحرم بكـل دقة عقدها لمدة ثلاثـة أعوام، تحت طائلة عقـوبة الحرمان الكنسي، وفي سبيل تنفيـذ هذه القضـايـا، من الضرورة بمكان، وفـوق كل شيء، أن يكون أمراء المسيحيـة وشعوبها بسـلام فيما بينهم أنفسهم، ونحن على هذا نرسم بناء على نصيحـة المجمع العـام، أن تجرى مـراعـاة السـلام بشكل عـام في جميع أرجـاء العـالم المسيحـي، لمدة لاتقل عن أربع سنوات، وأنه بوسـاطة تدخل أسـاقفـة الكنائس، من الممكن إقنـاع الذين هم على خلاف بأن يقـوموا من دون تقصير بمراعاة سـلام كامل، أو على الأقل أن يرتبطوا بهدنة، وإذا ما رفض أي واحد التماشي مع هذا سوف يرغمون على مجاراة ذلك وتطبيقـه، بإصدار عقـوبة الحرمـان الكنسي ضد أشخـاصهم، والحرمـان من شراكة المؤمنين ضـد أراضيهم، ما لم تكن أضرار أذاهم، قـد بلغت إلى درجة، تحول دون تمتعهم بمثل هـذا السلام وإذا ما دفعـوا قليلاً من التقـدير، أو لاشيء إلى الروادع الكنسية، سـوف يمتلكون سبباً جيـداً،

لأن يخافوا، بأن نفوذ الكنيسة، سوف يجلب بالضغط عليهم من قبل السلطات العلمانية، بحكم أنهم مفسدون لشؤون المصلوب.

وإننا بناء عليه، نمنح بوساطة رحمة الرب القدير، واعتماداً على سلطة الرسولين المباركين: بطرس، وبولص، وعلى السلطة التي منحنا الرب إياها —مع أننا غير جديرين— وهي الحل والربط، إلى جميع الذين سوف يدخلون لأداء هذا الواجب بأشخاصهم، وعلى حسابهم ونفقتهم، عفواً كاملاً عن ذنوبهم، التي سوف يتوبون منها، ويعملون اعترافاً حقيقياً، مع قلوب نادمة، وكجائزة إلى المستقيمين، نحن نعد بزيادة هي خلاص سرمدي، إلى الذين لايذهبون إلى هناك بأشخاصهم، بل إنهم —مع ذلك— سوف يرسلون أشخاصاً موائمين إلى هناك على حسابهم الخاص، وذلك وفقاً لإمكاناتهم ومراتبهم، ونحن أيضاً نمنح إعفاءً تاماً من الذنوب، كذلك إلى الذين سوف يذهبون إلى هناك بأشخاصهم، مع أن ذلك على حساب واحد آخر، وبالنسبة إلى هذا الإعفاء نحن نرغب، ونسمح بالمشاركة (وفقاً لمقدار مساعدتهم ولطبيعة اخلاصهم) إلى جميع الذين سوف يقدمون مساعدة كافية إلى الأرض المقدسة، من ممتلكاتهم، أو أنهم سوف يقدمون عوناً مفيداً ونصيحة حول المسائل المتقدم ذكرها، وإلى جميع الذين يقدمون بتقوى العون في هذا العمل، سوف يخصه المجمع المسكوني المقدس بمساعدة أدعيته، ورغباته الطيبة، فذلك يمكن أن يكون له وزن مفيد نحو ضمان خلاصهم. آمين».

مايتعلق بقرار الحرمان الكنسي

«يتسبب القضاة بالأذى، عندما يسيئون استخدام الروادع الكنسية، وقت سعيهم باخلاص لفصل البريء عن صدر أمه الكنيسة، وذلك بسبب خطيئة فئة أخرى، التي نجد بسببها أن الشخص الذي وسم بشكل غير صحيح، هو لم يتضرر، لكنه أصبح جانبياً متهماً، وإنه بناء عليه، وفي سبيل تجنب هذه الرعونة، أو بالحري انعدام البراعة، لمثل هؤلاء

الأشخــاص، إننا بهـذه العـروض نرسـي مـرســوماً، يقضي أنـه لايجـوز لأي قاض، قبـل اتصاله مع رجـال القانون، الاقـدام على الحرمان الكنسي بوساطة أي حـرمان كنسي صغير، ضد الذين أصبحـوا شركاء مع شخص محـروم كنســياً من قبلهـم، لعقـــده محادثـات معـــه، أو أي شيء آخـر بوساطته تحولا إلى شركاء، باستثناء —على كل حال— الأحكـام القانونيـة الـتي أذيعت ضـد الذين تجرأوا على المساهمة في جـريمـة أخرى، قـد أدين بموجبها.

لكن إذا مـاسقط شخص بوسـاطة المحادثـة، أو الاستخفاف بالأشيـاء المقدسـة، أو بأية وسـائط التي بموجبهـا، المشاركة مـع انسان محروم، تحت حكم صغير، إنه سـوف ينال عقوبة الحرمـان الكنسي الأعظم، من أجل أن يتمكن بسهـولـة أكبر أن يعـود بوسـاطة تكفير ســالف، للحصـــول على التحليـــل، ويمكن للقاضي بعد الاتصـــال القانوني، أن يـزور المتشـاركين مـع ذلك الشخصي نفســه، مع عقوبة مشابهة، وإلاّ فإن عقـوبة الحرمان لن تكون جيدة ضد المشـاركين، والذين يتفوهون بالحكم، سوف يكون لديهم سبباً للخوف من عقوبة شرعية».

العقوبة من أجل تمرد عدواني على شخص غائب

«إذا مـا تخاصم أي شخص مع متملك آخر، حـول مايتعلق بأية منفعـة مرتبطة بمـرتبة، أو شخص، أو أية منفعـة لاهوتية، على أسـاس اعتداء فئة مخاصمـة في سبيـــل الحفــاظ على تملـك الشي نفســه، نحن نرســـم بأن لايوضع بالتملك، خشية أن قبوله بهذه الـوسائط يمكن أن يظهر أنه خطأ، ومـن الممـكن —على كل حال— أن يكون قانونياً في هذه القضيـة، حسبما يفعـــل الحضور الـلاهوتي من أجل غياب الفئـة المتمردة، مع أن القضيـة لم تجـلب للمحـاكمـة، للقيـام بفحص دقيق، ومن أجــل القـرار الصحيـح حـــول الشيء نفسه».

وجوب عدم وضع أي معيق لمحاكمة أية قضية خلافية

«إن التدخل، قبل عرض القضية على المحاكمة، مثل الاستثناءات الوقفية، أو أي اعتداء رئيسي عائد للاعتراف بالقضية، أو وارد فيها، مالم يعمل المتقاضي استثناءً في قضية المسألة قيد المحاكمة، أو الصفقة أو اتخاذ قرار، لن يعيق أو يوقف محاكمة القضية، مع أن المعترض قد يقول بأن جواباً قد تم الحصول عليه، في القضية، حيث أسس الاعتراض للمدعي قد عملت معروفة للادعاء».

لا يعهد بالقضايا إلى وكيل قضاة ما لم يكن ذلك في أماكن معروفة جيداً

«في الحلول والتسويات النهائية لأعمال القضايا، الغموض مكروه، وينبغي تجنبه، وإذا لم يوجد أي شيء حول الأشخاص والأماكن فهذا موائم كثيراً ويوصى به، وفي هذه القضية، فكرنا لذلك أنه من الموائم أن نرسم، وأن نأمر بكل دقة، بأن ما من قضايا سوف يعهد بها من قبل الكرسي الرسولي أو وكلائه، إلى أي فريق، ما لم يكن ذلك إلى أشخاص موهوبين بمؤهلات موائمة، أو معينين في كنائس كاتدرائية، أو في تجمعات أخرى محترمة، وأن مثل هذه القضايا لن تجري مناقشتها في أية أماكن، بل في المدن، أو في الأماكن الواسعة المتميزة، حيث يمكن توفر عدد من البارعين في القانون، وأية قضاة هم معارضون لهذا المرسوم، وسوف يستدعون واحداً من الفريقين، أو كلاهما، إلى أية أماكن أخرى، يمكن عدم طاعتهم مع افلات من العقاب، مالم يكن الاستدعاء قد صدر بموافقة الطرفين».

لن يسمح بالاستدعاء إلى مستدعي متمرد

«إذاً ما أهمل أي مستدعي الظهور في التاريخ المحدد الذي استدعى إليه خصمه، سوف يحكم عليه قانونياً، إلى الشخص المتهم— إذا ماظهر—

بالنفقات التي تحملها في القضية، ولن يسمح له القيام باستدعاءات أخرى، مالم يقدم ضمانات كافية بأنه سوف يظهر في الموعد الذي تقرر».

لايجوز إرغا م أي واحد على الظهور أمام قضاة مختلفين من أجل أعمال شخصية مختلفة

«نحن نرغب بكل الوسائط الممكنة بأن نزيل، وأن نبقي في حدود العدالة، نفقات القضايا التي هي موضع خلاف، ونحن نوسع مرسوم البابا انوسنت الثالث، صاحب الذكرى الطيبة، الذي أعلن حول هذه القضية، وهو مرسوم قضى وأمر، أنه إذا ما اختار أي واحد أن يحضر عدة أعمال شخصية ضد آخر، عليه أن يسعى للحصول على تراخيص تتعلق بجميع القضايا، ليس من عدة قضاة، بل من واحد فقط، وإذا ماسيقدم أي واحد على العمل بشكل معاكس لهذا المرسوم، فلسوف يحرم من جميع منافع التصاريح وفوائدها، والإجراءات القضائية التي تمّ الحصول عليها، بناء على قوتها، سوف تصبح لاغية، وعلاوة على هذا سوف يقضى عليه بأن يدفع جميع النفقات القانونية إلى المدعى عليه، إذا ما تعرض للأذى بوسائطهم، وكذلك إنه إذا ما أقدم المدعى عليه أثناء المحاكمة فبيّن بأن المستدعي مرتبط به بتعويض أو ميثاق، فإنه إذا مارغب بالحصول على ترخيص ضد المدعى عليه، فإن عليه أن يطالب بحقه أمام بعض القضاة، مالم يستطع أن يرفضهم على أساس أنهم موضع ريبة، وكل من سوف يقف ضد هذه الإجراءات سوف يعاقب مثل ذلك».

حول الأشخاص الذين سوف يرغمون على الظهور أمام القضاء

«لايبدو أنها نقطة في القانون، إذا ماقام قاض مناسب، لم يتسلم أمراً خاصاً من الكرسي الرسولي من أجل ذلك، أنه لايستطيع أن يأمر أياً من الفريقين على الظهور شخصياً أمامه للمحاكمة، مالم تكن القضية قضية إجرامية، أو أنه سوف يأمر الفريقين على الظهور شخصياً أمامه، بقصد ذكر

الحقيقة، أو أداء يمين حول مايدعيانه».

مايتعلق باقتراحات سلبية

«نحن نرسم ونأمر بوجوب عدم قبول القضاة بشهادات سلبية، لايمكن برهنتها، مالم يكن ذلك من الفئة المضادة، عندما يرون في العدالة الموائم».

حول الانتخاب

«إنه بالنسبة للأيام والظروف الأخرى من أجل الإجراءات القضائية، ليست هناك حاجة إلى إقرار قانوني، وبين الإجراءات القانونية، يعدّ إقامة الانتخاب من أجل حبر أعظم، هو الأعظم أهمية، وهو يماثل ببعض الروابط زواجاً روحياً، يجري عقده بين المنتخبين والمنتخب، ونحن نشجب ونحرم في الانتخابات، التسميات والتدقيقات، التي منها صدرت حقوق الانتخاب، وكل الأصوات التي هي شرطية، ومتغيرة، وغير مؤكدة، ونحن نرسم بأن جميع الأصوات التي هي من هذا النوع أن تعدّ وكأنها لم تعط مطلقاً، فكل الانتخابات ينبغي أن تصدر عن موافقة حرة للجميع».

استطراد يتعلق بأمراء ألمانيا

«إن نبلاء ألمانيا، الذين لاينتخبون الامبراطور هم:

— ملك بوهيميا.

— دوق اللورين.

— دوق برونزويك Brunswick.

— دوق سوابيا.

— اللاندغريف أوف ثورنجيا.

— دوق أوف ليمبورغ Lemburg.

— دوق أوف كارينثيا Carinthia.

— دوق سكسوني.

— كونت غويلدرس Gueldres.

والمنتخبون للامبراطور هم كما يلي:

العلمانيون

— دوق النمسا.

— دوق بافاريا.

— دوق سكسوني.

— دوق برابانت (الذي هو دوق لوفين Louvain).

الأساقفة

— رئيس أساقفة كولون.

— رئيسا أساقفة: مينس Mayence وسالزبورغ Salzburg.

وهم الرئيسيون.

ويجري نقل هؤلاء الذين يحق لهم الانتخاب، إلى جزيرة في نهر الراين، ويتركون هناك لأنفسهم، فجميع القوارب سوف يجري نقلها، وهناك يناقشون انتخاب الامبراطور، وما من أحد سوف يذهب إليهم، حتى يتفقوا في اختيارهم، وتكون الرئاسة في هذه القضية إلى رئيس أساقفة كولون، ورئيس أساقفة مينس هو الثاني بعده، ورئيس أساقفة سالزبورغ هو الثالث».

وإلى هؤلاء المنتخبين جرى ارسال انذارات عـاجلة جداً والتماسات من قبل البابا، بأن عليهم انتخـاب امبراطور آخر عليهم، وقد وعـد بالنصيحة والمساعدة منه شخصياً، ومن الكنيسة كلها، وقد وعدهم بالمقام الأول، مع أمل النجـاح بخمسة عشر ألف باوند مـن الفضة، وقـد مُـنع هؤلاء بقـوة حجج الامبراطور فـردريك، الذي كـان متحـداً معهم بروابط القـرابة، وخـاصـة مع دوق النمسا، ولـذلك أظهر المنتخبـون قليـلاً من الطاعـة إلى انذارات البابا والتماساته.

لايجوز جلب الناس من مسافة أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة لحضور محاكمة

«في العـديد من نقـاط القـانـون، كثيرها وقليلهـا، مـايستحق الشجب، ولذلك فكرنـا أن من الموائم بشكل حكيم أن نرسـم: إنه بالنسبـة للفقـرة العامة التي تبدأ بـ (بعض آخرين، إلـخ) التي غالباً ما أقحمت في رسائلنا، الناس سـوف لن يجلبون من مسـافة سفر ثـلاثة أيام أو أربعة للمحـاكمة، ورسمنا أيضـاً أن الحماة —الذين منحناهم إلى عـدة فئات— يمكنهم أن يدافعوا عن الذين عهدنـا بهم إلى حمايتهم، ضد العنف والايذاء المكشوف، لكن ليس لديهم السلطة لمدّ حمايتهم إلى أشياء أخرى تتطلب حـرماناً كنسياً قضائياً».

لايجوز لأحد إعاقة الانتخابات أو التسميات

«نحن نرسم إنه إذا ما أقدم أي واحد على إعاقة انتخابات، أو تسميات، أو عمل تجهيـزات، بالقيـام بأي اعتراض على صيغ أو أفـراد، وتمّ عمل التماس إلينا نتيجـة لذلك، على الفئتين: الفئة المعـارضة والفئة المدافعـة عن الالتماس، مع جميع الذين لهم عـلاقـة بشكل عـام بالقضيـة، الانطلاق إلى الكرسي المقـدس، خـلال شهـر من وقـت عمل الاعتراض، إمـا بأنفسهم شخصياً، أو بإرسالهم وكلاء، قد عهد إليهم بالقضية، لكن أية فئة منتظرة لم

تظهر خلال عشرين يوماً بعد وصول الفئة الأخرى، إن مسألة الانتخاب سوف تجري وفقاً للقانون، دون الاهتمام بغياب أي واحد، وإن ارادتنا تقضي وكذلك أوامرنا بمراعاة هذه الأحكام، في الأسقفيات، ومن قبل الأشخاص، والكهنة».

العقوبة التي توقع على الذين يخفقون في براهينهم

«وعلينا أن نضيف أنه إذا ما أخفقت أية فئة في تقديم برهان كامل على الذي عرضته في الصيغة، هي سوف يحكم عليها بأداء النفقات، التي سوف تبرهن الفئة الثانية بأنها قد دفعتها وتكبدتها في هذه المسألة، وليتأكد كل واحد سوف يخفق في البرهنة على الاعتراض الذي عمله ضد أي شخص مهما كان، بأنه سوف يعلق من الإفادة من المنافع اللاهوتية لمدة ثلاثة أعوام، وإذا ما أقحم نفسه أثناء ذلك وورطها بطيشه سوف يحرم بشكل عادل من منافعه إلى الأبد، من دون أي أمل بالحصول على الرحمة في هذا المجال، مالم يظهر ببراهين واضحة تماماً ومنطقية، وبما يكفي من تعليل بأنه قد تبرأ من الخطيئة التي اقترفها».

واجبات النائب البابوي

«إن واجب منصبنا هو التجهيز والاسهام للتفريج عن رعيتنا، فلبعض الوقت رفعنا عنهم أعباءهم، وأزلنا أسبابهم للذنوب، وها نحن الآن نتمتع بالراحة في هدوئهم، ونرعى سلامهم، ولذلك إنه بناء على هذه المعطيات، نحن نرسم بأن النواب البابويين للكنيسة الرومانية، عندما يشغلون منصب النيابة البابوية تماماً، سواء أجرى إرسالهم من قبلنا، أو كانوا في أعمال لصالح كنائسهم، سوف يمارسون بأنفسهم الواجبات الكاملة للنيابة البابوية، ولن يكون لهم، بمزية منصب النيابة البابوية هذا، أية سلطة بمنح منافع، مالم نكن قد رأينا أنه من الموائم بشكل خاص منح هذه السلطة إليهم، وهذا —على كل حال— لانعني مراعاته في قضية إخواننا، أثناء

ممارستهم لواجبات النيابة البابوية، لأنهم يتمتعون بإمتياز شرف، لذلك نحن نخول إليهم بأن يمتلكوا سلطات كاملة».

حول إعادة البضائع المسروقة

«لقد سمعنا بآذاننا شكاوى متوالية ومستعجلة، لأن الالتماسات والمرافعات حول السلب قد جرى تقديمها بشكل زائف، في عملية ملاحقة إدعاء ما، الأمر الذي يعيق كثيراً، ويسبب الاضطراب للقضايا اللاهوتية، وتأتي الالتماسات في بعض الأحيان مستعجلة، ويحدث في بعض الأوقات أن الالتماسات يجري التدخل بشأنها، وبذلك يجري اعتراض سماع القضايا الأساسية، وفي بعض الأحيان يلقى بها جانباً، وعلاوة على ذلك بما أننا نستخدم جهودنا متطوعين للحصول على الهدوء للآخرين، ورغبة منا بوضع حد للتخاصم، وقطع مواد جميع مثل هذه الادعاءات، نحن نرسم أنه بالنسبة للقضايا المدنية، على القاضي أن لايقوم بتأجيل الإجراءات في القضايا الرئيسية، بسبب التماس دعوى سلب يتقدم بها أي انسان، باستثناء المستدعي، لكن في القضايا المدنية، إنه إذا ما تم تقدم الالتماس من قبل المستدعي في قضايا إجرامية، إنه إذا ما أعلن المتهم بأنه قد تعرض للسلب والضرر من قبل أي واحد، عليه أن يبرهن هذا الأمر خلال خمسة عشر يوماً شروعاً من اليوم الذي كان به الادعاء، وإلا فإنه سوف يحكم بدفع النفقات التي تحملها المستدعي، وفي الوقت نفسه، وبسبب ذلك، جرى من قبل فرض ضريبة قضائية، وهو سوف يعاقب أيضاً، بطريقة أخرى ما، إذا بدا ذلك عادلاً بالنسبة للقاضي، وفيما يتعلق بالشخص المتأذي في هذه القضية، إنه عندما يكون الاتهام إتهاماً جرمياً، نحن نرغب إليه أن يتولى تأكيد فيما إذا كان قد تعرض لسلب جميع ما لديه بالقوة، أو لبعض ذلك، ووفقاً لهذا، لابد من الاعتقاد بأن القانونين قالوا بشكل حكيم، بأنه إذا كان عارياً، علينا عدم منافسته، وإذا كان مجرداً من السلاح، ينبغي عدم عمل معارضة في قضية الخطيئة، لأن الطرف المجرد

ن كل شيء، لديه المزية التالية، وهي بما أن عـار: لايمكن تجريده، وهناك
لك عـام وعدم اتفاق بين العلماء، حـول فيما إذا كان الطرف الذي عـانى،
انى من سلب من الدرجة الثالثة، وتقدم بالتماس سلب ضد المتهم، إنه في
ض الأوقات ينبغـي أن يسمح من قبل القاضي، وفي خلال ذلـك بإدعاء
تعـويض، خشيـة حـدوث أنه بذلك يرغـب بتملص كل متهم، وهذا مـا
تقــد بأنه متـوافـق مع العــدل، وإذا لم يقم أثناء الوقـت الممنوح بطلب
تعـويض، ولم يجلب القضية إلى نهاية في الوقت الذي كـان يستطيع به فعل
لك، من الممكن منذ ذلك الحين فصـاعـداً أن يتهم بإعماله الاعتراض على
لبه، وبالاضافة إلى هذا، نحن نرسم بأن سلب الممتلكات الخاصة، سوف
ن يجري الترافع من أجله في القضايا اللاهوتية، أو العكس».

حول الاتهامات

«مع التعـاطف التقـديري، رسمـت الكنيسـة الأم، بأن الترافع من أجل
لحرمان الكنسي الأعظم، في أي جزء من المحاكمـة قد وضع، سوف يؤخر
قضيــة، ويحجـز الفـرقــاء، وبأنه من هذا من الممكـن أن تكون الروادع
كنسيـة أكثـر إخـافـة، وأن مخاطرة الحرمـان الكنسي يمكن تجنبهـا، ومن
مكن ضبط التمـرد، والأشخاص المحرومين كنسياً، أثناء حرمـانهم من
لإجـراءات العـامــة، يكونون مقهـورين بالعــار والاضطراب، ووقتهـا
كونون ميـالين بسهولة نحـو التواضع والتصـالح، ولكن بما أن شرور بني
لانسـان قـد ازدادت، والذي جـرى تجهيــزه بمثـابة عـلاج قـد تحول إلى
رهم، لأنه غـالبـاً عندمـا التقـدم بهذا الالتماس في قضـايا لاهوتيـة من
ـــلال الشرور، يجري تأخير العمـل، وتتعــــرض الأطراف لـلأذى
لاضطراب والنفقات، وبناء عليـه، بما أن هذا قد تسلل إلى مـا بيننا بمثابة
رض عـام، رأينا من المناسب استخدام عـلاج عام، وإنه بناء عليـه، إذا ما
مل أي واحـد اعتراض على أسـاس الحرمـان الكنسي، عليـه أن يبين نوع
لحرمـان الكنسي واسمــه، وعليـه أن يعلم أن عليــه جلب الأوضـاع إلى

الملاحظة العامة، وأن عليه أن يبرهن عليها بأكثر الوثائق وضوحاً، خلال مدة مقدارها ثمانية أيام دون حساب اليوم الذي تقدم به بالاعتراض، وإذا لم يتمكن من البرهنة على صحة اعتراضه، على القاضي الاستمرار في القضية من دون تردد، والحكم على المتهم بالنفقات التي سوف يبرهن المستدعي بأنه قد تحملها أثناء تلك الأيام، بسبب ذلك الأمر، بالاضافة إلى الضريبة التي جرى أخذها من قبل، ولكن إذا حدث فيما بعد، أثناء المقاضاة، وحل موعد تقديم البرهان، وتم وضع الاعتراض ثانية حول مايتعلق بالحرمان الكنسي نفسه، أو واحد مختلف، وتمت البرهنة على القضية، فإنه سوف يجرى حجز المتهم في الاجراءات المقبلة، حتى يحصل على تحليل، ومن المتوجب ابقاء الاجراءات السالفة قائمة بسلطة كاملة.

شرط: إن الاعتراض لايجوز تقديمه أكثر من مرتين، إلاّ عندما يقوم حرمان كنسي جديد، أو استخلاص برهان واضح وجاهز حول الحرمان الكنسي السالف، لكن بعدما يكون قد قضي بالمسألة، وجرى عرض مثل هذا الاعتراض وتقديمه، إنه سوف يؤخذ بمثابة عذر، ولسوف لن ينال الحكم الذي صدر، قوة أقل، باستثناء حدوث تعرض المستدعي للحرمان الكنسي، وقد علم القاضي بذلك أثناء أي وقت من الأوقات، ومع أن المدافع سوف لن يدخل هذا الاعتراض، على القاضي القيام من دون تأخير، بطرد المستدعي من مكتبه».

حول الحكم والمسألة المتعلقة به

«بما أن قضاء القاضي صاحب الحكم السرمدي لم تجعل مجرماً القاضي الذي أدان بشكل غير عادل، ويشهد على ذلك قول النبي «ليس هو الذي أدانه، عندما صدر الحكم بالإدانة ضده»، ويتوجب على القضاة اللاهوتيين أن يكونوا واعين، وأن يتخذوا احتياطات حكيمة، بعدم السماح بوجود أي تقدير غير صحيح، سواء من كراهية أو حظوة، وعليهم إزالة كل خوف، وعليهم أ لا يسمحوا بقلب العدالة لابوساطة جائزة أو الأمل بنيل جائزة،

بل ليحملوا بالميـزان بأيديهم، وأن يزنوا بالتسـاوي بين الفـرقـاء، وذلك في جميع المسـائل التي أمـامهم على شكـل قضـايا، ولاسيما في تقـرير الأحكام والتفــوه بها، فهنا عليهم أن يضعــوا الرب نصب أعينهم، مقلـدين الذي عندما دخل إلى خيمة العهد، أحال جميع شكايات الناس إلى الرب، له حتى يقـررها بحكمـه وقضـائه، ولكن إذا مـا أقـدم أي قـاض لاهوتي، أو حتى قاض مناب، لايعبأ باسمـه الطيب، وهو مدمـر لشرفه الخاص، فعمل على عكس مايمليـه عليه ضميره، والعدالة، فتـوصل إلى أي قرار لإيذاء أي من الفريقين، من خلال حظوة أو في سبيل ربح قـذر، فسوف يعلق عن ممارسة واجبات وظيفتـه لمدة سنة، وإذا لم يرتدع بهذا، سوف يحكم عليـه بأن يدفع إلى الفريق المتضرر، وفقاً لحجم الأضرار، ونحن نريد منه أن يعـرف أيضاً أنه إذا ما أقحـم نفسه في أيام تعليقه، في الخدمـات الدينية، هو سـوف ينال عقوبة عـدم الالتزام بالنظام، وفقاً لأحكام القـانون، وهي عقوبة يمكنه أن يتحلل منهـا فقط بوساطة الكـرسي الرسولي، باستثناء —على كل حـال— المراسيم التي توجه وتنزل العقوبات على القضاة الذين يعطون أحكاماً غير عادلة، لأنه موائم أن يتلقى أي واحـد يقوم باقتراف مثل هذه الآثام، بمثل هذه الطرق الكثيرة، عقوبات مضاعفة».

مايتعلق بالتماسات التمييز

«إن رغبــة قلبنـا هي إزالة الخصـــومـــات، وأن نحـــرر رعــايـانا من اضطرابـاتهم، وبناء عليـــه رسمنا، إنه إذا ارتأى أي واحـــد كـــان تحت المحـاكمة، أو خـارج المحكمة، أن من الموائم رفع التماس تمييـز إلينا، بشأن إجراءات متشابكة، أو أي أذى ألحق به، وأن يكتب في التماسه اسم القاضي وأن يعبّـر عن سبب التماسه، وعندما لايجري قبول الالتماس، أو حدث أي تأخير بالقضيـة، خـروجـاً عـن الاحترام للرئيس الأعلى، بعـد هذا سـوف يجري منح وقت إلى الملتمس لتقـديم التماس استئنافه، وذلك وفقـاً لمسافـة المكان، ولطبيعة العمل، إذا ما رغب الملتمس بذلك، وإذا مـا طلب الفرقاء

الرئيسيون أوامر موائمة للاجراءات، وجاء الطلب من قبلهم أنفسهم، أو بوساطة الوكلاء، وطالبوا بأسس ووثائق تتعلق بالقضية، على هذا ليذهبوا هكذا مستعدين إلى الكرسي الرسولي، وبذلك إذا بدا موائماً لنا، عندما يجري تقرير مسألة الالتماس، أو يجري اسقاطها بموافقة الفريقين، عليهم السير بالقضية الرئيسية بقدر ما يستطيعون، ويتوجب عليهم بموجب الحق، دون —على كل حال— أن يغيروا المراسيم، التي عملت في القديم حول مايتعلق بالالتماسات المعمولة من قرارات حكم محددة، لكن إذا لم يراع الملتمس المراسيم المتقدم ذكرها، سوف يُعدّ وكأنه غير ملتمس، وسوف يعود إلى قرار القاضي السالف، وأن يحكم عليه بالوقت نفسه بأداء جميع النفقات القانونية، لكن إذا ماقام الشخص المترافع ضده بإهمال هذا البند، فإن الإجراءات سوف تتخذ ضده وكأنه شخص متمرد —وذلك بقدر ما هو مسموح بالقانون— ويدان بسداد كل من النفقات، وماتعلق بالقضية نفسها، لأنه من العدالة بمكان أن تثور القوانين ضد الذي يغش الشريعة والقاضي والخصم».

قرار الحرمان الكنسي

«بما أن المقصود من الحرمان الكنسي هو الشفاء وليس القتل، والتقويم وليس التدمير، شريطة أن لايقوم الذي صدر القرار ضده بالاستخفاف به، ينبغي على القاضي اللاهوتي أن يأخذ حذراً كبيراً، بالتفوه بهذا القرار، ليظهر أنه يتبع طريق المصحح والمعالج، وبناء عليه عندما يريد واحد حرمان أي واحد كنسياً، عليه أن يدون ذلك كتابة، وينبغي أن يضيف بشكل واضح كتابة السبب الذي من أجله جرى التفوه بقرار الحرمان الكنسي، وعليه أن يربط نسخة من هذا المكتوب —إذا تطلب الأمر ذلك— ليرسلها إلى الشخص المحروم، خلال شهر، من يوم إصدار القرار، وحول مايتعلق بقرار الإدانة هذا، تقضي إرادتنا بوجوب تدوين أداة عامة، أو رسائل توثيق تتم كتابتها، وتختم بختم رسمي، وإذا ما أقدم

أي قاضي بطيش على خرق هذا المرسوم، هو سوف يعلق ويمنع من دخول الكنيسة، ومن سماع القداسات، لمدة شهر، وسوف يقوم الرئيس الذي تتم العودة إليه، من دون معارضة، بسحب القرار، وسيقوم بإدانة المذيع له، بأن يدفع جميع النفقات، وأن ينزل به بطرق أخرى عقوبة مناسبة، في سبيل، أننا من عقوبة القضاة، يمكن أن نعلم كم هو أمر جاد الزجرة بقرار الحرمان الكنسي ضد أي واحد من دون مداولات ناضجة، وإن إرادتنا تقضي أيضاً بأن تتم مراعاة هذه الأحكام نفسها في قرارات التعليق والحرمان من شراكة المؤمنين،لأنهم إذا ما قاموا بأداء القداسات —كما من قبل— عندما يكونوا هكذا معلقين، سوف لن ينجون من عقوبة مخالفة النظام، وفقاً للأحكام القانونية، وفي هذه الحالة، سوف لن يكونوا قادرين على الحصول على التحليل، إلاّ من خلال الحبر الأعظم».

حول المسألة نفسها

«إنها مسألة مشكوك بها بشكل عام عند بعضهم، حول عندما يطلب أي واحد أن يتحلل بوساطة أي رئيس على أساس تقديم كفالة، وعلى أن يعلن في الوقت نفسه، بأن قرار الحرمان الكنسي ضده هو ساري المفعول، إن منفعة التحليل سوف تمنح له، من دون أي اعتراض، وإذا ماقام أي واحد قبل هذا التحليل، فعرض، على شرط المحاكمة، بأن يبرهن بأنه قد حرم كنسياً بعد استئناف قانوني، وأن خطيئة ملموسة قد اقترفت بشكل واضح في القرار، وينبغي تجنبها في قضايا أخرى، باستثناء ذلك البرهان المذكور، وإنه بالنسبة لمسألة الشك الأولى، نحن نرسم بأن التحليل لايجوز منع اعطائه إلى أي واحد يسأله، مع أن المصدر للحرمان الكنسي أو الخصم سوف يعارض ذلك، وفي مثل هذه الحالة سوف يجري السماح بثلاث تأخيرات لمدة ثمانية أيام، للذي يعمل هذه الإفادة، مالم يبرهن على صحة الذي التمس استئنافه في الاعتراض، كما أن القرار لن يجري سحبه، ما لم تكن ترضية كافية قد أعطيت من قبل، أو ضمانة للالتزام بالحق، إذا ما

جرى عرض شك حول الذنب، وبالنسبة للمسألة الثانية، نحن نرسم، بأن أي واحد جرى قبوله للبرهنة، عليه أن يتجنب، أثناء البرهنة المذكورة، في المسائل الأخرى، التي من الممكن أنه جرى قبولها كطرف في القضية، لكن بعد المحاكمة سوف يجري قبوله —على الرغم من ذلك— لأداء واجباته، إلى أعمال التسمية والانتخابات، والاجراءات القانونية الأخرى»(★).

مايتعلق بالحملة الصليبية

عندما غدت هذه المقررات معروفة لدى الجميع، أعطوا القناعة إلى جميع الجزء العاقل من الجماعة، وفي الحقيقة، استحق البابا ونال عن جدارة شكر وامتنان الجميع بشكل عام، هذا وكانت بعض المقررات قد عملت قبل عقد المجمع، وبعضها أثناء عقد المجمع، وبعضها الآخر بعد عقد المجمع، وكانت بعض المراسيم قد عملت بشكل حكيم وعقلاني أثناء المجمع، تتعلق بمسألة الحملة الصليبية، ولكن عندما تمت الإشارة إلى الاسهام بالمال، ووجه البابا بالرفض علانية، بشكل خاص بسبب الفقرة المكروهة بشكل عام، والتي نصها: «إنهم سوف يقدمون مساعداتهم على أيدي الذين جرى تعيينهم لتلك الغاية، بوساطة بصيرة الرسل»، لأنه في كثير من المرات، وبطرق مضاعفة كثيرة، اشتكى المؤمنون من أتباع الكنيسة، بأنهم قد خدعوا من قبل الكنيسة الرومانية، حول المال الذي كانوا قد أسهموا به من أجل مساعدة الأرض المقدسة، هذا وإنه بالنسبة للمراسيم الأخرى التي صدرت بشكل حكيم، فقد أعطت القبول إلى قول ومسامع المسيحيين، وكانت قد جرت كتابتهم كلمة كلمة، وفقاً للكلمات التي كان قد عملها البابا غريغوري في عام مولانا ألف واحد، ومائتين وثلاث وأربعين، وتحت هذا التاريخ تمّ العثور أيضاً على نص

(★)- وردت مقررات هذا المجمع بالأصل مشوهة، ولذلك بذلتُ غاية الجهد في ترجمتها لتأتي مفهومة ولاأعتقد أن مختصاً بالقانون أو باللاهوت يمكنه أن يفعل أحسن مما فعلته، والله الموفق إلى السداد.

قداس فصيح جداً، كان قد جرى نظمه من قبل البابا غريغوري، وجرى الآن ترديد هذا القداس نفسه، في هذا المجمع، من قبل البابا انوسنت الرابع، وكأنه قداس جديد، وقد أعلن قداسته أيضاً، بأنه سوف ينفذ بلا تردد، جميع هذه المراسيم، خاصة المراسيم المتعلقة بالامبراطور.

ولدى سماع المعلم ثاديوس، هذا قال وهو يتأوه: «لاأرى أن هناك علاجاً مكشوفاً لهذا الرعب»، ثم إنه أضاف مع البكاء والنحيب: «الحق أقول إن هذا اليوم، كان يوم غضب»، ومثل ذلك كان قد قاله من قبل، عندما قلب جميع الأساقفة حاملات شموعهم المشتعلة، وأطفأوهم عندما كانوا يخلعون الامبراطور فردريك المحروم كنسياً، وقال المعلم ثاديوس في نهاية خطابه:

«من هذا اليوم فصاعداً سوف يغني الهراطقة، وسوف يحكم الخوارزمية بشكل مطلق، وسينهض التتار بقواهم، وسوف يسيطرون»، ثم إنه عاد ليروي أخبار هذه الوقائع كلها إلى الامبراطور، ثم إن البابا قال بشكل معلن إلى الجميع: «لقد قمتُ بواجبي، والآن ليفعل الرب الذي يرضيه، وليقض بالذي يريده في هذه المسائل».

كيف قام فردريك بعد خلعه من قبل البابا بتتويج نفسه

عندما سمع فردريك، وبات عارفاً تماماً بهذه الاجراءات، لم يستطع ضبط نفسه، بل انفجر غاضباً بعنف، وبات يمتلك منظراً مرعباً، وقد انتفخ، فهكذا رآه الذين كانوا من حوله، ثم زمجر قائلاً: «لقد أهانني البابا في مجمعه، وانتزع مني تاجي، فمن أين جاءت كل هذه الوقاحة؟ ومن أين صدرت مثل هذه الإجراءات الطائشة؟ أين هي صناديقي الحاوية على ثرواتي الجاهزة»؟ ولدى جلبهم، وفتحهم أمامه، بناء على أوامره قال: «ابحثوا عن تيجاني، هل فقدت الآن»؟ ثم إنهم وجدوا واحداً منها، فتناوله ووضعه على رأسه، وبعدما تتوج هكذا، انتصب قائماً، وبعينين مهددتان،

وبصوت مرعب، وبهياج وانفعـال غير منضبط، قال بصوت مرتفع: «أنا لم أفقد تاجي بعد، كما أنني لن أحرم منـه بوساطة أي قتال للبابا، أو للمجمع المسكوني، من دون صراع دموي، فهل دفع به تشـامخه المبتذل، وأوصله إلى هذه الدرجة، حتى يتمكن من قـذفي من المنصب الامبراطوري، فأنا الأمير الأعظم في العـالم، ولايوجـد من هو أعظم مني، فهـا أنـذا ليس هناك من يساويني، ففي هذه المسألة كان وضعي الإحسان، ففي بعض الأشياء كنت مرتبطاً بالطاعة، على الأقل صدوراً عن الاحترام له، لكنني الآن قد تحررت من جميع روابط العــاطفـة والاحترام، وكـذلك من الالتــزام بأي نوع من السلام معـه»، وبناء عليه، أمر من ذلك الوقت فصاعـداً بإيذاء البابا بشكل أكثر تأثيراً وفعـالية، وفعل كل أنواع الضرر لقـداسته، في أمـواله، وكذلك أصدقائه وأقربائه.

وقام بناء عليـه، حتى يزيد من قوة حـزبه، فلجأ إلى خطة الزواج من ابنة دوق النمسـا، ولكي يحقـق هذا، أرسل رسـلاً خــاصين، بكل سرعـة، إلى الدوق المذكور، لكن عندما وصل علـم هذا إلى السيدة، رفضت بثبات كل ارتبـاط أو زواج مع الامبراطور فـردريـك، حتى يجري تحليله، وقـد وافق والدها على ذلك، وقد بعث إلى الامبراطور يخبره بهذا الموقف، فشعـر بعار كبير، لأن رفضـه جاء منهما معـاً، وقـد أصبح —على كل حـال— قاسيـاً، وسعى إلى تحويل قلوب الملوك والأمـراء عن تقديم الاحترام إلى الكنيســة، وكذلك إلى الأساقفة، وبشكل خاص إلى البابا، ولكي يتوصل إلى مقصده، كتب رسـالة بليغة جـداً، فيها أخـرج من جـوفه النوايا السـامة لقلبـه التي أخفاها لمدة طويلة.

رسالة الإمبراطور فردريك

«من فـردريـك، **إلخ**، **إلى ملك انكلترا**، **إلخ**: هناك قــول قــديم يصف بالمحظوظين الذيـن تعلمـوا الحذر من مصــائب الآخـريـن، لأن أوضــاع الخليفة تتمتـن بأسس السلف، ومثلما يتلقى الشمع الضغط من الختم، مثل

ذلك تشكلت نهاية الحياة البشرية بالشكل نفسه، لقد رغبت بأن تكون جلالتك قد تقدمت علي، أو جئت قبلي لنيل هذا الحظ الطيب، وخبرة الحذر التي ندعها الآن لك، أيها الملك المسيحي، من الأذى الكبير الذي عمل لأنفسنا، أو بالحري ترك لنا من قبل الملوك والأمراء، الذين تعرضوا للأذى مثلنا، وعلاوة على ذلك، إن هؤلاء الذين يعدون الآن كهنة، والذين سمنوا على صدقات آبائنا، يتولون الآن ظلم أبناء الذين هم أولياء نعمتهم، وأبناء هؤلاء الرعية لنا، الناسين لأحوال آبائهم، لايتنازلون لإظهار الاحترام المتوجب لا إلى الامبراطور، أو الملك، فور تكريسهم لحمل ألقاب الآباء الرسوليين، وحقيقة ما هو موجود هنا، والتي أشير إليها بكلامنا باسهاب قد تبرهنت الآن تماما، بإقدام البابا انوسنت الرابع، التي تولى جمع مجمع عام —حسبما سماه— وتجرأ على اصدار قرار بالخلع ضدنا، نحن الذين لم توجه إلينا الدعوة لحضور المجمع المذكور، كما لم يتبرهن أننا مدانون باقتراف أي خداع، أو شرور، وهو قرار لايمكن تأسيسه من دون ضرر عظيم لجميع الملوك، لأنه ما الذي سوف يبقى هناك إلى أي واحد منكم أيها الملوك من كل مملكة، إلاّ أن تخافوا من وجه مثل أمير الكهنة هذا، إذا ما أقدم على خلعنا، نحن الذين جرى تشريفنا حقيقة من السماء بالتاج الامبراطوري، بوساطة انتخاب مهيب من الأمراء مع استحسان الكنيسة كلها، عندما كان رجال الدين مزدهرين بإيمان وتدين، ونحن الذين نتولى حكم كثير من الممالك الفخمة الأخرى، لأنه ليس من شأنه أن يمارس أية سلطة ضدنا، وذلك بقدر ما يتعلق الأمر بالضرر الدنيوي، لابل من الممكن استخلاص قضايا قانونية من ذلك، لكن لست أنا الأول، كما أنني لن أكون الأخير، الذي يتعرض لأذى سوء الاستخدام الكهنوتي للسلطة، هذه السلطة التي تسعى لاسقاطنا من الذروة نحو الأسفل، وإن هذا بالحقيقة الذي تفعله، تفعله باظهارك الطاعة إلى الذين يدعون القداسة ويتظاهرون بها، والذين آمالهم وطموحاتهم (أن يصب الأردن كله في أفواههم)، آه، حبذا لو أنك تقوم وفقاً لكلمات مخلصنا بتحويل ثقتك عن

لطف الكتّاب والفريسيين، الذي هو رياء، وأن تصغي إلى نفسك، وأن تتذكر كم هي دناءات ذلك البلاط، التي كنت تتمنى أنه كان بمقدرتك شجبها، مع الاقتباسات التي هي محرمة بالشرف والحياء، والموارد الوافرة، التي استغنوا بها، في سبيل إفقار عدة ممالك، كما تعرف أنت شخصياً، قد منحتهم الفجور والشموخ، والمسيحيون والحجاج يرجونك بأن يأكل الباترانيين بيننا، فأنت هناك تدمر بيوت شعبك، حتى تتمكن من بناء بلدات إلى أعدائك، وهكذا إنه بوساطة عشورك وصدقاتك، تمكن هؤلاء الفقراء من أتباع المسيح من العيش، لكن دون مقابل أي تعويض، لابل أي امتنان أظهروه أنفسهم، أنه صادر عن الضمير وعن اللطف؟ فكلما مددت يديك عن طواعية، كلما ازدادوا شوقاً للامساك، ليس فقط اليدين، لابل الذراعين، حابسيننا في شباكهم مثل طيور صغيرة، كلما زدنا من محاولة الفرار، كلما زادوا من ربطنا بشدة أكبر.

وللوقت الحاضر، جعلنا شغلنا أن نكتب بعيداً —مع أن ذلك ليس فيه كفاية— نشرح رغباتنا ولسوف نعطيك معلومات أكثر، هي أكثر سرية، حول الاستخدامات التي لجأ إليها هؤلاء الناس المبدعين الشرهين الطامعين بأموال الفقراء، وحول التصاميم التي تصورناها أنفسنا، وأرغمنا على عملها، فيما يتعلق بالسلطة الامبراطورية، وكيف توفرت النية، بجهود الوسطاء، لإعادة تأسيس السلام —على الأقل ظاهرياً— بيننا وبين الكنيسة، وكيف اقترحنا لنرتب حول مايتعلق بشؤون الملوك بشكل عام، وكل واحد منهم بشكل خاص، والترتيبات التي عملت حول مايتعلق بالجزر في المحيط، وكيف أن ذلك البلاط كان يتآمر ضد جميع الأمراء بشكل عام، بموجب بعض الخطط، ومع أن هذه الترتيبات قد عملت بشكل سري، ما كان لها أن تنجو من ملاحظتنا، أو ملاحظة بعض الأشخاص الخاضعين إلينا، وأصدقائنا، الموجودون هناك، وكيف أننا مع عساكرنا كلهم مستعدون للحرب، وباستخدام جميع مساعينا، نحن مع حلول الربيع القريب، أن نكون قادرين على الضغط على الذين يضغطون

الآن علينا، وسوف نفعل ذلك حتى ولو وقف العالم كله ضدنا، هذا وإن كل ماسوف يبلغك إياه أفراد رعيتنا المخلصين، الحاملين لهذه الرسالة، ويذكروه لك، يمكنك أنْ تصدقه تماماً، وأن تضع فيه ثقة ثابتة جداً، وفيهم، وكأن القديس بطرس قد أخذ العهد عليهم.

ونحن نرجوك —على كل حال— أن لاتقدر، أن جلالة مقامنا العالي قد انزعجت بالقرار الذي جرى التفوه به ضدنا من قبل البابا؛ لأن ضميرنا نقي، وبالتالي الرب معنا، الذي إليه ندعو، ليكون شاهداً على صدق كلامنا، ولقد كان اهتمامنا دوماً ورغبتنا إقناع رجال الدين من كل طائفة، وبشكل خاص ذوي المراتب العليا، بأن يسلكوا طريقاً يستهدفوا من ورائه غاية العيش في حالة الكنيسة الأولى، بممارسة حياة رسولية، وبتقليد تواضع مولانا، لأنهم اعتادوا على رؤية الملائكة، وهي تشع بالمعجزات وهي أيضاً تشفي المرضى، وتعيد الموتى إلى الحياة، وأن تنزل الملوك والأمراء إلى الخضوع إليهم، ليس بوساطة السلاح، بل بوساطة القداسة، لكن هؤلاء القوم، كرسوا أنفسهم للدنيا، وأن يسكروا في متعها، واضعين الرب جانباً، وبثرواتهم الوافرة، ومقتنياتهم الغنية جرى طبخ الديانة كلها، وأن يجري انتزاع الثروة المؤذية من مثل هؤلاء الأشخاص، المثقلين الآن بها حتى حد لعنتهم، هو من أعمال الإحسان، ولهذه الغاية، عليك على هذا، وعلى جميع الأمراء الاتحاد معنا، وأن نستخدم كل الجهود المتواصلة لجعلهم يضعون جانباً جميع الثروات الفائضة، وأن يعبدوا الرب، وهم قانعين بممتلكات متواضعة».

كيف تناقصت سمعة فردريك يومياً

وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع الملكين المسيحيين لفرنسا وانكلترا، بات واضحاً لهما مثل وضوح الضوء، وكذلك لنبلائهما، بأن فردريك كان يسعى بوساطة جميع الامكانات المتوفرة لديه، إلى تدمير حرية الكنيسة وكرامتها، وهي الكنيسة التي لم يزد قط لاحريتها ولاكرامتها، مع أن أسلافه النبلاء، قد بذلوا غاية جهدهم لتأسيسها، وبهذه الحقيقة بالذات حوّل

نفسه إلى متهم بالهرطقة، قـد قام بوقاحته وقلة حيائـه، فأطفأ ودمّر كل شعاع حسن رأي بحكمتـه، واحترام لحكمته، وهو مـاكان موجـوداً حتى الآن بين الناس، غير أن هذين الملكين، حتى لايظهــرا وكأنها يتصرفـان وفق أخـلاق النساء، وبشكل غير مشرف، بالقيـام على الفور بمهاجمة واحد، كانـا قد حمياه من قبل، لذلك قـاما لبعض الـوقت بإخفاء غضبهما، وحـافظا على الصمت، لكن ليس من دون تذمـر، وبناء عليـه، اتمد تحسنـت بهذه الاجراءات أحـوال البابا، وبدأ يسترد أنفاسه.

وكان هناك —على كل حال— جرحـاً كبيراً، ضغط على الأمراء، وكذلك على الأسـاقفـة، بـدرجـة أثقل من كل شيء، وكـان هـذا، هو أنه صحيح أن الامبراطور فـردريك قـد استحق، بسبـب عـدد كبير جـداً من القضـايا، أن يتعرض للإذلال، وأن يجرد من جميع مراتبه، وأنه بعون الرب، يحق للسلطات البـابوية خلعه من دون تـردد، إنما هنا تكون الكنيسة الرومـانيـة قد أسـاءت استخـدام حظوة الرب، وسـوف تنتفخ في المستقبل إلى درجـة من العجـرفـة والتكبر غير المحتمل، مما سيـدفعها أمام سبب بسيط مـن الأسباب، إلى خلع المقدمين الكاثوليك —وبشكل خاص الأسـاقفة— مع أنهم عادلين وأبرياء، أو أن تقـوم بتهــديدهم بشكل مشين بالخلع، والرومــان، وإن ولدوا من دم جلف، سوف يتحدثون بتشامخ، ويتبجحون قائلين: «نحن قد وطئنا بأقدامنا أعظم السـادة وأقـواهم، وهو الامبراطور فـردريك، فمن أنتم حتى تفكرون بطيش بمقـاومتنا؟»، وإذا ما حـدث وأثير الأمـراء على هذه الصورة، سـوف يثـورون عليهم، وبانتقام الـرب، سوف تكون السلطات الرومـانيـة عرضـة للدمار.

كيف أن محاولات وكلاء الجماعة الإنكليزية قد حرمت من تأثيرها

بالنسبة لوكلاء الجماعة الانكليزية، أي الايرل بيغود، ورفاقه الذين تقدم

ذكرهم وتسميتهم، الذين كانوا ينتظرون جواباً مفيداً من البابا، حسبما كان قد وعد، لقد جعلوا أخيراً يفهمون أنهم لن يحصلوا على مطالبهم، ولذلك غادروا وهم مغضبين كثيراً، وأعطوا مجالاً للتهديد، وأقسموا بيمين رهيب، بأنهم سوف لن يشبعوا النهم المقيت للرومان مطلقاً، بدفع الضرائب، كما أنهم لن يسمحوا بدفعها، ولن يقبلوا بعد الآن بإعطاء موارد الكنائس (وبشكل خاص الموارد التي من المعروف أن نبلاء المملكة هم أولياء نعمتها) واستغلالها منذ الآن فصاعداً، ومع ذلك مرّ البابا بهذه الأشياء كلها متظاهراً بعقل صابر، وبعينين قانعتين، وانتظر بهدوء الوقت لاتخاذ اجراءات هي الأكثر قسوة، عندما يبتسم الحظ له.

ولذلك أرسل إلى جميع أساقفة انكلترا يأمرهم بكل دقة، بأن يقوم كل واحد منهم بوضع ختمه على صك الضريبة المقيت، الذي عمله الملك جون، صاحب الذكرى غير السعيدة، دون أن يعبأ بمعارضة ستيفن، رئيس أساقفة كانتربري، في سبيل أنهم عندما يفعلون ذلك، يمكنه تثبيت هذا الصك وجعله أبدياً، وهذا، ياللأسف ماقد فعله الأساقفة من خلال الخوف، بعدما صاروا ضعفاء كثيراً، مما سبب ضرراً هائلاً للملك وللمملكة، ولدى سماع الملك بهذا، ثارت ثائرته، وغضب غضباً شديداً، وأقسم أنه، مع أن الأساقفة قد خضعوا بشكل مهين، إنه سوف يقف بشجاعة للدفاع عن امتيازات المملكة، وأنه مادام على قيد الحياة، لن يدفع أية ضريبة للبلاط الروماني، تحت اسم جزية، وكان فولك أسقف لندن، آخرواحد أعار نفسه لهذه الخطة الشريرة، فوضع ختمه على هذا الصك، ولذلك استحق ملامة أقل من الآخرين.

وبالطريقة نفسها، ومن أجل تثبيت أفضل لقرار الخلع، الذي صدر ضد الامبراطور فردريك، وفي سبيل إقامة ذكرى دائمة للواقعة، قام جميع الأساقفة بوضع أختامهم على صك كبير متعلقاً بالأمر نفسه، كان قد جرى نسخه كلمة كلمة من الصك المختوم بالختم البابوي.

ثم إن المجمع ارفض، وعـاد الذين كانوا قـد اجتمعوا هناك مع المبـاركة إلى أوطانهم، باستثناء الذين احتجـزوا بسبب عمل خـاص، كـان البابا قـد أخره حتى مابعد انتهاء المجمع.

الوصاية البابوية على هيئة رهبان السسترشيان

بينما كان جيشـان العالم يحدث هذه الوقائع معـه ويستدرجها، قـام رعاة دير السسترشيـان من مختلف البلـدان، كما هي عـادتهم، لدى اقتراب عيـد تمجيـد الصليب، بالقـدوم على شكـل حشـود لحضـور اجتماع هيئتهم الرهبانية، وعندما التقوا جميعاً، تلقوا رسالة من البابا، كان محتواها كما يلي:

«نحن نود أن نعلم أخـوتكم، بـأن الكنيسـة هي في وضع مـرعب كثيراً وهي بحـاجة إلى صلواتكم المستعجلة بشكل أكثـر ديمومـة، لوجود أزمـة حالية تهدد جميع المسيحية بطريقة مخيفة، ولذلك لن نزعج أنفسنا باستخدام السيف الفولاذي ضـد الامبراطور الروماني فردريك، ذلك العـدو القوي والعنيد لكنيسـة المسيح، بل سوف نستخدم السيـف الروحي فقط، وأفواه الذين يتكلمـون بالشر قـد أغلقت، ونحـن نرجـوكم، أن لاتدعـوا الجهلة النقـاد، والرجـال الذين بلاصـدق، يقنعـونكم بالظن أن هذا الحكم الذي صـدر من قبلنا ضـد فـردريك المذكـور كـردة فعل، ومن دون مـداولات ومشاورات طويلة مع إخواننا، ومع كثير آخر من الرجال المتعلمين، لأنني لاأتذكـر وجـود أية قضيـة أخـرى مثلهـا قـد نوقشت بمثل هذا الاتسـاع والمواظبة، أو وزنت بدقة في عقول النـاس البارعين والمقدسين، وبلغ الأمر حداً أننا أثناء مـؤتمراتنا السرية تولى واحد من اخواننا وظيفـة المحامي عنه، وقام آخرون من جهـة أخرى بالإدعاء ضده، في سبيل أنه بـوساطة الإدعاء والردود الصادرة عن الإدعاء وعن الدفاع —كما هي العادة في المدارس— يمكن لحقيقـة القضيـة أن تظهـر من على الجانبين من الأعماق، غير أننا لم نستطع، مـن دون إيذاء للرب، واغضـاب له بشكل جـاد، ومن دون الاضرار بالكنيسة، أو من دون جـرح ضمائرنا، أن نجـد أية وسيلة أخرى،

غير الإجـراءات التي اتخذناها، وإن كنا مكرهين، وقـد أسفنا كثيراً لشقـاء المذنب المذكـور، وإننا بناء عليـه، قد استعـدينا، من أجل هذه القضيـة، أن نقف ثابتين حتى الموت، وفيهـا ومن أجلها جميـع إخواننا، ونحن كـذلك، على استعـداد للمـوت، وأن نقـاتل من دون وهن لصـالح الرب ولصـالح كنيسته».

وقـد جـرى نشر هذه الرسـالة كـاملة بين الهيئة الرهبـانيـة كلهـا، وبين الرهبـان بشكل عـام، حيث تخلوا عن الوقـوف إلى جـانب الامبراطور، ومالوا بشكل رائع إلى جـانب البابا، وصلّوا إلى الرب أن لايعـرض كنيسته للمعـاناة بأية طريقـة من الطرق، وهي الكنيسـة التي أسسهـا على صخـرة ثابتـــة، ولكي لاتسقط بشكل أبدي، مـع أنها كـانت تترنـح آنذاك بعض الشيء.

حول الإجراءات التي تمت في غانوك أثناء إقامة الملك هناك

وفي الوقت نفسه، كـان قد مضى الآن على إقامة الملك، قـرابة الشهرين، على الحدود الدنيا لويلز، قـرب نهر يجري بين جبال سنودون Snowdon, حيث انشغل في بناء قلعـة، كـانت لاترام بأسـوارها ومـوقعهـا، وفي ٢٤- ايلول، رغب واحـد من نبـلاء الجيش، أن يخبر رفـاقـه، الذين كـانوا قلقين حول هذه القضية، فكتب إليهم كما يلي:

«*صحة*: صاحب الجلالة الملك مقيم مع جيشـه في غانوك Gannock, من أجل تحصين القلعـة التي بناها الآن، في مـوقع قوي جـداً هناك، ونحن مقيمون هناك في الخيـام، منشغلون بالحراسة والسهر، والصـوم، والصلاة، ووسط برد، وعـري، وأثناء الحراسة نفعل ذلك خـلال الخوف من أن يقوم الويلزيون بمهـاجمتنا فجأة أثناء الليل، وأما الصوم فنقـوم به بسبب النقص بالمؤن، لأن ربع الرغيف يكلف الآن خمسة بنسات، وأما الصلوات فنؤديها من أجل أن نعـود إلى الوطـن فـوراً ومن دون أذى، ونحن مضغـوط علينا

بالبرد وبالعـري، لأن بيـوتنا من الخيش، ونحن من دون مـلابس للشتـاء، وهناك ذراع قصير للبحـر، فيـه تيـار للمـد والجزر تحت القلعـة المذكـورة، حيث نحن مقيمون، ويشكل ذلك نوعاً من الموانىء، إليه تقدم أثناء إقامتنا سفن من ايرلاندا، وشيستر جالبـة الامدادات، وذراع البحـر هذا قائم بيننا وبين سنودون، حيث معسكر الويلـزيين أنفسهم، وهو لدى ارتفـاع التيـار حـوالي رميـة سهـم بالعـرض، وفي يوم الاثنين التـالي قبل عيـد القـديس ميكائيل، جـاءت سفينة من ايرلنـدا، تحمل مـؤناً للبيع لنا، وعندمـا كـانت قادمة نحو مدخل الميناء، جرى توجيهها من دون حذر، أثناء تراجع البحر، فبقيت على القـاع تحت قلعتنـا المذكـورة، لكن على الطرف المقـابل، نحـو الويلزيين، الذين اندفعوا على الفـور، وقاموا بالهجوم عليهـا بحكم وقوفها على أرض جافة، وبناء عليـه، لدى رؤيتنا لهذا الإجراء من الطرف على هذا الجانب، أرسلنا ثلاثمائـة ويلزي مـن رجـال حـدودنا من شيشـاير Che-shire ومن شروبشاير Shropshire, وذلك عبر الماء في قوارب، ومعهم بعض رمـاة القسي الزيارة، من أجل حماية السفينة المذكـورة، ولدى رؤية الويلزيين لذلك، تراجعوا مسرعين إلى مخابئهم المعتادة والمعروفة جيداً في الجبال والغـابات، وطاردهم فرساننـا ومعهم أتباعهم لمسافـة فرسخين، ومع أنهم كانوا على أقـدامهم (لأنهم لم يجلبوا خيـولهم عبر الماء معهم) فقد جرحـوا وقتلوا كثيراً من الويلزيين، ثم عاد شعبنا بعدما هزمـوا أعداءهم، ومثلهم مثـل أناس جشعين ومحتـــاجين، انشغلـوا بالنهـب ونشروا النار والسلب، خلال المنطقة، على الجانب الآخر من الماء، وكان من بين الأعمال الدنســة التي اقترفـوهـا، قيـامهم مـن دون احترام بنهب دير لطائفـــة السسترشيـان اسمـه أبيركـونوي Aberconway, وسلبـــــوه من كل مقتنياتـه حتى كؤوس القـربان والكتب، وأحرقـوا الأبنية العائـدة له، وفي الوقت نفسـه، حشـد الويلزيون حشـداً كبيراً من أبناء جلدتهم، واندفعـوا بشكل مفاجىء، وبأصوات مرتفعـة على رجالنا المحملين بالأسلاب، التي حصلوا عليهـا بأكثر الأسـاليب شراً، وكانوا محاقين بذنوبهم، وأرغمـوهم

على الفـرار، وجـرحـوا وقتلوا الكثيرين وهم يتراجعـون نحـو السفينة، واختار بعض رجالنا الوثوق بالأمـواج، ومن ثم الموت غرقاً، وآثر وا ذلك على أن يقتلوا وفقـاً لإرادة أعدائهم، فألقـوا بأنفسهم طوعـاً وبإرادتهم بين الأمـواج، وهناك هلكوا، وأسروابعض فرسـاننا وهم أحيـاء، فسجنوهم، لكن عندما سمعوا بأننا قتلنا بعض نبلائهم، وفوق الجميع نافث Naveth ابن أودو، وكان شاباً وسيماً وشجاعـاً، ولذلك شنقوا هناك بعض فرساننا، وقطعـوا بعـد ذلك رؤوسهم، وشـوهـوهم بشكل مخيف، ومـزقـوا أخيراً أجسادهم التعيسة، وقطعـوا أطرافهم طرفاً طرفاً، ورمـوهم في الماء، انتقاماً من جشعهم الشرير، حيث أنهم لم يوفـروا الكنيسة، ولاسيما واحـدة كانت عائدة إلى الرهبان.

وسقط هناك في هذا الصراع من جـانبنا بعض الفـرسـان مـن حـاشيـة رتشارد ايرل أوف كـورنوول، وهم: ألان بوسسل Buscel, وآدم دي مـويا Moia, واللورد غيـوفـري سـتـورمي Sturmy ورابع هو ريمـوند، وكان غسكونيـاً من رمـاة القوس الزيار، وكـان الملك غـالباً مـا يستخـدمه في المبـاريات الرياضيـة، وجرى مقتل حـوالي المائة من الأتبـاع، وذلك إلى جـانب الذي غرقـوا، والعـدد نفسه من الويلزيين أو أكثـر، وفي الوقت نفسه تولى وولتر بيست Bissett, الذي كان على ظهـر السفينة مع أتباعه، الدفاع عنها بشجاعة، وانخرط بقتال مستمر مع الويلزيين حتى منتصف الليل، الذيـن هاجموه بشـدة من جميع الجوانب، ولـولا أن رجـالنا اتخذوا من أطراف السفينة جـداراً، لسقطوا جميعـاً في أيدي العـدو، وأخيراً عندمـا بدأت ميـاه البحـر بالارتفـاع، شرعت السفينة بالتحـرك، وعندمـا صارت الآن بعيدة المنال، انسحب الويلزيون، وهم آسفـون لأن رجالنا قد جرى انتزاعهم من بين أيديهم وكان على ظهر هذه السفنية ستين برميلاً من الخمر، بالاضـافة إلى مـؤن كثيرة متشوق إليها وكـان بعضها مـوسمياً، كنا منهـا محرومين منذ وقت، وعنـدمـا جـاء الصبـاح، وتراجـع التيـار، رجع

الويلزيون مع البهجـة، ظانين أنهم سوف يعتقلون رجـالنا في السفينة، لكن بعون من الرب وتدبير، كانوا قد تمكنوا أثناء الليل، عندما كان التيار عالياً، من النجاة إلينا بوساطة قـواربنا، وكان ذلك قبل وصول الويلزيين، تاركين السفينة لوحدها، ووصل الويلزيون على كل حال، ونقلوا منها كل الخمور تقريبـاً، والأشياء الأخـرى التي كانت على ظهـرها، وتركوها لـدى ارتفاع التيار، وقـد ألقوا النار بالسفينة، التي أهلكت شطراً منهـا، وجرى على كل حـال انقـاذ الشطر الآخـر، الذي كـان فيـه سبعـة براميل، وقـد تمكنوا من سحبها إلى الشاطىء القريب.

ومع استمـرارنا بالبقاء هناك مـع الجيش، كنا في حاجـة كبيرة لكثير من الأشياء، ولذلك غـالباً ما قمنا بغارات مسلحـة، وعرضنا أنفسنا لكثير من المخـاطر العظيمـة، من أجل أن نحصل لأنفسنـا على الضروريات، وكنا نواجه كثيراً من الكمائن المتنوعة، ونتصـدى لحملات من الويلزيين، وغالباً مـا عـانينا من تقلبـات حظ الحرب، وألحقنا أضراراً بهم، فبعـد احـدى المناوشات، أحضرنا معنا، ونحن منتصرون، إلى معسكرنا حوالي مائة رأس مقطوعة من الويلزيين، وفي ذلك الوقت كانت هناك ندرة في المؤن، وحاجة كبيرة إلى جميع الضروريات، ولذلك عانينا من خسـائر لاتعوض في كل من الرجـال والخيول، وجاء وقت في الحقيقـة لم يوجد فيـه خمرة في بيت الملك، لابل في الحقيقة في الجيش كلـه، باستثناء برميل واحد فقط، وصـار المقياس الواحـد من القمح يكلف عشرين شلنـاً، وثور مـرعى ثلاثة مـاركـات أو أربعـة، وبيعت الدجـاجة بثمانيـة بنسـات، ونتيجـة لذلك تلاشى الرجـال وتلاشت الخيول، وهلك كثيرون من الحاجة».

قدوم البابا للاجتماع مع الملك الفرنسي في كلوني

وفي تلك الآونة نفسهـا من العام، ذهب البابا إلى كلـوني، بناء على دعوة من الملك الفـرنسي، الذي رغب بالاجتماع والتحـادث معـه، ولم يسمح لقداسته بالتوغل أكثر في فرنسا، وفي حوالي عيد القديس أندرو، قدم الملك

الفرنسي إليه ليلتقيه هناك، وكان ذلك بعـدما انتظره، لمدة خمسة عشر يوماً، وعقدا هناك اجتماعاً سرياً لمدة سبعـة أيام، ولم يطلع أحد على أسرار القضايا إلاّ هم: أي البابا، والملك الفـرنسي، وأمه السيـدة بلانشي، ومن المعتقد من دون شك أنهم تداولوا حـول تـرتيب سـلام بين الكنيسـة والامبراطورية، وحول الطريقـة التي يمكن بوساطتها تحقيق مصالحة مشرفـة، وكان الملك الفـرنسي قـد تـوصل إلى قـرار ثابت، بالانطلاق إلى القـدس مع كثير من النبـلاء الفرنسيين والمقـدمين، الذين حملوا الآن الصليب، لصـالح كل من الرب والملك، وكـان لايمكنهم الارتحال بالبحـر —مـالم تتـم تهدئـة الامبراطور، ومصـالحتـه تمامـاً مع الكنيسـة— أو خـلال أراضيـه، دون التعرض لمخـاطر عظيمة، تلحق بالمسيحيـة كلها، لابل حتى إذا استطـاعوا فعل ذلـك، إنه لن يكـون من الموائم القتـال في سبيـل المسيح في الأرض المقـدسة، في حين تركـوا خلفهم، في بلد مسيحي مثل ذلك الصراع المؤذي والمضر بين شخصين لهما مثل هاتين المرتبتين العاليتين، ومرة أخرى كان من المعتقد أنهم كـانوا يعالجون مسألة إعـادة تأسيس السلام بين ملكي فـرنسا وانكلترا، أو على الأقل إطالة الهدنة، في سبيل أن يتمكن الملك الفرنسي من المضي في حجـه في ظل أمـان أعظم، وفي نهاية هذا الاجتماع، وعندمـا كـان الملك الفرنسي على وشك المغـادرة، عيّـن يومـاً هو في اسبوعي الفصح من أجل مؤتمر مع قداسته، ينبغي أن يضمن حضور الامبراطور فردريك فيه.

وذهب الملك الفـرنسي من هذا المكان، إلى مـدينة مـاكـون Macon, وهي مدينة سقطت هذا العـام مع المقاطعة كلها تحت سلطتـه وحكمه وفق الطريقة التاليـة: عندما آل ذلك الميراث لأن تتملكه كونتسه مـاكون، قامت على الفـور بإرسـال رسـالة إلى الملك، بأن لديها الرغبـة في بيعـه جميع الحق الذي لها في المدينة المذكـورة والمقـاطعـة، في سبيل ارتداء الـزي الرهبـاني، ووافق الملك الفـرنسي على هذا العرض، واشترى المنطقة مقـابل مبلغ كبير من المال، أنفقتـه الكونتسه كله لصـالح الفقراء، وعلى أعمال تقويـة أخرى،

ومالبثت أن لبست الزي الرهباني، في دير للسيدات كانت السيدة بلانشي قد أسسته في بونتوي Pontoise, وبذلك خلفت وراءها ذكرى كانت مثلاً في التواضع إلى جميع الأجيال، ولكل النبلاء، وبشكل خاص إلى النساء.

موت ريموند كونت بروفانس

وسدّد في قرابة الوقت نفسه، ريموند كونت بروفانس دين الطبيعة، وكان رجلاً مشهوراً ومتميزاً، ذلك أنه تقلب على دولاب الحظ بشكل مدهش، وهو الذي كان مصدراً غير اعتيادي مدهشاً إلى جميع الأجيال في الجمال الفائق لبناته، التي إلى الصغرى منهن، ترك في كلماته الأخيرة، كونتيته، أي كونتية بروفانس بمثابة أعطية، لكن عندما سمع الملك الفرنسي بهذا أرسل خمسمائة من الفرسان النخبة، مزودين بالأسلحة وبالحاجات الضرورية الأخرى، ليتولوا الاستيلاء على كونتية بروفانس المتقدمة الذكر، بسبب أن الابنة الكبرى للكونت المتوفى أخيراً، كانت زوجته، كما تقدم ذكر ذلك، ذلك أنه عدّ الوصية المتقدم ذكرها للكونت ريموند باطلة وفارغة لأنها غير قانونية، ولدى سماع ملك انكلترا بوفاة الكونت، حركته مشاعر عواطفه لعمل مأتم جنائزي بأبهة عظيمة، وسط صدقات وافرة، وصلوات مخلصة، وشموع مضاءة، وأجراس تقرع، وبكل دقة منع في الوقت نفسه كل واحد من إعلان خبر هذا الحادث إلى زوجته الملكة، خشية أن يقهرها الأسى.

استيلاء المصريين على مدينة دمشق

في هذا العام، وفي الآونة التي تلت حلول عيد القديس ميكائيل، جرى الاستيلاء على مدينة دمشق، التي —كما قيل— كانت المدينة الرئيسية في سورية في العصور القديمة، وانتزاعها من الصليبيين، مما ألحق بهم أضراراً جسيمة واضطراباً عظيماً، وجاء الاستيلاء عليها من قبل المصريين الكفار

الخونة، وأعوانهم الخوارزمية، الذين كانوا الأعظم عداوة للاسم المسيحي، لأن هذه المدينة، وإن كانت مصبوغة بعقيدة محمد (صلى الله عليه وسلم)، كانت متحالفة مع الصليبيين، ولم تكن تؤذي أحداً منهم، وكانت نافعة جداً لهم وموائمة، من خلال التجارات المتبادلة والعلاقات القائمة فيما بينهم، لكن الآن، بعدما كانت مدينة صديقة، تحولت إلى مدينة غير صديقة تماماً، والأكثر عدوانية لهم، فقد جرى طرد سلطانها منها، وبصعوبة وجد مكاناً آمناً يتخبأ فيه في الأجزاء الشرقية من البلاد، وفي الوقت نفسه، أصبحت المدينة مع كل ما أحاط بها من جميع الأطراف خاضعة للمصريين وللخوارزمية.

عزم الملك الإنكليزي على العودة إلى إنكلترا بعد نهبه للمنطقة المعروفة بإسم أنغليزيا في ويلز

وفي اليوم التالي لعيد الرسولين: سمعان، وجود، كان الملك غير قادر، وغير راغب بالإقامة مدة أطول في غانوك، بسبب نقص المؤن، واقتراب حلول الشتاء، وجاء ذلك بعد إقامته هناك لمدة تقارب العشرة أسابيع، حيث قام بتحصين قلعته غانوك التي تقدم ذكرها، والتي كان قد بناها، وبعدما شحنها، أعدّ العدة للعودة إلى انكلترا، في سبيل أن يسترد هو صحته وكذلك جيشه، وكان الآن قانعاً تماماً بأن أعداءه الويلزيين قد لحقهم دمار لايمكن تعويضه، لأنه لدى وصوله قام الايرلنديون باجتياح أنغليزيا Anglezea كلها وهي المنطقة التي كانت المأوى ومكان الالتجاء للويلزيين، وقام قبل مغادرته بوضع السيف فيما بقي هناك بشكل وحشي، وحول إلى رماد كل انسان وكل شيء، إلى حد أن المنطقة كلها، بدت وكأنها منطقة واسعة مهجورة، وصحراء غير مزروعة، كما أنه أمر بملأ آبار الملح في ويتز Witz وتدميرها، وفي سبيل أن لايحصل الويلزيون على المؤن من المقاطعات المجاورة، كما اعتادوا أن يفعلوا، حتى في أيام الحرب، إما عن طريق الشراء، أو النهب، أو من خلال الصداقات،

أو القـرابات، أو العلاقـات، وتسبب بجعل سكان تلك المنطقـة مع الذين خـاضعين لهم يعانون من الفقـر، ومحرومين بشكل خاص من الطعـام، إلى حـد أن المجاعـة سيطرت على شيشـاير Cheshire والمناطق المجاورة لها، حتى وصلت إلى درجـة أن السكان لم يبق لديهم مايكفي لإطالة البقـاء التعيس، كما أنه منع تحت طائلة عقوبة الموت وفقدان الممتلكات، جلب أي مـؤن إليهم، أو السماح بجلبهـا من أجل البيع، من قبـل الانكليـز، أو من المناطق الايرلندية، وكـانت قلعـة غـانوك هذه، مشحونة أيضـاً بالرجـال، وبالمؤن، وبآلات الحرب والأسلحة، وصارت بالفعل بمثابة شوكة في أعين الأشقياء الويلزيين، لابل أكثـر الناس شقاء، حيث لم يعـد بامكانهم العبور إلى انكلترا، من دون اعتراض من قبل رجـال القلعة، الذي كـانوا، بناء على أوامـر الملك، مطاعين من قبل جميع المنطقــة، ولم يعـد بـإمكان الويلزيين الإقامة في منطقتهم بسبب الحاجة.

مغادرة الملك غانوك بعد تحصين القلعة هناك

وبعــدمــا تمكن الملك من حلّ جميع القضــايا بشكــل حكيم، رجع إلى انكلترا بأمـان، وهو متـوج بحسن الحظ، باستثناء أن سمعـة أخيـه، الايرل رتشارد، قـد أظلمت إلى درجات عظيمة في هذه الحملة، وأخـذت التقارير السيئة تنتشر حـوله، فلقد ذكـر في كل مكان، وفي كل من الجيش، وفي جميع أرجاء المملكة، بأن الايرل المذكور، قام بسبب استجابته العاطفية، وبسبب القـرابة، لكن لإهانة الملك، وخســارته وضرره، فأعطى ابن اختــه داود النصيحة، وأبدى نحـوه كثيراً من الصداقة، أكثـر مما ينبغي، ومما هو لائق، وتولى في احـدى المرات بشكـل سري رعـاية داود المذكـور، عندمــا كـان مـرهقـاً، متأذياً، وفي وضـع صحي سيء، في قلعتـه تينتــايول Tintaiol, حتى يتمكن من استرداد صحته، وعندما شفي، قام بقوة أعظم ضد الملك، كما أنه رفع من شأن قضية المذكـور بمشورته ومسـاعدته، لأن الملك رفض بمبادرة من الملكة، أن يمنحه شيستر مع المراتب الشرفية المرتبطة بها، وكان

ذلك عندما طلبها منه، ولقد قيل أيضـاً، أن ذلك كان عندما قوبل بالرفض من الملك، من خـلال تدخل الملكة عندما سأل منحـه غسكوني، وغادر من عند الملك وهو مغضب، مع تهديدات غير معتادة في بوردو.

وينبغي —على كل حـال— عـدم تصـديق هذه التأكيـدات، لأن الملك عندما كان في حاجة إلى المال من أجل بناء القلعة في غانوك، وفي سبيل دعم الجيش، تحرك الايرل المذكور بعـاطفته الأخـوية، وأقرضه بكـل كرم ثلاثة آلاف مـارك، بضمانة مجوهراته، وبذلـك أغلق فم المتكلمين بالشر، ثم عـاد الملك من ويلز مع اقتراب حلول الشتـاء، وبدأ زحفـه في اليـوم التالي لعيـد القديسين سمعـان وجود، في سبيل أن يتمكن —كما ذكـرنا من قبل— هو وكذلـك جيشه المنهك كثيراً، من استرداد أنفـاسه، لكن مع نيـة العودة إلى العمل نفسه، بعد عبور حدة الشتاء.

وعلى هذا فإن الويلزيين التعسـاء، كانـوا عنـدما حلت مصائب الشتاء عليهم، قـد عسفت الحاجة بهم في جميع الأشـكال، فقـد كانوا بلا بيـوت، ومحرومين مـن جميـع أنـواع المؤن، ولم يكـن لـديهم أدنـى أمـل في تحسـن أوضـاعهم، لأن أراضيهم بقيـت غير مـزروعـة، ومتعفنـة بإرادتهـم، وهكـذا كـانوا مقهـورين بالجوع وبالبرد، وبيأس عقلي وجسـدي، ولذلك أخذوا يتلاشون ويموتون.

خلع موريس من الاشراف على القضاء في إيرلندا

وقام الملك بخلع موريس —الذي كان مشرفاً على القضاء في ايرلندا— من منصبـه، لأنـه كـان غـاضباً عليـه كثيراً، ومنزعجاً منـه، لأنه كـان بطيئاً جـداً في القـدوم إلى مسـاعـدته، لدى توفـر رياح طيبـة لديه حسبما رغب، وعيّـن في مكانه وفوّض جـون فتز— غيـوفري، وتحمل مـوريس بصبر هذا كله، بسبب أنه منذ أن مات ابنه، ازدرى جميع أمجاد ومراتب هذا العالم.

إرسال نائب بابوي إلى فرنسا لرفع شأن القضية الصليبية

وفي العام نفسه، وبناء على طلب ملك فرنسا، الذي أعاده الرب إلى الصحة، وكأنها كانت مع روح جديدة، وبعدما كان قد حمل شارة الصليب، جرى ارسال نائب بابوي إلى فرنسا من قبل البابا، من أجل العمل بشكل مؤثر أكثر، على رفع شأن القضية الصليبية بتبشيره.

وفي حوالي الوقت نفسه، قدم أسقف بيروت، الذي تقدم ذكره مع أ. A, الذي كان واحداً من الرهبان الدومينيكان، من الأرض المقدسة، إلى انكلترا، وبعد إخبار الملك بالأحوال ا لمأساوية في الأرض المقدسة ومعاناتها، رجاه إذا كان من الممكن أن يسمح له، برفع شأن القضية الصليبية في انكلترا عن طريق التبشير، ولدى تقدمهما بهذا الطلب إلى الملك، وتثبيتاً لمصداقيتهما، أرياه صكاً كانا قد جلباه معهما من الأرض المقدسة، وغفراناً كانا قد جلباه من بلاط روما، ولدى عرض هذا الغفران، قال الملك:

«مع أنكما قد تكونا صادقين، ورسولين قادرين، مع ذلك، لقد خدعنا مراراً من قبل البلاط الروماني، من خلال نوابه البابويين وقساوسته، الذين أرسلوا لمثل هذا العمل نفسه، والذين شغلوا أنفسهم فقط في استخراج المال، لذلك سوف من النادر أن تجدا من يضع ثقته بكما»، وفي سبيل أن ينالا حظوة الملك، ذهبا إلى القول، بأن جميع نبلاء فرنسا تقريباً قد حملوا الصليب، فقال الملك:

«لقد حمل ملك فرنسا الصليب، وإذا كانت رعيته قد تبعته، ما هو العجب في ذلك؟ إنني محاط بأعدائي، وملك فرنسا موضع ريبة لدي، وملك سكوتلندا أكثر منه، وأمير ويلز في وضع عدائي مكشوف ضدي، والبابا يحمي الذين يثورون ضدي، ولذلك إنني لا أرغب في إفراغ أراضي من جنودها، ومن أموالها، حتى لاتكون مجردة من

قوتها»، وعند ذلك فقـد الأسقف والراهب جميع آمالهما، وغادرا.

راعي دير كلوني يستخرج العشور من رئاسات رهبانه

وفي تلك الآونة، عندما كان البابا ضيفاً في دير كلوني، وقبل مغادرته من ذلك المكان، ليطلـب اللجـوء في ليـون، حصل منه راعـي دير كلوني على إجازة وتصريح، باستخـراج العشر لعام واحد، مـن جميع الرهبان، في ذلك المكان، وجرى منح هذا لسببين، هما: أن الراعي المذكور كـان قد قدم هدايا فخمة إلى البـابا عندما كان في المنفى وقادمـاً إلى مناطق ماوراء الألب (لأنه كان قـد أعطاه ثلاثين مهـراً مجهزين بشكل جيـد، والعدد نفسه مـن خيول التحميل)، ولأنه استقبله بشكل فخم وكـريم، واستضـافـه ورعاه لقـرابة العـام، وكـان هذا العشر سوف يتسلمـه من جميع الأعضـاء، دون الاهتمام باعتراض أي شخص عادل، ومن هذا المال كـان البابا سيتسلم ثلاثة آلاف مـارك، وسيعطي البقية لسـداد دين كنيسـة كلوني، المعروف أنها تحملتـه في سبيل تقدم قضية الكنيسـة الرومانية، وقد عمل البـابا هذه المنحة إلى راعي الدير، حتى يتمكن من أن يتخذ نفسه رباطاً عريضاً من جلده.

كيف حمل عدد من النبلاء شارة الصليب

ومباشرة شق الملك الفرنسي الطريق، وضرب المثل، وكأنه حامل الراية، ولذلك حمل عـدد من النبـلاء الفـرنسيين الصليب، وكـان من بين هؤلاء روبرت، وكـونت أرتوي Artois, ودوق بيرغندي، ودوق برابانت، وكـونتسـة فـلاندرز مع ولـديها، وبطرس كـونت بريتـاني، وابنه ج. J, كـونت بريتـاني، وكونت بار، وكـونتـات: سواسـون، والقـديس بولص، ودروكس، وريثيل، وفيليب دي كـورتني، وولتر دي جـويني Joigny, وجـايلز دي ميلي Mailly, ومحامي بيثيـون Bethune, وعدد كبير آخر من النبـلاء، الذين تزايد تعـدادهم يومياً، بحمل الملك شخصيـاً أعباء التبشير، ودعـوتهم إلى ذلك، ونهض بعض الأسـاقفـة بالحماس نفسـه، في

سبيل أن يضربوا مثــلاً تقــوياً للعلمانيين، فحملوا شــارة الصليب على أكتـافهم، للانتقــام لقضيـة المسيح، وكـان من بين هؤلاء رئيس أسـاقفـة الريمـز، ورئيـس أسـاقفـة السين، ورئيس أسـاقفــة بورجي Bourges, وأسقف لون Laon, وأسقف بوفوا Beauvais, وعدد كبير آخر، دعاهم المسيح يومياً، وأغراهم بالدخول في خدمته.

رواية بأن المسلمين قد سمموا الورق

ولدى سماع المسلمين بهذه الإجـراءات قـامـوا بكثير من الترتيبـات من أجل الدفـاع، وأبدعـوا خططاً شريـرة، فقـد قـامـوا بتسميم الورق، الذي عرفوا أنه سوف يرسل إلى البلدان المسيحية، ونتيجة لذلك، فإن عدداً كبيراً من الناس في فــرنسـا —وكـانوا على غير دراية بهذا الفعـل الشرير— قـد قتلوا، لكن مالبث أن تمّ اكتشـاف ذلك، فجرى الإعـلان بوساطة المنادين في المدن الرئيسيـة في فـرنسـا وانكلترا، من أجل تجنب هـذا الخطر بحـذر وعناية، وقـال أشخـاص آخرون، بأن التجـار قـد فعلوا ذلك من أجل بيع الورق القديم، والمخزون منذ زمن طويل، بشكل أحسن، وسعر أعلى.

تكريس رتشارد مستشار كنيسة إكستير لكرسي ذلك المكان

في حـوالي هذا الوقت، أي في حوالي أول كـانون الأول، جـرى تكريس المعلم رتشارد، مستشار كنيسة إكستير Exeter, وكان رجلاً بلا ملامة، وصـاحب أخـلاق حميـدة، وكـان متعلماً، وجـاء تكريسـه أسقفـاً لكنيسـة إكستير، وكان ذلك في ردنغ.

وفاة وولتر إيرل مارشال

في الرابع من كانون الأول، في هذا العـام، أوكما يقول آخرون، في الرابع والعشرين من تشرين الثـاني، ذهب وولتر إيرل مـارشال من طريق الجسـد كله في لندن، وكـان قـد دفن في تينتيرن Tintern قـرب ستريغــــويل Strigoil, حيث جرى دفن عدد من أجداده النبلاء.

موت أنسلم أخو المذكور أعلاه

وبعد ذلك بـوقت قصير، وفي اليوم الثالـث، قبل يوم عيد الميـلاد، مات أنسلم، الأخ الأصغر التالي، المذكور أعـلاه، وبما أنهما معاً توفيا من دون أي أولاد، فإن ذلك الميراث الفخـم قـد توزع بطـرق مختلفـة، وآل إلى ملكيـة كثيرين، بسبب أخواتهما، اللتان إليهن آلت بشكل حاد.

شعارات النبالة التي ويالأسف انخفضت في إنكلترا وهؤلاء هم

— المارشال

— ايرل شيستر

— ايرل آروندل

— ايرل مانديفيل

— ايرل هنتنغدون

— دوبني Daubney

— هوغ دي لاسي (في ايرلاندا)

— كونت ريموند (في بروفانس)

— وليم أوف لانكستر

— أوسبرت غيفارد

— وولتر بن غيلبرت دي بوهون مع أخيه

— الاسكندر آرسيك Arsic

— روبرت أوف روبسلي Ropesly

— روبرت دي بورغيت Burgate

— روبرت دي تيرنهام Turnham

— وليم

— نيقولا — دي ستوتفيل Stuteville

— يوستاس

— روجر دي مونتبيغنت Montbegunt

— فيليب دي أولكوت Ulecote

— فولكس دي بروت Breute

— رتشارد بيرسي Percy

— هنري دي تربلفيل Trubleville

— فيليب دوبني Daubeney

— رالف دي تربلفيل Trubleville

— رتشارد دي رفرز Rivers

— رتشارد بن روبرت تشيلشام وابنه رتشارد أوف دوفر

— ايرل أوف ووررويك Warwick

واقعة مدهشة تتعلق بـ و. W مارشال الكبير وأبنائه الخمسة

أصاب سوء حظ محزن ومبكي، لم يسمع بمثله من قبل، الأبناء الخمسة لـ و. W مارشال الكبير، الذين انتزعوا من بيننا — وفقاً لتسلسل تواريخ ميلادهم — من دون أولاد، في حين كان الازدهار مبتسماً لهم في وسط ممتلكاتهم، وفي بداية الحياة، وذلك تماشياً مع نبوءة أمهم، التي قالت

بأن: «كل واحـد منهم سـوف يكـون ايرلاً لايرليـة واحـدة»، وصحيح أن أنسلم لم يكن ممنوحـاً ايرلية، لكنها آلت إليـه، وهكذا برهنت أمهم على أنها كـاهنة متنبئة، وأنا لاأعتقد على كل حـال، بأن ذلك قـد وقع من دون إلهام لاهوتي، وبما أن هذه الواقعـة جـديرة بالذكـر، رأينا أن من المناسب اقحـام رواية عنها في هذا الكتـاب، فعندما كـان وليم المتقدم ذكـره —والذي كان محارباً وشجـاعـاً، ولقبـه الـ Moreschal (أي قهـرمـــــان المريخ)— مشغولاً بالقتل والنهب في ايرلندا، وكان يحصل على أراض واسعة، استولى بالاغتصاب والقوة، وانتـزع من أسقف مقدس عزبتين، كانتـا عائدتين إلى كنيسته، واستحوذ عليهما، وكأنهما ملك له بإدعاء عادل، لأنه حصل عليهما في الحرب، وقام الأسقف، بعـد اصداره تحذيرات كثيرة له، التـي ردّ عليها الايرل بعجـرفـة، واستمر في استحـواذه على العـزبتين المذكـورتين، كما أنه تمسك بذنبه وأصر عليـه بتمرد، قام منفجراً باصـدار قرار الحرمان الكنسي ضـده، وكـان ذلك لسبب صحيـح، لكن الايرل استخف بهذا، وادعى أن القـرار صـدر في أيام الحرب، ولذلك كـدّس الأذى فـوق الأذى، وبسبب هذه الإجـراءات، قـام واحـد اسمـه المعلم غيرفـاس Gervase دي ميلكيلي Melkeley بنظم شعـر حـوله، وتحدث وكأنه شخص الايرل قائلاً:

أنا في ايرلندا زحل، وفي انكلترا أشعة الشمس تحيط بي

وفي نورماندي أنا عطارد، لكن في فرنسا، المريخ إلى الأبد قد وجدني

ثم إن الايرل المذكور، احتفظ بهاتين العـزبتين تحت سلطته طوال حياته، وقـد مـات بعـد عـدة سنوات، ودفن في المعبـد الجديد في لندن، ووصلت أخبـار هذه الـواقعـة إلى علم الأسقف المذكـور (الـذي كـان أسقف فيرني Fernes, وكان راهبـاً من طائفة السسترشيان، كما أنـه كان ايرلندياً من حيث المولد، وكـان رجلاً صـاحب قداسـة مدهشـة) فقام بعد بـذل جهد شخصي كبير، فـذهب إلى الملك، الذي كـان في ذلك الوقت مقيماً في لندن،

وتقــدم بشكوى ثقيلة حـول الأذى المتقــدم ذكـره، الذي اقترف بحقــه، وأوضح أنه قـام بحـرمـان الايرل المذكـور كنسيـاً لهذا السبب، وهو سبب صحيح، ثم إنه توجّـه بالرجاء إلى الملك، أن يستخـدم سلطاته الملكية، وفي سبيل تحرير روح الايرل وليم المذكور، فيعيـد العزبتين إليـه، فبذلك يمكن للميت أن يحصل على منفعة التحليل، وأسف الملك وتأثر كثيراً لدى سماعه هذا، وطلـب من الأسقف الذهـاب إلى قبر الايرل وتحليله، واعـــداً بـأنه شخصيـاً سـوف ينظر في ترضيـة تقـدم لـه، وبناء عليـه ذهب الأسقف إلى القبر، وقـام بحضـور الملك مع أشخـاص آخـرين كثـر، وتوجّـه بالحديث وكأنه يخاطب واحداً حياً في القبر، حيث قال:

«وليم، أنت الذي مدفون هنا، ومغلول بأغلال الحرمان الكنسي، إنه إذا ماجرت إعادة الممتلكات التي انتزعتهـا ظلماً من كنيستي مع ترضية كافية، بوساطة وكـالة الملك، أو بوساطة وريثك، أو أي واحـد من ورثتك، فإنني أحللك، وإذا كان الأمـر غير ذلك، إنني أقوم بتأكيد القـرار المذكور، حتى إذا ما ظللت متورطاً بذنوبك، فإنك سـوف تبقى في جهنم، رجلاً مداناً إلى الأبد»، ولدى سماع الملك هذا بات غـاضبـاً، وانتقد قسـوة وعدم اعتـدال الأسقف، وعلى هذا ردّ عليه الأسقف قـائلاً: «لاتندهش يامـولاي، إذا ما كنت منفعـلاً، لأنـه جـرد كنيستي من أعظم منافعهـــا»، ثم إن الملك تكلم بشكل سري مع وليم الابـن الأكبر للايرل، ووريثـه في كـل ممتلكاته، وهو الذي تولى الآن الايرليـــة، وكـذلك إلى بعض اخـــوته، ورجـاهم بـإعـادة العـزبتين المتقدم ذكـرهما، اللتـان انتزعتـا منه بشكل غير عـادل، وذلك في سبيل تحرير روح والدهم، وعلى هذا رد وليم قائلاً:

«إنني غير مصـدق، كما ينبغي عليّ أن لاأصدق، بـأن والدي قد استـولى عليهن خطأً، لأن الذي أخـــذ في وقت الحرب، أصبح ملكاً شرعيــاً، وإذا كان ذلك الأسقف العجوز والأحمق قد تفوه بالحكم بشكل غير عادل، من الممكن أن يقـذف عائـداً على رأســه، وإنني لاأختار انقـاص الميراث الذي

عهد به إلي وتوليته، وقد مات والدي، وهو متملك لهاتين العزبتين، وقمت أنا، بموجب حق صحيح، بتملك الذي وجدته»، وعلى هذا القرار وافق جميع الإخوة، ولأن الملك كان في ذلك الوقت رجلاً صغير السن، ولأنه كان تحت الوصاية، ما كان له بأي حال من الأحوال أن يغضب مثل ذلك النبيل القوي، وعندما أصبح هذا معروفاً فيما بعد لدى الأسقف، ازداد حزنه بسبب تمرد الأولاد، وكان ذلك أكثر من الأذى الذي لحقه في المقام الأول من قبل الأب، ثم إنه ذهب إلى أمام الملك وقال له:

«إن الذي قد قلته، قد قلته، والذي قد كتبته كتبته بدون تراجع، وقرار العقوبة قد ثبت، والعقوبة نزلت من الرب على الفاعلين المجرمين، والجريمة التي جرى وصفها في المزمور قد فرضت بدرجة عالية على الايرل وليم الذي منه اشتكيت، ففي جيل واحد سوف يتم تدمير اسمه، وسوف يكون أولاده من دون نصيب في مباركة الرب، وسوف ذلك يزداد ويتضاعف، وسيموت بعضهم بوساطة ميتة محزنة، وسيجري توزيع ميراثهم، وكل هذا يامولاي الملك سوف تراه أثناء حياتك، لابل في مطلع حياتك»، وبعد فراغه من هذا الخطاب بشكل مؤلم صادر عن القلب، وكأنه ألهم بروح نبوءة، غادر الأسقف وانصرف في اليوم التالي، وهكذا كان ذلك النبيل وليم مارشال الذي وضع ثقته واعتمد على الذراع الجسدي، قد ترك مغلولاً بأغلال التكفير، وكبرهان شاهد على هذه الواقعة، حدث فيما بعد، بعد وفاة أولاده، عندما جرى تكريس كنيسة المعبد الجديد، في سنة ١٢٠٠، تمّ العثور على جسد الايرل المذكور على حاله، مخاط عليه بجلد ثور، وكان مهترئاً بشكل بشع أن تراه، ومقززاً للنفس، وتبع آخر الإخوة خطاه، وهو وولتر مارشال الذي بقي وحيداً، لأنه مع أنه كـ ـ قد وعد بشكل مؤكـ بقوة، بتقديم مورد مقداره ستة شلنات إلى دير القديسة مريم العائد إلى رهبان هارتفورد Hertford، وأعطى وعداً مكتوباً حول الموضوع نفسه، بسبب أن أخاه الايرل غيلبرت

قد توفي هناك، وماتزال أمعاؤه مدفونة هناك، قد نسي عهده ووعده، الذي عمله من أجل انقاذ أخيه، وبعدما تسبب بكثير من الازعاجات لرئيس رهبان الدير المذكور، برهن على نفسه بأنه مخادع ظاهر ومكشوف وعدواني.

كيف زحف الإمبراطور فردريك ضد الميلانيين

وكان البابا في هذه الآونة قد أقنع نبلاء ألمانيا، الذين إليهم يعود حق الانتخاب، ليقوموا بانتخاب امبراطور جديد عليهم، ووافق المقدم بينهم، وهو كونراد، رئيس أساقفة ثورنجيا، في التركيز على اللاندغريف أوف ثورنجيا، الذي رفض على كل حال، الاستجابة، أو القبول بمثل هذا العمل من التهور، حيث أنه كان راضياً بدوقيته، وفضّل أن يتمتع بالسلام والأمان، على أن يثق بالمخاطرات والمغامرات، واحتمالات الحرب، خاصة ضد الامبراطور فردريك، الذي غالباً ماجرب قدراته، والذي وجده مثل ثعلب مليئاً بالمكر، وقام البابا، على كل حال بتشجيعه، وحثه، ووعده بالحماية، وبحماية الكنيسة العالمية، وأرسل الميلانيون أيضاً، والايطاليون المتحالفون معهم، رسلهم الخاصين، وتوجهوا بالدعاء إلى حكمته الرزينة، ووعدوه بمساعدتهم الفعالة والمشورة في كل شيء، إذا ما وافق على هذا الانتخاب ليكون في مكان فردريك المذكور، الذي هو رجل مرتد، ومحروم كنسياً، ومخلوع، وواحد ممقوت من الرب ومن الكنيسة.

وعندما سمع الامبراطور فردريك بهذه الاجراءات، صرّ بأسنانه غضباً، وحزن لأنه رأى أعداءه يرفعون رؤوسهم معاداة له، ويكدسون الإهانة فوق الإهانة، والتهديد فوق التهديد ضده، وأملاً منه بأن يقوم بالانتقام كلياً، قام بتعبئة قواته، ولأنه كان عارفاً بتحركات أعدائه من قبل، قام بمكر بوضع كمين خلف عدوه، تحت قيادة ابنه هنري، ملك سردينيا، واستدرج الميلانيين إلى القتال، عندما كانوا على شك الانقضاض بطريقتهم المعتادة، وحمل الميلانيون متقدمين على شكل حشود غير عارفين بوجود الكمين،

واندفعوا غير هيابين، وبجرأة نحو الامبراطور فردريك، وتمركز ملك سردينيا بين الميلانيين وبين مدينتهم، وقاتلهم بحد السيف، حيث اقترف بينهم مذبحة كبيرة ومؤلمة، وعندما نظر سكان ميلانو نحو الخلف، وشاهدوا طرق التراجع مقطوعة، والمنافذ إلى مدينتهم مغلقة، أصيبوا باليأس، وسقط عدد منهم قتلى، حيث أنهم تركوا —على كل حال— نصراً دموياً إلى الامبراطور، وسقط من على الطرفين عدد لايحصى، ولدى سماع الناس بما حدث، بكوا بحزن عميق مثل هذا العدد الكبير من المسيحيين.

مقتل رئيس شمامسة يورك في ردهة الكنيسة

وأثار في هذه الآونة واحد من كهنة يورك بالإهانة والملامة، غضب واحد من الفرسان فأقدم على قتله في ردهة الكنيسة، ولم يكن الفارس من أصل متواضع، وقد اعتقل وألقى به في السجن، حيث انتظر انزال العقوبة لجريمته.

سوء معاملة الفرنسيين للبواتيين

وأثناء هذا الوقت كله، أصبح البواتيون التعساء، الذي لايستحقون الرحمة، لأن الخيانة مغروسة فيهم، ممقوتين في أعين الفرنسيين، إلى حد أنهم لم يتجرأوا، لابل لم يسمح لهم بإعطاء بناتهم بالزواج من دون إذن الفرنسيين، وبما أن السيادة عليهم كانت الآن بأيدي قوم يكرهونهم، سقطوا في أدنى الأوضاع وأسوأها، وعن استحقاق قطفوا ثمار طرائقهم، تحت نير العبودية المضاعف للمصريين، وقد أسفوا الآن لتسلمهم خيانياً تلك المبالغ الضخمة من الملكين، ولأنهم خدعوا وطردوا من أراضي سيدهم الطبيعي، الذي لأنه وجد اخلاصاً في أناس غير مخلصين، الذين في عطشهم للربح، سقطوا في المصيدة، أما قلاعهم التي كان من المفترض تدميرها بناء على إرادة أعدائهم، سمح لها مع صعوبات بالبقاء، بعد دفع مبلغ كبير، على شكل مال فدية، وجرى وضع حاميات فرنسية فيهن، لأنه:

سوف يبقى عبداً أبداً

الذي عقله للغنى يظل تواقاً

الإمتياز الذي حصل عليه أسقف لنكولن من البابا

وفي هذه الآونة، مع اقتراب الشتاء، كان روبرت أسقف لنكولن، مثل اسماعيل لايعرف الراحة، معارضاً لكثيرين، وهو نفسه معارضاً من قبل كثيرين جداً، فبعد كثير من النفقات والاضطراب، حصل على طلبه ضد الكهنة، حسبما ورد ذكر ذلك، في الرسالة التالية من البابا، الذي كافأه ببعض الهدايا الثمينة:

«**من أنوسنت، إلخ، إلى أخيه المحترم أسقف لنكولن، صحة ومباركات رسولية**: بين أشياء كثيرة غالباً ما تهاجم عقلنا —الذي هو غير جدير كما نحن، الذين بقدر من الرب نرأس على إدارة وتدبير الكنيسة العالمية— هذه الظروف التي تضغط علينا أثناء تأملاتنا المتوالية، وهي أن الكنائس التي هي مضطربة بالخلافات، ينبغي أن لاتنهار تحت النفقات التي جنتها منهن، وأن نهاية موائمة ينبغي أن توضع لذلك، وذلك وفقاً لجهود الفرقاء، تكون دائمة، ومن ذلك مسألة الخلاف الذي نشب بينك أنت شخصياً من جانب وبين عميد وهيئة الكهنوت في لنكولن من الجانب الآخر، وذلك فيما يتعلق بمراتبهم والامتياز العام العائد لهم ولأتباعهم ولبقية الكنائس، وكذلك فيما يتعلق بالزيارات التفتيشية، وتقويم واصلاح الأخلاق، وكذلك بالنسبة للعمداء، والكهنة ورجال الدين في جوقة المنشدين، وكذلك بالنسبة للقساوسة، والوكلاء والخوارنة وكهنوت الكنائس المذكورة، وأيضاً مايتعلق بالاحترام، والطاعة القانونية، التي ينبغي أن تقدم إليك من قبلهم، وأيضاً مايتعلق ببعض المراتب الأخرى، وقضايا عائدة إلى المكتب الأسقفي، وقمنا نحن بعد إرسال بعثات مختلفة إلى الجانب الأول ثم إلى الجانب الآخر، فحصلنا من الكرسي الرسولي أمام القضاة، ونتيجة لإجراءات تمت من قبلهم، على الرغبة بوضع نهاية لتلك القضية، ولقد

إرتأينا أن من المناسب وضعها تحت إشرافنا، وبما أنك قد ظهرت أمامنا مع قسيس الفئة الأخرى، وجرى العرض من قبلك، أنه بموجب منقبة منصبك الأسقفي، متوجب عليك القيام —بحكم الامتياز العام— بزيارات تفتيشية للهيئة الكهنوتية لكنيسة لنكولن، مع جميع الكنائس المرتبطة بها، مع التقدير لمراتبهم ولامتيازاتهم العامة، وعليك تأدية هذه الواجبات العائدة إلى مكتب الزيارات التفتيشية، وفقاً لصيغة القانون، وبما أن الهيئة الكهنوتية وكذلك الكنائس هم بموجب الامتياز العام خاضعين لك، فأنت ملزم بتقويم أخطاء العميد، وكذلك الكهنة جميعاً، ورجال الدين في جوقة المنشدين، وأيضاً القساوسة، والنواب والحجاب، وكهنة الكنائس المتقدمة الذكر، وأن تقوّم أخلاقهم، حتى لايجري طلب دمهم على يديك، وأن تقوم أيضاً بفحص جميع قضايا الأشخاص المتقدم ذكرهم وتقريرها، وذلك عندما ينشب خلاف فيما بينهم أنفسهم، أو ضد أي واحد يتولى معارضة عملك الأسقفي، أو آخرين ضدهم، سواء أكانت القضايا مدنية أو جرمية، عائدة إليك بشكل صحيح وعادي، وعائدة بالوقت نفسه إلى القضاء اللاهوتي، ولقد قام العميد والهيئة الكهنوتية —على عكس ماتقتضيه العدالة— بمعارضتك في هذه القضايا، وهكذا لم يعد بامكانك القيام بحرية، بتنفيذ الواجبات التي يتطلبها منصبك.

وعلاوة على ذلك، قد أضفت، أنه بحكم كونك رئيس كنيسة لنكولن، من المتوجب طلب موافقتك، قبل القيام بانتخاب العميد لكنيسة لنكولن، ومع ذلك فقد أكدوا من جانبهم أنهم يمتلكون الحرية، للقيام بإجراءات انتخاب العميد من دون طلب إذنك، وأنت طلبت اظهار العدالة بالنسبة لك حول هذه المسألة، ولقد قلت أيضاً أنه مع أن العميد لدى تثبيته، وكذلك الكهنة عندما تضفى الكهنوتية عليهم، عليهم بموجب الحق، تأدية قسم قانوني بالطاعة إليك، هم لم يقوموا بهذا الاحترام المتوجب، ولم يزعجوا أنفسهم حتى الآن للقيام بذلك، وعلاوة على ذلك لقد ادعيت، أنه

بموجب قانون الأسقفية، فإن عائـدية العمادة، ومراتب الأوقاف الشاغرة، راجعـة إليك بموجـب الحق، ومع ذلك فإن العميد المتقـدم ذكـره، والهيئة الكهنوتيـة، قامـوا معارضـة منهم للعـدالة، بمعارضتك في هذه القضـايا، وبناء عليه طـالبت بايضاح حقـوقك في المسائل المتقـدم ذكرها، وأن يجري تقـويـم ذلك بمـوجب قـرار محدد، وأن يجري قبـولـك لمنصب الزيارات التفتيشية في الهيئة الكهنوتية في لنكولن، وفي الكنائس المرتبطة بها، مع تقدير للمـراتب وللحقوق العـامة، وأن يسمـح لك باصلاح الأخطاء، وتقـويم أخـلاق جميـع الفئات المتقـدم ذكـرها، دون الاهتمام بمعـارضــة العميـد والكهنة، وأن يجري التفوه بقـرار حول هذه القضـايا، وأن يفرض الصمت عليهم إلى الأبد، مالم يكـن بإمكانهم بموجب امتياز مـن الكرسي الرسولي، أو بموجب حق خاص الدفاع عن أنفسهم ضد الاعتراض المتقدم ذكره.

وقـد سألت أيضـاً بأن يدفع لك قـدر كـاف من المال، يجري منحـه لك بموجب الزيارة التفتيشية للهيئة الكهنوتية، وكذلك النفقات التي تتحملها في هذه الزيارات ينبغي أن تسدد إليك، وأنه كلما قدمت إلى كنيسة لنكولن، عليهم قرع أجراس الكنائس لك، وأن يظهروا الاحترام لك، بحكم كونك أبيهم، وكذلك لاينبغي من الآن فصاعداً للعميد أن يرغم أي كاهن على أن يقسم يمين الطاعــة الكهنوتيـة له، مــالم تكن المكانة الأسقفيــة وسلطاتها متوقعـة، وأن لايرغم أي كاهن أن يقسم على مراعـاة أي من العادات التي هي مناقضــة للمـراسيم الكهنوتيـة، وأن لايجوز له من الآن فصـاعـداً، أن يصدر في تلك الهيئة، أيـة مراسيم يمكن أن تكون متعارضـة مع الأحكام، وضد السلطات الأسقفية ومرتبتها.

ولقد طالبت أيضـاً أنه بالنسبة للزيارات التفتيشيـة للأوقاف وللكنائس —مع التقدير لمراتبهم ولحقوقهم العامة— هي عائدة بموجب الحق إليك، وينبغي إرغـام العميـد بمـوجب قـرار، على الاقـلاع عن القيـام بزيارات تفتيشية لهم، ولقـد فند القسيس مع الآخرين من الفئـة —على كل حال—